الإمارات العربية فى بلاد الشام

فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين

تأليف
دكتور محمد محمد مرسى الشيخ
استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٨٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الاسكندرية

الامارات العربية في بلاد الشام

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين

تأليف

دكتور محمد محمد مرسى الشيخ

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٨٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمارات العربية فى بلاد الشام

فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين

بنو مرادس فى حلب	١٠٢٤ — ١٠٧٩م
بنو عمار فى طرابلس	١٠٧٠ — ١١٠٩م
بنو منقذ فى شيزر	١٠٨١ — ١١٥٧م

مقدمة

يهتم مؤرخو الحروب الصليبية المحدثون اهتماما متفاوتا بالأسباب والعلل التي تكمن وراء السهولة التي اخترق بها الصليبيون بلاد الشام وفلسطين في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) في طريقهم إلى بيت المقدس ، ثم فرض وجودهم واستقرارهم في أطراف العراق وبلاد الشام والأراضي المقدسة المسيحيه.

وليس هناك شك في أنه لايخفى على المحايدين والمدققين من أولئك المؤرخين أن ذلك لم يكن راجعا لقوة الصليبيين بقدر ما كان دليلا على ضعف الجانب الإسلامي واضمحلاله، وإن النجاح الذي أحرزه الصليبيون في الشرق في ذلك الوقت أسهم المسلمون أنفسهم في صنعه أكثر مما صنعه الصليبيون ، إذ لم يصادف الصليبيون في زحفهم نحو بيت المقدس مقاومة فعاله تردعهم أوجبهة إسلامية قوية تكبح جماحهم وتنهي مخططاتهم ومشروعاتهم في الشرق . ولهذا قدر لهم أن يحققوا أهدافهم في الاستيلاء على الأراضي المقدسة بل ويفرضوا وجودهم واستقرارهم في أطراف العراق وبلاد الشام وفلسطين قبل أن يفيق المسلمون من هول الصدمة ويتنبهوا إلى مغبة تقصيرهم وضعفهم.

ولم يكن ضعف الجبهة الإسلامية في ذلك الوقت وليد الساعة أو حدثا وقتيا ألم بالمسلمين حينئذ، بل أنه كان نتاج سنوات طويلة وحصاد أحداث جمة. منذ أن ضعفت الخلافتين الإسلاميتين في بغداد والقاهرة وانتابتهما حالة

مزرية من الاضمحلال أدت إلي انسلاخ في أملاكها وإلي قيام لون من الانعزالية والطائفية وظهور نزعة انفصالية بين قطاعات مختلفة من الرعايا في أطراف العراق وفى بلاد الشام .

ولقد أدت هذه الأوضاع القلقة إلي بروز إمارات مستقلة فى المنطقة بدت صغيرة في مساحتها وضئيلة في إمكاناتها البشرية والمـــادية ،متباعدة فى اتجاهاتها ومتشابهة في عزوفها عن كافة القوى الإسلامية الأخرى ، حريصة على فرض استقلالها وتكريس انفصالها بالوسائل المختلفـة ، سواء سمت تلك الوسائل إلي خوض الحرب وشن القتال أو انحدرت تلك الوسائل إلى دفع الجزية وتقديم رسوم التبعية .

وعلى الرغم من بروز كثير من الإرامات المستقلة في منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة ومنها إمارات عربية وتركمانية وكردية وسلجوقية نهضت في أطراف العراق والأناضول وبلاد الشام وفلسطين مما يؤكد أن روح العصر ذاته بكل ما عراه من فوضى في الشئون السياسية والدينية ، قد غلبت على المسلمين وفرقت جهودهم وأضاعت وحدتهم، وسط خضم من الأهواء الذاتية والمطامع الفردية، على الرغم من كل ذلك فإن ثمة أشياء جذبتنى إلى الإمارات العربية فى هذا الموكب الانفصالى،وأملت على دراستها وإلقاء الضوء عليها لأتمكن من إبراز معالم الجبهة الاسلامية زمن الحروب الصليبية واقف على خباياها ، وأرقب فى نفس الوقت أحـــداث تلك الحروب ، لا كعابر مع الجيوش الصليبية أقف وقفات متقطعة لاتناول الجانب الإسلامى بالدراسة،ولكن كواقف على أرض الجبهة الإسلامية ذاتها ،ينكشف أمامى أفق

الأحداث وتتضح العلل والأسباب ويظهر مكنون الحقائق بالنسبة لأوضاع المسلمين حينئذ، وما أصابهم من ضعف وما شهدته المنطقـــة من فوضى واضمحلال.

وليس من شك فى أن اختيار الإمارات العربية بالذات فى هذا الموضوع قد أعطانى فرصة دراسة الحروب الصليبية من زاوية أخرى تتمثل فى موقف تلك الوحدات الإسلامية الصغيرة من الزحف والاستقرار الصليبى ، أى من زاوية العلاقات بين الجانبين خلال مرحلة هامـــة من تاريخ تلك الحروب ، كما مكننى أيضا من بسط طبيعة علاقات تلك الوحدات الإسلامية بالقوى الأخرى الأكبر فى المنطقة كالإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية ودولة السلاجقة وهى القوى التى كانت تهيمن حينئذ على أقدار المنطقة بأسرها.

أما الامارات الثلاث موضوع البحث فهى إمارة بنى مرداس فى حلب، وإمارة بنى عمار فى طرابلس، وإمارة بنى منقذ فى شـــيزر ، والأولى عاشت الفترة القلقة إبان القرن الحادى عشر إلى ماقبيل الحروب الصليبية بقليل، لكنها تصدت لآفاقات بيزنطة المتقطعة على امتـداد ذلك القرن كما تصدت لمحاولات الخلافة الفاطمية والسلاجقة فى بلاد الشام، وأما الأخرتان فقد عاشتا أحداث الحروب الصليبية ذاتها كما ناضلتا أيضا القوى الأخرى : فاطمية وسلجوقيـة وبيزنطية .

وعلى الرغم من أن تلك الإمارات لم تتعاصر تعاصراً كاملا، أو تبرز إلى الوجود فى وقت واحد، بل عاشت على مدى نحو قرن ونصف من الزمان، إلا أنها مع ، ذلك لم تفقد صفة التعاصر كلية . فقد نهضت إمارة بنى عمـــار فى طرابلس سنة ١٠٧٠م قبل أن تفقد إمارة بنى مرداس استقلالها بنحو عشر سنوات ،

كما قامت إمارة بنى منقـذ فى شيزر سنة ١٠٨١م بعـد نحو عشر سنوات أيضا من قيام إمارة بنى عمار ، وظلت تعاصر إمارة بنى عمار نحو ثلاثين عاما بل وتمضى بعدها نصف قرن آخر من الزمان . وعلى هذا يمـكن القول أن الإمارات الثلاث تعاصرت تعاصرا جزئيا . بل إن الدارس للأحداث يستطيع فى يسر وسهولة التأكد من أنها تشابهت كثيرا فى حجمها وإمكاناتها وطريقة حكمها وعلاقاتها بغيرها وتقاربت عهودها وتناظرت سياساتها وطريقة حفاظها على أمنها واستقلالها ودفع الأخطار عنها ، لأن اللاحق منها احتـذى حذو السابق وقام عـلى غراره . إذن لم تكن عهود تلك الإمارات تجارب منفصـلة لمن قاموا بها ، أو مغامرات خاصة لاولئك الذين أسسوها ، لأنها لم تكن وليدة مصادفات خاصة فى تاريخ بلاد الشام فى ذلك الوقت .

هذا وقد قسمت الموضوع إلى خمسة فصول خصصت الأول منها لدراسه أنساب الإمارات الثلاث وأصولها القديمة ودراســة طبوغرافية شمال الشام ومراكز الإمارات وتوابعها ، وتناولت فى الفصول الثلاثة التالية الإمارات الثلاث ، يخص كل منها بإمارة بذاتها لدراسة أوضاعها الداخلية وتعاقب الأمراء عليها وسياستها الخارجية وعلاقاتها بغيرها من القوى . أما الفصـل الخـامس والأخير فقد خصصته لدراسة المظاهر الحضارية فى الامارات الثـلاث كنظم الحكم ونواحى الخدمات والنواحى العمرانية والمنشـآت والاهتمام بالآداب والفنون والشئون الدينية والرعايا فى الإمارات .

وبرغم مابذلته من جهد فى هذا الموضوع إلا أننى لا أستطيع الزعم بأنه جاء عملا كاملا يسمو عن الهنات ويجـل عن الهفوات ، ولـكن حسبى أننى لم أدخر وسعا فى بذل الجهد وصرف الطاقة لأعرض هذا الموضوع دراسة

جديدة تقدم لأول مرة ، إذ ليس بين أيدينا مؤلف يتناول هذه الامارات ويلقى الضوء عليها ويفصل علاقاتها بالقوى الأخرى البيزنطية والصليبية والإسلامية ويبرز المظاهر الحضارية والنواحى العلمية والفكرية والمذهبية فى تاريخها .

ولقد حاولت جهدى الالتزام بالدقة والأمانة والحيدة ما وسعنى الجهد ، وانصرفت إلى دراسة هذه الإمارات من بطون المصادر الأصلية المعاصرة سواء كانت مطبوعة أو مخطوطة، مع مراعاة وجهة النظر الأخرى فى تناول ما يتعلق بالجانب الصليبى ، كما أن التعرض لدراسة العلاقات مع بيزنطة قد أدخلنى إلى حيز المصادر والمراجع البيزنطية على امتداد فترة طويلة شملت جانبا من عهد الأسرتين البيزنطيتين : المقدونية والكومنينية ، ثم أن اهتمامى بالشئون الحضارية فى الفصل الأخير قد عرّج بى على المصادر الأدبية المعاصرة والكتب المتخصصة فى تلك النواحى ، هذا فضلا عن أن الكتابة عن الأنساب والطبوغرافيا فى الفصل الأول قد ألزمنى بالرجوع إلى المصادر المتخصصة فى الأنساب العربية وأصول القبائل النازحة إلى بلاد الشام وكذلك الكتب الجغرافية ، وكتب الرحالة لاسيما المعاصرين منهم لتلك المرحلة ، مع قراءة كل ما يتصل بالموضوع من بعيد أو قريب من الكتب المحدثة بالعربية والأجنبية، هذا وأرجو الا أكون قد تعثرت فى شيء أو جانبنى الصواب فى شيء آخر ، أو أكون قد أهملت — عن قصد — شيئا كان بوسعى تناوله أو يتصل بهذه الدراسة ، أو غضضت الطرف عن مصادر تتصل بجانب أو أكثر من هذا الموضوع .

وفى النهاية لا يسعنى إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان والعرفان بالجميل لأستاذى الأجل الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

فقد كان هذا الكتاب فى أصله رسالة تقدمت بها للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة تحت إشراف سيادته لقيت خلال إعدادها من سيادته كل رعاية وعناية وحسن توجيه ، فإلى سيادته أقدم شكرى وتقديرى وعظيم امتنانى .

والله ولى التوفيق ؟

محمد محمد مرسي الشيخ

الإسكندرية فى سبتمبر سنة ١٩٨٠م

شوال سنة ١٤٠٠هـ

(١) أنساب الإمارات العربية

يعتبر قيام الإمارات العربية المستقلة فى بلاد الشام فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (١١ ، ١٢ م) أمراً هاما ، وحدثاً فريدا يجذب الانتباه فعلا ، لا لأن تلك الإمارات تنتسب لقبائل عربية بدوية معروفة ، ولكن لأن بروز هذا النوع من الدويلات المستقلة يعد أمراً جديداً فى تاريخ المنطقة التى خضعت منذ الفتح العربى الإسلامى لحكومة مركزية واحدة ، باستثناء فترة العهد الحمدانى وبعض فترات الفوضى والاضطراب .

وسيكون للظروف التى تمخضت عن قيام مثل هذه الإمارات نصيب وافر فى هذا البحث دون شك ، ولكن مايهمنى الآن هو معالجة التطور الذى طرأ على الوضع القبلى ببطونه وأفخاذه وعشائره ، مما أدى إلى مشاركة هذه الواحدات - بمرور الوقت - فى الجوانب السياسية والحضارية مشاركة مطردة متزايدة ، أدت إلى إقامته نظما ثابتة للحكم ، كانت من قبل أبعد ماتكون عن مركز تفكيره ومجال مخططاته

على أنه يجب أن نرد هذه الإمارات الى أصولها القبلية والى مضاربها القديمة ولو أضطررنا الى العودة إلي الوراء كثيرا ، فى محاولة لتتبع جذور هذه القبائل ، وتلمس تاريخها القديم عبر قرون طويلة قبل قيامها بدورها الجديد فى بلاد الشام فى العصور الوسطى .

فمن الثابت أن الإمارات الثلاث موضوع هذا الحديث يرجع نسبها إلى قبائل كبيرة مرحت فى جوف الجزيرة العربية ردحا من الزمن ، وقامت

بنشاط جم فيها، قبل أن تنتقل إلى بلاد الشام لتلعب دورها المثير هناك ، وتؤسس تلك الدويلات المستقلة، على الرغم من أن انتقالها إلى مسرحها الجديد لم يحدث فى وقت واحد ، ولم يقع دفعة واحدة ، بل حدث على مراحل زمنية امتدت أحيانا لتستغرق قـــرونا طويلة .

وليس من السهل تحديد زمن معين لوصول القبـائل والبطون العربية إلى مسرحها الجديد ، لأن دخول البدو إلى الشـام كان ظاهرة مستمرة وعادية حتى قبل ظهور الإسلام ، كما أن الصلات بين بلاد الشـام ووسط وجنوب الجزيرة العربية صلات قديمة بطبيعة الحال (١) وإذا كان الفتح الاسلامى الذى حدث فى القرن الـسابع الميلادى يبدو كما لو كان حدثا فريدا فى اتساعه، فهو فى الحقيقة يعد حركة طبيعية للقبائل العربية التى كانت تتجه دائما لا إلى الأقاليم الحضارية فحسب ، بل إلى الاقامة فيها أيضا (٢) .

هذا الى أن بادية الشام التى تمتد شمالا حتى نهر الفرات ، تعد بالضرورة جزءا من المجال العربى ، وكان نزول البدو الى الجهات الحضرية يكثر زمن الحصاد ، إذ تنتشر أغنامهم فى الحقول لترعى جذور سيقان الحنطة والشعير ، فضلا عن الاستفادة من المراعى الطبيعية (٣) .

هذا إلى أن كل قبيلة لها مضاربها الصيفية وسط الحضريين أو على مقربة منهم ، ويرتبط شيخ القبيلة بعهد « الأخوة » بشيوخ القرية أو عدة قرى ...

---

(١) Demombynes : Muslim Institutions. P. 15

(٢) ديسو : العرب فى سوريا قبل الاسلام ص ٢ (ترجمة الدواخلى ، مراجعة د. زيادة)

(٣) نفس المرجع ، ص ٤

فالأخيرة هنا هي العرف الذي ينظم العلاقات بين البلد والحضر . وحينما لا توجد وراء الحضري حكومة تحميه، فإن البدوي يقوم بهذه المهمة نظير منحه حرية استعمال الحقول بعد الحصاد ، ودخول المراعي الطبيعية والارتواء من الآبار ومجاري المياه ، وفي بعض الأحيان ، كان يفرض مالا على الحضري زيادة على ذلك . ولاشك في أن هذا العرف هو الذي أتاح لرؤساء البدو أن يمكنوا سلطانهم في البلاد الشامية (١)

وفي ظل هذه الأوضاع ، نستطيع فهم الدور الذي لعبته القبائل النازحة إلى وطنها الجديد ومدى ما كان يربطها من علاقات مع السكان المجاورين ، وكيف تمهد السبيل إلى ازدياد سلطة القبيلة ، فلا غرابة أن تطلع زعماء القبائل إلى إقامة إمارات ونظم للحكم ثابتة ، تسندها وتؤيدها قاعدة عريضة من أفراد تلك القبائل والبطون ورغبة أكيدة في إرساء قواعد التغيير الجديد في العالم القبلي العربي .

لكن كيف حدث ذلك لقبائل خشنة، حملت معها إلى وطنها الجديد سمات عالم قبلي جامد، وطابع مجتمع بدائي متعجرف، لعل أبرز صفاته العصبية القبلية والحروب الطاحنة بين ما عرف بالقيسية والكلبية أو المضرية واليمنية، شقي العرب الكبيرين، وهي الحروب التي فرقت العرب ردحا طويلا من الزمن. وامتصت جانبا هاما من نشاطهم قبل الإسلام وبعده ، وخاصة أن تلك القبائل النازحة إلى بلاد الشام كانت تنتسب إلى كلا العصبيتين الكبيرتين ، وتحمل معها أبرز سمات المجتمع القديم ؟ فهل حدث وئام بين العصبيتين النازحتين ، وحل تفاهم بينهما أعطى كلا منهما حرية العمل في المنطقة ، لإرساء قواعد حكم ثابت ، وتأسيس إمارة

---

(١) ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ص ٤

جديدة ؟ أم أن ظروفا أخرى أملت عليهم نسيان الماضى بكل مافيه من تجارب ونبذ الأساليب القديمة وسمات العهود البائدة ، وفتح صفحة جديدة فى العلاقات بين الشقين الكبيرين ؟ هذا ما سوف نكشف عنه بعد قليل .

ذلك أن معظم النسابين والكتاب القدامى اتفقوا على رد الأمة العربية فى مجموعها إلى رجلين ، قالوا بانحدار جماعتين كبيرتين منهما كانتا أصل الأجرام العربية الكبيرة التى عمرت الجزيرة العربية جنوبها وشمالها ، وانسابت إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر فى أزمنة متفاوتة أحيانا ، متداخلة أحيانا أخرى .

وأقدم الرجلين دون شك هو قحطان ، الذى قالوا أن نسله غزوا بلاد العرب الجنوبية قبل الميلاد بعدة قرون ، وأخضعوا لحكمهم الجنس الذى يسكن تلك البقعة ، ومن ثم جرت العادة على تسمية القحطانيين باسم اليمنيين ، نسبة إلى أكثر أقاليم جنوب شبه الجزيرة رخاء [١] .

أما الشعب الآخر ، فينتسب إلى عدنان ، أحد حفدة إسماعيل ، الذى يروون أنه سكن منطقة الحجاز الممتدة من فلسطين حتى اليمن ، والتى توجد بها مكة والمدينة فضلا عن نجد [٢] ، وسمى هذا الشعب بمعد أو نزار أو مضر أو قيس ... فقيس من ولد مضر ، ومضر من ولد نزار ، ونزار من ولد معد [٣] . وهكذا اكتسب الشعبان بمرور الوقت اتجاهات خاصة وعرف

---

(١) ر. دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ، ج ١ ص ٧٦ (ترجمة د. حسن حبشى)

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٣٠٠

(٣) دوزى : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٧٦ – ٧٧

Kay : Notes on The Hist. of The Banu Okayl
P. 491–2 (J. R. A. S. May 1896)

كل منها بأسماء متعددة ، إن اختلفت فى لفظها ، فإنها لم تختلف فى جوهرها أو مدلولها ؛ فعرف القحطانيون باليمنيين والكلبيين ، وعرف العدنانيون بالقيسيين والمعديين والمضريين(١) ، وارتبطت معظم التسميات بفروع هذين الشعبين الكبيرين أو أقسامها الكبيرة للتعبير عن الأصل ذاته . وكانت أخبار هذين الشقين تطغى على ماعداها خاصة فى أوقات المحن والحروب القبلية التي كانت تستشرى بينهما بين الحين والحين ، خاصة بعد ظهور الإسلام واضطرارهما للاحتكاك المستمر ، مما كان ينجم عنه تضارب المصالح وقيام الحروب المروعة(٢) .

وممن اهتم بأخبار النزاع بين العصبيتين القيسية والكلبية ، المستشرق الهولندى ذائع الصيت «دوزى» الذى تناول فى كتابه «تاريخ مسلمى أسبانيا» أصول هذا النزاع وتتبعه فى الجزيرة العربية ، وسار فى أثره إلى شمال إفريقية والأندلس . فعلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت القيسية تتنقل فى شمال جزيرة العرب ووسطها ، وعلى شاطىء البحر الأحمر ، وعلى تخوم العراق ، وجاءت الفتوح الإسلامية فأسهم القيسيون فيها إسهاما فعالا ، واستقر معظمهم فى الشمال على أطراف بلاد الشام وأطراف بلاد الرافدين ، وكان منهم معظم سكان المدينتين العراقيتين : الكوفة والبصرة .

أما العصبية الأخرى الكلبية أو عرب قحطان ، فعلى الرغم من طول المدة التى انقضت منذ خروجهم من اليمن ، إلا أنهم عرفوا باليمنية ، وكان

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ ١ ص ٢٩٢

(٢) دوزى : نفس المرجع جـ١ ص ٨٨

اشتراكهم في الفتوحات الأسلامية اشتراكا ثانويا ، ولهـذا احتفظ الإسلام للقيسيـة ـ دونهم ـ بمركز ممتـاز فى أول الأمر ، ممـا أدى إلى إثـارة روح البغضاء بين العصبيتين واندلاع الحروب بينهما ، هذا فضلا عن مسئولية خلفاء بنى أمية فى إذكاء الحقـد والضغينة بينهما لأغـراض شخصية بحتة أو بسبب انتساب بعض الخلفـــاء منهم إلى الكلبيين من ناحية الأم ، مما كان يؤثر فى روح الأعتدال ويميل بميزان الحيدة ، وبالتالي تندلع الحرب بين العصبيتين [١] .

ولا يعنينا تتبع تفاصيـل تلك الفتن ، فهذا موضوع يخـرج عن نطـاق بحثنا دون شك ، ولكن يكفى القول بأن الوفاق بينهما كان نـادرا ، بل إن كثيرا من البطون العربية خاصة من القيسية ، فضلت ترك مسرح الأحداث فى المشرق ولجـأت إلى الإنخراط فى الجندية فى المغرب ، فعبرت إلى الأندلس حاملة معها ذكريات أليمة لحـروب مروعة لعـل أبعدها أثرا كان موقعـة « مرج راهط » سنة ٦٤ هـ ، التى هزم فيها القيسية أمام الكلبية هـزيمة ساحقة ظلت ذكراها ماثلة فى الأذهـان فترة طويلة [٢] .

وفى بلاد الشام التى عدت مرتعا خصباً للقبائل العربية النازحة ، سواء كان نزوحها قديما أو حـديثا ، بقى التوتر بين العصبيتين فترة بعد ذلك ، على

= ابن الأثير : الـكامل ، جـ٣ ص ٣٢٨ (سنة ٦٤هـ)

(١) دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ـ جـ١ ، ص ٨٠ ـ ٨١

ابن الأثير : الـكامل ـ جـ٣ ص ٣١٧ ،

Demombynes : op. cit. 22 — 3

(٢) دوزى : نفس المرجع ، جـ١ ، ص ٨٨

الرغم من أن حدته أخذت تخف تدريجيا وتخبو ناره شيئا فشيئا ، ولم تأخذ الحروب بينهما تلك الصورة القديمة المروعة ، وأن اقتصرت على الإغارات المتبادلة والحروب المحدودة التى حدثت بعد اتساع نطاق الدولة الإسلامية شرقا وغربا ، واضطرار كثير من البطون العربية إلى الانسياب إلى أطرافها وعدم التمركز فى مناطق النزاع الأزلى بين العصبيتين . هذا فضلا عن قيام الدولة العباسية واهتمامها بإثارة الأحقاد القديمة ، ثم قيام دول مستقلة عن تلك الخلافة كان شاغلها يخرج حتما عن نطاق ثارات العرب القديمة ، ونزاع العصبيتين، ويتعدى تلك الأمور التى تحمل فى طياتها معنى القدم . هذا كله بالاضافة إلى أن العصبية الكلبية التى كانت لها اليد الطولى أيام بنى أمية ، ضعفت بعد سقوط الدولة الأموية واضطرت بطون كثيرة تحت ضغط العناصر القيسية إلى التقهقر والأنحسار إلى وسط الشام ، بعد أن أخذت تلك المناطق الشمالية من هذه البلاد للبطون القيسية [١]

على أن الأمر لم يخل من احتكاكات ومصادمات بين العصبيتين ، خاصة بعد تدفق بطون عربية كثيرة على بلاد الشام فى أوائل القرن الرابع الهجرى، بطون قيسية من بنى عامر بن صعصعة ، وبطون كلبية من بنى كلب ابن وبرة . من ذلك ما نسمعه من اندلاع الفتن بين بنى كلاب – أبرز البطون القيسية فى شمال الشام – وبنى كلب القحطانيين ، وذلك على عهد سيف الدولة الحمدانى ، الذى استطاع أن يحسم هذا الخلاف ويكبح جماح بنى كلاب ، الذين تعهدوا بعدم الإغارة على منازل الكلبيين[٢].

---

(١) Lammens : Encyc. Isl. art. "Kalb"

(٢) Mauris Canard : Hist. de la Dynastie des Hamdanides P 599 — 600

كذلك يبدو أن انغماس القيسية ، لاسيما بنى كلاب ، فى أحداث المنطقة بعدئذ وانحيازهم إلى جانب دون الآخر من الأطراف المتنازعة على ملك الشام من بقايا الأخشيديين والحمدانيين ، فضلا عن المغاربين الباحثين عن الاستقلال ، كل ذلك كان له أثر فى شغلهم عن العصبية الأخرى ، وكان له ضلع فى تمهيد الطريق أمام عهد جديد فى العلاقات بين العصبيتين [1] ، وهكذا حتى نلمح فى الفترة التى تعنينا فى أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) قيام تحالف بين العصبيتين وحدوث وفاق بينهما وهو التحالف الذى أسفر عن تغيير خريطة المنطقة ، وساعد على بروز الإمارات العربية المستقلة مما يعد ، أمرا جديدا ومثيرا فعلا فى تاريخ العلاقات بينهما وبالنسبة لحاضر ومستقبل المنطقة بأسرها .

ثم كان أن أدى تقادم العهد بالنسبة للعصبيات القبلية بعد أربعة قرون من الهجرة ، فضلا عن التطور الطبيعى نحو الاستقرار الذى جذب كثيراً من البطون والعشائر ، وكذلك انعدام روح التحاسد وأسبابه بينها : أدى ذلك كله إلى خمود جذوة العصبية وهدوئها كثيراً ، على الرغم من احتفاظ كل فريق بأبرز مكوناته وقيامه بدوره كشعب ينتسب إلى عصبية واحدة ويمثل اتجاها واحدا .

وطبقا لهذا المفهوم ، حل الوفاق والتحالف محل الحروب والفتن ، وأدركت البطون العربية فى بلاد الشام أن مصالحها المشتركة تحتم هذا

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جا ص ١١١–١١٢ ، ص ١١٧–١١٨

Canard : op. cit. PP. 606 — 7, 608 — 9

التقـارب لبلوغ الأغـراض المنشودة ، فنتج عن ذلك تحالف بين بنى كلاب بقيادة صالح بن مرداس ، وهم من القيسيين ، وبين الكلبيين والطـائيين بقيـادة سنان بن عليـان وحسان بن المفـرج ، لاقتسام بـلاد الشـام سنة ٤١٤هـ (١٠٢٣م) [1] كما سيلى ، وهكذا نستطيع القول أن ثمة تغيرات طرأت على العـالم القبلى فى تلك الفترة كان من نتيجتها جنوح معظم القبائل إلى محاولة إقـامة حكم مستقر فى أجزاء من بـلاد الشام ، مع إهمال النزعة العصبية وإحلال روح التفاهم بين عناصره ، مما كان له أثر كبير فى الأحداث التى جرت فى المنطقة بعـدئذ .

وينتسب أصحاب الإمارة الأولى فى بـلاد الشام ـ وهم بنو مرداس ـ إلى بنى كلاب . وبنو كلاب هؤلاء بطن من ربيعة بن عامر بن صعصعه بن معاوية ابن بكر بن هوازن ابن منصور بن خصفة بن قيس . أى أنهم من العرب المضريين [2] قـال ابن خلدون : «منهم بنو الوحيـد بن كعب بن عامـر بن كلاب ، وبنو ربيعـــة المجنون بن عبد الله أبى بكـر بن كلاب .. وبنو عمرو بن كلاب وبنو صالح بن مرداس أمراء حلب» [3]

وكانت منازلهم فى أول الأمر حمى ضربة وحمى الربذة فى جهات المدينة

---

(١) Sobernheim : Encyc. Isl. art. "Halab"

ابن الأثير : الكامل ، ج٧ ، ص ٢٦١

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر — ج١ ص١١٢

Kay : op. cit. P. 526–7

(٣) ابن خلدون العبر ، ج٢ ص ٣١١ :

وفدك والموالى [١] ، أى أنهم كانوا يتجولون فى المنطقة المحيطة بمدينة الرياض فى وسط الجزيرة العربية ، وأهم عمل يسجل لهم هو قيامهم مع قبائل أخرى من عامر بالانتصار الحاسم على تحالف بنى ذبيان وأسد فى موقعة جبلا التى غدت لدى العرب القدامى إحدى أشهر ثلاث معارك فى الجاهلية [٢] .

وقد ظلوا فى مضاربهم الأصلية لم يبرحوها فى القرون الأولى للهجرة وكان يرسل إليهم ولاة من قبل الحكومة فى المدينة أو فى دمشق دون معارضة منهم ، حتى نسمع أن بغا الكبير اضطر فى سنة ٢٣١ هـ (٨٤٦م) إلى القبض على نحو ١٥ من رجالهم بسبب ما أحدثوه من الشغب والإغارات على المناطق المحيطة بهم فى نوبة حنين إلى جاهليتهم وأعمالهم القبلية القديمة [٣] ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى بلاد الشام .

على أن انتقالهم إلى بلاد الشام كان بداية فصل هام فى تاريخهم ، على الرغم من صعوبة تحديد زمن ذلك الانتقال وتعيين وقته بالذات - كما سبقت الاشارة - فابن خلدون يشير إلى ذلك إشارة غامضة لا تعين لنا زمنا محددا إذ يقول : « ... ثم انتقل بنو كلاب إلى الشام ، فكان لهم فى الجزيرة الفراتية صيت وملك ، وملكوا حلب وكثيرا من مدن الشام ، تولى ذلك منهم

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ١ ، ص ١١٢

جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ، جـ٤ ، ص ٣٢٢-٣٢٤

عمر كحالة : معجم القبائل العربية ، جـ٣ ، ص ٩٨٩-٩٩٠

(٢) Krenkow : Encyc. art "Kilab"

(٣) Ibid : Art "Kalb"

بنو صالح بن مرداس ثم ضعفوا ، [١] . . . ثم يعود فى موضع آخر فيقرر أن ذلك حدث فى بداية عهد الدولة الحمدانية ، أى أوائل القرن الرابع الهجرى (١٠ م) حيث نزحوا إلى الشام مع بطون أخرى من بنى عامر بن صعصعة [٢].

وتشير بعض الدلائل إلى أن بنى كلاب شاركوا بقية البطون الأخرى من بنى عامر بن صعصعة فى الرحيل من جوف الجزيرة إلى سهول بلاد الشام فى أوائل حكم الخلافة العباسية. وفى عهد المأمون بصفة خاصة ، تدفقت أعداد وفيرة منهم إلى هناك حيث استقرت فى موطنها الجديد ولعبت دورها إلى جانب بقية الفروع القيسية [٣].

ويذكر المؤرخ ابن العديم أن ثمة رحيل جماعى لبنى كلاب إلى بلاد الشام حدث فى نهاية العهد الإخشيدى وبداية العهد الحمدانى ، بل أنه زاد فحدد السنة ذاتها التي شهدت هذا التحرك الكبير فذكر أنها سنة ٣٢٥هـ (٩٣٧ م). ويبدو أن استعمال محمد بن طغج الإخشيد رجلا من بنى كلاب يدعى أبو العباس أحمد بن سعيد بن العباس الكلابى واليا على حلب ، قد شجع بنى كلاب على النزوح إلى الشمال ، فشدوا الرحال إلى هناك سنة ٣٢٥ هـ فى ولاية هذا الكلابى ، وفى ذلك يقول ابن العديم : « وفى ولاية أبى العباس الكلابى ، وردت بنو كلاب إلى الشام من أرض نجد ، وأغارت على

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٢ ، ص ٣١٢ ــ أبو الفدا : المختصر جـ١ ، ص ١١٢

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٢٥٥

(٣) Kay : op. cit. P. 505

معرة النعمان فخرج إليهم والي المعرة معاذ بن سعيد بجنده ، وتبعهم إلى البر اغيثى فعطفوا عليه وأسروه وأكثر جنده ... فخرج إليهم أبو العباس أحمد بن سعيد الكلابى والي حلب فخلصه منهم وكان ورودهم فى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة»(١).

ويمكن القول أن جانبا من بنى كلاب كان قد رحل فعلا إلى بلاد الشام فى زمن سـابق ، ربما مع حركة الفتوح الإسلامية التى أسهم فيها القيسيون إسهاما فـعالا ، وربما قبل ذلك ، ثم تدفقت أعداد منهم إلى بلاد الشام ببداية عهد الخلافة العباسية وفى عهد الخليفة المأمون بصفة خاصة ، ثم كان تحركهم الكبير فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، كما أشار إلى ذلك كل من ابن خلدون وابن العديم ، حيث كانت مشاركتهم فى أحداث شمال الشام التى أسـفرت عن إقامة إمـارة لهم فى حلب ، وتولى ذلك منهم بنو صالح بن مرداس ، الذين توارثوا تلك الإمارة أكثر من نصف قرن من الزمان كما سيلى .

وأما أصحاب الإمارة الثانية وهم بنو عمـار فى طرابلس ، فعلى الرغم من أنه ليس هناك شبهة فى كونهم من العرب الخلـص يرجعون إلى الأرومة العربية الأصيلة ، وسيثبت ذلك من تناول تاريخهم ومن قرائن أخرى . نقول على الرغم من ذلك ، إلا أنه من الصعوبة بمكان تحديد الأصـل الذى انحدروا منه أو القبيلة التى ينتسبون إليها ، أو حتى التـأكد من أنهم عرب مشارقة أو عرب مغاربة ، كما تدور بعض الشكوك فى ذلك .

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جا ، ص ٩٨-٩٩

ورغم خطورة هذه القضية بالنسبة لتاريخ آل عمار ، إلا أنها لم تلق اهتماما كافيا من الدارسين ، ولم تحظ بأى نصيب من الجهد في هذه الناحية ، وكل ماقدم فى هذا المجال لايعدو رأيا لأحد المؤرخين المحدثين — برغم مافيه من التشكك — مؤداه أن بني عمار هؤلاء ينتسبون إلى أسرة مغربية شيعية انحدرت مع الفاطميين إلى مصر فأتيح لها أن تلعب دوراً بارزاً في مصر ثم في طرابلس ، التي يذكر اسم بنى عمار مقرونا بها فى أوج عظمتها[١].

وعلى الرغم من وجاهة هذا الرأى واحتمال صحته ، إلا أننا لانركن كثيرا المصادر التي استقى منها هذا المؤرخ المحدث هذه الأخبار، ولا نرتاح كثيراً المراجع التي اعتمد عليها في تكوين هذه القضية، بسبب ضآلتها من ناحية وتأخرها من ناحية أخرى[٢] فضلا عن أنه لم يعين لنا مؤرخاً معاصراً يحتمل أنه كان مصدر هذه الأخبار وكاتبها لنحكم على مدى صدقه وأصالته وقربه — أو بعده — من الأحداث . ومع هذا ، فإن أمامنا نتفا من الأخبار المتفرقة عن بنى عمار ، لابد وأنها كانت أصل هذه القضية ومحورها .

من ذلك ماورد فى تاريخ ابن ميسر من ذكر القاضي يدعى الحسن ابن عمار كان أحد رجالات الدولة فى عهد الحاكم بأمر الله ، وكان أحد رجلين خاطبهما العزيز بالله وهو على فراش الموت في أمر البيعة لولده الحاكم

---

(١) Sobernheim : Encyc. Isl. art "Ibn Ammar"

(٢) أشار Sobernheim فى مقالته الي كتاب النويرى « نهاية الارب » كمصدر أساسى لهذه الأخبار .

قبل أن يسلم الروح سنة ٣٨٦هـ(١) ثم حين تخلف جماعة من شيوخ كتامة عن الحضور لمبايعة الحاكم ، خرج إليهم هذ القاضي المغربى فحضروا بعد امتناع وشكوا من عيسى بن نسطورس وسألوا صرفه وأن تكون الوساطة لرجل من المغاربة ، فندب لذلك الحسن بن عمار . . . فقر الأمر بينهم وبين الخليفة.(٢) وواضح أن الحسن بن عمار هذا كان رجلا مغربيا رضيت بوساطته جماعة المغاربة ، ويؤكد ذلك المؤرخ ابن القلانسى ، حين يصفه بأنه كان شيخ كتامة(٣).

ولعب ابن عمار هذا دورا هاما فى الأحداث بعدئذ ، حتى أصبح محل ثقة الخليفة ، فقال له الحاكم : «أنت أمينى على دولتى ورجالى»(٤) ، إلا أنه استبد بشئون الحكم وأكثر من المظالم ، وقدم الأحداث من المغاربة وأخر الشيوخ فوقعت فتن بسبب ذلك ركبوا فيها للحرب غير مرة»(٥) وانتهى الأمر بالهجوم على ابن عمار «ونهبت دوره واسطبلاته وآل الأمر إلى انفراده فى داره بمصر» وانتهى أمر هذا المغربى إلى النسيان «وكانت مدة نظره أحد عشر شهرا غير خمسة أيام ».

وتنقضى فترة أخرى لا نسمع فيها شيئا عن ابن عمار أو أسرة بنى عمار ، حتى يرد ذكر لقاضي آخر يدعى ابن عمار أيضاً كان قاضيا على الاسكندرية

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ٢ ص ٥٠ (تحقيق هنرى ماسيه سنة ١٩١٩)

(٢) نفس المرجع ص ٥٣

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٩

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ٢ ص٥٣

(٥) نفس المرجع ص ٥٥

إبان الفتنة التى أثارها نزار بن المستنصر ضد الخلافة وهروبه إلى الإسكندرية ، وبها أفتكين الذى عاونه ، وأخذ له البيعة من أهل البلد وساعده ابن عمار قاضى الإسكندرية ، وأقاموا على ذلك سنة فخرج الأفضل من القاهرة بالعساكر سنة ثمان وثمانون (٤٨٨) فحصر الإسكندرية ،[1] وانتهى الأمر بهزيمة نزار وأسر أفتكين وابن عمار ، وجرى إعدام ابن عمار بعد اعتقاله بفترة ، ويقول أحد المؤرخين القدامى عن ابن عمار هذا أنه : « كان من حسنات الدهر »[2] .

تلك هى الشذرات الباقية من أخبار بنى عمار فى القاهرة والإسكندرية ، وما استطعنا الحصول عليه من معلومات عن هذه الأسرة . فهل هى أسرة واحدة فعلا انحدرت مع الفواطم من المغرب واستقرت فروع منها فى مصر ، وأخرى رحلت إلى الشام وشارك رجالها فى أحداث العصر ، مرتقين سلم الوظائف القضائية ، وخاصة أن ابن عمار مصر كان قاضيا ، وابن عمار الإسكندرية كان قاضيا ، وحاكم طرابلس الشامية كان قاضيا أيضا ؟ فهل هى أسرة واحدة فعلا ؟ وهل هناك علاقة بين تأييد ابن عمار قاضى الإسكندرية لثورة نزار ضد الخلافة وبين استقلال آل عمار بطرابلس بالشام ، وهو حدث يسبق هذه الثورة فعلا ؟ الحقيقة أن هذه القضية لا تزال فى حاجة إلى أقوى أدلة وفى حاجة إلى قرائن أدق ولكنها على كل حال أعطتنا تعليلا لما ذهب إليه المؤرخ المحدث المشار إليه آنفا ، إذا سلمنا أن هذه الأخبار كانت أمامه وهو يكون هذا الرأى ويعالج هذه القضية .

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ١٠ ورقة ٢٤٠ (مخطوط)

(٢) نفس المرجع : ص ٢٤١

ومن ناحية أخرى ، لدينا نتف من الأخبار المتفرقة عن بنى عمار كبطن من البطون العربية الأصيلة فى الشرق ، فيذكر أنهم بطن من الدواسر إحدى قبائل بادية نجد [١] ويذكر أيضا أنهم من أشهر قبائل الزبدية فى بلاد قعطبة بجنوبى شبة جزيرة العرب [٢] ويذكر عنهم أيضا أنهم فرقة من بنى سعيد ، إحدى عشائر سورية الشمالية[٣]، فإن صح ذلك كله ، فلابد وأنهم نزحوا إلى الشام كما فعلت البطون الأخرى واستقروا بها وكانوا أصل هذه الأسرة الحاكمة فى طرابلس ، فلا سبيل إلى التشكك اذن فى عروبتهم ، سواء كانوا عربا شرقيين أو عربا مغاربة ،لأن هؤلاء الأخيرين لم يكن قدمضى على انسيابهم إلى شمال إفريقية وقت طويل ، وفى عودهم إلى الشرق عود إلى أوطانهم وعود إلى ديارهم السالفه . ولا يجب أن يشوب حقيقة عروبتهم قول ابن القلانسى عن ابن عمار أنه كان شيخ كتامة ، فإن كتامة ذاتها معدودة فى رأى الطبرى من قبائل حمير اليمنية النازحة إلى إفريقية ، أى من جملة قبائل العرب كما يقرر القلقشندى [٤] ، على أن المؤرخ ابن ميسر أغفل ما جاء بحديث ابن القلانسى عن ابن عمار ، وعمم هذه الرئاسة ولم يعين جنس زعيمها بقوله عن ابن عمار

---

(١) الألوسى : تاريخ نجد ، ص ٨٩ — عمر كحالة : معجم القبائل العربية جـ ٢ ص ٨٢١

(٢) نعوم شقير : تاريخ سينا ، ص ٦٦٧

عمر كحالة : معجم القبائل العربية ، جـ٢ ، ص ٨٢١

(٣) وصفى زكريا : عشائر الشام ، جـ٢ ، ص ٢١٢

عمر كحالة : معجم القبائل العربية ، جـ٢ ص ٨٢١

(٤) القلقشندى : نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ص ٤٠٥ (تحقيق ابراهيم الابيارى سنة ١٩٥٩) .

المقصود أنه « رجل من المغاربة » كما مر بنا من قبل ، وبهذا القول ميع ما سبقه إليه ابن القلانسي وعممه ولم يخصصه . وهكذا نجد أنفسنا أما أسرة عربية خالصة لاسبيل إلى التشكك في نسبها العربي الأصيل ، وسيتضح فيما بعد أبعاد وحدود هذه الحقيقة بقرائن أخرى وأدلة أدق .

أما أصحاب الإمارة الثالثة في شيزر – وهم بنو منقذ – فيردون في أصلهم إلى كنانة، وكنانة اسم معروف لبطون عربية كبيرة وشهيرة، وعلى الرغم من أن هناك بطون عربية وأفخاذ وقبائل تحمل اسم كنانة وتنتسب إلى كلا الشعبين العظيمين المضرية واليمنية إلا أن ذلك لا يغير كثيرا من طبيعة الأمور، ولا يؤثر في القضية ذاتها ، فالكتاب القدامى والنسابون يوردن اسم كنانة كفرع من العدنانية وكفرع أيضا من القحطانية ، فيقال إن كنانة قبيلة عظيمة من العدنانية ، وهم : بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ويذكرون أن ديارهم كانت بجهات مكة في أول الأمر ، وأن طائفة منهم قدمت إلى مصر إبان القرن السادس الهجري ... وانقسمت كنانة إلى عدة بطون منها : قريش وعبد مناة بن كنانة ، وبنو مالك بن كنانة ، وبنو الليث بن بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، وبنو ضمرة ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وبنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك ابن كنانة .. وكانت أغلب منازلهم بالحجاز وتهامة ووديان بين مكة والمدينة ومن أشهر أيامهم يوم الفجار ، يوم مع بني هوازن ويوم مع بني عامر ابن صعصعة وفروع أخرى من المضرية ولهم وقعات معروفة مع خزاعة (١) .

---

(١) البلاذري : أنساب الأشراف جـ١ ص ٣٧–٣٨ (تحقيق د. محمد حميد الله)
الطبري : تاريخه جـ٢ ص ٢٤ (طبع القاهرة ١٩٣٩–١٣٥٨)

كما ذكر أيضا أن كنانة بطن من تغلب بن وائل من العدنانية (١) ويقول ابن خلدون عنهم أنهم بنو كنانه بن خزيمة بن مدركة بن خندف بن إلياس بن مضر ، ويجعلهم إخوة بنى أسد ، ويقول إن ديارهم بجهات مكة وإن فيهم بطونا كثيرة أشرفها قريش وهم بنو النضر بن كنانة ... ثم بنو عبد مناة بن كنانة وبنو مالك بن كنانة (٢) ... ويبدو أن أخبار قريش بالذات طغت على أخبار الفروع الأخرى من كنانة لأن شرف البحث فى عمود النسب الكريم نسب الرسول صلى الله عليه وسلم قد طغى على أخبار البطون الأخرى.

على أنه من الثابت أن منازل كنانة فى بداية العهد الاسلامى كانت تمتد من تهامة جنوب غرب مكة حتى شمال شرقها فى الأراضى المتاخمة لمنازل بنى هذيل حيث تاخموا إخوتهم بنى أسد بن خزيمة (٣)

ولم تلعب كنانة دورا هاما فى التاريخ باستثناء ماقامت به قريش من الاستحواذ على حكم مكة من قبيلة خزاعة (٤) ، ولم يتضح دور كنانة

= ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٠-١١ (تحقيق عبد السلام هارون)
الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٤ (تحقيق محمد النجدى مصر ١٩٥٣)
القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ ص ٣٥٠-٣٥١ ، نهاية الارب ص ٤٠٨-٤٠٩ (تحقيق الابيارى)

(١) ابن منظور : لسان العرب جـ١٧ ص ٢٤٣ (طبع بولاق سنة ١٣٠٣ هـ)
الزبيدى : تاج العروس جـ٩ ص ٣٢٤ (طبع بيروت)
القلقشندى : نهاية الارب ص ٤٠٨-٤٠٩

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٢ ص ٣٢٠ ، القلقشندى : نهاية الارب ص ٤٠٨-٤٠٩

(٣) Krenkow : Encyc. Isl. art "Kinana"

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ٤ ص ٣٣٦-٣٣٧

بفروعها و بطونها فى بداية العهد الاسلامى، لكن أحد بطونها وهم بنو فراس كانوا من دعائم جيش على بن أبى طالب فى وقعة صفين ، ويأتى ذكر الكنانيين فى حوليات الطبرى فى عام ٢٣٠هـ[١] حينما كانوا لايزالون يعسكرون قرب مكة ، ولكنهم كانوا من الضعف بحيث لا يستطيعون مقاومة إغارات القبائل التى غدت أكثر قوة ، ولم تزل بقاياهم معكسرة فى أراضي حوران وقرب صرخد [٢]

هؤلاء هم بنو كنانة العدنانيون ، وواضح أنهم كانوا يمثلون فرعا كبيرا من العرب المضريين الذين استقروا فى جوف الجزيرة العربية ، والذين ينتسب اليهم عمود النسب الشريف ، نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما بنو كنانة الذين يرد ذكرهم على أنهم بطن من القحطانيين ، فيذكر أنهم بنو كنانة ابن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور ابن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، ويذكر أن بعضهم ورد إلى مصر وكانت مساكنهم بشرقى الدلتا فى القرن التاسع الهجرى [٣] ... ويرد ذكر الكنانية على أنها عشيرة تنزل بمنطقة عجلون من سكان قرية سمر شرق الأردن [٤] ، ويروى ياقوت الحموى

---

(١) الطبرى : تاريخه جـ٧ ص ٣٢٧ (سنة ٢٣٠ هـ)

(٢) Krenkow : Encyc. Isl. art. " Kinana "

(٣) ابن خلدون: العبر جـ٢ ص ٢٤٨ ، الزبيدى : تاج العروس جـ٩ ص ٣٢٤
القلقشندى : نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب ص ٤٠٨-٤٠٩
أحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر : جـ١ ص ٥٠

(٤) بيك : تاريخ شرق الأردن وقبائلها ، ص ٣١٦
عمر كحالة : معجم القبائل العربية جـ٣ ص ٩٩٨

عن أبي عبيد السكوني أن دومة الجندل ، حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء كانت به بنو كنانة بن كلب ،[١] وهذ الروايات الأخيرة تجعل من كنانة فرعا من العرب القحطانيين أي العرب الجنوبيين أي أن هؤلاء الكنانيين يردون إلى العصبية اليمنية ويوضعون ضمن العرب الكلبيين .

فنحن إذن أمام اتجاهين بالنسبة لنسب الكنانيين ، اتجاه يجعلهم عربا شماليين مضريين ، وآخر يجعلهم عربا يمنيين كلبيين .

وليس من شك في أن ذلك يضع الباحث في متاهة من التكهنات بالنسبة لنسب آل منقذ ، الذين يردون إلى هؤلاء الكنانيين ، وخاصة أن الميل إلى هذا الاتجاه أو ذاك تسنده وتؤيده شواهد مختلفة وقرائن متعددة . فالقيسية أو العدنانية كانت دون شك أكثر مشاركة من القحطانية في حركة الفتوح الاسلامية — كما سبقت الاشارة — وكانت بطونها أكثر انتشاراً على مسرح الأحداث وأكثر أثراً في جهات الاستقرار الجديدة خاصة في بلاد الشام ... حقيقة أن الحروب بينهم وبين الكلبيين أدت إلى تفرق الكثير منهم وهربه من سيوف الكلبية أيام بني أمية ، إلا أننا نسمع عن تمركز جانب كبير من القيسيين بقيادة زعيمهم زفر بن الحارث الكلابي شرقي جند قنسرين في قرقيساء التي غدت بالتدريج معسكراً للقيسيين المناهضين للكلبيين (٢)

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ٦٢٦

(٢) دوزي : تاريخ مسلمي أسبانيا جـ١ ص ٩١

ابن الاثير : الكامل ، جـ٢ ص ٣٢٦ (سنة ٦٤ هـ)

وقرقيساء على نهر الفرات عند فم الخابور : Kay : op. cit. P. 503

هذا فضلا عن نشاط بطون أخرى عدنانية منذ أوائل القرن الرابع الهجرى كبنى عقيل وبنى كلاب وبنى نمير وبنى خفاجة ، وكلهم من عامر بن صعصعة فيما بين الجزيرة والشام فى أوائل عهد الدولة الحمدانية كما سبقت الإشارة ، مما يرجح أن إخوتهم بنو كنانة شاركوهم ذلك النشاط ولعبوا نفس الدور (١) ، كل ذلك يسند الميل إلى الجانب الأول . أما فى الناحية الأخرى ، فنجد أن نشاط الكلبيين فى بلاد الشام في الفترة التى تعنينا كان أكثر ظهوراً وأبرز أثراً ، ويتردد ذكر البطون الكلبية فى بلاد الشام فى المراجع المعاصرة كثيراً ، خاصة بنوطىء من كهلان وفروع أخرى من بنى كلب بن وبرة (٢) ، مما يرجح انتساب كنانى شيزر إلى هؤلاء الكلبيين الجنوبيين .

كل هذا يضع الباحث فى حيرة من أمره ، ربما تصرفه عن حسم هذه المسألة ، وتنأى به عن جوهرها ، إذا لم يكن معنيا عناية تامة بإبراز نسب آل منقذ ، مصراً على تتبعه والوصول به إلى نتيجة حاسمة ، ولعل ذلك مما حدا بالكتاب المحدثين إلى الإحجام عن الخوض فى هذا الموضوع وعدم إعطائه أى قدر من الاهتمام ، حتى أولئك الذين كتبوا عن أسامة بن منقذ وآل منقذ بحوثا ضافية ، سواء فى الشرق أو فى الغرب (٣) ... فباستثناء

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص ٢٥٥

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٣ ، ص ٩٦

ابن خلدون : العبر ، جـ٢ ص ٢٤٩

(٣) فيليب حتى: مقدمة كتاب الاعتبار لأسامة (برنستون. الولايات المتحدة ١٩٣٠)

أو أحمد محمد شاكر : مقدمة كتاب لباب الاداب لأسامة (القاهرة سنة ١٩٣٥)

أو Derenbourg : vie d' Ousama. P. 499

أو cl. Huart : Ousama Ibn Mounkid
Journal Asiatique (1890) P. 504

أو Honing nann : Encyc. Isl. art. "Shaizar"

إشارتين سريعتين لكاتبين محدثين ذكرا فيهما انتساب آل منقذ إلى كنانة الكلبيين دون إيضاح لذلك أو ذكر للمصادر التي استقيا منها هذا النسب (١)، لا نجد بين أيدينا من اهتم برد آل منقذ الكنانيين إلى أصولهم الأولى أو حاول في جدية تتبع نسبهم .

وليس بوسعنا الآن أن نترك هذه القضية دون تحديد لا نقطع فيها برأي، خاصة وأن بين أيدينا العديد من الروايات القديمة الموثوق بها والأخبار الصحيحة التي نطمئن إليها . من ذلك ما أورده الهمداني حين قال : « وما وقع في ديار كلب من القرى تدمر وسلمية والعاصمة وحمص . . . وحماة وشيزر وكفر طاب لكنانة من كلب » (٢) ، وما ذكره الهمداني ونقله عنه القلقشندي في نهاية الأرب إذ قال : « وقد ذكر الحمداني أن بشيزر من بلاد حلب قوم من بني كلب وبحلب وبنسرين قوم من بني كلب أيضا (٣) . وقد أيد معظم المؤرخين وكتاب الأنساب هذه الروايات وصدقوا عليها ومنهم ابن خلدون والنويري والقلقشندي (٤)، وهكذا خطت بنا هذه النصوص خطوة أولى حين قررت أن سكان شيزر وما حولها كانوا من كنانة الكلبيين

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ج١ ص ١٦٥
طاهر النعساني : أسامة بن منقذ ص٤ (حماة سنة ١٩٢٩)

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٢٩ — ١٣٢

(٣) القلقشندي : نهاية الأرب ص ٤٠٨

(٤) ابن خلدون : العبر ج٢ ص ٢٤٩ ، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج٢ص ٢٩٥ القلقشندي : صبح الأعشى ج١ ص٣١٦ ،

Lammens : Encyc. Isl. art «Kalb»

وليسوا من كنانة القيسيين . لكن أياً من هـذه النصوص لم ينص صراحة على نسبة منقذ الكنانى إلى هؤلاء الكلبيين المشار اليهم حتى قطع ابن عساكر ــ وهو معاصر لبنى منقذ ــ الشك باليقين ، فنص على انتساب بنى منقذ إلى قضاعة فى ذكره لنسب أبى العساكر سلطان ابن منقذ ، أى أنه رد بنى منقذ إلى كنانة الكلبيين [١] وأكد سبط ابن الجوزى ذلك حين أمدنا بمعلومات عن نسب سديد الملك أبو الحسن على بن منقذ ، فنص صراحة على أنه من عرب قحطان ، أى أنه ينتسب إلى كنانة الكلبيين [٢] ، وأكد ابن خلكان فى ترجمته لأسامة ابن منقذ نسبة منقذ الجد الأول لأسامة للكنانيين من بنى كلب ، وفضلا عن أن ابن خلكان معدود فى ثقاة المؤرخين وكتاب التراجم فإنه أشار إلى اعتماده فى هذه الأخبار الى مصادر متقدمة زمنيا ، فزاد اطمئناننا وثقتنا فيما أورده [٣] .

وهكذا ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن بنى منقذ أصحاب الإمارة الشالثة فى هـذا الموضوع يردون إلى أصل قحطانى ويرجعون إلى عصبية كلبية ، ومن ثم غدا لزاما علينا تناول هؤلاء الكلبيين بالدراسة ما داموا هم الأصل الذى انحدر منه بنو منقذ الكنانيين . وقد كانت منازل هؤلاء الكلبيين فى أول الأمر ــ كما تحدثنا النصوص ــ هى دومة الجندل وتبوك وأطراف بلاد الشام ، ومع أن الشك يكتنف كثيراً من أخبار الكلبيين قبل الإسلام ، إلا

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ٦ ص١٨٧ (دمشق سنة ١٣٤٩ هـ)

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة جـ ١٠ ورقة ١٠٦

(٣) نسب ابن خلكان هذه الأخبار الى أبى البركات بن المستوفى فى تاريخ اربل ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص١٧٥ ، ١٧٨ (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد)

أن البلاذری ذكر أن بطونا من قضاعة استقرت فی بلاد الشام قبل الإسلام واعتنق بعضهم النصرانية حتى دعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم البعض وأقام البعض الآخر على نصرانيته[١]. ومع ظهور الإسلام وبداية عهد الهجرة، غدا بنو كلب أكثر البطون العربية أهمية في بلاد الشام وأكثرها قوة وجاها، ولم ينتصف القرن الأول الهجری حتى أصبح لهم اليـــد الطولى هناك خاصة بعد مصاهرتهم الخليفة الأموی معـــاوية ابن أبی سفيان ، وتردد فی النصوص تخصيص نحو ألف درهم لأشرافهم من ديوان العطاء ، فزاد جاههم وانتشروا بقطعانهم وأماكن إقامتهم على امتداد السماوة وبين العراق وبلاد الشام فنسبت إليهم كثير من الأماكن ، فقيل سماوة بنی كلب ، وصحراء بنی كلب ، وفی قلب الشام تمركز كثير منهم حول سلمية وتدمر وإقليم حمص — كما ربضوا فی وادی نهر العاصی الأدنى وفی غوطة دمشق ، ويبدو أن جانبا من اهتمامهم انصب على السيطرة على طرق القوافل والتجارة عبر هذه البـلاد ، وبذلك يكونون قد ورثوا الغساسنة من العرب القدماء ذائعی الصيت[٢] .

على أن تحركات هؤلاء الكلبيين بعدئذ ارتبطت بمسألة نزاعهم الدائم مع القيسيين ، إذ زاد انتصارهم فی مرج راهط من قبل نفوذهم وسلطانهم ، لكن تحرق القيسيون بعد ذلك للأخذ بالثأر والانتقام ، مما كلف بنی كلب كثيرا ، فقـد نجح القيسيون فی طردهم من أطراف العـراق كلية ، وبسقوط الدولة الأموية لم يستطع بنو كلب الحفاظ على مكاسبهم القـــديمة ، اذ نظـر اليهم

---

(١) البلاذری : فتوح البلدان ، ص١٧٢ (تحقيق المنجد سنة١٩٥٣)

(٢) Lammans : Encyc. Isl. art. «Kalb»
Kay : op. cit. p. 503

العباسيون نظرة شك وريبة بوصفهم دعائم العهد البائد ، ومن ثم بدأ نجمهم يأفل شيئاً فشيئاً ، وأزدادت رغبتهم في الحركة بمرور الوقت ، حتى ليذكر ابن سعيد أن كثيراً من عشائرهم رحلت بعدئذ بعيداً ، فأستقر بعضها على شاطىء القسطنطينية [1] ، وهكذا بدأت موجاتهم تنحسر مندفعة إلى أواسط بلاد الشام بعد أن أخلت المنطقة للبطون القيسية المناهضة ، وغدت بلاد الشام ينتظمها من شمالها إلى جنوبها : بنو كلاب في الشمال ، وهم من البطون القيسية ، ثم بقايا هؤلاء الكلبيين في الوسط ، ثم بنو طيء في الجنوب وهم كلبيون أيضا ، وكان أن أسفرت الأحداث السابقة عن قيام هـذا الوضع ابتداء من المرحلة التي تهمنا في أوائل القرن الخامس الهجرى وأبانت عن هذا التوزيع القبلي الجديد الذى سيتردد ذكره كثيراً في هذا البحث ، والذى نجده نتيجة لأوضاع سالفة وحصاد أحداث طويلة في القرون الأربعة الأولى للهجرة.

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ص ٣١٦

(٢) شمال سوريا ومراكز الإمارات العربية

لعله من الأوفق قبل أن نمضى فى عرض تاريخ هذه الإمارات ، أن نعالج ــ من الناحية الطبوغرافية ــ المسرح الذى دارت عليه الأحداث وجرى فيه التاريخ ، والأرض التى شهدت مولد هـــذه الدويلات العربية وشهدت نهايتها أيضاً .

وليس هناك شك فى أن جغرافية تلك المنطقة أسهمت إلى حد بعيد فيما شهدته من ظهور لون من الاستقلال الذاتى ،غذته وأنمتــه عناصر طبيعية وأخرى بشرية وساعدت على استمراره فترات متقطعة أو متصلة أو متداخلة أحيانا عبر التاريخ الطويل لتلك البلاد .

ويمثل مسرح الأحداث التى سنعرض لها خلال هذا البحث منطقة شمال سوريا ، يحددها لنا فى الجنوب خط أقرب إلى القـوس ، جوفه إلى الشمال ، محتويا جانبا كبيرا من بادية الشــام ، ثم يصل إلى بعلبك وينتهى عند ساحل البحر المتوسط قرب بيروت ، وسوف لا نتعدى هذا الخط إلى الجنوب تقريبا ، إذ تمثل بعلبك أقصى نقطة امتدت إليها أملاك إمارة حلب فى عهدالمرداسيين ، كما تعتبر منطقــة بيروت أقصى أمــــلاك إمارة طرابلس جنوبا فى عهد بنى عمار .

وفى التقسيمات العسكرية والإدارية التى استحدثها المسلمون الأوائل فى بلاد الشام ، عرفت هذه المنطقة بجند حمص ، واعتبرت قسم قائم بذاته مثل جند

دمشق وغيره من الأجناد ، إلا أن جند حمص هذا تعرض للتقسيم من جديد في فترات لاحقة ، فقام يزيد بن معاوية بفصل ماعرف بجند قنسرين عنه ، وقام بعدئذ الخليفة هارون الرشيد بفصل جند العواصم من كل منهما(١) ، فأضحى شمال الشام ينتظمه ثلاثة أجناد أو ثلاثة تقسيمات إدارية وعسكرية ، هي جند حمص ثم جند قنسرين ، ثم أجزاء كبيرة من جند العواصم .

ومع ذلك ، فهناك اختلاف واضح لدى الجغرافيين والرحالة القدامى في حدود وأبعاد هذه الأجناد والأماكن التابعة لكل منها ، ولاسبيل إلى الاعتماد على الروايات القديمة في هذه الناحية فبعض الأماكن التي يوردها جغرافي على أنها تابعة لجند حمص ، نجدها لدى غيره تابعة لجند قنسرين(٢) ، ولايهمنا الالتزام بحدود وأبعاد هذه الأجناد ، بقدر مايهمنا رسم الملامح الطبوغرافية للمناطق التي شهدت حكم الإمارات موضوع البحث .

ويمكن إجمال الصورة العامة لمنطقة شمال الشام كلها ، ورسم ملامحها البارزة وخطوطها العريضة ، قبل المضي في عرض تفاصيلها والتعرض لمدنها

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ص٧٤٢ (طبع وستنفلد سنة ١٨٦٨)
البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الأول ، ص١٧٤-١٧٩ (نشر د. صلاح الدين المنجد) ،
Canard : op cit. p. 204

(٢) اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) : البلدان ، ص ٣٢٥-٣٢٧ (طبع بريل ١٨٩٢م)
ابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ) : المسالك والممالك ص٧٥-٧٦ (نشره De Geoje)
الأصطخري (ت النصف الأول من القرن ٤هـ) : المسالك والممالك ص ٤٦ (تحقيق د. جابر الحيني سنة ١٩٦١) ، المقدسي (ت ٣٧٥هـ) : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٥٤ (طبع ليدن ١٩٠٦م) ، ابن حوقل (ت نهاية القرن ٤) صورة الأرض ص١٦٢/١٦٣ (طبع بيروت ١٩٦٤)

وحصونها وقراها . فالمنطقة التي تهمنا على وجه الخصوص ، وهي الواقعة بين مجرى نهر الفرات شرقا وساحل البحر المتوسط غربا ، تتسع قاعدتها في الجنوب باتجاه نهر الفرات نحو الشرق وانحسار شاطىء البحر نحو الغرب ، ويحددها شمالا سلسلة المرتفعات التي تمثل منابع الأنهار المتجهة إلى الجنوب ، والتي أهمها نهر قويق ، الذي يمر بحلب ويصب في منخفض المناخ جنوبي قنسرين ، وكذلك نهر عفرين الذي يصل إلى منخفض العمق وبحيرة العمق شمالي غرب أنطاكية ، وكذلك بعض روافد نهر الفرات التي تلحق بالنهر مترادفة ، أحدها نهر الساجور الذي يصب في الفرات شمالي جسر منبج ، وهناك نهر العاصي الذي ينبع من وسط الشام ويجرى شمالا مارا ببعض المدن الشامية المشهورة أمثال حمص وحماه وشيزر ، وقرب مصبه تقع أنطاكية ، وهناك كذلك النهر الكبير الذي ينبع من السفوح الجنوبية لسلسلة الجبال الغربية التي تضم جبل النصيرية ، ويصب في البحر شمالي طرابلس . أما المرتفعات ، فهناك سلسلة الجبال الساحلية التي يفصلها عن شاطىء البحر سهل ساحلي ضيق ، وتتجه هذه السلسلة في الاتجاه الجنوبي الشمالي إلى الغرب من مجرى نهر العاصي حتى أنطاكية ، تقطعها بعض الممرات والنجوات التي يمكن عبورها أو اجتيازها ، وتبدأ سلسلة أخرى شمالي أنطاكية تسير محاذية للساحل حتى شمال الإسكندرونة ، هذا بخلاف مجموعات المرتفعات والجبال المتفرقة منها في الغرب أيضا جبل الوسطاني الموازي للسلسة الغربية ، وجبل الأعلى الواقع إلى الشمال منه ، وكلاها تقع إلى الشرق من مجرى نهر العاصي وجبل سمعان الواقع إلى الشمال قليلا بين مجرى نهر قويق ومجرى نهر عفرين ؛ وفي أقصى الشرق وفي جنوب غرب قنسرين وجنوب شرق بالس ، هناك جبل غبيث وجبل الأحص ، وتقطع هذه المساحة مجموعة من الطرق الهامة التي تربط

أهم المدن السورية بعضها ببعض ، وتصل بين أهم المراكز العمرانية فى شمال الشام : بين حلب وقنسرين وحماة وحمص ، وبين حلب وأنطاكية ، وبين حلب وقنسرين وسلمية وتدمر على حافة صحراء الشام التى ضمت مجموعة من المراكز كانت نقط عبور للقوافل والرحلات الصحراوية بين الشام والجزيرة العربية .

والمعروف أيضا أن المدن الشهيرة كحلب وأنطاكية وحمص وحماه وشيزر وقنسرين ومدن الساحل أمثال اللاذقية وجبلة وبانياس ومرقية وأنطرطوس وطرابلس وجبيل وبيروت، مدن قديمة معروفة لايهمنا منها سوى الإلمام بتفاوت ازدهارها أو انحطاطها فى الفترة التى تعنينا . أما فيما يختص بالأماكن والحصون والقلاع التى سيرد ذكرها فى الصفحات التالية ، فقد تحققنا من وجودها فى نهاية القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ومطلع القرن الحادى عشر (الخامس الهجرى) وذلك برواية الرحالة والجغرافيين العرب كاليعقوبى ابن خرداذبة والإصطخرى والمقدسى وابن حواقل وغيرهم . ويمكن التجاوز عن بعضها بالحذف والإضافة طبقاً لما لدينا من معلومات أخرى وطبقاً للروايات التى تعود إلى الفترة الزمنية اللاحقة ، لكننا نستطيع أن نقرر مطمئنين — أن طبوغرافية هذه المنطقة لم تتغير كثيراً إبان الفترة الزمنية التى تعنينا ، ويمكن الأعتماد إلى حد كبير على ما لدينا من معلومات عنها منذ نهاية القرن العاشر الميلادى فى أواخر أيام الدولة الحمدانية ، ومع هذا فلدينا معلومات هامة عن هذه المنطقة من رحالة وجغرافيين عاصروا المرحلة التى تهمنا بالذات ، أو جاءوا بعدها بقليل ، أمثال الرحاله ناصر خسرو الذى زار بلاد الشام سنة ١٠٤٧ م وقدم معلومات طيبة عنها فى كتابة « سفرنامه » ، وكذلك الرحالة الإدريسى

المولود سنة ١١٠٠م (٤٩٣هـ) ، والذى عاش فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، وكذلك ياقوت الحموى المتوفى سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ) ، وابن جبير الذى عاش فى القـــرن الثانى عشر الميلادى وقام برحلة بين عامى ١١٨٢ — ١١٨٥م (٥٧٨ — ٥٨١ هـ) ومن جاء بعدهم أمثـال ابن الشحنة والعمرى وغيرهم من اهتم بأخبار هذه المنطقة ، مما يجعل تناولنا لهذا المسرح أكثر دقة ومعلوماتنا عنه أكثر تفصيلا .[1]

جنــد حمص :

إذا أرجأنا الحديث عن المدن الساحلية الواقعة إلى الجنوب من مصب النهر الكبير ، وهى التى اعتبرها أغلب الكتاب العرب تابعة لجند دمشق ووسط الشام ، نجد على الساحل شمالى مصب ذلك النهر مجموعة من الموانى والمدن الهامة ، أولها أنطرطوس التى كانت إبان صدر الإسلام تمثل أهم الثغور فى جند حمص ، تحيط بها أسوار شاهقة وتحصينات قويه[2] وأخذت اسمها هذا

(١) الفترة التى شهدت حكم الامارات الثلاث موضوع هذا البحث امتدت نحو قرن ونصف من الزمان وشهدت مرحلة هامة من تاريخ الحروب الصليبية ، كما أن الامارات الثلاث ضمت مساحات فى شمال الشام متفاوتة الكبر تردد اسم كثير من مدنها الصغيرة وقراها وحصونها كتوابع لتلك الامارات ، رأينا لزاما علينا التحقق منها والتأكد من وجودها فى تلك الفترة لاعطاء الامارات أبعادها ، ملتزمين فى ذلك بالتقسيمات الادارية والعسكرية الاسلامية .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص١٦٣

الأدريسى : وصف الشام من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٤ — ٩٥

نشره Ro en Muller

في عهد الحروب الصليبية وهي طرطوس الحالية، ثم إلى الشمال منها نجد مرقية، التي وصفها ياقوت الحموي بأنها كانت محصنة أيضاً مثلما كانت جبلة وأنطرطوس منذ عهد معاوية بن أبي سفيان (١) ويلي مرقية شمالا بانياس وهي إحدى الموانى الهامة أيضاً على ساحل البحر، وثمة ميناء هام آخر في جند حمص هو جبلة، على الرغم من أن ابن حوقل ذكره على أنه ضمن جند قنسرين (٢). وقد استولى البزنطيون على جبلة سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) بعد وفاة سيف الدولة الحمداني، وظلت بأيديهم حتى سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠ م) حين وثب عليها قاضيها ابن صليحة فاستولى عليها مستعينا بابن عمار صاحب طرابلس، فجاءه منها مال عظيم»... أما اللاذقية فكانت ثغراً بحرياً هاماً لتلك المنطقة، وتقع في أطراف جند حمص (٣).

وقد غطى السفح الغربي لجبل النصيرية في عهد الحروب الصليبية بالقلاع والحصون التي أقتسمها الفرنج والإسماعيلية، وكان بعضها دون شك موجودا في نهاية القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر. فعلى نحو ٣٥ كيلو متراً إلى الشرق من أنطرطوس على جبل الخايل، كانت تقع قلعة الصفح التي سميت مؤخراً «حصن الأكراد أو قلعة الحصن» وقد أقيمت هذه القلعة مكان قلعة قديمة في الجنوب الشرقي من البقعة التي يمر بها طريق طرابلس –

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ج٢ص ٢٥–٢٦، البلاذري: فتوح البلدان ص٢٠٠/٢٠١

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٤

(٣) ياقوت: معجم البلدان ج٢ص ٢٥/٢٦، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٥٤،
Le Strange : Palestine under the Moslems, p 459–60

حمص ، وذكرت فى بعض قصائد أبى فراس فى معرض وصفه لعملية تتبع بنى كلاب من عرقة حتى كفر طاب ، كما جاء ذكرها فى إحدى الحملات العسكرية البيزنطية سنة ٩٨٣ م [١]

أما حصن مصياف ، بين أنطرطوس وحماه وعلى بعد متساوى بينهما ، فنسمع عنه قبل نهاية العاشر الميلادى ، وكان هذا الحصن تابعاً لإمارة شيزر وبنى منقذ حتى سنة ٥٣٤هـ(١١٤٠م) حين استولى عليه جماعة من الإسماعيلية [٢] أما حصن الخوابى على بعد نحو كيلو متر إلى الشمال الشرقى من أنطرطوس فجاء ذكره عند المقدسى وقال الإدريسى عنه أنه « منيع وأهله حشيشية خوارج عن الإسلام » [٣] وقد كان هذا الحصن تابعاً لإمارة بنى عمار فى طرابلس على عهد فخر الملك أبو على بن عمار ، وقد أمر فخر الملك بسجن ابن عمه أبا المناقب سنة ٥٠٢ هـ فى هذا الحصن ، وإلى الجنوب من مصياف وجدت قلعة رفنية التى نعرفها من ابن خرداذبة وهى لا تزال قائمة حتى اليوم ، وجاء ذكرها فى العمليات العسكرية البيزنطية فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وفى نفس المنطقة ، تقع بعرين ، وهى Monteferrand عند الصليبيين ، وكذلك العوج وكل الإقليم الواقع بين مصياف فى الشمال والبقعة فى الجنوب نعرف ملامحه من ابن خرداذبة وياقوت [٤]

---

(١) Canard : op. cit. P. 206

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ص١٥

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٤ ، الادريسى : نزهة المشتاق ص١٤/١٥

(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٧٦ ، Canard : op. cit. p. 203

وعلى السفح الشرقى لجبل النصيرية عند الطرف الشمالي للغاب يقع حصن أبو قبيس الذى عرف خلال الحملات البيزنطية فى القرن العاشر ، وقد آل هذا الحصن إلى بنى منقذ فى شيزر ، وإلى الشمال الشرقى من اللاذقية تقع قلعة صهيون المشهورة أيام الحروب الصليبية باسم Saone وكانت معروفة سنة ٣٦٤هـ (٩٧٥م) (١)

أما فيما يختص بحمص ، فقد سجل كل من المقدسى وابن حوقل اضمحلال هذه المدينة بعد الضربات التى تلقتها على أيدى البيزنطيين ، خاصة فى عامى ٣٥٨هـ (٩٦٩م) ؛ ٣٧٣هـ (٩٨٣ م) ، ولذلك يبدو أنها لم تكن فى نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ذات أهمية كبيرة ، يدل على ذلك لهجة ابن حوقل فى حديثه عنها إذ يقول : « وكانت أيام عمارتها صحيحة الهواء من أصح بلدان الإسلام تربة » ، وواضح أنه يتحدث عنها حين كانت عامرة من قبل ، لكن يبدو أنها أخذت تستعيد مكانتها بمرور الوقت ، إذ اتخذها بعض أمراء حلب مقراً له كما سيلى ، وزارها ابن جبير بعد ذلك فوصفها وصفا يدل على عظمتها(٢) .

أما حماه ، فتقع على الطريق الذى يؤدى شمالا إلى معرة النعمان وكفر

---

(١) ياقوت : معجم ج٣ ص٤٣٨ ،

Canard : op. cit. p: 30

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص١٦٢ ، ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٥/٢٤٦ تحقيق د. حسين نصار ،

Le Strange : op. cit. P. 353

العمرى : مسالك الأبصار ج٢ مجلد ٣ ورقة ٤٤٤/٤٤٥ (مصورة)

طاب وقنسرين وحلب ، وكانت مدينة صغيرة في نهاية القرن العاشر ، لكنها مع ذلك كانت لطيفة ممتعة كما يتضح من وصف ابن حوقل وابن جبير لها . لكن من الواضح أن حماه وسابقتها حمص وكذلك شيزر لم تكن مدنا كبيرة في القرن الحادى عشر ، على الرغم من أن هذه المـــدن كانت ركناً أساسياً في إمارة بنى مرداس قبـل أن تصبح شـــيزر مقـراً لإمارة مستقلة لبنى منقذ بعد ذلك (١)

وعلى طريق آخر بين حماه وقنسرين ، تقع تل منس قرب معرة النعمان، وعلى بعد يسير منها ، أما معرة النعمان نفسها فقد كانت أيام المرادسيين مدينة هامة زارها الرحالة ناصر خسرو قرب منتصف القـرن الحادى عشر الميلادى (رجب سنة ٤٣٨هـ / يناير سنة ١٠٤٧م) فكتب عنها أنها مدينة عامرة لهـا سور عظيم « ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران » بنى مسجدهـا الجامع على مرتفع وسط المدينة ، وكان سكانها يزرعون القمح وفيهـا شجر وفير من التين والزيتون والفستق واللوز والعنب ومياه المدينة من المطر والآبار (٢)

أما شيزر ، فهى مدينة قديمة تقع على نحو خمسة عشر ميلا إلى الشمال من حماه ، على أكمة صخرية منتصبة على ضفة العاصي الغربيـة ، يلتف حولها نهر

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ١٦٣

ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١ (ترجمها د. يحيى الخشاب)

ياقوت : معجم ج٤ ص ٥٧٥ ،

ابن جبير : الرحلة ـ ص ٢٤٢ـ٢٤٣

العاصي من ثلاث جهات . فهي إذن شبه جزيرة منيعة . زاد من مناعتها حفر خندق في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر ، مما يجعل الوصول إليها أمراً متعذراً (١)

وكانت شيزر ضمن جند حمص (٢) وهي اثنان ، قسم منها كان يقع ضمن القلعة على الرابية وهو البلد ، والقسم الآخر كان يقع قرب الجسر على العاصي وهي المدينة . وكان للقلعة ثلاثة أبواب أهمها يفتح نحو الجسر ، وحين آلت شيزر إلى بني منقذ على يد سديد الملك ابن منقذ سنة ١٠٨١ ، غدت شيزر مركزاً هاماً ونواة لإمارة صغيرة ضمت على عهد عز الدولة أبو المرهف نصر ابن منقذ — خليفة سديد الملك — كلا من أفامية وكفر طاب واللاذقية (٣)

وفي شمال غرب شيزر ، وليس بعيداً عن مستنقع الغاب ونهر العاصي الذي يجري بعد خروجه من شيزر من الغرب إلى الشرق ، نجد قلعة أفامية التي تقع في شرقي مجراه الذي يعود إلى الاتجاه نحو الشمال من جديد ، وتقع أفامية هذه أسفل جبل الزاوية فتشرف بذلك على منخفض الغاب الذي يسمى أحيانا بحيرة أفامية وكانت قلعتا أفامية وشيزر تتحكمان في أحد الطريقين الهامين

(١) فيليب حتي : مقدمة كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ت

(٢) Demombynes : La Syrie. P. 89.

Honingmann : Encyc Isl. art. «Shaizar»

(٣) حتي : نفس المرجع ص ت ، خ ،

Canard : op. cit. P 0.-210

لغزو سورية مما يعطيها أهمية حربية كبيرة . (١)

وإلى الشرق من بعلبك ، وعلى نفس خط عرضها تقريباً ، تقع نبق التى تبدأ منها مجموعة من المراكز ناحية الشرق فى شبه قوس متوغل فى بادية الشام ، فإلى الشرق من نبق تقع القريتين ، ثم إلى الشرق منها تقـــع تدمر المركز البدوى المعروف ومركز القوافل القديم ، ولم تكن تدمر في القرن العاشر مدينة هامة ، فقد هدمت أسوارها فى عهـد مروان الثانى ، ولم تكن خرائب هـذه المدينة مرتادة كثيراً باستثناء رحلات الـبدو عبرها ، وعلى بعد ٣٠ كيلومتراً منها شرقى تدمر تقـع أرك Arak وهي A-acha القديمة ، قال ياقوت إنهـا قرب تدمر ، ثم الخسنة (٢) وبين القريتين جنوبا وحمص شمالا توجد أمبين ، وهى ماهين اليوم ، وكذلك حوارين التى اتخذها من قبل يزيد بن معاوية محل إقامة (٣) وإلى الشمال الغربى من هذين المكانين توجـد صدد على طريق دمشق سليمة المار بنبق ، وإلى الشمال الشرقى منهما أيضاً تقع الحداث ثم غنثر . وكثير من أسماء هذه الأماكن يرد ذكرها فى الأحداث التى سنعرض لها سواء فى تحركات بنى كلاب أو كمسرح لمعارك هامة حددت مجرى الأمور فى الفترة التى تهمنا فى فى هذه المنطقة .

وهناك مدينة شهيرة فى جند حمص أيضاً ، ألا وهى سلمية وهى تقع إلى

---

(١) جتى : نفس المرجع ص : ث

Canard : op. cit. P. 210

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص١٥٤ ، ياقوت : جا ص ٢١٠ ،

Canard : op. cit. p. 211 - 12

(٣) ياقوت : معجم ج ٢ ص٣٥٥

الشمال الشرقى من حمص وإلى الجنوب الشرقى من حماه ، وكانت فى يوم ما أكثر أهمية منها . فهى تقع فى سهل أكثر خصوبة أسفل هضبة بركانية تغطى المنطقة بين حماه ومنخفض المنـاخ ، وكانت سلمية مركزاً متقدماً على حافة الصحراء وملتقى الطرق المتجهة إلى حلب ناحية الشمال وإلى الرصافة فى الشمال الشرقى وإلى حماه وحمص فى الغرب وإلى تدمر فى الجنوب الشرقى .. ولكن سلمية كانت فى نهاية القرن العاشر الميلادى مدينة منحطة ، وذلك منذ تخريبها على يد القرامطة سنة ٢٩٠هـ ، وكانت سلمية مركزاً قبلياً هاماً ونقطة تجمـع للقبائل العربية المعروفة ، كما كانت فى وقت ما مركزاً للدعاية الإسماعيلية[١]

جنـــد قنسرين :

تلك كانت أهم المراكز التابعة لجنـــد حمص ، أما جند قنسرين — كما وصفه أغلب الرحالة والجغرافيين العـرب — فإنه كان يشمل مساحة كبيرة جنوبى حلب وشمالها وامتـد فشمل مناطق كثيرة فى شمالها الغربى وشمالها الشرقى ، فدخلت بذلك مجموعة من العواصم ضمن هذا الجند، وكانت أنطاكية فى البداية وتيزين ودلوك وكوروس ورعبان ومنبج تابعة لهـذا التقسيم ، ولم تكن قنسرين أهم مدنه ، وإنما كانت حلب تشغل تلك المنزلة ، ويتميز الإقليم بمعظم خصائص وسط سورية ، لكن الجهة الشرقية منه أقل ارتفاعا من الجهة الغربية التى تمتد بها بعض المرتفعات وسلاسل الجبال[٢].

---

(١) Demombynes : La Syrie/p. 77-8

وفيها يختص بطرق سلمية والأماكن المجاورة : ياقوت : معجم جـ ٣ ص ١٢٣ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٩٨ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٠

(٢) Canard : op. cit. P. 213

وفى كل العصور استمد هذا الإقليم أهميتـه من أنه إقليم عبور أو معبر ، يحوى كثيراً من نقط العبـــور التى لا يمكن تحاشيها ، وهو يحوى جانباً من وادى نهر العاصى ويمر بجانب منه نهر عفرين ، وجانباً من وادى نهر قويق الذى يمر بحلب ، وفى الشرق منه الهضبة المعروفة التى تمتـــد حتى شواطىء نهر الفرات ناحية الجزيرة ، وترتبط مراكزه فى الجنوب بمجموعة طرق هامة سهله مع حماه وغيرها فى وسط سورية (١) .

ومن أهم نقط ومراكز هذا الجند برزية ، فهى تقع فى بقعة تشرف على وادى نهر العاصى ، تتحكم فى طريق اللاذقية إلى إقليم نهـر العاصى (٢) وقـد ذكرها ياقوت باسم برزويه وقال إنهـا « حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق ... تحيط بهـا أودية من جميع جوانبها » وقال إن العـامة تقول عنها برزية .

أما جسر الشغر أو الشغور الذى كان المعبر — كما هو اليـــوم — بين اللاذقية ووادى نهر العاصى ، فلا شك أنه كان موجوداً قبل القرن العـاشر الميلادى ولكن اسمه لم يذكر فى النصوص المعـاصرة لتلك الحقبـة . وعلى العكس ، فهناك جسر الحديد إلى الشمال منه ، وهو مشهور فى عهـد الحروب الصليبية قرب طريق أنطاكية — حلب عبر نهر العاصى (٣).

---

(١) Canard : op cit. P. 214

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص١٦٤ ،

Cahen : La Syrie du Nord. P. 164 (Paris 1940)

(٣) Dussud : Topographie Histerique de la Syrie antiqne et médiva.e. P. 155 (Paris 1927)

وإلى الشرق من نهر العاصي، وعلى الطرف الشمالي لمستنقع الغاب، يمتد جبل الوسطاني الذى ينفصل عن جبل الزاوية أو جبل بنى عليم بواسطة منخفض الروج، وبعد قليل من برزية يقع الطريق المؤدى إلى أفامية ومر جسر الشغور، وكانت تحرسه قلعة حصينة (١) .

وإلى الجنوب الغربى من معرة النعمان وجدت قلعة كفر روما الصغيرة (٢) وكانت هذه القلعة موجودة إبان القرن العاشر الميلادى ، وإلى الغرب من من المعرة فى جبل الزاوية كانت توجد قلعة البارة التى يتردد ذكرها كثيراً فى عهد الحروب الصليبية .

وفى الاتجاه الشمالى الشرقى من جبل الزاوية يوجد جبل السماق، وكان يمتد إلى الجنوب الغربى لقنسرين على بعد نحو ٣٠ كيلو متراً منها ، طرفه الأعلى عند قنسرين مبتعداً عن المعرة نحو هذه المسافة تقريباً إلى الشمال منها . وعلى نحو ١٢ كيلو متراً إلى الشمال الغربى من سرمين كانت توجد معرة مصرين (٣)

أما جبل الزاوية ، فهو يمتد بواسطة سلسلتين متوازيتين تتجهان ناحية الشمال وإلى الغرب منها يقع الجبل الأعلى ، وجبل ليلون (جبل سمعان) الذى يمتد حتى نهر عفرين فيكونان بين حلب وأنطاكية حاجزاً يمكن عبوره مع ذلك ، وهناك حارم تقع فى مكان يشرف على سهل فسيح ، وكانت محمية

---

(١) Canard : op. cit. P. 215

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١ ويذكر ياقوت (معجم جـ٤ ص ٢٨٨) أن كفرروما خربت سنة ٣٩٣ هـ على يد لؤلؤ السيفى .

(٣) ياقوت : معجم جـ٣ ص ٨٣ جـ ٤ ص ٥٧٤

بجزء من المدخل الشمالي لجبل الأعلى ، وكانت نقطـــة أستراتيجـية هامة استخـدمهـا البيزنطيون دوماً كلما تقدموا بعد أنطاكيـة « كأنها لحصانتها يحرمها العدو وتكون حرماً لمن فيها » (١) وقليلا إلى الشمال هناك أرتاح ، التي كثيراً ما تعد هي وتيزين — إلى الجنوب منها — ضمن جند العواصم .

وإلى الشرق قليلا نجد سرمدا ، قال ياقوت إنها « موضع من أعمال حلب ، وتل عقبرين قبل الدخول إلى جبـل ليلون ، ثم بعد ذلك إلى الجنوب الشرقي من حارم و (تيزين) تقع الأثارب وهي توجـد على مدخل التلال القريبة من حلب ، وبين الأثارب وتل عقبرين يرى بقايا الطريق الروماني الذي كان يربط بين أنطاكية وقنسرين (٢)

وإلى الشرق من جبـل الزاوية وجبل السماق يوجد منخفض المناخ حيث يصب نهر قويق ، وفي شمال المناخ وإلى الغرب من مصب نهر قويق تقع قنسرين وكانت قنسرين Chalcis القديمة مدينة آهلة بالسكان ممتدة إلى الشرق أكثر مما هي اليوم ، كما كانت على جانب كبير من الأهمية العسكرية ومركزاً هاما ضد بدو الشرق ، وأصبحت عاصمة لهذا الأقليم قبـل أن تسلبها حلب هـذه المكانة شيئاً فشيئاً ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجري ، خاصة بعد الغزو البيزنطي لهذه الجهـات (٣) ، ويقول ياقوت أنهـا كانت عامرة بالسكان إلى

---

(١) ياقوت : معجم ج٢ ص ١٨٤

(٢) Cahen : La Syrie du Nord. P. 154

(٣) Demombynes : La Syrie. P. 29

قرب منتصف القرن الرابع الهجرى عند غزو الروم لحلب « فخاف أهل قنسرين وتفرقوا فى البلاد » (١) .

وإلى الجنوب الشرقى من قنسرين ، وعلى نحو ٥٠ كيلومتراً تقريباً شمال شرقى حماه ، يوجد الطريق المتجه من حلب إلى سلمية ، وبين قنسرين ونهر الفرات يمتد منخفض بحيرة الجبول التى يصب فيها نهر الذهب الذى يأتى من الباب وبزاعا ، وإلى الجنوب من هذه البحيرة الملحية ، نجد الجبلين الكبيرين المسميان جبل غبيث وجبل الأحص (٢) وكثيراً من أماكن هذا الإقليم ورد ذكرها فى نصوص القرن العاشر الميلادى . وإلى الشرق من قنسرين ، وجدت العجم والفراديسى وسبعين، وهذه الأخيرة تقع على ضفة نهر الذهب، وقد تردد ذكرها فى بعض العمليات العسكرية الهامة فى نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر ، وإلى الجنوب من جبل الأحص وفى وادى صغير كانت تقع خناصرة ، على طريق حلب ـ تدمر على نحو ٦٠ كيلومتراً جنوب شرق حلب ، وعلى نفس البعد تقريبا من الصحراء ، وكانت خناصرة مشهورة من قبل كمقر للخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكانت تقع على طريق حلب ـــ بغداد (٣)

---

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٦ ، المقـــدسى : أحسن التقاسيم ص ١٥٥
ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٦٤ ، ياقوت : معجم ج ٤ ص ١٨٦

(٢) ياقوت : معجم ج ١ ص ٤٣٧ ، ج ١ ص ٦٠٣ ،

(٣) Le Strange : op. cit. P. 385
Dussaud : op. cit. 231

أما حلب ، فكانت عاصمة جند قنسرين وأهم مراكز هذا التقسيم الإدارى ، وهى تقع وسط بعض التلال فتبدو وكأنهاوسط طبق تعلو حوافه وتلتوى ، وتحيط بها المرتفعات التى أهمها فى الجهة الغربية جبل جوشن ، وهى تشرف على نهر قويق وهو نهر صغير لم تكن منابعه تبعد عنها بأكثر من « أربعة وعشرين ميلا — وأحد هذه المنابع — قرية يقال لها الحسينية بالقرب من إعزاز » (١) ، ومنها أيضا قرية تدعى سنيـــاب شمالى دابق . ولم يكن نهر قويق سوى جدولا فقيرا بسبب الرى منه قبل وصوله إلى حلب، إذ لم تكن الأمطار غزيرة فى فصل الشتـاء (٢) مع صيف شديد الحرارة ، ولهذا فالنهر « ينضب فى فصل الصيف » فيعمد السكان إلى ملء صهاريج بمياه المطر للشرب ، ويبدو أن قلة المياه كان لها أثر فى حيـاة حلب الزراعية ، «فهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبيذ إلا ما يأتيه من بلاد الروم » ولكن يزرع مع ذلك بأراضى حلب : القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح «لا يسقى إلا بماء المطر ، ويجىء مع ذلك رخصا غضا رويا يفوق ما يسقى بالمياه» (٣) ويقول ابن جبير عن سكانها أنهم كانوا دائما «فى ظلال وارفة ، وأنها « من بلاد الدنيا التى لا نظير لها والوصف فيه يطول » ويقول عنها العمرى أن» بها المروج الفيح والبر الممتد

---

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٣٤

(٢) ابن بطلان فى ياقوت جـ ٢ص ٣٠٧

ابن حوقل : صورة الأرض ص١٦٣

المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٥٥

(٣) ابن بطلان وياقوت : معجم جـ ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨

حاضره وباديه»(١) ، وكان لها طرق معبدة وقناة للمياه تأتى من نبع هيلان علي نحو ١٣ كيلو متر إلى الشمال منها(٢) .

وقد استعادت حلب مكانتها ومركزها الهام فى القرن العاشر الميلادى وبداية القرن الحادى عشر ، وذلك بعد فترة ركود من جراء إهمال العباسيين لها ولكل سورية ففقدت مركزا حيويا هاما ونشطا ، وقد سجل ابن حوقل هذا التغيير فى مركز حلب قرب نهاية القرن العاشر الميلادى ، فلما خربها نقفور فوقاس ، أعاد بناءها سيف الدولة الحمداني وخلفاؤه ، فاستعادت مكانتها التجارية الهامة وأخذت تمارس التجارة مع البلاد الإسلامية ومع الإمبراطورية البيزنطية أيضاً (٣) .. وزارها ناصر خسرو فكتب أنها «مدينة عامرة أبنيتها متلاصقة وفيها تحصل المكوس مما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ، ويذهب اليها التجار من جميع البلاد » (٤) هذا ويبدو أن أزدهار التجارة فى حلب كان نتيجة طبيعية للأوضاع الزراعية السائدة وقصورهذه من استيعاب طاقة سكان المدينة الذين بلغ عددهم — فى رأى بعض الكتاب — نحو نصف مليون نسمة إبان

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٠ــ٢٤١

العمرى : مسالك الأبصار جـ٢ مجلد ٣ ورقة ٤٤٨

(٢) Canard : op. cit. P. 221 :

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ١٦٣، Canard : op. cit. P, 221

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه ص١٠

الحقبة المرداسية (١) وليس من شك فى أن مدينة حلب كانت فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى مدينة كبيرة هامة تعد قصبة شمال الشام بأسره وأكبر مراكز جند قنسرين برواية المصادر المعاصرة.

وإلى الشرق قليلا من حلب وفى تجـاه الناعورة كانت توجد نيرب وبيت إياس وتل أعرن (٢) وإلى الشمال الشرقى من حلب فى اتجـــاه منبج كانت توجد البلدتين الصغيرتين الباب وبزاغا (٣) متواجهتين الواحدة تجاه الأخرى الأولى منهما على يمين نهر الذهب والثانية على يساره.

وبعد ذلك يسير حد جنـد قنسرين شمال وشمال غربى حلب، فيمتد فى شمالها الغربى ليشمل مدينة تيزين التى تقع على خط عرض واحد تقريباً مـع أنطاكيـــة وحلب، واعتبرت أحيانا من جند العواصم، ويصعد حد جند قنسرين من جـديد فى الوادى المرتفع لنهر عفرين ودلوك فى إقليم منابع نهر سروج أحد روافد نهر الفرات، ثم ينزل مرة ثانية إلى الجنوب الشرقى على منبج، ويعتبر إقليم جبل سمعـان وكل وادى قويق أجزاء من جنـــد قنسرين وليست من جند العواصم (٤)

وثمة كورة أخرى هامة فى جند قنسرين، تقع على نحو ٤٥ كيلو متر إلى الشمال الغـــربى من حلب هى عزاز، كانت عاصمة أومركزاً لأراض خصبة تضم نحو ٣٠٠ قـرية هى ضياع مملوكة لأهالى حلب، وكانت تروى

(١) الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ص ٣٣٠

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٣٤، ياقوت : معجم ج ١ ص٨٦٣

(٣) ياقوت : معجم ج١ص ٤٣٧، ٦٠٣

(٤) Canard : op. cit. P. 224

بروافد نهر قويق ، وكانت لها قلعة خربتها الزلازل والهزات الأرضية سنة ٣٦٣هـ (٩٧٤م) (١) وإلى الجنوب الشرقى من عزاز على نحو ١٢ كيلو متر تقع قرية تعرف اليوم باسم « كول — جبرين » أوجبرين الشمالى ، وذلك لتمييزها عن جبرين الفستق من ضواحى حلب ، وعلى بعد يسير إلى الشمال من عزاز على طريق كلز وجدت قرية تبل أو توبال ، ترتفع فى إقليم مغطى بالكروم وشجر الزيتون . أما كلز فتقع على بعد ٢٣ كيلو متر إلى الشمال من عزاز وهى تقع فى إقليم حدائق الكروم والزيتون (٢) ، وفى نفس وادى قويق وجدت نقطة هامة جداً وهى دابق ومرجها الذائع الصيت كانت فى جهة انحدار النهر قرب ملتقى نهر قويق بأحد روافده على تل مرتفع (٣).

تلك هى أهم المراكز فى جند قنسرين وحول حلب ، وهناك عديد من القرى والحصون مبعثرة فى تلك الجبهة المتسعة ، كانت تعد القاعدة العريضة والمدد المتصل لإمارة حلب حينما تطمح فى الاستقلال ، وقدذكر لنا ياقوت أسماء كثير من هذه القرى المنتشرة حول حلب نذكر منها : كفر غما ، وكفر لاثا وكفر نبو ، وكفر لهثا ... إلى غير ذلك من القرى الكثيرة التى كانت تزدهر وتظهر إبان فترات السلم والاستقرار بصفة خاصة (٤) .

---

(١) ياقوت : معجم ج٣ص ٦٦٧

(٢) ياقوت : معجم ج٢ ص ١٩ ، ج ٤ ص ١٥٨ ،ويقول كانار انه من الصعب تحديد ما إذاكانت كلز من جند قنسرين أم من جند العواصم .

Canard : op. cit. P; 225

(٣) ياقوت : معجم ج٢ص ٥١٣

(٤) ياقوت : معجم ج٤ ص ٢٩٠ — ٢٩١

جنـــد العـواصم :

أما جند العواصم ، فلا نعتقد أن كل المـدن والقرى والأماكن التى ورد ذكرها تابعة لهذا الجند تهمنا أو تتصل بالمسرح الذى سنعرض له إبان هـذا البحث ، ولذلك فسوف نكتفى بتناول بعض مدن هذا الجند التى لها صلة فقط بالأحداث فى حلب أو التى يثبت أنها كانت تابعة لإمارة المرداسيين فى حلب أو فى غيرها من الإمارات موضوع البحث ، منوهين بأن قصبات هذا الجنـد مثل منبج ورعبان وكوروس ودلوك وتيزين وأنطاكية - فى البداية - كانت مدنا متقدمة على الحدود ، سميت بالثغـــور فى بعض أدوار الحرب مع الروم ، والاختلاف واضح بين الرحالة والجغرافيين بالنسبة لحدود وأبعاد هذا الجند . فبينما يصل ابن خرداذبة بحدود هذا الجند إلى الرصافة ليشمل جانبا من بادية الشـام ، نجد من جاء بعده — خاصة ابن حوقل — يصل بحدود هذا الجند إلى بالس وسميســاط على نهر الفرات فى الجهـة الشرقية ، واعتبر ابن شداد قصبات هـذا الجند وأهم مدنه مدينة أنطاكـية بضواحيهـا مثل (تيزين وجاندارس وأرتاح والسويدية ... الخ)، وكذلك رعبان ودلوك وكوروس وكيسوم ومنبج وقلعة نجم ، والتى كانت قديماً جسر منبج [1]. وكانت عاصمة هذا الجند مدينة أنطاكية قبل أن يستولى عليها البيزنطيون .

وأهم مدينة فى جند العواصم والتى تقع فى الجهة الشرقية منه مدينة منبج ، وهى هيرابوليس القديمة (٢) فى الاتجاه الشمالى الشرقى من حلب على بعـد

(١) ابن خرداذبة : المسالك ص ٧٥ ، الاصطخرى : المسـالك ص٤٦

ابن حوقل : صورة الأرض ص١٧١

Le Strange : The lands of the Eastern Caliphat, P. 10/ (٢)

١٢ كيلومتراً من نهر الساجور الذى يمر إلى الشمال منها وعلى بعد نحو ٣ كيلو مترا من نهر الفرات الذى يجرى إلى الشرق منها ، وهى تقع فى سهل مموج كثير المياه ، وكانت فيما مضى محاطة بالحدائق والمزروعات ، ولعبت من قبل دوراً تجارياً ودينياً هاماً فى العهد الهلينى والرومانى (١) . ولكنها لم تستعد أهميتها فى القرن العاشر والقرن الحادى عشر بسبب موقعها على الحدود السورية العراقية ولقربها من نهر الفرات ولمدينة حلب. وكان هارون الرشيد قد أقام حولها أسوارا حجرية ظلت فى حالة جيدة إلى ذلك الوقت (٢) ، كما أنها ظلت تشرف على الأراضي المتسعة الممتدة بين حلب والساجور والفرات، كما ظلت من أهم الثغور الإسلامية فى مواجهة الروم من ناحية وملاحظة بدو صحراء سورية حتى بالس فى جنوبها من ناحية أخرى ، وقد أعطى مجرى نهر الفرات إلى الشرق منها ميلاد مدينة صغيرة سميت « جسر منبج » التى أطلق عليها فيما بعد إسم « قلعة نجم » ويعتبر ناصر خسرو مدينة منبج « أول مدن الشام »(٣) .

أما بالنسبة للمدن الواقعة جنوب النهر الكبير، والتى اعتبرها أغلب الرحالة والجغرافيين العرب تابعة لجند دمشق ، فأهمها مدينه طرابلس ، ثالثة المراكز الكبيرة فى بلاد الشام ومقر الإمارة العربية الثالثة فى هذا البحث ، وهى مدينة

---

(١) Canard : op. cit. P. 233

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص١٦٦ ، ويبدو أن سورها قد تهدم بعد ذلك لأن ياقوت يقول عنها «وكان عليها سور مبنى بالحجارة محكم» ياقوت : معجم ج٤ص ٦٥٠

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠ ، Le Strange : op. cit. P. 107 .
ياقوت : معجم ج٤ص ٦٥٥ ، ابن جبير: الرحلة ص٢٣٦-٢٣٧

كبيرة قديمة كحاب وشيرر ، وإحدى أكبر موانى على ساحل البحر الابيض المتوسط .

فبين سلسلة جبال لبنان المرتفعة وجبال النصيرية القريبة من ساحل البحر المتوسط ، يوجد منخفض هام عرف بممر حمص ، وهـذا الممر يعتبر من أهم معالم إقليم طرابلس ، وهو يربط بـين بلاد الشـام الداخلية — فيما وراء نهر العاصي — بالإقليم الساحلي ، كما يضم إقليم طرابلس أيضاً واديا وعراً هو وادى نهر قاديشة الذى يبدأ عند سفح غابة الأرز وينحدر سريعاً فى انحناءات وتعرجات متواصلة إلى أن ينتهى بسهل طرابلس عند الساحل . ويصل عمق هذا الوادى فى بعض أجزائه إلى ١٧٠٠ قدم (١) . ويضم هـذا الإقليم جزءاً هاما من السهـل الساحلى الضيق أهمها سهل مرقية فى الشمال وسهل جبيل فى الجنوب ، ولكن أهم السهول الساحلية فى إقليم طرابلس السهل الواقع على مصب النهر الكبير وروافده ، وعليه تقع مدينة عرقه وثغر أنطرطوس (٢) .

ومدينة طرابلس القديمة كانت شبه جزيرة يحيط بها البحر من ثلاث جهات « مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جوانبها مطلة على البحـر ، أما الجانب المطل على اليـابس فيه خندق عظيم عليه باب حديدى محـكم » (٣) ... أذن « فالبحر يأخذها من ثلاثة أوجه » ... ويمتد بإزاء المدينة فى البحر أربع جزر صغيرة تبعد عنها بنحو عشرة أميال كانت على التوالى مما يلى البر كما ذكر الإدريسي :

---

(١) فيليب حتى : لبنان فى التاريخ ، ص١٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١٦

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص١٣

« جزيره النرجس والبها جزيرة العمد ثم واليها جزيرة الراهب ثم وإليها جزيرة أرذكون » (١) وأكبر هذه الجزر الأربعة جزيرة أطلق عليها بعض الجغرافيين والرحالة إسم «جزيرة النخلة» (٢) ، لا زالت تحتفظ باسمها حتى الآن ، ولعلهـا هى نفس الجزيرة التى عرفت باسم جزيرة القديس نيقولا (٣) وتتصل بهذه الجزيرة ثلاثة جزر صغيرة بينها وبين الساحل .

ويخترق مدينة طرابس نهر عرف قديماً باسم نهر قاديشا ،ذكر فى التوراة باسم نهر كاديشة (٤) ويسمى اليوم بنهر أبى على ،يرجح أحـــد المؤرخين المحدثين أنه سمي كذلك نسبة إلى الأمير فخر الملك أبى على بن عمار ، آخر أمراء بنى عمار . أما اسم قاديشا فقد احتفظ به هذا النهر حتى الوقت الحاضر وشاعت تسميته بذلك خاصة فى العصور الوسطى بسبب التجاء رهبان الموارنة الى كهوفه ومغاوره (٥) .

وينبع هذا النهر من مغارة تعرف بمغارة قاديشا بأدنى غابة الأرز ، وطوله من منبعه إلى مصبه يناهز ٢٨ كيلو مترا ،ويخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال بين تلين ، أحدهما على الضفة اليمنى ويطلق عليه اسم « تلة القبة » (٦) والآخر

---

(١) الأدريسى : وصف الشام من نزهة المشتاق ، ص١٣

(٢) الأنصارى الدمشقى : نخبة الدهر ، ص١٤٢

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ص ١١٧٥

(٤) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ، القسم الشمالي ، ص ٩٨٣

(٥) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص١٠(حاشية١٧)

(٦) ابن الشحنة : الدار المنتخب ،ص٢٦٤

على يسار النهر باسم « تلة أبي سمرة » وسميت في عهـد الحروب الصليبية بتلة الحجاج Mons Pereginus (١) وأقيمت عليها قلعـة صليبية سميت قلعة صنجيل نسبة إلى مؤسسها « ريموندى سان جيل » الذى عرفه كتاب العرب باسم الصنجيل ، وبعد أن يترك النهر مدينة طرابلس يسير نحو الشمال وسط بساتين ومروج خضراء إلى أن يصب في البحر .

وأدى مرور هذا النهر بطرابلس إلى كثرة بساتينها ومزارعها وحدائقها وتنوعت ثرواتهـا الزراعيـة والتجارية في العصر الاسلامى خاصة (٢) فكانت نموذجا طيباً للمدن الكبيرة ذات القاعدة الزراعية المتسعة والدعامة المالية الكبيرة والمكان المناسب لأصحاب الطموح والاجتهاد ومحبي الأستقلال والانفصال .

ومن الناحية التجارية ، كانت طرابلس مرفأ هاما ومركزاً لتجمع كثير من الصادرات ومدينة تجارية نشطة يقصدها التجار وتأتيها « ضروب الغلات وصنوف التجارات » وكذلك كانت شوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين .. وتحصل المكوس بهذه المدينه فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر » (٣) .

وكان يتبعها في الفترة التي تهمنا مجموعة من المدن الصغيرة والقرى والحصون ذكرها الادريسى منها « أنف الحجر وحصن القالمون (القلمون حالياً) وحصن

---

(١) Buhl : Encyc. Isl art, «Tarabulus»

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص١٣ ، الادريسى : وصف الشام ص ١٣ ، ياقوت : معجم ج ٣ص ٥٢١ ، العمرى : مسالك ج٢ مجلد ٣ ورقة ٤٤٩ :

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه ، ١٣

أبى العدس وأرطوسية ، ولها من أمهات الضياع المشهورة أربعة ، منها القرية المعروفة بالشفيقة تالزيتونة والراعبية والحدث ، (١) ، وفى عهد بنى عمار ، كان يتبعها مدن : جبلة ، وعرقة وجبيل ، فضلا من بعض الكور والبساتين المتصلة بها فى الجنوب الشرقى مثل بشرى والحدث ، وفى الجنوب مثل البترون (٢) .

والأماكن التى يشملها كل من جند حمص وجند قنسرين وجند العواصم كانت منطقة هامة فى كل العصور ، ربطتها شبكة من الطرق ووصلت بين أهم المدن فيها ، وكانت كل من أنطاكية فى سورية والرها فى العراق قطبى الإستراتيجية الرومانية من قبل ، لكن حلب بدأت تأخذ مكان أنطاكية فى سورية الشمالية فتشعبت منها الطرق : ١) إلى قنسرين وحماه وحمص — ٢) إلى أنطاكية وإسكندرونة وقيليقيا ـ ٣) إلى دلوك ومرعش أو إلى الفرات وسميساط — ٤) ناحية منبج والجزيرة عبر الفرات — ٥) ثم إلى بالس والرقة والجزيرة أو إلى العراق — ٦) وأخيراً إلى تدمر، المركز الصحراوى المعروف (٣) .

وتؤدى تلك الطرق فى الغرب أيضاً : من حمص إلى عرقة ، ومن حماه إلى أنطرطوس ومن حلب إلى اللاذقية ، وفى الشرق : من حمص إلى تدمر أو من حماه إلى تدمر وكانت هذه الطرق الفرعية أقل أهمية من سابقتها. لكن

---

(١) الأدريسى : وصف الشام ص١٢

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص١٥

(٣) Canard : op. cit. P. 234

هذا الموقـــع الجغرافى الهام قد منح حلب بالذات فى ظروف ضعف الخلافة العباسية وضعف سلطانها فرصة تاريخية هامة ، وجعلهـا كعاصمة هامة لكل سورية الشمالية ، وجعل منها ملتقى الطرق ومعبراً لمختلف البقاع ، ومكنها من أن تلعب دورها فى التاريخ كعاصمة لإمارات مستقلة ومركزاً لدويلات عازفة عن بقية القوى الإسلامية فى ذلك الوقت (١)

... ...

(١) Ibid. P. 234–5

بنـو مرداس فى حلب ١٠٢٤ — ١٠٧٩م

أ — حلب قبل تأسيس الإمارة المرادسية فيها
نشاط بني كلاب حينئذ

ب — تأسيس الإمارة المرادسية فى حلب

حـ — خلفاء صالح بن مرداس

د — بنو مرادس والدولة البيزنطية

هـ — بنو مرداس والخلافة الفاطمية

(أ) حلب قبل تأسيس الإمارة المرادسية فيها ، نشاط بنى كلاب حينئذ

رأينا كيف قدم بنو كلاب من جوف الجزيرة العربية إلى الشام ، فى حركة شبه جماعية حدثت قرب نهاية العهد الإخشيدى ، وبداية العهد الحمدانى أى فى أوائل القرن الرابع الهجرى .

وعلى هذا يمكن القول أن بنى كلاب عاشوا نحو قرن من الزمان فى بلاد الشام قبل أن يتمكنوا من إقامه إمارتهم فى حلب ، وعلى الرغم من محافظتهم على معظم مقوماتهم القبلية وتحركاتهم المتسمة بالطابع القبلى بين صحراء سورية وشمال الشام ، إلا أنهم كانوا عنصراً هاماً فى جميع الأحداث التى شهدتها المنطقة خلال القرن الرابع الهجرى كله قبل إقامة إمارتهم فى حلب (١) .

ونستطيع القول — مطمئنين — أن دورهم فى الأحداث التى جرت حينئذ فاق دور بنى عمومتهم من القيسيين أمثال بنى نمير وبنى خفاجه وبنى ربيعه فى إقليم الجزيرة ، كما فاق دور الكلبيين فى وسط الشام وجنوبه، وليس من شك فى أن ذلك يرجع فى بعض جوانبه إلى قوتهم وكثرتهم العددية التى استطاعوا عن طريقها فرض نفوذهم وسلطانهم فى المنطقة ، وليس أدل على ذلك من أنهم استطاعوا إقامة إمارة لهم فى حلب عمرت أكثر من نصف قرن من الزمان ، فى حين لم يستطع ذلك بنو طىء الكلبيين رغم طموحهم ورغبتهم فى ذلك . وكل ما استطاع هؤلاء عمله ، هو إقامة حكم لهم فى فلسطين خلال

(١) Lane-poole Mohemmadan Dynasties; P. 110

سنوات قليلة فى نهاية القرن الرابع الهجرى قام به بنو الجراح تحت زعامة أميرهم مفرج ابن دغفل بن الجراح الذى ثار بالرملة سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) ولكن حركته لم تعمر طويلا أمام نشاط الفاطميين فى تلك الجهات وبرغم تكرار خروج آل الجراح فى تلك المنطقة إلا أنهم حرموا من نفوذهم فى فلسطين فى نهاية الأمر ، وطردوا منها ، وهرب قائدهم حينئذ حسان بن المفرج إلى البيزنطيين [١] .

وليس من شك فى أن بنى كلاب كانوا أحد العناصر الرئيسية التى كيفت تاريخ المنطقة ، خاصة إبان حكم الحمدانيين . وسيتضح من العرض التالى أهمية الدور الذى نهضت به تلك القبيلة طوال القرن الرابع كله .

على أن أهم مايميز وجه الأحداث خلال تلك الفترة هو وجود ثلاث قوى متصارعة فى شمال الشام ، متحفزة للدفاع عن مصالحها ، نشطة فى فرض وجودها وهى :

١) الإمبرطورية البيزنطية ، برغبتها الدائبة فى احتواء جانب من سورية .

٢) ثم الخلافة الفاطمية فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .

٣) وأخيراً ، بنى حمدان فى حلب .

وفى إطار تحفز هذه القوى الثلاث وترقبها ، دارت الأحداث التى سنعرضها ونركز فيها على دور بنى كلاب بصفة خاصة ، وهى الأحداث التى شغلت ثلثى القرن المذكور بعد سنه ٣٣٣ هـ والسنوات الأولى من القرن الخامس ، أى

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٧ص ٣٣٣

الفترة التى عاشتها الإمارة الحمدانية فى حلب .

ذلك أنه كان على الإمارة الحمدانية — محور الحديث — أن تتعامل مع القبائل العربية النازحة قديماً وحديثاً والتى استقرت على طول السهول الممتدة بين شمال العراق وسورية لتلعب دورها فى تاريخ المنطقة منذ ذلك الوقت[١].

ومن بين هذه القبائل ، قبيلة بنى كلاب القيسية . وأول أنباء عن بنى كلاب نعثر عليها فى المراجع — مما يهمنا ويخص موضوعنا — ما أورده المؤرخ ابن العديم عن زمن وصولهم إلى بلاد الشام ، وهو ما سبقت الأشارة اليه من قبل ، حين قاموا بأول إغارة لهم على معرة النعمان سنة ٣٢٥ هـ [٢].

ويبدو أن بنى كلاب كانوا قد بدأوا ممارسة نشاطهم القبلى المتسم بالإغارات والسلب والنهب ، لأننا نسمع أن أبى الهيجاء — والد سيف الدولة اضطر إلى محاربتهم من قبل ليمنع ضررهم ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة فى طريق الحج ، لكنه عاملهم بإحسان ورد عليهم نساءهم وقطعانهم وعفاءهم[٣] .

ازداد نشاط بنى كلاب فى شمال الشام ازدياداً مطرداً بعد وصولهم إلى هناك حتى أن المؤرخ ابن العديم أرجع دخول حلب فى حوزة سيف الدولة الحمدانى لدورهم وتدبير قادتهم فى ذلك الوقت . ففى عام ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) ولى محمد بن طغج الإخشيد أحد الكلابيين ويدعى أبا الفتح عثمان بن سعيد

Kay : Notes on the Hist. of the Banu Okayl. P. 506 (١)

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ١ص ٩٨ — ٩٩

(٣) أبو فراس الحمدانى : ديوان شعره براوية ابن خالويه ٣ أجزاء ، جـ٢ ص١٦٧ نشره د. سامى الدهان ، دمشق ١٩٤٤ ،

Canard : op. cit. P. 608 , 611.

الكلابى مدينة حلب ، وتصدى لهذا الوالي إخوته وبعض أفراد أسرته ومنهم والى أنطاكية وحقدوا عليه ، فراسلوا سيف الدولة الحمدانى يعدونه النصرة والمساعدة للاستيلاء على حلب ، فأسرع سيف الدولة لانتهاز الفرصة ، ولم يكد يعبر الفرات حتى هرع اليه إخوة أبي الفتح منحازين اليه ، وعند ذلك لم يجد أبو الفتح بداً من الخروج هو الآخر للانضواء تحت راية سيف الدولة فأكرمه هذا دون إخوته وأركبه إلى جواره وجعل يسأله عن كل قرية يمر بها ، وكان دخول سيف الدولة مدينة حلب في ربيع الأول سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) .

وكان أن غدت حلب عندئذ تابعة لبنى حمدان ، وأصبحت مراكزاً للجزء الشامى من الإمارة الحمدانية . وبدأ سيف الدولة عهده الجديد بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستكفى بالله ، ولأخيه ناصر الدولة الحمدانى أمير الموصل ، ثم لنفسه ، ثم ما لبث أن سار إلى حمص فى طريقه إلى دمشق وأستطاع أن ينزل الهزيمة بالجيش الإخشيدى عند الرستن واستولى على دمشق وراح يتتبع فلول الإخشيدية ناحية الجنوب .

وعلى الرغم من خروج محمد بن طغج الإخشيد بنفسه لمحاربة سيف الدولة ونجاحه فى انزال الهزيمة به عند قنسرين ، واسترداده دمشق ، بل ودخوله حلب ذاتها ، إلا أنه آثر فى النهاية أن يعقد صلحا مع الحمدانيين فى ربيع الأول سنة ٣٣٤ هـ (أكتوبر سنة ٩٤٥ م) اعترف بمقتضاه بأن يكون لسيف الدولة حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، على أن تكون دمشق وأعمالها للاخشيديين ، وتضمن الصلح أيضاً أن يدفع الإخشيد لسيف الدولة جزية

سنوية [١] . ويبدو أن الإخشيد رحب بهذا الصلح ليجعل من سيف الدولة حصناً منيعاً بينه وبين البيزنطيين [٢] ، لكن سيف الدولة استطاع بهذا الصلح أن يدعم نفوذه في الشمال ، ثم ما لبث أن تحالف مع بني كلاب واستطاع في السنوات القليلة التالية الاستفادة بهم في حروبه وجعل منهم حليفاً له ضـــد أعدائه .

ثم ترتب على وفاة محمد بن طغج الإخشيد في العام التالي ، وسحب الحامية الأخشيدية من دمشق، أن طمع سيف الدولة في دمشق ، فسار إليها بجيشه وعندئذ بادر واليها الإخشيدي بالاستسلام له ، فدخلها سيف الدولة، لكنه ما لبث أن طالب أهلها بودائع الإخشيد ، فأسناء هؤلاء وكاتبوا السلطات الأخشيدية في في مصر ، فحضر كافور بصحبة سيده أنوجور بن الاخشيد ، واستطاع أن ينزل الهزيمة بسيف الدولة قرب دمشق في جمادى الآخرة سنة ٣٣٥ (يناير ٩٤٧ م) وتقهقر هذا إلى حمص ، وهناك أعاد تنظيم قواته وضم اليها بني كلاب وكثيراً من القبائل الأخرى من نمير وعقيل وكلب [٣] .

وعلى الرغم من قيام هذا الحلف الذى اشترك فيه بنو كلاب إلى جانب سيف الدولة ، إلا أن سيف الدولة عجز عن وقف تقدم الجيش الإخشيدي والاستفادة الكاملة من حلفه ، فدارت الدائرة عليه في النهاية عند مرج عذراء قرب حمص ودخل الإخشيديون حلب بعـــد أن فر منها سيف الدولة إلى

---

(١) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص ٣٥٠

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج٣ص ٢١١

جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص١١٤ــ١١٥

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج١ص ٣١٨

الرقة (١) . ثم دارت مفـــاوضات بين الطرفين انتهت بعقد صلح بنفس الشروط السابقة ، ماعدا دفع الجزية فإن الإخشيديين لم يقبلوا دفعها هذه المرة وكان من نتائج هذا الصلح أن ساد الصفاء بين الحمدانيين والإخشيديين (٢) .

وواضح من هذه الأحداث أن بنى كلاب غدوا حلفاء لسيف الدولة وكانوا ركنا ركينا فى جيشه ، ولكن مع هذا لم يدم الصفاء بين الاثنين طويلا ، وذلك بسبب نشاطهم المتزايد من جهة ، وبسبب التقـارب بين سيف الدولة وبنى كلب من جهة أخرى . وتحدثنا النصوص أن سيف الدولة « كان قد أجار بنى كلب وأدناها ، وأذم بينها وبين بنى كلاب ، ولكن هـــذه الخطوة لم تحظ ـ بطبيعة الحال ـ برضاء بنى كلاب ، الذين بلاشك أنكروا عليه هذا الميل إلى العصبية الأخرى ، فانتهزوا فرصة انشغاله بعد نفوذه فى الإقليم الساحلى وحربه ضد الأكراد ونشاطه ضد أنطرطوس ، « فغنمت بنو كلاب بعده وأغارت على بنى كلب غارة نالت منها فيها » (٣) .

وحينما علم سيف الدولة بهذا الهجوم ، اضطر إلى قطع رحلته فى الجهات الساحلية ورحل مسرعاً من عرقه إلى الرستن إلى قرون حماه إلى شيزر ، وعند الصباح وصل إلى كفر طاب ، وهناك فاجأ معسكر الكلابيين فأنزل بهم هزيمة ساحقة وألحق بهم خسائر جسيمة ، وأجبرهم على التعهد بعدم تكرار هذا الهجوم فوعدوا بذلك وأعطوه الضمان على احترام هذا العهد (٤) .

---

(١) ابن العديم : زبدة ج١ص ١١٧ـ١١٨

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عهد الأخشيديين ، ص ٣٠٤

(٣) ابن خالويه : فى ديوان أبى فراس الحمدانى ، ج٣ص٣٧٦

(٤) Canard . op. cit. P. 599–600

على أن هذه الحادثة كان لها دون شك أثر عميق فى نفوس بنى كلاب ، وجاءت خاتمة لفصل من التعاون بينهم و بين سيف الدولة ، إذ مثلوا بعدئذ عنصر قلاقل لسلطته ، واستأثروا بجانب هام من حروبه واستنزفوا قدراً كبيراً من جهوده ، بخروجهم المستمر عليه ورفعهم راية العصيان ضده ، وليس ثمة شك فى أن ذلك يعد أبرز سمات نشاطهم فى تلك المرحلة ، على عهـــد هذا الأمير الحمدانى الكبير .

على أن سيف الدولة يعد مسئولا عن تفجير هذه الثورة فى نفوس بنى كلاب ، واندلاع الحرب معهم ، اذ يبدو أن ما أقدم عليه من إلحاق عشائر كلابية بجيشه المصاحب له إلى الجهات الساحلية هو الذى أثار حفيظتهم وعجل بانفجار ثورتهم ، فدبروا الهجوم على منازل الكلابيين ، وتعرضوا من أجل ذلك لعقاب سيف الدولة وتنكيله ، ولعب أبو فراس الحمدانى — رغم صغره دوراً بارزاً فى المعركة التى جرت عند كفر طاب ، ولم يوقف سيف الدولة القتال ضدهم إلا حينما سمع صرخات نساء بنى كلاب ، فلم تكتمل فرحة ابن عليان زعيم الكلابيين الذى كان برفقة سيف الدولة فى تلك الحملة (١) .

وليس بين أيدينا تاريخ محدد لوقوع هذه الحادثة ، التى حددت مصير العلاقات بين سيف الدولة وبنى كلاب ، لأن مصدر الأخبار عنهـــا يأتى فى أغلبه من القصائد الشعرية لأبى فراس الحمدانى ،ولا يعنى الشاعر بطبيعة الحال بتحديد زمن ما يرويه أو تعيين تاريخ ما يتناوله ، ولكن المؤرخ المحدث ،

---

(١) أبو فراس الحمدانى : ديوان شعره ، ج٣ص ٣٧٦ ومابعدها ،

Canard : op. cit. P. 600

« كانار » يرجع أنها حدثت فى نهاية عام ٣٣٧ ﻫ (٩٤٨ م) معتمداً على أن حصار سيف الدولة لبرزيه كان فى نفس العام بعد عودته من كفر طاب، حيث واصل حصاره لهذه القلعة حتى خريف نفس العام ، ثم استأنف جولته فى الجهات الساحلية التى كانت الأحداث بين بنى كلاب وبنى كلب قد قطعتها من قبل [١] .

ولم يخلد الكلابيون بعدئذ إلى السكينة ، فهم لا شك لم ينسوا ما نزل بهم فى كفر طاب على يد الحمدانيين ، كما أن أبا فراس كان أكثر شدة عليهم وقد أنزل بهم هزيمة جديدة فى إقليم بالس ، وقتل أحـــد زعمائهم ويدعى كثير بن عوسجة [٢] ، رئيس عشيرة بنى قريطع ، ولابد أن ذلك حدث قبل عام ٣٣٩ ﻫ (٩٥٠ م) ، فقد جاءت إشارة إلى ذلك فى إحدى قصائد أبى فراس وفى التعليق عليها ، وذكر مهلهل بن نصر بن حمدان فى تلك القصيدة وأشيد بدوره فى الحرب ، فلابد وأن ذلك حدث قبل العام المشار اليه ، الذى نعلم جيداً أن مهلهل هذا قد توفى فيه [٣] .

ونظراً لشدة أبى فراس على الكلابيين، اضطر هؤلاء للنزوح إلى مشارف صحراء سورية ، إلى مناطق أكثر انعزلا ، ومنها أخذوا يمارسون نشاطهم مما دفع سيف الدولة فى سنة ٣٤٢ ﻫ (نهاية صيف ٩٥٤ م) إلى توجيه حملة

---

(١) Canard : op. cit P. 601

(٢) الثعالبى : يتيمة الدهر ، جـ١ ص ٢٩ ــ ٣٠

(٤) الدهان : ديوان أبى فراس ، ص ٣٠٥

الثعالبى : نفس المرجع جـ١ ص ٣٥

جديدة اليهم فخرج بنفسه من حلب وأمر أبا فراس بالخروج من منبج للحاق به ، وعند جبل بشر التقى الأميران وقاما معا بالانقضاض على بنى كلاب ليلا وأنزلا بهم هزيمة كبيرة ومذبحة رهيبة ، واستولى سيف الدولة على قطعانهم ونسائهم ، ولكنه أظهر روحا طيبة تجاه النساء وعاملهن معاملة كريمة وردهن الى ذويهن ، ثم أعاد فى النهـــاية الى بنى كلاب قطعانهم كما فعل والده أبو الهيجاء من قبل معهم على طريق الحج (١).

على أن نشاط بنى كلاب هذا لم يكن شيئا مستحدثا أو أمرا غريبا ، لأنه يعد أحد مقومات الحياة القبلية لم تبرأ منه القبيلة بعد ، بل إنه كان جـزاء من نشاط بقية القبائل فى بلاد الشام والجزيرة ، وهو النشـاط الذى كان يسبب اضطرابا وقلقا للدولة الحمدانية ، خاصة إذا تم عن تحالف وتآزر بين القبـائل واتحاد جهودها وتوجيـه ذلك ضـد سلطه الدولة ، وكذلك إذا قام به من ينتسبون الى عصبية واحدة ، ومن يردون الى أصل واحد ، فكثيرا ما سبب تحالف القيسيين من بنى كلاب وبنى نمير وبنى عقيل ضغطا وإرهاقا واستنزافا لقوى الحمدانيين ، بعد أن تكرر خـروج تلك القبائل ورفعهم راية العصيان ضد سلطة الدولة ونظمها(٢).

لم ينقض غير عام واحد على آخر حملة لسيف الدولة ضد بنى كلاب ، حتى اندلعت ثورة جديدة سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) كانت ثورة قبلية عامة اشتركت

---

(١) Canard : op. cit. P. 608 وقد سجل ذلك أبو فراس فى شعره : كما أهلكت كعبا غداة جنا تها وعم كلابا ماجنته الجعافر

(٢) Canard : op. cit, P. 611. وأبو فراس ديوان شعره جـ٢ ص ٧٤ـ ٧٥

فيها فى هذه المرة عناصر يمنية من بنى كلب و بنى طىء ، بالإضافة إلى القيسيين من بنى عامر بن صعصعة ، مثل بنى نمير على حدود الفرات وفى إقليم الرقة ، و بنى كعب بن ربيعة بعشائرهم من عقيل وقشير ، هذا بالاضافة إلى بنى كلاب ويبدو أن سلطات سيف الدولة قد أرهقت هـذه القبائل وقيدت حركتها ، فلما سنحت الفرصة للثورة أشترك فيها الجميع معبرين عن سخطهم وحنقهم على الدولة [(١)] ، فاجتمع « نزاريها ويمانيهـا ، وتراسلت واتفقت على الاجتماع بسلمية » ، ولم تكد الحشود القبلية تتجمع حتى سارعت بالهجوم على قنسرين حيث أنزلت الهزيمة بعامل الحمدانيين فيها ؛ ويدعى الصباح بن عمارة الخارقى وعندئذ نهض سيف الدولة ومعه ابن عمه أبو فراس وأسرعا بلقاء الحشود القبلية وعليها حينئذ الندى بن جعفر ومحمد بن قريع العقيليان ، ودارت الحرب ضارية بين الفريقين انتهت بهزيمة القبائل العربية وقتل كثير من فرسانهم وفرار فلولهم حيث تتبعهم أبو فراس قتلا وأسراً « حتى ألحقهم بالغوير ولم ينج منهم الا من سبق به فرسه ، وأتبعهـم سيف الدولة حتى لحقهم بتدمر فقتلهم وأهلكهم عطشا وقتلا بالسماوة وأرضها » [(٢)] . أما بنو كلاب فقد عادوا الى إظهار خضوعهم و بعثوا بما عليهم من مستحقات ومكوس ، كما قدموا مجموعة من فرسانهم للالتحاق بقوات سيف الدولة النظامية .

وتعتبر حملة سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) التى قام بها سيف الدولة ضد القبائل العربية آخر حملة كبيرة من هذا النوع ، إذ لم نسمع عن حملة مثلها بعد ذلك

---

(١) Canard : op. cit, P. 612 – 14

(٢) الدهان : ديوان أبى فراس ، ج٢ص ١١–١٢

العام ، ويبدو أن القبائل العربية ـ وخاصة بنى كلاب ـ أدركت عبث المضى فى رفع راية العصيان ضد سيف الدولة واستمرار الخروج عليه بالصورة التى حدثت من قبل وخاصة أنه كان يميل نحو الكلابيين ويؤثر مؤازرتهم ، وفى ذلك كبح لجماح الكلابيين ، هـذا فى الوقت الذى أدرك سيف الدولة نفسه حاجته إلى تأييد كل القبائل ، وأهمية مسالمتها وكسب تأييدها [١] . ولهذا لم يحدث احتكاك مباشـر بين الطرفين فى السنوات العشر الأواخر من حكمه ، ولم تجر حروب بينهما بالصورة التى حـــدثت من قبل . حقيقة أن الكلابيين لم يخلدوا للسكينة ولم يهدءوا نهائيا ، إلا أن ثوراتهم فى تلك الحقبة لم تكن ذات أهمية كبيرة ، ولم تؤد إلى نتائج حاسمة ، بل إنها لم تثر انتباه سيف الدولة نفسه الذى حرص حينذاك على نشر الهدوء والسلم فى مضارب هذه القبيلة ، بل والاستعانة ببعض رجالاتها فى حروبه مع البيزنطيين [٢] .

ولعل أهم حادث خرج فيه بنو كلاب عن طاعة سيف الدولة فى تلك الفترة وآزروا الخارجين عليه ، ما حدث فى أواخـــر أيامه إبان الثورة التى فجرها بعض عمـاله فى أنطاكية منتهزين فرصة انشغاله وضعفه ومرضه . ففى ذى القعدة سنة ٣٥٤ هـ ، (ديسمبر ـ يناير ٩٦٥ ـ ٩٦٦ م) ، طرح رشيق النسيمى وابن الأهوازى طاعة بنى حمدان فى أنطاكية ، بل وتجرأ أولهما وزحف إلى حلب وهاجمها ، وعلى الرغم من نجاح الحمدانيين فى القضاء على حركة النسيمى وقتله ، الا أن قائدا آخر ويدعى دزبر ابن أوينم واصل العصيان فى أنطاكية ،

---

(١) Demombynes : Le Syrie. P. 219-220

(٢) Canard : op. cit, P. 618

ولما حاول الحمدانيون انهاء عصيانه تعرضوا للهزيمة ، ودخل دزبر حلب فى جمادى الأولى سنة ٣٥٥ هـ (مايو ٩٦٦م) وتركت يد بن الأهوازى - شريك دزبر - حرة فى شمال الشام ، فاستقر فى « حاضر قنسرين وجمع اليه بنى كلاب ، وجبى الخراج من بلد حلب وحمص »[١] .

ولم يجد سيف الدولة عندئذ بداً من الخروج بنفسه إلى حلب للقضاء على تلك الثورة ،ولم يكد يقترب منها حتى خرج الثائران بقواتها إلى شرقى المدينة، فدخلهـا سيف الدولة . وعلى الرغم من مرضه وحمله على محفة . الا أنه لم يمكث سوى ليلة واحدة أصر بعدها على لقاء الثوار ، فسار مسرعا اليهما ، وحدث اللقاء فى مكان شرقى المدينة يسمى « سبعين » فى إقليم الناعورة ، وعند ظهوره محمولا على محفة ، قام بنو كلاب - وكانوا يمثلون الجانب الأكبر من القوات المعادية - بالتخلى عن أماكنهم مستأمنين إليه ، مما أدى سريعاً الى هزيمة جيش الثوار ، وانتصار سيف الدولة « ووضع السيف فى عسكر دزبر وضع محنق مغيظ ، فقتل جمعا كبيرا وأسر خلقـا فقتلهم صبرا » . ويرجع الفضل فى ذلك - كما هو واضح - لحركة بنى كلاب ، وانحيازهم إلى جانبه[٢] ولم تنقض أيام على تلك المعركة حتى اشتد المرض على سيف الدولة وكان حينئذ بشيزر ، فتركها إلى حلب ، فلم يمض بها أكثر من ثلاثة أيام حتى جاز إلى ربه يوم الجمعة العاشر من صفر سنة ٣٥٦ هـ (يناير ٩٦٧م)[٣] .

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ١ ص١٤٩-١٥٠

(٢) Canard : op. cit. P. 652-3

(٣) ابن العديم : زبدة جـ١ ص ١٥١

وقد واصل بنو كلاب نشاطهم فى المنطقة على عهد خلفاء سيف الدولة ، بل أن نشاطهم اطرد وزاد خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، ولعل ذلك راجع فى أغلبه إلى طلاقة أيديهم عن ذى قبل ، بعد أن زالت سطوة سيف الدولة عنهم وتخلصوا من ربقة التبعيــــة له ، وأحسوا بشىء من الارتياح والانطلاق ، لكننا يجب أن نسرع إلى تسجيل ملاحظة هامة تتعلق بدورهم خلال النصف الأخير من القرن المذكور ، ذلك أن أغلب البطون الكلابية لعبت دورا هاما وجديدا فى نفس الوقت إلى جانب الحمدانيين وفى سبيل نصرتهم ، والتزمت بالانحياز إلى هذا البيت وتأكيد أحقيته فى إمارته ، وهو اتجاه جديد فى سياسة هذه القبيلة دون شك بخلاف ماحدث إبان الفترة المنصرمة .

ولكن على الرغم من التزام أغلب البطون الكلابية بهذه السياسة ، والمحافظة على هذا الاتجاه ، الا أننا نجد عشائر كلابية أخرى تنحاز إلى جانب المناوئين لسلطة البيت الحمدانى وتنضم إلى الأحزاب المعارضة لحكمهم ، وليس لدينا تعليل لذلك إلا أن كثيرا من العشائر الكلابية كانت قد تناثرت فى جهات متفرقة من بلاد الشام ، فنسمع عن كلابى دلوك [1] وكلابى حمص ، فضلا عن البطون الأخرى من بنى كلاب على مشارف صحراء سورية عند تدمر وقرب حلب وجهات أخرى فى شمال الشام ، ولابد وان الرغبة فى الاستقرار قد جذبت جانبا من تلك العشائر وكانت فرصة ضمها إلى جانب أو إلى آخر لايخضع للحركة الكلية للقبيلة الكلابية فى مجموعها . وطبقا لهــــذا المفهوم ، وجدنا بعضهم أحيانا فى الجانب المعارض لسلطة الأمراء الحمدانيين فى شمال

---

(١) Canard : op cit: P. 610

الشام ، فى الوقت الذى انحازت فيه الجموع الأخرى إلى جانب الأمـــير الحمدانى نفسه .

والواقع أن سيف الدولة الدولة كان قد خلف لابنه أبى المعالى سعد الدولة ٣٥٦ – ٣٨١ هـ (٩٦٧ – ٩٩١ م) تركة مثقلة بالأعباء والمتـــاعب ، وإمارة تتكاثر من حولها الأطماع وتتجمع فى أفقها الغيوم والعواصف ، لكن من حسن حظ هذا الأمير أن معظم الجموع الكلابية كانت قد انتهجت سياستها الجديدة المشار إليها وغيرت موقفهـــا المألوف والتزمت بنصرة هـــذا البيت ومعاضدة أمرائه .

فبعد وفاة سيف الدولة بعام واحد (سنة ٣٥٧ هـ) تفجر الصراع بين سعد الدولة هذا وابن عمه أبى فراس الحمدانى ، الذى كان حينئذ بحمص يتأهب لخوض الحرب طمعا فى الإمارة ، وعندئذ خرج إليه سعد الدولة متجها نحو الجنوب فنزل بسلمية ، وجمع بنى كلاب وغيرهم ، بينما ترك أبو فراس حمص منحازا إلى عشائر أخرى من بنى كلاب فى الجنوب الشرقى من حمص عند صدد ، ويبدو أن جموع بنى كلاب وبنى عقيل التى وقفت بجانب سعد الدولة وحاجبه فرغويه كانت أقوى وأكثر من الكلابيين الذين وقفوا فى صف أبى فراس لأن الدائرة دارت فى النهاية على هذا الأخير واستأمن معظم أصحابه إلى الجانب الآخر ، فأمر قرغويه بضرب عنق أبى فراس وذلك فى أوائل سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وانتهى بذلك أول خطر دهم سعد الدولة وهدد إمارته [١] .

---

١ ابن العديم : زبدة جـ١ ص ١٥٦–١٥٧

Brockolmann, Gibb : Encyc. Isl. art. «Abu Firas»

وحين تغلب قرغوية وبكجور على حلب واتخـذ سعد الدولة من حمص مستقراً [١] ، قام بنو كلاب بمؤازرة سعد الدولة لاسترداد إمارته وساروا معه إلى حلب وكان قد وقع شقاق بين بكجور وقرغويه وأودع الأخير السجن، فلم يجد سعد الدولة صعوبة كبيرة فى استعادة المدينة بعد أن استسلم له بكجور ، فعفا عنه فى النهاية وولاه مدينة حمص سنة ٣٦٦ ﻫ (٩٧٦ م) وكافأ بنى كلاب أيضا فمنحهم « الإقطاع المعروفة بالحمصي » (٢)

ولكن بكجور عاد من جديد إلى مغامراته ضد حلب ، وكان قد ترك حمص إلى دمشق فى طاعة الفاطميين ، ثم ما لبث أن طردته القوات الفاطمية منها فى رجب سنة ٣٧٨ ﻫ (أكتوبر ٩٨٨ م) فهرب إلى الرقة ومنها أخذ يتطلع إلى الاستيلاء على حلب ، خاصة بعد وفاة الحاجب قرغويه سنة ٣٨٠ ﻫ (٩٩٠ م) « فجمع بنى كلاب واستغوى بنى نمير » وراح يعيث فسادا فى شمال الشام وألق الحصار على بالس ، عندئذ سارع سعد الدولة بحشد جيشه وخرج من حلب « فى جميع عسكره وبنى كلاب » ، وكان جيشه يتكون من نحو ستة آلاف مقـــاتل من الأتراك والديالمة ونحو خمسائة من بنى كلاب من عشيرة عمرو بن كلاب ، ولحقت به نجدة بيزنطية من أنطـاكية تحت قيادة ميخائيل بورتزيه (البرجى في المصادر العربية) والتقى الجميع فى الناعورة فى المحرم سنة ٣٨١ (أبريل ٩٩١ م) (٣) ، وعلى الرغم من حشود بكجور وكثرة بنى كلاب في جانبه ، إلا أن الدائرة دارت

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص٢٧

(٢) ابن العديم : زبدة جا ص ١٧٠ ـ ١٧١

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص٢٧٧ Canard : op. cit. P. 688

عليه فى النهاية وانتهى الأمر بهزيمته ومقتله ووضع حد لأطماعه فى حلب . ولم يعمر سعد الدولة بعد ذلك طويلا ، إذ أنه توفى فى رمضان سنة ٣٨١ هـ (ديسمبر ٩٩١ م)[١] .

تجمعت الأطماع حول الإمارة الحمدانية من جديد ، وإزدادت الأخطار المحدقة بها بعد أن تولى الأمير الجديد أبو الفضائل سعيد الدولة(٣٨١-٣٩٣هـ) (٩٩١ - ١٠٠١ م) فى وصاية لؤلؤ السيفى ،فتعرضت حلب لهجمات الجيش الفاطمى ممـا دفع سلطاتها إلى التماس المساعدة من الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى[٢] ، وتكررت هجمات الفاطميين على حلب بقيادة منجو تكين (بنجوتكين) حتى أنها تعرضت للحصار ثلاث مرات متتالية فى يوليو سنة ٩٩٢ م (جمادى الأولى سنة ٣٨٢ هـ) ، وفى فبراير سنة ٩٩٣ م (ذى القعدة سنة ٣٨٢ هـ) وفى مارس سنة ٩٩٤ م (صفر سنة ٣٨٤ هـ) فساءت أحوالها وأوشكت على الاستسلام[٣] .

على أن الإمبراطور البيزنطى ما لبث أن كاتب ميخائيل بورتزيه حاكم

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٣٤ ،

ابن العديم : زبدة جـ١ ص١٧٨ _ ١٧٩ ،

Camb. Med Hist. 5. P. 251

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص٦٨

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٤_١٧٥

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٤ص ١١٨ ،

Grousset : L'Empire du Levant. P. 124

Vasilieuv: Hist de L'Empirë Byzanntine, P. 412

أنطاكية بأمره بالسير إلى حلب لدفع المغاربة عنها [١] فسار في قواته ونزل جسر الحديد بين حلب وأنطاكية . عندئذ رأى القائد الفاطمي بنجوتكين وبقية القادة ضرورة المبادرة بلقاء الروم قبل وصولهم إلى حلب والاجتماع بقواتها ، وساروا مع عدة أخرى كثيرة انضافت إليهم من أهل الشام وبنى كلاب ونزلوا تحت حصن إعزاز ، ثم التقوا بالقوات البيزنطية في النهاية على ضفاف نهر العاصي وأنزلوا بها هزيمة ساحقة ، حتى ليذهب المؤرخ إبن القلانسي إلى أن خسائر الروم بلغت نحو عشرة آلاف قتيل أرسلت رؤوسهم إلى مصر وشهرت بها[٢] . ويبدو أن الجيش الإسلامي المنتصر تقدم بعد ذلك إلى أسوار أنطاكية ، لكنه لم يستطع المضي في مشروعه فعاد مرة أخرى إلى ضواحي حلب[٣] .

وما يهمنا من هذه الأحداث كلها هو موقف بني كلاب في هذه المرة في جانب القوات الفاطمية ، ويبدو أن تحصن الحمدانيين في حلب وعدم انطلاق أيديهم في اجتذاب بني كلاب ، فضلا عن استنجاد لؤلؤ بالبيزنطيين ، لم يكن ليرضي زعماء بني كلاب ، ففضلوا الحرب في جانب القوات الإسلامية ضد الروم ، ولا بد وأنهم خضعوا أيضا لمغريات مادية من أعطيات ورواتب وغيرها . على أنه لا يجب أن نحرم هؤلاء الأعراب من شرف القتال مع الجانب

---

(١) Camb. Med Hist. 5. P. 251

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٤١–٤٢

(٣) Grousset : op. cit P. 124

Ostrogorsky : Hist. of The Byzantine State. P. 213 (tran. by Joan Hussey)

الاسلامى ضد مسيحى الروم بوازع دينى أو على الأقل بحماسة عربية واندفاع بدوى ، والدليل على ذلك أن هذا المثل تكرر بعد ذلك ،ولو أن موقفهم إبانه شابه شيء من الغدر لانجد له سببا إلا طبيعتهم البدوية وحرصهم على الاستفادة المادية فى كافة الظروف .

ذلك أنه فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) شهدت بلاد الشام وفلسطين قلاقل وثورات ضد الحكم الفاطمى ، وخرجت صور عن طاعتهم وهوجمت أفامية على يد القوات البيزنطية بقيادة حاكم أنطاكية دلاسنيوس سنة ٩٩٨ م(١) وأثار المفرج بن دغفل بن الجراح الاضطرابات فى فلسطين ، مما دفع السلطات المصرية إلى إنفاذ جيش كبير لإنهاء هذه الفتنة وقتال الروم. وقد نجح الجيش الفاطمى بقيادة ابن الصمصامة فى إخماد تلك الثورات فعلا ودخل دمشق يتجهز لقتال البيزنطيين ، وعندئذ هرع إليه نحو ألف فارس من بنى كلاب(٢) ولما نشبت المعركة فى مرج أفيح قرب أفامية على نهر العاصى بين القوات الإسلامية والروم ، ولاحت نذر الهزيمة على الجانب الاسلامى واضطربت القوات الإسلامية وأخلى بعضها أماكنه فى ساحة القتال ، اعتقد بنو كلاب أن الهزيمة واقعة لا محالة فسارعوا بنهب ما استطاعوا ولاذوا بالفرار ، غير أن جانبا من القوات الإسلامية صمد فى المعركة ، فتحولت الهزيمة إلى نصر حاسم للمسلمين ، وقتل حاكم أنطاكية ومنيت القوات الرومية بخسائر فادحة

---

(١) Schlumberger : L'Epopée. 11. P. 110

أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ص ٢٢٧

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٥١

فى الأرواح(١) .

ورغم هذا الموقف الذى اتخذه بنو كلاب ، إلا أنه لا يقلل من قيمة الدور الذى لعبوه فى هذه المعركة ، خاصة وأنهم أعادوا كل ما استولوا عليه إلى المعسكر الإسلامى بعد انتهاء المعركة(٢) .

على أن هؤلاء الكلابيين العرب أقنعونا بعد تدارس المثل التالى بضرورة عدم حرمانهم من شرف القتال مع الجانب الاسلامي ضد مسيحى الروم بوازع دينى وحماسة عربية بدوية فى هذا الدور من نشاطهم فى المنطقة ، ففى العام التالي (٩٩٩ م) ٣٨٩ هـ قام الإمبراطور باسيل الثانى بحملة على بلاد الشام بهدف رد اعتبار الإمبراطورية بعد الهزيمة التى تعرض لها دلاسنيوس حاكم أنطاكية عند أفامية ، وقد أسفرت هذه الحملة عن استيلاء باسيل على شيزر حيث وطن بها جالية من الأرمن ، كما استولى على حمص وبعلبك وأحرق حصن عرقة ودمر قلعته، لكنه مع ذلك لم يصادف نجاحا أمام طرابلس(٣) لشدة أهلها وقوة مراسيهم ، فاضطر إلى رفع الحصار عنها ، كما وقعت فى يده أرتاح والجهات القريبة من أنطاكية وكفر عزوز فى الجنوب الغربى من الرها (٤) .

---

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٥١–٥٢

يحيى بن سعيد : التاريخ ، ص١٨٢

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٥١–٥٢

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ص٩٦

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٦ – ١٨٧

Sohlumberger . L'Epopée. 11. P. 436

وعلى الرغم من أن باسيل أوقف نشاطه بعد ذلك، وعاد إلى أنطاكية في يناير سنة ١٠٠٠ م، ثم ما لبث أن عقد معاهدة صلح مع الخلافة الفاطمية مدتها عشر سنوات ابتـــداء من سنة ١٠٠١ م[١]، إلا أن ما جرى إبان حملته من الحرق والتدمير والقتل أثار كثيرا من الشخصيات الإسلامية والعربية، فأعلن الأصفر التغلبي سنة ١٠٠٥ م (٣٩٥ هـ) حركة الجهاد المقدس ضد الروم، وانضم إليه كثير من العرب وسكان القرى، وأخذ في التحرك من الجزيرة إلى شمال الشام فانضم إليه عرب بني نمير وبني كلاب بقيادة وثاب النميري حاكم سروج، وأقوى زعماء الجزيرة من العرب[٢].

وقد لعب الـكلابيون دوراً هاما في هذه الحركة، فهاجموا مع الأصفر الجهات التي سقطت مؤخراً في يد باسيل مثل شيزر[٣] وأرتاح وضواحي أنطاكية وكفر عزوز قرب الرها. وقد استمر نشاط الأصفر نحو عامين من ١٠٠٥ — ١٠٠٧ م، (٣٩٥ — ٣٩٧ هـ) لكنه لم يحرز نجاحاً كبيرا، فتخلى عنه في النهاية أتباعه وسقط في يد لؤلؤ حاكم حلب فاعتقله في قلعة المدينة[٤].
وواضح أن موقف بني كلاب جلال هذه الحركة كان متمشياً مـــع

---

(١) Grousset : L'Empire du Livant. P. 125-6
Vasilieuv : Hist. de L'Empire Byzantine
I. P. 412.
Brébier : Vie et Mort de Byzance. P. 22?

(٢) ابن العديم : زبدة، جا ص ١٨٦

(٣) Honingmann. Inc. Islam art. «Shaizar»

(٤) ابن العديم، زبدة، ج ١ ص ١٩٦ .

ما التزموا به مؤخرا من الانضمام إلى الجانب الإسلامي في مواجهة الروم المسيحيين .

ما حدث بعد ذلك في حلب يوضح مدى الضعف والاضمحلال الذي آلت إليه الإمارة الحمدانية ، وازدياد قوة الأعراب بما فيهم بنو كلاب ، فقد توفي سعيد الدولة ثالث الأمراء الحمدانيين بحلب [١] في صفر سنة ٣٩٢ هـ (يناير ١٠٠٢ م) — وتحكم لؤلؤ السيفي الكبير في ولديه أبا الحسن عليا وأبا المعالي شريفا ، فسيرهما إلى مصر وانفرد بالأمر دونهما سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) فاعترف بتبعيته للفاطميين ، وكذلك دفع رسوم التبعية للامبراطور البيزنطي [١] .

ولما توفي لؤلؤ عام ٣٩٩ هـ (أغسطس ١٠٠٩ م) آلت حلب إلى ابنه منصور الملقب « مرتضي الدولة » ، فتفرد بحكمها فشهدت حلب فترة ضعف واضمحلال وقلاقل ساعدت بني كلاب على المشاركة الايجابية في الأحداث أكثر من قبل ، حتى ليصفهم المؤرخ ابن العديم في هذه الفترة بأنهم « المتدبرين ببلد حلب » [٣] ، ولما زاد ظلم منصور بن لؤلؤ وتعسفه ، استقر رأى أهل حلب وبنو كلاب على محاولة إعادة البيت الحمداني . وكان لسعد الدولة ولد يدعى أبو الهيجاء ، وقد فر من حلب خوفا من لؤلؤ وابنه ولجأ إلى البلاط

---

(١) Lane - poole : op. cit. P. 112

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ج ٨ ورقة ٧٧ ،

Camb. Med. Hist. 5, p, 254

(٣) ابن العديم : زبدة ، ج ١ ص ١٩٩ .

البيزنطى، فكاتب أهل حلب وبنو كلاب ابن مروان أمير ميا فارقين يطلبون وساطته فى إعادة أبى الهيجاء، لما بينهما من صلة المصاهرة ، ولما قدم أبو الهيجاء تصحبه معونة عسكرية كردية من ابن مروان انحاز إليه بنو كلاب وساروا فى صحبته إلى حلب سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) ، عندئذ استنجد ابن لؤلؤ بالفاطميين ، وأخذ فى استمالة بنى كلاب فلوح لهم بالإقطاعات والأعطيات « وحلف لهم أن يساهمهم أعمال حلب البرانية » [1] فمالوا عن أبى الهيجاء وتقاعسوا عن نصرته ، وفى نفس الوقت وصلت إلى حلب معونة فاطمية تحت قيادة ابن حيدرة قاضى طرابلس مما عجل بهزيمة أبى الهيجاء ، ففر عائداً إلى القسطنطينية وأقام بها [2] .

على هذه الصورة أصبح لبنى كلاب ضلع فيما يجرى من أحداث فى شمال الشام بأسره ، وببداية القرن الخامس الهجرى زاد نشاطهم كثيراً وغدوا من القوة بحيث أصبح من العسير على حاكم حلب تجاهلهم أو الحط من شأنهم ؛ وليس من شك فى أن ذلك كان حصاد قرن طويل من النشاط والدأب، ونتيجة حتمية لمشاركتهم الفعلية فى شئون المنطقة ، حتى استطاعوا فى النهاية تأسيس إمارتهم فى حلب كما سيلى .

يستنتج من كل ما سبق — فيما يختص بدور بنى كلاب — أنه خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وإبان حكم سيف الدولة ، كان بنو

---

(١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٢) Canard : op. cit P, 711

كلاب وغيرهم من القبائل يمثلون الشغل الشاغل لهـذا الأمير وعنصراً هاما من عناصر القلاقل للدولة ، ويستأمرون بجـانب من جهـود الأمير . وليس من شك فى أن عملية ترويض هذه البطون البدوية حديثة العهد ببلاد الشام لا يعد أمراً هيناً،خاصة بعد أن أحيوا العصبية القبلية واتبعوا أساليب النهب والسلب والإغارات والـــكر والفر ،لهذا جندت ضدهم الجنود واستهدفتهم الحملات المتلاحقة ، فاضطروا فى النهـاية للاذعان على مضض وأعلنوا التبعية ورضوا بحدودها وأبعـادها ، ولم يـكن لهم تأثير فى مجريات الأمور فى الدولة ، وإن استنزفوا جانبا من قواها ونشاطها كانت فى أشد الحـاجة إليه فى صراعها مع المتربصين بها ، خاصة من البيزنطيين .

أما فى عهد خلفاء سيف الدولة، وابتداء من النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، فقد أطلقت أيديهم وأصبحوا عنصراً هاماً فى الأحداث التى شهدتها المنطقة حينذاك ، وان التزم جانب كبير منهم بمناصرة الحمدانيين ، إلا أن جانبا آخر انجذب إلى صفوف الثوار والخارجين والطامعين ، سواء عن اقتناع أو عن رغبة فى مغانم وإقطـاعات وأعطيات ، وشارك آخرون منهم فى الحروب ضد البيزنطيين وفى صفوف القوات الفاطمية،ولا يزال نشاطهم يطرد وتزداد قوتهم حتى غدوا المدبرين فى شمال الشام بأمره .

على أنه لايفوتنا أن ننوه بأنه على الرغم من مرور قرن طويل على مجيئهم إلى هذه البلاد وانجذاب كثير منهم إلى حيـاة الاستقرار أو شبه الاستقرار ، إلا أن أكثرهم ظل أميل إلى حياة الانطلاق والحرية ، وأكثر عزوفا عن حياة القصور والمدن ، وفرسانهم أكثر رغبة فى عرض خدماتهم على هذا الجانب أو ذاك ، وفى ظل حياة الانطلاق وحياة الاستقرار ، ومع حماسة بدوية وفهم

حضرى ، ومزيج من نظم عربية أصيلة وأخرى بدوية جافية ، قامت إمارة بنى مرداس الكلابية فى حلب لتعمر أكثر من نصف قرن من الزمان ، وتعطينا أنموذجا للحكم العربى الذى يستند إلى جذور ضاربة فى القدم ، ويعود إلى أصول قبلية مرحت أجيالا فى جوف الجزيرة التى كانت على مر الزمن المعين الذى تدفقت منه الهجرات المتتالية إلى بلاد الشرق الأدنى فى أزمنة متلاحقة أحيانا متداخلة أحيانا أخرى .

(ب) تأسيس الإمارة المرداسية فى حلب

بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) غدت الظروف أكثر ملاءمة لقيام بنى كلاب بتأسيس إمارة لهم فى شمال الشام ، والواقع أن ذلك كان أمرا متوقعا ، نظرا لازدياد نفوذهم مع ضعف السلطات الحاكمة فى حلب، وتكالب الأطماع من حولها . وقد كشفت تلك الأحداث المتلاحقة عن شخصية فريدة بين زعماء بنى كلاب ، وقائد محنك من قادة هذه القبيلة ، كان له فضل تأسيس الإمارة الكلابية فى تلك المنطقة ، ألا وهو « صالح بن مرداس » .

وعلى الرغم من أن أخبار المرداسيين وتاريخ إمارتهم فى حلب قد ملأت صفحات ضافية فى المصادر العربية المعاصرة واللاحقة، إلا أن تلك المصادر خلت تقريبا من ترجمة وافية لصالح بن مرداس نفسه، مؤسس هذه الإمارة ومنشئها ، فلا نجد بين أيدينا ترجمة معقولة لهذه الشخصية يمكن أن تفى بما نحن فى حاجة إليه عن حياته ، وخاصة قبل قيامه بالحكم (١) . ولعل ذلك راجع فى أغلبه إلى أن عشيرته الكلابية لم تكن من عشائر بنى كلاب القاطنين قرب حلب وفى شمال الشام منذ زمن ، وإنما كانت قد أتت تواً تحت قيادته من شمال العراق حيث كانت تمرح هناك قبل أن تدلى بدلوها فى أحداث حلب (٢) . ولهذا

---

(١) Sobernheim : Encyc. Isl. art (SALIH UBN MIRDAS)

(٢) Canard : op. cit. P. 712

فنحن لا نعرف عنه شيئاً قبل سنة ٣٩٩ هـ، (١٠٠٨ م) حين ظهر فجأة عند الرحبة واشترك فيما جرى بهذه المدينة من أحداث [١] .

وتشير كثير من الدلائل إلى أنه كان رجلا حازما شجاعا [٢] ـ « ذا بأس وعزيمة وأهل عشيرة وشوكة » ، مع شيء من القسوة والغلظة [٣] .

وقد جاء ذكر صالح بن مرداس لأول مرة فى أحداث سنة ٣٩٩ هـ، لدى المؤرخ ابن الأثير ؛ ففى ذلك العـام حدثت فتن فى مدينة الرحبة على الفرات وآلت هذه المدينة إلى رجل يدعى ابن محـكان ، الذى كان يرغب فى حفظ مدينته من الأطــماع المحيطة ، فراسل صالحا بن مرداس ليستعين به فى ذلك « فقدم إليه هذا وأقام عنده مدة » .

ويدل سير الحوادث بعدئذ على أن هـذا القـائد كان لا يزال أسير عاداته الجافية وقسوته البدوية ، إذ سرعان ما تغير على حليفه ابن محكان ، وقاتله على البلد وقطـع الأشجار « ولم ينقذ هذا الحليف حينئذ سوى مسارعته إلى طلب الصلح وشراء رضاء صالح بتزويجه من ابنته ، إلا أن ذلك كله لم يمنع صالحا

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ٢٧١ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٣) ابن خلـكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ص ١٨٠ (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد)
ابن الوردى : تاريخه جـ ١ ص ٣٣٦ . ويذكر انه تبض فى سنة ٤١٥ هـ على القاضى أبى أسامة بحلب ودفنه حيا فى تلمة المدينه . فقال الشاعر فى ذلك :

وأد القضاة أشد من ... وأد البنات عمى وغيا
أدفنت قاضى المسلمين ... بقامة الشهباء حيـــا

من الغدر به ، فانتهز فرصة قيـام ثورة في مدينة عانة — التـابعة للرحبة — واستنجاد ابن محكان به لإنهاء الثورة بها ، فسار بصحبته لإخمـــادها، وفي الطريق مالأ على قتله، فاغتيل ابن محكان فجأة،وسار صالح إلى الرحبة فملكها واستولى على أموال ابن محكان فيها ، وأقام الدعوة بها للمصريين [١] ، وفي العام التـالي مباشرة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) بدأ لأول مرة يتدخل في شئون حلب [٢] .

وفي الوقت الذي قام فيه صالح بهذا الدور، كانت أمور حلب مضطربة فعلا وساءت أحوالهـــا كثيراً ، نظراً لسوء تصرف حاكمها منصور بن لؤلؤ ، وازدياد سلطة بني كلاب . فقام منصور في سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) — طبقاً لمعلومات غير دقيقة وصلت إليه بوفاة الخليفة الحاكم — بمحاولة الاستيلاء على الحصون والمدن القريبة منه ، معتمدا على مساعدات بيزنطية من أنطـاكية ، فنزل بجيشه معرة النعـمان قاصداً أفامية وعندئذ استغـاث والي الحصن بالخليفة الحاكم ، كما بعث يستنجد بوالي حمص ووالي طرابلس ، فأتته النجدات منهما ، ثم أتت أخبار تترى بأن الحاكم أخذ يتأهب للحرب [٣] وعندئذ خاف منصور وأخذ يتراجـع إلى حلب ، وبعث في نفس الوقت إلى والي حمص وطرابلس

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ص ٢٤٣ .

(٢) Lane-poole : op cit. P. 114

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ورقة ٧٨ .

ابن العديم : زبدة ، جـ ١ ص ٢٠١ .

Canard : op. cit. P. 713

يستعطفها ، وأرسل إلى صالح بن مرداس يطلب عونه ومساعدته ، ولما قدم صالح إلى حلب ، رأى خوف ابن لؤلؤ وجزعه فطمع فيه وسلط العرب عليه فاستطالوا وطلبوا الإقطاعات والخلع »[١] .

وقد تعسف بنو كلاب فى مطالبهم وشروطهم فى هذه المرة بالإضافة إلى مطالبهم المطروحة بعد فتنة أبى الهيجاء — كما سبقت الإشارة ، ولكن منصورا ماطلهم ودافعهم « فتسلطوا على بلد حلب وعاثوا فيه وأفسدوا ورعوا الأشجار وقطعوها »[٢] . وعندئذ لم يجد منصور بدا من الاحتيال عليهم فى محاولة للتخلص من زعمائهم ، فدعاهم إلى حلب تحت ستار بحث طلباتهم ، وأظهر الرغبة فى استقامة الحالة بينه وبينهم، فدخل منهم نحو خمسمائة فارس إلى حلب، « فمد لهم السماط فأكلوا ، لكنه أمر فجأة بإغلاق أبواب المدينة ، وقبض على مائة وعشرين رجلا من زعمائهم منهم صالح بن مرداس وحبسهم بالقلعة وقتل مائتين آخرين وأطلق الباقى منهم »[٣] ، وذلك فى ذى القعدة سنة ٤٠٢ هـ (١٠١٢ م) . ولم يكتف منصور بذلك ، بل إنه ألزم صالحا بطلاق زوجته طرود ، وكانت من أجمل أهل عصرها فطلقها وتزوجها هو ، وأساء معاملة الزعماء المسجونين حتى « مات أكثرهم فى الضر والهوان والقلة والجوع »[٤].

---

(١) سبط بن الجوزى : المرجع السابق ص ٧٨ .

(٢) يحيى بن سعيد : تاريخه ، ص ٢١١ — ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٠ ،

Schlumberger : op. cit. II, P. 449

(٤) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٢ ،

Canard : op eit. P: 712

وأهمية هذه الأحداث لا تكمن في أنها تعبر عن إذلال قوم أو الحط من شأن قبيلة على يد حاكم أو وال بقـــدر ما تعبر عن روح الجشع لدى ذلك الحاكم ، ولعل هذه الحادثة كان لها ضلع في تصميم بني كلاب على الإطاحة بهذا الحاكم وهدم إمارته ، ومن جهة أخرى كانت فرصة لإلقاء الضوء على صالح بن مرداس بالذات ، وبث الحماسة في نفسه للانتقـام ممن أذله وسجنه واغتصب زوجته ، وشتت شمل عشيرته .

بقي صالح سجينا في قلعة حلب نحو ثلاث سنين (٤٠٢ — ٤٠٥ هـ) عزم منصور خلالها أكثر من مرة على قتله والتخلص منه فاضطر صالح إزاء ذلك إلى الهرب من سجنه مخاطرا بنفسه ، وذلك في المحرم من سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤م) فنجا في قيده بأعجوبة [١] ، وسار إلى مرج دابق حيث أهـله وعشيرته ، ثم سار إلى الحلة حيث تجمع حوله بنو كلاب من جديد ، وقويت نفوسهم بخلاصه ، وأخذ يتأهب لقتال منصور ولم يمض أكثر من أربعين يوما حتى كان صالح قد نزل بقواته على تل حاصد قريبا من حلب [٢] .

---

(١) تشير الروايات إلى أنه احتال في سجنه حتى وصله في طعامه « مبرد » فبرد حلقة قيده الواحدة وفكها واستعصت الأخرى عليه ، فشد القيد في ساقه ، وثقب حائط السجن وخرج منه ليلا وتدلى من القلعة إلى التل فوقع سالما . وقد اضطر إلى الاستتار في مغارة جوش أثناء البحث عنه ، ثم ما لبث أن سار إلى الحلة حيث اجتمعت لديه بنو كلاب وفرحوا بنجاته .

ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٢ / ٢٠٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٠ .

(٢) يذكر ابن الأثير (الكامل ج ٧ ص ٢٦٩) أن صالحـــا حاصر حلب ذاتها ٣٢ يوما .

حشد منصور جيشه وخرج فى ١٢ من صفر سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) للقاء صالح عند تل حاصد ، وتم اللقاء فعلا هناك وانجلت المعركة عن هزيمة منكرة لمنصور وفرار معظم رجاله ، ومقتل كثير من جنوده ووقع هو فى الأسر بينما فر أخ له إلى حلب وقام بالدفاع عنها . وحينما حمل منصور إلى صالح بن مرداس قيده بنفس القيد الذى كان مقيدا به هو من قبل [١] . ثم دارت المفاوضات بين الطرفين وانتهت بإطلاق سراح منصور نظير تعهده بدفع فدية كبيرة وتقديم بعض الهدايا وإطلاق من بحلب من بنى كلاب وإقطاع صالح « الثلث من نواحى حلب وبالس ومنبج » [٢] واتفق كذلك على زواج صالح من ابنة منصور تدعيما لتلك المصالحة وزيادة أواصر الصداقة .

وعلى الرغم من أن منصورا قد وفى بمعظم هذه الشروط ، وخاصة الفدية والهدايا ، إلا أنه تلكأ فى موضوع زواج إبنته من صالح ، ولهذا لم تعمر هذه المصالحة طويلا ، وسرعان ما توترت العلاقات بينهما من جديد ، فانتهز صالح فرصة شقاق وقع بين منصور ووالى قلعة حلب ويدعى فتح القلعى ، فقام صالح بإغذاء النزاع وتوسيع شقة الخلاف بينهما ، فعصى والى القلعة منصورا ورفض فتح أبواب القلعة ، وبعث إلى منصور يقول : « إما أن تخرج من حلب وإلا سلمت القلعة إلى صالح » وفى نفس الوقت أخذ فى الاتصال

---

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٥ ،

Sobernheim. Salih Ibn Midras

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ٨٠ — ٨١ .

بالفاطميين لإقامة الدعوة للحاكم في حلب [١] .

ولما تأكد منصور من تكاثر أعدائه عليه ، فضلا عن استياء العامة وكراهيتهم له سارع بالهرب من حلب في يناير سنة ١٠١٦ م (رجب ٤٠٦ ﻫ) حيث لجأ إلى حاكم أنطاكية البيزنطي ، فأمر الإمبراطور باسيل الثاني بإكرامه ومنحه قصرا في جبل ليلون قريبا من حلب ، فأقام فيه وأخذ يرقب – على البعد – الأوضاع في حلب ، ولكنه لم يجرؤ على العودة إليها [٢] .

لم يمض وقت طويل حتى تخلى فتح عن قلعة حلب للفاطميين وعوض عنها بصيدا وبيروت وصور [٣] ، وتسلم عامل الفاطميين ويدعى عزيز الدولة فاتك (الأرمني) حكم حلب ، وذلك في فبراير سنة ١٠١٧ م (رمضان سنة ٤٠٧ ﻫ) ، إلا أنه سرعان ماطرح طاعة الفاطميين واستقل بحلب سنة ١٠١٨ م ، وضرب الدينار والدرهم باسمه « ودعا لنفسه على المنبر » وتبادل الرسائل مع الإمبراطور باسيل يبذل له الطاعة والولاء ، فأمر الخليفة الحاكم بإعداد الجيوش لمحاربته سنة ١٠٢٠ م (٤١١ ﻫ) لكن هذا المشروع أوقف بسبب اختفاء الحاكم في نفس العام [٤] .

---

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠٥ – ٢٠٧ .

(٢) Canard : op cit. P. 712

Camb. Med Hist. 5, P. 255

يحيى بن سعيد : التاريخ ، ص ٢١٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ؛ ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ، ص ٢١٦ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢١٦/٢١٨

Schlumberger : op. cit. 11. P. 455

ولما تولى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله في وصاية عمته ست الملك ، عملت هذه على التخلص من فاتك بالحيلة ، ونجحت في تأليب بعض أتباعه عليه فاغتاله غلام له وهو نائم في ربيع الآخر سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، وبذلك عادت حلب إلى حظيرة الدولة الفاطمية من جديد ، إلا أنهم اضطروا مع ذلك للاعتراف بامتيازات ومكانة بني كلاب (١) .

ثم كان أن تقلب على ولاية حلب عمال فاطميون بعد ذلك ، حتى إسندت ولايتها في جمادى الأولى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) إلى سديد الدولة ثعبان بن محمد الكتامي ، وولي القلعة موصوف الخادم الصقلبي ، فظلا يسيران أمورها حتى قيام حلف القبائل العربية لاقتسام البلاد الشامية ، وهو الحلف الذي ضم القيسيين والكلبيين والذي أسفر عن تغيير أوضاع المنطقة بأسرها كما سبقت الإشارة .

فقد اجتمع كل من حسان بن المفرج بن الجراح زعيم طيء ، وسنان بن عليان زعيم بني كلب ، وصالح بن مرداس زعيم بني كلاب ، واتفق الثلاثة على اقتسام بلاد الشام فيما بينهم « فتكون فلسطين وما يرسمها لحسان ، ودمشق وما ينتسب اليها لسنان ، وحلب وما معها لصالح » (٢) . وطبقا لهذا الاتفاق ، فانه يتعين عليهم شن الحرب ضد الخلافة الفاطمية صاحبة النفوذ في هذه البلاد ، والاستيلاء على أملاكها . ويذهب المؤرخ المحدث Wiet إلى

---

(١) Canard : op. cit. P. 712

(٢) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٢٣ ، ابن الاثير : جـ ٧ ص ٢٦١ .

ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٧٢ ، Lammens : La Syrie. I. P. 153

أن هؤلاء الزعماء أعلموا الإمبراطور البيزنطى بقيام هذا الحلف والتمسوا عونه ضد الخلافة الفاطمية ، ولكنه لم يعبأ بهم (١) ، لكنهم مع ذلك كانوا واثقين من إمكان نجاح مشروعهم نظرا لسوء أحوال مصر والشام بصفة عامة ، بعد اختفاء الحاكم بأمر الله وضعف سلطة الولاة فى المنطقة (٢) .

لم تدخر الخلافة الفاطمية جهدا فى سبيل كسر هذا الحلف العربى وحماية ممتلكاتها فى بلاد الشام وفلسطين ، وجهزت لذلك أنوشتكين الدزبرى (٣) وأمدته بجيش كبير للقضاء على هذه الحركة ، إلا أنه تعرض للهزيمة على أيدى الأمراء العرب ، فانسحب إلى عسقلان ، واستولى حسان بن الجراح على الرملة فى رجب سنة ٤١٥ هـ ، (١٠٢٥ م) ، وبعث صالح بن مرداس طلائع جيشه بقيادة كاتبه أبو منصور سليمان بن طوق فاستولى على معرة مصرين ولحق به صالح نفسه وألقى الحصار على حلب نحو ستة وخمسين يوما . وبها ابن ثعبان والخادم موصوف ، فساءت أحـــوال المدينة ودب الشقاق بين

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 216

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٧٣ .

(٣) ذكره ابن الأثير باسم « البربرى » ، وابن القلانسى « التزبرى » وابن العديم باسم « الدزبرى » . والاسم الأخير هو الأصح نسبة إلى القائد دزبر ابن اونيم الذى اشتراه سنة ٤٠٠ هـ وحمله إلى الخليفة الحاكم فى مصر سنة ٤٠٣ وتقلب فى خدمة الخلافة الفاطمية حتى ولى فلسطين سنة ٤١٤ هـ.

ابن الاثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦١

ابن القلانسى : ذيل ص ٧١ ــ ٧٢

ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٢٣

ابن خلكان : وفيات جـ ٢ ص ١٨٠

موصوف زعيم الحزب الحمدانى بها وهو سالم بن مستفاد غلام سيف الدولة، الذى وجه اليه موصوف تهمة الخيانة [1] فقام ابن مستفاد بفتح باب قنسرين بحلب واستسلم لصالح وأخذ الأمان لأهل المدينة ، وهكذا سقطت حلب فى يد صالح فى ذى القعدة سنة ٤١٥ ه (فبراير سنة ١٠٢٥ م) [2] ، ولكن قلعتها لم تستسلم ولجأ اليها ابن ثعبان وشرع فى الدفاع عنها. عندئذ كلف صالح كاتبه سليمان بن طوق وسالم بن مستفاد بحصارها وضربها بالمنجنيق ، بينما سار هو مسرعا إلى فلسطين لمعاونة حسان بن المفرج الطائى ضد الدزبرى .

استمر حصار القلعة نحو سبعة أشهر ، وأخيرا استسلمت فدخلتها قوات

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٦

(٢) هناك خلاف بين المؤرخين فى تحديد السنة التى استسلمت فيها حلب لصالح بن مرداس . فبينما يحدد ابن العديم استسلامها بيوم ١٣ ذى القعدة سنة ٤١٥ ه (فبراير سنة ١٠٢٥ م) فى كتابه (زبدة الحلب ج١ ص ٢٢٨) — نجدها عند ابن الأثير (الكامل ج ٧ ص ٢٦١) وأبى الفداء (المختصر ج ٢ ص ١٤١) وابن خلدون (العبر ج ٤ ص ٢٧٢) هى سنة ٤١٤ ه (١٠٢٣ — ١٠٢٤ م) وقد أخذ معظم المؤرخين المحدثين الأجانب بالرواية الأخيرة أى سنة ٤١٤ ه ومن هؤلاء Wiet فى كتابه : L' Egypte Arabe P. 216 وجروسيه Grousset فى كتابه : Hist. des Croisades. I. P. XXI-XXII وسوبرنهايم Sobernheim فى مقالته فى دائرة المعارف الإسلامية عن صالح بن مرداس ، ولامنس Lammens فى كتابه La Syrie 1. P, 153 وكذلك المؤرخ Schlumberger فى كتابه L'Epopée Byzantin. 11. P. 608 وكذلك المؤرخ Lane-poole فى كتابه The Mohammade Dynasties P. 114 وقد أيدت Camb. Med. Hist 5. P: 255 ما جاء لدى ابن العديم فحددت يناير سنة ١٠٢٥ م ، وهو يوافق ذى القعدة سنة ٤١٥ ه .

صالح فى مستهل جمادى الأولى سنة ٤١٦ هـ (يونيو سنة ١٠٢٥م) طبقا لرواية المؤرخ ابن العديم ، وقبض على موصوف وابن ثعبان والقاضى ابن أبى أسامة. فأما موصوف فقد ضرب صالح عنقه ، وأما ثعبان فقد افتدى نفسه بمبلغ من المال ، وأما القاضي ابن أبى أسامة ، فقد أمر صالح بدفنه حيا [١] . وهكذا غدت حلب تحت حكم صالح بن مرداس ، وقامت بها إمارة كلابية لأول مرة بعد جهود دائبة و نشاط متصل !

لم يضع صالح وقتا بعد ذلك ، ففى نفس السنة شرع فى تأسيس الإمارة بحيث تكون حلب مركزها وقصبتها الكبيرة ، فاستولى على حمص و بعلبك وصيدا وحصن ابن عكار بناحية طرابلس ، فضلا عما كان بيده من قبل من الرحبة ومنبج وبالس ورفنية [٢] . ويجمل المؤرخون ملك صالح واتساع إمارته بأنها امتدت « من بعلبك إلى عانة » أى من شمال دمشق حتى حدود نهر الفرات ، وضمت ، عددا كبيرا من المدن والحصون والقلاع فى جنوبى غرب حلب ، وفى شرقيها وشمالها الشرقى . وأقرب إلى القول أن تلك الامارة كانت أشبه بدائرة مركزها حلب ، يتغلغل فيها لسان من بادية الشام ، أو أن هذه الإمارة كانت أشبه — من الناحية العمرانية — بهلال مكتمل ، طرفه الأعلى فى بالس والآخر فى حماه وبعلبك ، ويمر محيطه فى اتجاه المركز قرب

---

(١) ابن الوردى : تاريخه جـ ١ ص ٣٦٦

(٢) ابن العديم : زبدة ، جـ ١ ص ٢٣٠ ؛

Camp. Med. Hist. 5. P. 255

ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ويحتضن جوفه جانبا من صحراء سورية [١].

وليس من شك فى أن الإمارة المرداسية أتيحت لها قاعدة عريضة من المدن والقـرى والحصون وأراضى شاسعة وضياع ورساتيق كانت بمثابة القاعدة والمدد الذى يضمن الكفاية للامارة ، ويضمن بقاء استقـــلالها فى أغلب الأحيان .

حدث التحول الكبير فى حياة صالح بن مرداس بعد قيامه فى الحكم ، فقد اتخذ وزيراً واستكمل مظاهر الأبهة والعظمة ، وعين قاضيا وباشر الحكم على امتداد تلك الإمـارة ، وأخـذ يتنقل بين حلب فى الداخـــل وصيدا على ساحل البحر [٢] .

أما وزيره فيدعى نادرس بن الحسن النصرانى « وكان هـذا النصرانى متمكنا عند صالح ، وكان صاحب السيف والقـلم ... وقيل إنه كان يترجل له — لعنه الله — الولاة والقضاة فمن دونهم » . وأما قاضيه فقد كان أبا يعلى عبد المنعم بن عبد الكريم بن سنان ، المعروف بالقاضى الأسود « واستمر على القضاء فى أيام ابنه شبل الدولة » . ولم تصادف صالحا أية مشاكل داخلية فى تلك الإمارة إبان السنوات التى باشر فيها الحـكم ، باستثناء ماحـدث فى معرة النعمان بسبب وزيره النصرانى هذا ، إذ تحدثنا المراجع أن أهل قرية « حاس » وهى إحدى قرى معرة النعمان قتلو حماه ، « وكان يقال له الخورى ، وكان من

---

(١) ابن الأثير : الـكامل جـ ٧ ص ٢٦١ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٧٢
أبو الفدا : المختصر جـ ١ ص ١٤١ ، ابن الوردى : تاريخه جـ ١ ص ٣٢٣
(٢) ابن العديم : زبدة ، جـ ١ ص ٢٣٣

أهل منس ، لأذيته لهم » ، ولما علم تادرس بقتله خرج ومعه بعض جند حلب وراح يتعقب أهـل حاس فى الجبال والضياع حتى أفامية ، وهناك قام والى أفامية بتسليمهم له ، وعندئذ استأذن تادرس صالحـا فى قتلهم ، فأمره صالح بذلك ، فقتلهم وصلبهم « فلما أنزلوا عـن الخشب ليصلى عليهم ويدفنوا صلى عليهم خلق عظيم » ، وقد تركت هذه الحـادثة دون شك أثرا سيئا فى نفوس أهل المعرة وقراها تجاه هذا النصرانى [١].

وحدث بعـد ذلك أن صاحت امـرأة مسلمة يوم الجمعة فى جامع المعـرة واستغاثت ، وذكرت أن صاحب الماخور النصرانى أراد اغتصابها « فنفر كل من فى الجامع غير الأكابر والقاضى فهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه »[٢] وكان صالح بن مرداس حينئذ فى صيدا سنة ٤١٧هـ (١٠٢٦ م) فلما عاد الى حلب فى السنة التالية « لم يزل به تادرس حتى اعتقل مشايخ المعرة وأماثلها، فاعتقل منهم سبعين رجلا قطع عليهم ألف دينار » وبقوا فى السجن نحو سبعين يوما إلى أن اجتاز صالح بالمعرة فخرج إليه الشيخ الجليل أبو العلاء المعرى ليتوسط فى فك أسرهم ، ومما قاله أبو العلاء لصالح : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فقال صالح « قد وهبتهم لك أيها الشيخ » [٣]

(١) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣

(٢) ابن الوردى : تاريخه ، جـ ١ ص ٣٣٨

(٣) قال أبو العلاء فى ذلك :

تغيبت فى منزلى برهـة	ستير العيـوب فقيـد الحسد
فلـما مضى العمر الا أقـله	وحـم لروحى فراق الجسد
بعثت شفيعـاً الى صـالح	وذاك من القوم رأى فسد
فيسمـع منى سجـع الحمـام	وأسمـع منـه زئـير الأسد

ابن العديم : زبدة ، جـ ١ ص ٢٣٤

وليس بين أيدينا — دون ذلك — ماينبيء عن وجود مشاكل داخلية أخرى واجهها صالح بن مرداس في حلب ، بل على العكس تؤكد المصادر سكون بنى كلاب وانتظامهم فى جيش صالح وإخلاد كثير من عشائرهم الى السكينة ، ولهذا فنحن لانسمع عن نشاط معاد لهـــم أو لبعض فئاتهم إبان السنوات الست التى حكمها صالح ، ولا نسمع عن قلاقل أخـــرى أثارتها الطوائف الأخرى ، لذا مارس صالح حكمه بطول وعرض هـذه الإمارة فى كثير من الارتياح والثقة .

أما عن سياسته الخارجية ، فتتمثل القوى المجاورة فى ثلاث: الإمبراطورية البيزنطية ، وأمراء النواحى القريبة ، والخلافة الفاطمية .

أما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، فكان لديها ما يشغلها عن أحداث هذه المنطقة إبان قيـام صالح بتأسيس إمارته ، إذ أخذ الإمبراطور باسيل الثـانى ٩٧٦ — ١٠٢٥ م إبتداء من أوائل القرن الحـادى عشر الميلادى يتجه وجهة غربية فى حروبه وفتوحاته ، وقـدم لذلك بعقد معاهدة صلـح ومهادنة مـع الخلافة الفـاطمية مداها عشر سنوات ابتداء من سنة ١٠٠١ م (١) ، وانطلق بعد ذلك بخوض حروبا ضارية فى بلغاريا دامت سبع عشرة سنة إبتداء من سنة ١٠٠١ — ١٠١٨ م تمـكن خلالها من إنزال بعض الهزائم بخصمه صموئيل

---

(١) Grousset : L'Empire du livant. P. 125-9
Vasi Vasiliev: Hist. de L'Empire Byzantin,
I. P. 412
Brehier : Vie et Mort de Byzance, P. 229

ملك البلغار (١) .

ولم يكد باسيل ينتهى من هذا الصراع حتى دخل فى صراع آخر استغرق معظم السنوات الخمس الأخيرة من حكمه (١٠٢٠ — ١٠٢٥) شغل أثناءها بمحاولة السيطرة على إيطاليا والاستعداد لإخراج العرب من صقلية ، فضلا عن محاولة تأمين حدود الإمبراطورية عند القوقاز(٢) وكذلك الصمود فى وجه الأتراك الذين أخذوا ينسابون إلى أملاك الإمبراطورية البيزنطية .

وقد أعقب وفاة باسيل الثانى فى سنة ١٠٢٥ م فترة ركود فى حياة الإمبراطورية البيزنطية ، وخاصة فى الميدان الخارجى(٣) ، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى أخذ المرداسيون يقومون بإرساء حكمهم فى شمال الشام فصادفهم فى ذلك حظ موات وفرصة سانحة .ذلك أنه خلف الإمبراطور باسيل الثانى على العرش الإمبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٣٨) ولم يكن له نشاط خارجى ملموس ، بل إنه عجل بعقد إتفاقية صلح ومهادنة مع الخليفة الظاهر الفاطمى سنة ١٠٢٧ (٤) ٤١٨ هـ فدلل بذلك على رغبته فى إحلال السلام فى الشرق .

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١١٨ ،
أسد رستم : الروم العرب ، جـ ١ ص ٥٧

(٢) Ostrogorsky : Hist. of the Byzautine State - P. 273

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١١٨ – ١١٩

Oman : The Byzantine Empire. P. 244

(٤) Camb. Med . Hist. 5. P. 256

Byzantium. edited by Eaynes and Moss. P. 317.

ويهمنا من ذلك كله ، أن الفترة الأخيرة من حكم باسيل الثانى واللاحقة لموته وهى التى شهدت نشاط صالح بن مرداس لتأسيس إمارته، اتسمت بهدوء ظاهر من قبل السياسة الخارجية البيزنطية ورغبة من حكومتها فى عدم الانغماس فى أحداث المنطقة ، وذلك باستثناء ما كان يثيره دوق أنطاكية البيزنطى فى علاقاته بجيرانه المسلمين فى شمال الشام [١] .

أما بالنسبة لعلاقة صالح بالأمراء القريبين ، فليس ثمة ما يوحى بوجود عداء أو نزاع بينه وبينهم ، بل على عكس ذلك ، تؤكد المصادر قيام صالح ابن مرداس بالوساطة فيما كان يثور بينهم من نزاع ، وتتحدث عما كان يربطهم بهذا الأمير الجديد فى حلب من علاقات ود وحسن جوار ، والمعروف أنه قامت فى ديار بكر إماره كردية أسسها بنو مروان الأكراد ابتداء من سنة ٩٩٠ م (٣٨٠هـ) عمرت فى ميافارقين واستمرت نحو قرن من الزمان[٢] . وتشير الدلائل إلى قيام نوع من الود بين أمير الأكراد نصر الدولة بن مروان وبين صالح بن مرداس، لابد وأن محوره وأصله اتجاه كل منهما إلى الاستقلال عن الخلافتين فى بغداد والقاهرة، وسلوك طريق ذاتى فى الحكم بعيدا عن مراكز القوى فى الشرق ، فضلا عن تشابه الظروف التى تمخضت عن تأسيس هاتين الإمارتين (٣) .

---

(١) Crousset : op. cit. P. 126 - 7

(٢) ابن الأزرق الفارق : تاريخه ، ص ٥١ ـ ٥٢

Amedroz : The Hist. of the City of Mayyafarigin. P. 795,798 (J. R. A. S. 1902)

(٣) الفارق : نفس المرجع ، ص ٥٨

وتتحدث المراجع عن قيام صالح بن مرداس بدور الوسيط فى حل النزاع الذى نشب بين نصر الدولة المروانى الكردى — أمير ديار بكر — وبين عطير النميرى أمير الرها ، وأن صالحاً شفع أكثر من مرة لدى الأمير الكردى فى عطيرهذا . وكان ذلك فيما بين سنتى ٤١٦ – ٤١٨ هـ ، فقدكانت الرها فى يد عطير ، وهو من بنى نمير أحد الفروع القيسية فى شمال العراق (١) ، ولكنه أساء السيرة فى أهلها ، فكاتب أهل المدينة الأمير الكردى ليسلموا البلد إليه ، فأرسل إليهم نائبه بآمد ويدعى زنك،فاستولى على المدينة سنة ٤١٦هـ(١٠٢٦م) وهرع عطير النميرى إلى صالح بن مرداس يطلب شفاعته لدى الأمير الكردى لإسترداد مدينته،وبعد تدخل صالح فى الأمروقيامه بالوساطةفى هذاالموضوع رضى الأمير الكردى برد نصف المدينة فقط إليه،وتسلم عطير نصف البلدظاهراً وباطناً وأقام فيه مع نائب نصر الدولة ، ولكن سرعان ما دبت الخلافات من جديد بين عطير ونائب المروانيين بالرها،لقى عطير على أثرها مصرعه بتحريض من النائب الكردى زنك ، مما دعا آل نمير العرب إلى طلب الثأر له ولم تهدأ لهم ثائرة حتى قتل زنك عام ٤١٨هـ،وللمرة الثانية يتدخل صالح بن مرداس ليشفع لدى الأمير الكردى لرد الرها برمتها إلى ولد عطير المقتول وإلى شبل النميرى زعيم النميريين ، فسلمت المدينة إليهما فى النهاية (٢) .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٣٠٩ – ٣١٠

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٣٢٢ – ٣٢٣

ابن الوردى : تاريخه ج ١ ص ٣٣٩

أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٥٧

ويهمنا من ذلك كله قيام صالح بن مرداس بدور بارز إبان هذه الأحداث، فضلا عما تنبيء عنه هذه الوقائع من تأكيد علاقة الود وحسن الجوار بينه و بين الأمراء المجاورين . وليس من شك في أن الإمارة المرداسية كانت في السنوات الأولى لتأسيسها بحاجة إلى نوع من الاستقرار وحسن الجوار، حتى يمكن أن تتغلب على المتاعب التي أثارتها بانفصالها عن الخلافة الفاطمية واستقلالها بحلب عن القاهرة .

وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد انصرفت عن شئون الشام بمشاغلها في أوروبا وعلى حدودها في أقصى الشرق ، وإذا لم يكن هناك أمير من أمراء النواحي القريبة له من الطموح ما يرقى إلى مضايقة الإمارة المرادسية الناشئة أو يجعلها هدفا من أهدافه أو يحاول ضمها وسلب استقلالها ، فإن الخلافة الفاطمية لم تستسلم لضياع هذه الإمارة من أيديها ولم تأل جهدا في سبيل استعادتها والقضاء على البدوى الذي أطاح بقدر كبير من هيبتها وسلطانها في شمال الشام . هذا وإن كنا سنعرض بالتفصيل للعلاقات بين المرداسيين والفاطميين فيما بعد ، إلا أننا نرى لزاما علينا الآن الإشارة إلى مدخل هذه العلاقات في مرحلة تأسيس الإمارة المرادسية في إيجاز، على أن نعود إليها بالتفصيل فيما بعد .

ذلك أن قيام الحلف العربي بين القبائل الكبيرة في بلاد الشام ، والذي عرضنا له من قبل ، والذي تمخض عن قيام الإمارة الكلابية في حلب واستيلاء آل الجراح على أجزاء من فلسطين ، هذا الحلف قام في فترة مواتية وفرصة سانحة نظرا لاختلال أمور مصر بعد اختفاء الحاكم سنة ٤١١ ﻫ (١٠٢٠ م) ووفاة ست الملك التي ساست الدولة بعده ، بالإضافة إلى أن الظاهر لإعزاز

دين الله (١٠٢١ - ١٠٣٦ م) الذى خلف أباه وهو طفل لم يكن لديه ما يؤهله الاضطلاع بدور كبير فى أحداث تلك الحقبة بسبب صغره وضعف بدنه واستبداد رجال الدولة بالأمر دونه (١) . هذا فضلا عما أصاب مصر من كوارث اقتصادية نتيجة انخفاض النيل وانتشار القحط والمجاعة والأوبئة فى عامى ١٠٢٣ - ١٠٢٤ م وهى نفس الفترة التى نشط فيها الحلف العربى فى بلاد الشام (٢) . ويبدو أن هذه الأمور كانت معروضة على القادة العرب حينما بدأوا مشروعهم الكبير لاقتسام أملاك الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام(٣) .

لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، فقد تولى الوزارة فى مصر الوزير الجرجرائى فأتيح له أن يلعب دورا هاما وخاصة بعد موت ست الملك ، فلم يظهر أمر هذا الوزير إلا بعد موت عمة الظاهر - ست الملك - بعد خمسة عشرة وأربعمائة (٤) ، ذلك أن هذا الرجل حاول أن يستعيد أملاك الخلافة فى بلاد الشام ويقضى على الحلف القائم بين زعماء القبائل هناك ، ونجح فى ذلك الى حد كبير .

ففى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ، وبعد نحو ست سنين من حكم صالح بن مرداس فى حلب ، انتدب الجرجرائى القائد التركى أنوشتكين الدزبرى - الذى كان حاكما على قيصرية من قبل الخلافة ، ثم حاكما على بعلبك (٥) -

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : جـ ٤ ص ٢٥٤

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 217

(٣) Camb. Med. Hist. 5. P. 255

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : جـ٤ ص ٢٤٨

(٥) Wiet : op. cit. P. 216

وكلفه بمحاربة آل الجراح الطائيين وحلفائهم من بنى كلاب ، وأمده بجيش كبير . فسار هذا إلى بيت المقدس لحرب العرب (١) ، وفى نفس الوقت استغاث حسان بن المفرج بن الجراح بحليفه صالح بن مرداس ، فجمع هذا جيشه ولحق به على شاطىء نهر الأردن قرب طبرية ، وتجمعت طىء ومن صابها من الأعراب ، (٢) ، وتكاثر العرب واصطفوا عند الأقحوانة جنوبى بحيرة طبرية فى انتظار الدزبرى ، فلما وصل هذا بجيشه وجرت الحرب ضارية بين الفريقين فى ١٤ مايو سنة ١٠٢٩ ، انهزم فيها العرب هزيمة ساحقة وقتل صالح بن مرداس وولده الأصغر ، وفر ولد آخر له يدعى نصر إلى حلب ، وأنفذت رأس صالح إلى مصر ، وطيف بها ، كما أنفذت جثته إلى صيدا لتصلب على بابها (٣) واسترد الفاطميون بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن ابن عكار ، وزادوا فى التضييق على إمارة حلب (٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤

(٢) أخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٦٦ (مخطوط) ،
أبو الفدا : المختصر ، جـ ٢ ص ١٤١ ،
ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٨ ص ٤٥
ولم يشترك بنو كلب فى هذه الحرب لأن سنان بن عليان زعيمهم كان قد توفى سنة ١٠٢٨ واستسلم خليفته لطاعة الفاطميين Camb. Med. Hist. 5. P. 255

(٣) ابن خلكان : وفيات ، جـ ٢ ص ١٨٠ ، دور التيجان : ورقة ٣٠٧ (مخطوط)
ابن القلانسى : ذيل ص ٧٣ ـ ٧٤ ، ابن خلدون : جـ ٤ ص ٢٧٢ ،
Lane - poole : Moh. Dynasties. P. 114.

(٤) يحيى بن سعيد : التاريخ ، ص ٢٥٣ ،
Schlumberger : L' Epopée II. P. 697. III. P. 71

وهكذا انجلت المؤقتة عن انفراط عقد التحالف العربى فى بلاد الشام وطرد آل الجراح من فلسطين ، حيث لجأ زعيمهم حسان إلى أراضى بيزنطية(١)، وأصبح الدزبرى حاكما على دمشق ، وأقوى رجل فى بلاد الشام ، ثم ما لبث أن بدأ فى التضييق على حلب ، حتى غدا من الصعب التكهن بمصير هذه الإمارة الناشئة .

وإذا كان قد قيض للامارة النجاة فى هذه المرة ، فان ذلك لم يكن راجعا لقوتها أو سرعة التئام شملها ، بقدر ما كان راجعا لانصراف الدزبرى عن متابعة جهوده فى شمال الشام ، وعدم إجهازه عليها، فضلا عن تلاحق الأحداث فى بلاد الشام ومصر وتدخل البيزنطيين ، مما منح حلب فرصة أخرى للاستمرار والبقاء تحت الحكم المرداسى .

وعلى الرغم من أن مقتل صالح بن مرداس جاء بعد سنوات قليلة من تأسيسه الإمارة ، وجاء ضربة قوية لهذه الدولة الناشئة ، إلا أنه كان قد نجح فى إرساء قواعد الحكم المرداسي فى حلب وملحقاتها وأسس إمارة ثابتة لأول مرة لبنى كلاب فى شمال الشام ، ولم تذهب جهوده عبثا ،فقد خلفه أبناؤه وأحفاده من بعده ، واستطاعوا الحفاظ عليها مدة تقرب من نصف قرن من الزمان .

.. .. ..

---

(٢) Wiet. OP. cit P. 217

(ج) خلفاء صالح بن مرداس

(١) شبل الدولة نصر بن صالح ٤٢٠—٤٢٩هـ (١٠٢٩—١٠٣٨م)

آلت حلب بعد مقتل صالح سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) إلى ابنه شبل الدولة نصر ، بينما ولى القلعة ابن آخر لصالح يدعى ثمـال . وهكذا أصبح الامارة المرداسية أميرين من أبناء صالح بن مرداس ، على الرغم من تقاص أملاكهما وتعرضها للتضييق الشديد[١] .

على أن الصفاء لم يدم طويلا بين الأخوين المرداسيين ،فسرعان مادب بينهما الخلاف بعد نحو عام من تلك الأحداث ، وانتهز نصر فرصة خروج ثمال من المدينة وقام بالاستيلاء على القلعة وانفـرد بالامارة دون أخيه ، وعوضه عنها بالرحبة وبالس ومنبج ، وقد اختلفت روايات المؤرخـــين فيما يختص بهذه الحـادثة ووقت وقوعها ، فالمؤرخ كمـال الدين بن العديم ، وهـو المؤرخ الوحيد الذى أعطى تفصيلات ضافية عن ذلك ، روى عن هذه الحادثة روايتين مختلفتين ،قال فى الأولى منهما: أن ذلك حدث قبل نشوب الحرب مع الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث ، وهى الحرب التى جرت فى أغسطس سنة ١٠٣٠م (شعبان سنة ٤٢١هـ) ، والتى سنعرض لها بالتفصيل فيما بعـد ، إذ خرج ثمال إلى الحلة بظاهر حلب لإعادة زوجته الغاضبة ، فانتهز نصر الفـرصة واستولى على القلعة من يد رجال أخيه قائلا لهم : « أن من قـدم أخى على فقد أساء ،

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جـ ١ ص ٢٣٧

لأنى أولى بمداراة الرجال وهو أولى بمداراة النساء » (١) ، فاستنجد ثمال بالأعراب من بنى خفاجة وغيرهم ، وعزم على مهاجمة حلب ، ففكر نصر فى الاستعانة بالإمبراطور البيزنطى ، ولكن سرعان ماعاد الصفاء بين الأخوين بعد توسط شيوخ العرب بينهما ، وخاصة بعد أن أخذت الأخبار تترى بقرب وصول الجيش البيزنطى ، فاتفقا على أن ينفرد نصر بحلب ويعوض ثمال عنها ببالس والرحبة ومنبج (٢).

وفى الرواية الثانية يقول ابن العديم : أن ذلك حدث بعد الحرب مع الإمبراطور ، فبينما خرج نصر ليباشر القتال ضد البيزنطيين ، ظل ثمال فى القلعة يدافع عنها ، وفى نفس الوقت أخرج كل منهما حرمه إلى البرية « فلما انتهت الحرب بهزيمة البيزنطيين واطمأن كل منهما على موقعه . خرج ثمال لإعادة حريمه من البرية وعندئذ سارع نصر بالاستيلاء على القلعة فى غيبة أخيه ، ثم عوضه عنها بالمدن المذكورة وأعمالها (٣) .

وقد ساعد على غموض هذه الأخبار واختلاف الروايات فيها ، سكوت المؤرخين الآخرين أمثال ابن الأثير وابن خلدون وأبى الفدا وابن الجوزى ، واكتفائهم بالإشارة إلى انفراد نصر بحكم حلب ، دون تفصيل فى ذلك أو تحديد (٤) . على أنه يبدو أن رواية ابن العديم الأخيرة أقرب إلى الحقيقة ،

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٣٨

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣٩

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٥

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٤١ ، سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٨ ورقة ٣٤٩

وأن انفراد نصر بحكم حلب حدث بعد الحرب مع البيزنطيين، وبعد أن اطمأن وشعر بالأمان من هذه الناحية ، فلابد وأن ذلك كان إحدى ثمرات انتصاره على الأمبراطور ، وأنه كان نتيجة طبيعية لازدياد هيبته ونفوذه بعد هذا الحدث الكبير .

انفرد نصر فعلا بالإمارة فراح يتخذ من الخطوات مايدعم نفوذه وسلطته فاتخذ وزيراً يدعى أبا الفرج المؤمل بن يوسف الشماس ، وكان نصرانياً اشتهر بحسن التدبير وحب الخير ، وكان أخوه ناظراً فى البلد البرانى فعمره وعمر المساجد البرانية ، (٣) ، وأخذ نصر يمارس سلطته فى حلب على مدى تسع سنوات امتدت من سنة ٤٢٠ — ٤٢٩ ﻫ (١٠٢٩—١٠٣٨م).

وليس هناك ما يشير إلى وقوع أحداث داخلية خطيرة إبان هذه الفترة باستثناء حادثين وقعا فى سنة ٤٢٣ﻫ (١٠٣٢م) على الرغم من أنهما مرا بسلام ولم يقطعا تسلسل عهد هذا الأمير المرداسي .

ففى فبراير سنة ١٠٣٢م (ربيع الأول سنة ٤٢٢ ﻫ) حدثت فتنة الدروز - الجماعة المذهبية المتطرفة — حين اجتمعوا بجبل السماق « وجاهروا بمذهبهم وخربوا ما عندهم من المساجد ... وتفاقم أمرهم وتحصنوا فى مغاثر شاهقة على العاصي ، وانضوى إليهم خلق من فلاحى حلب وطمعوا بالاستيلاء على

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٣٨

البلاد،(١)، ويبدو أن هذه الحركة أزعجت كلا من حاكم أنطاكية البيزنطى(٢)، نقتاس، المعروف فى المصادر العربية باسم « نيقيطا » ، وكذلك أمير حلب نصر ، فقد أسرع نقتاس بمهاجمة الدروز ، وحاصرهم فى المغائر ودخن عليهم ، وكذلك خرج نصر وقام بمعاونته فى ذلك ، حتى استسلم الدروز فقبض على دعاتهم وجرى إعدامهم فى ربيع الأول سنة ٤٢٣ هـ (فبراير سنة ١٠٣٢م)(٣).

وفى نفس العام حدثت فتنة أخرى قام بها سالم بن مستفاد ، زعيم الحزب الحمدانى المشار إليه من قبل، وكان صالح بن مرداس قد استماله وولاه رئاسة حلب وقدمه على الأحداث ، وأقره نصر بعدئذ فى وظيفته، غير أن خلافا وقع بين الاثنين فى ذلك العام جمع ابن مستفاد على أثره أحداث حلب وكثيراً من رجاله وعزم على محاصرة القلعة ، ثم دارت المفاوضات بين الطرفين لكنها لم تنته

---

(١) الدروز هم اتباع محمد بن اسماعيل الدرزى، الذى نادى بتأليه الحاكم بأمر الله ، واتبع فى ذلك أساليب رخيصة لنشر دعوته ، فبذل الأموال وأباح شرب الخمر وارتكاب المنكرات، فانضوت اليه جماعات من أهل الشام ، وكانت هذه الثورة هى الثانية للدروز فى سورية ، وكانت الأولى فى عهد الحاكم سنة ٤١٠ هـ حين نزل محمد الدرزى بوادى التيم غربى دمشق واستمال بعض الجماعات ولكنه تعرض هو وجماعته للهجوم ، فانتهت ثورته وتوفى الدرزى فى نفس العام وخلفه رجل آخر على الجماعة ويدعى حمزة بن على ، فواصل نشر الدعوة :

Demombynes : Moslim Institutions. P.41 (Trans. by I. Magregon); Wiet : op. cit. P. 212 — 13 — 215

محمد كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ٢٦٩ ، جـ١ ص ٢٥١ ،

ابن العديم : زبدة ، جـ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩

(٢) عينه الإمبراطور رومانوس الثالث حاكما على أنطاكية قبل عودته من حملته الفاشلة على حلب :

Schlumberger : op cit. III. P. 91

(٣) ابن العديم : زبدة ، جـ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩

إلى نتيجة بسبب سعاية كاتب نصرانى بينهما ،فاندلعت الحرب وانتهت بالقبض على ابن مستفـاد ، وأودع السجن بالقلعة ، ثم ما لبث أن أمر نصر بإعـدامه خنقاً (١) .

تلك كانت أهم الأحداث الداخلية ، فى عهد نصر المرداسى ، وهذه الفتن فى الحقيقة لم تكن فى خطورة ماواجهه من أخطار خارجية من جانب البيزنطيين والفاطميين ، وهى الأحداث التى سنفرد لها صفحات خاصة .

على أن نهاية نصر لم تـكن على أيدى البيزنطيين الذين نشطوا لحربه فى جيش جرار ، بل إنها كانت على يد أنوشتـكين الدزبرى ، عدو المرادسيين الأول (٢) ، الذى استطاع إنزال الهزيمة بجيش نصر وأخيه ثمال غربى لطمين فى شعبان سنة ٤٢٩ هـ (مايو سنة ١٠٣٨ م) ولقى نصر حتفه فى تلك المعركة وغدا الدزبرى أقوى رجل فى بلاد الشام من جديد (٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠

(٢) Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Salih Ibn Midras»

(٣) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٥٠ — ٢٥١

Lane — poole : Moh. Dynasties. P. 114

(٢) معز الدولة ثمال بن صالح

٤٢٩ — ٤٥٤ هـ (١٠٣٨ — ١٠٦٢ م)

بعد مقتل نصر ، آلت حلب إلى أخيه معز الدولة ثمال بن صالح ، الذى نجا من القتل فى موقعة لطمين واستطاع الفرار إلى حلب (١) .

والواقع أن هذا الأمير المرداسى ، الذى يأتى ترتيبه الثالث بالنسبة لأمراء بنى مرداس ، يعتبر شخصية فريدة بين أمراء أسرته ، كما يعتبر عصره عصرا فريداً فى تاريخ هذه الإمارة . فبالنسبة لشخصيته ، فقد أجمعت المراجع على أنه كان كريمـاً ممدحاً حليما واسع الصدر (٢) ، وكان إلى جانب ذلك فارسا مقاتلا لم تفته شهامة العرب،ولم تقعد به الأبهة والعظمة ومظاهر الترف والرخاء على الرغم من إيثاره العافية فى كثير من الأحيان مع القوى المجاورة ،وتخليه عن ملك آبائه وقناعته باليسير عوضا عنه . ولكنه مع ذلك كان أحد المعالم البارزة فى عهد الإمارة المرداسيه ، إذ ملأت أخباره وأحداث عصره الكتب المعاصرة واللاحقة ، وعـد عصره العصر الذهبى للامارة المرداسية ، لاهتمامه بشئون الرعية ودأبه على رعاية شعبه ورفع الظلم والغبن عن الناس ، وكان قصره ملتقى الأدباء والشعراء والمادحين ، وعهده عهد رخاء مادى وفـكرى ، وليس من شك فى أن عهده كان صدر العهد المرداسى كله ، وحجر الزاوية

---

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١٦ ،

Camb. Med. Hist. 5. P. 257 — 8

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨ ص ٢٢٧ ، ابن العديم : زبدة جـ١ ص ٢٧١
ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ٢٦٢

فيه [١] . أما بالنسبة لحكمه ، فقد امتد قرابة ربع قرن من الزمان ، من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٥٤هـ (١٠٣٨ - ١٠٦٢م) تولى خلاله أمر حلب ثلاث مرات وأبعد عنها مرتين خلال هذه الفترة الطويلة . ويمكن تقسيم عهده إلى خمسة أقسام:

١) ولايته الأولى على حلب من شعبان ٤٢٩ إلى رمضان من نفس العام .

٢) فترة التجائه إلى الجزيرة من ٤٢٩ — ٤٣٣ هـ .

٣) ولايته الثانية على حلب من ٤٣٣ — ٤٤٨ هـ .

٤) فترة التجائه إلى مصر من ٤٤٨ — ٤٥٢ هـ .

٥) ولايته الثالثة على حلب من أوائل عام ٤٥٣ إلى أواخر عام ٤٥٤ هـ .

أما عن ولايته الأولى ، فإنها لم تزد على أيام جاءت في النصف الثاني من شعبان سنة ٤٢٩ هـ بعد نجاته من المعركة ، كما سبقت الإشارة ، فدخل حلب هو وشبيب بن وثاب في ١١ شعبان ، وسارع بمحاولة تنظيم شئون الإمارة واستمالة قلوب الرعية طمعاً في الصمود أمام جيش الخلافة الساعي إلى الشمال في إثره ، ولاحت في الأفق بوادر آمال في الصمود حين وعده كبار رجال المدينة بالمعونة والمؤازرة ، فطفق يتقرب إلى الرعية ويستميل الوجوه : وفأطلق للتجار ديونا كانت لهم على أخيه مقدارها ثلاثون ألفا ذهبا ليستميل الناس بذلك إلى طاعته » [٢] ، وأخذ يعد للقتال ، لكن آماله كلها مالبثت أن ولت

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جا ص ٢٠٥

أبو الفدا : المختصر ، ج٢ ص ١٤١ — ١٤٢

(٢) ابن العديم : زبدة ، جا ص ٢٠٥

حين أسّر إليه أحد رجال المدينة البارزين ويدعى خليفة بن جابر الكعبي بقوله «ربما خذلتك عشيرتك وقعد بك أهل البلد ، ولم يمكنك الثبات والمقاومة أو الانصراف على حال السلامة» . ويقول المؤرخ ابن العـــديم في تعليقه على ذلك ، إن هذا الرجل «أراد بذلك غشه لانصحه» [١] . ومهما يكن من أمر هذا المقال ، فإن ثمالا آثر العافية فعلا وخاصة بعد أن أتته الأخبار بقرب وصول الجيش الفاطمي إلى حلب ، فسارع بتولية مقلد بن كامـل بن مرداس على قلعة حلب وتولية خليفة الكعبي المذكور آنفا على المـدينة ذاتها ، وأسرع بالخروج منها قاصدا الجزيرة مستنجدا بأخواله من بني خفاجة [٢] .

ولم يكد ثمال يمضي حتى وقعت الفتن في حلب ونهبت دار السلطنة وأموال التجار وأيضا سفير بيزنطي كان قد قدم لتوه إلى حلب ، فنهبت حاجياته ومتاعه ودوابه ، ولم تنته هذه الاضطرابات إلا بوصول الدزبري في ٧ رمضان حيث تسلم المدينة والقلعة وخرج المقلد بن مرداس بما أخذه من أموال القلعة ولحق بثمال في الجزيرة ، وغـــدت حلب ولاية فاطمية وظلت كـذلك طيلة أربع سنوات .

أما المرحـلة الثانية في عهد هذا الأمير ، وتشمل تلك السنوات الأربع ،

---

(١) المرجع نفسه . ونفس الصفحة

(٢) ابن الأثير : الـكامل جـ٧ ص ٢٦١

ويقال أن زوجة أخيه « السيدة » التي خرجت معه أخذت من القلعة خمسين ألف دينار وأخذ ثمال نفسه ثلاثين ألفا وذلك قبل رحيلهما إلى الجزيرة . ابن العديم : زبدة جـ١ ص٢٥٦ .

فكانت محنة بالنسبة لأمير فقد ملكه وحرم من إمارته ، ولكنه مع ذلك كان يتطلع لاستعادتها من أيدى الفـاطميين ؛ لذلك عمل جاهـدا ليمكن لنفسه فى أرض الجزيرة والوصول إلى أقرب نقطـة من حلب لمراقبـة الأوضاع فيهـا [١] .

فبعد نحو سنتين قضاها لاجئا فى مضارب العرب ، لاحت له فرصة جديدة حين توفى شبيب بن وثاب النميرى سنة ٤٣٠هـ ، واقتسم إخوته أملاكه بأرض الجزيرة واستطاعت أخته علـوية المعروفة باسم « السيدة » — وكانت زوجة لنصر أخى ثمال — أن تستولى على المدينة التى تقيم بها وهى مدينة الرافقة [٢] ، وعندئذ رغبت فى أن تتزوج ثمال « لتقيم هيبتها به وبحفظ أمرها » ، ووجد هو فى ذلك فرصة للتمكين لنفسه ريثما ينجلى الأمر فى حلب ، سيما وأنه أعقب ذلك باستيلاء على الرقـة ليشرف منها على شمال الشام ويراقب الأوضاع فى حلب . إذ يشير المؤرخ سبط بن الجوزى إلى أنه اضطر فى سبيل أخذ الرقة إلى الزواج من امرأة شبيب المتوفى التى لم يكن لها من شبيب سوى طفل صغير هو منيع بن شبيب، فحصل ثمال عن طريق عن الزواج السياسي على الرقة، أى

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٢ — ٢٧٣

ابن القلانسى : ذيل ص ٧٥ — ٧٦

Camb. Med. Hist. 5. P. 257 — 8

(٢) « بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة نهر الفرات وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع » ياقوت : معجم ج٢ ص ٧٣٤ — ٧٣٥

أنه تزوج أخت شبيب وامرأته ليحصل على الرافقة والرقة [١]، ولعل أهمية ذلك تكمن في رد الفعل الذى حدث عند الدزبرى حينذاك إذ سارع هذا بشراء قلعة دوسر « ليكون مطلا عليه » [٢].

وقد أخذ ثمال بعدئذ يرقب الأوضاع فى حلب حتى غدت الظروف مهيأة فيها ، خاصة بعد أن ساءت العلاقات بين الدزبرى والخلافة ، فقام ثمال بجمع عشيرته لمهاجمة حلب ، وواتاه الحظ بوفاة الدزبرى فى جمادى الأولى سنة ٤٣٣ هـ ، (يناير سنة ١٠٤٢م) وبعث إليه المستنصر بتوقيعه بملك حلب ، فسار إليها وتسلمها فى جمادى الآخرة من نفس العام ، واستعاد بذلك إمارته وأنهى مرحلة عصيبة فى حياته كان خلالها لاجئا فى أرض الجزيرة [٣].

أما المرحلة الثالثة فى عهد هذا الأمير ، والممتدة بين عامى ٤٣٣ — ٤٤٨هـ فلعلها أهم مراحل حياته وأعظمها على الأطلاق ، ليس لطولها فحسب ، أو لما أصاب الإمارة خلالها من السعة والرخاء ، حيث « درت الأرزاق فى أيامه على الناس وأحسن السيرة معهم وجاد بالعطاء » ... وإنما لنجاحه فى معالجة المصاعب الداخلية والخارجية التى واجهته ، ولنجاحه فى حفظ إمارته وسط أنواء وعواصف عاتية عصفت بالمنطقة كلها [٤].

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ١ ورقة ٣٥ — ٣٦

(٢) ابن العديم : زبدة جـ١ ص ٢٥٩ . وهذه القلعة تقع على نهر الفرات بين بالس والرقة قرب صفين . ياقوت : معجم جـ٢ ص ٨٤

(٣) ابن العديم : زبدة ، جـ١ ص ٢٦٠ — ٢٦١

(٤) المرجع نفسه ص ٢٦٢

ذلك أنه نجح في التصدى لجيوش الخلافة الفاطمية مراراً عندما هاجمته بسبب تقصيره في حمل الأموال إلى مصر ، كما نجح في فتح حمص وحماة واستخلاصها من أيدى ولاة الفاطميين لتستعيد الإمارة حدودها القديمة أيام أبيه صالح بن مرداس تقريبا ، وقضي بقية سنوات هذه المرحلة بعد سنة ٤٤١هـ في هدوء واستقرار ، واطمأن ونشر العدل وطابت قلوب الرعية » وقلد رجلا من أهل الرحبة يدعى أبا الفضل إبراهيم بن عبدالكريم بن الأنبارى وزارته ، ولقبه الفقيه الكافي « وكان رجلا حسن السياسة » ثم ولى القضاء بحلب للقاضي أبا محمد كسرى بن عبد الكريم بن كسرى ، وذلك بعد موت أبي الحسن بن أبي جرادة سنة ٤٤٥هـ (١٠٥٣م) ([1]) .

ووصل بعد ذلك فخر الدولة بن جهير إلى حلب فقلده ، ثمال الوزارة « وفوض أموره جميعاً اليه ، فاستقامت وتضاعف ارتفاعه وضبط أمواله » ولكن وقعت وشاية به إلى ثمال ، وكان ثمال له وفاء وذمة فنبهه على ماسعى به عليه فاستأذنه ابن جهير في المفارقة ، فأذن له ثمال فغادر حلب سنة ٤٤٦هـ وقصد أمير ديار بكر للرواني ([2]) فولى ثمال الوزارة بعده سديد الدولة أبا

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ٢٦١ ، ابن العديم : زبدة جـ١ ص ٢٦٩ ابن الوردى : تاريخه جـ١ ص ٣٢٣ — ٣٢٤

(٢) ابن جهير شخصية هامة وزر بعدئذ للخليفة المقتدي العباسى ٤٦٨ — ٤٨٧هـ ، وعزله الخليفة سنة ٤٧٦هـ واستوزر أحداً بنائه ويدعى عميد الدولة ، لكن السلطان ملكشاه ما لبث أن طلب من الخليفة تسيير ابن جهير وبنيه الى أصبهان فأرسلوا إليها فعقد السلطان لابن جهير على ديار بكر فسار اليها عام ٤٧٧هـ ، ابن الأثير : التاريخ الباهر ص•

Amedroz : The Hist. of the City of Mayyafarigin. P. 786 - 7
(J.R.A.S. 1902)

القاسم هبة الله بن محمد بن الرعبانى الرحبي .

على أن هذه المرحلة الثالثة والهامة فى حياة ثمال انتهت نهاية غير منتظرة ، إذ فضل التنحى عن حكم حلب طواعية وآثر تسليمها للفاطميين . ويبدو أنه أدرك صعوبة الحفاظ على إمارته وسط أطماع القوى المجاورة ، فضــــلا عن مضايقات بنى كلاب ، فقد « إمتدت أعينهم إلى ما فى يده واستقلوا ما كان يصل منه اليهم » ، واستبد بهم الطمع وقالوا « لولانا لما صرت إلى ما صرت اليه ، وما أنت بأحق منا بذلك » (١) . كما يبدو أن ما اتخـذه ثمال من إعادة الرقة والرافقـة إلى منيع بن شبيب صاحبها النميرى قـد أثار حفيظة هؤلاء الكلابيين ، وأقنعهم بأن أميرهم ماض فى إهمالهم لا يوسع فى أرزاقهم ولا يمنحهم من الإقطاعات ما يجـود به على غيرهم من النميريين ، فزاد اشتطاطهم وكثر فسادهم ، وعندئذ آثر ثمال ترك الإمارة فتنازل عنهـا للفاطميين مقابل بعض المدن هى بيروت وعكا وجبيل ، وتسلم عامـل الفاطميين مكين الدولة بن ملهم حلب فى ذى القعدة سنة ٤٤٨ هـ (فبراير ١٠٥٧ م) (٢) ، وسار ثمال

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٧٣ ، Camd. Med. Hilt' 5. P. 259

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة جـ١ ورقة ١١٨ ، ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٧٣ — ٢٧٤ وقد ذكر ابن القلانسى وأخذ عنه كل من ابن الأثير وابن خلدون وابن ميسر ، أن ابن ملهم تسلم حلب من ثمال فى ذى القعدة سنة ٤٤٩ وليس ٤٤٨ وهى رواية تخالف ما نص عليه ابن العديم من أنها كانت سنة ٤٤٨ ، لكن رواية ابن العديم أوثق لأن ابن القلانسى نفسه ينص على أن ابن ملهم قضى بحلب بعدئذ مدة أربع سنوات يخطب للمستنصر . ولما كان من الثابت أن ثمالا استعاد حلب ثانية فى نهاية عام ٤٥٢ وأوائل سنة ٤٥٣ فيكون تنازله عنها قد حدث فى أواخر عام ٤٤٨ وليس ٤٤٩ هـ .

=

إلى مصر « فلقى من المستنصر من الكرامة والحباء ما لم يلقه وافد منه ولا من آبائه » .

أما المرحلة الرابعة فى عهد ثمال ، والممتدة من سنة ٤٤٨ — ٤٥٣ هـ فقد قضاها بمصر ، على الرغم من أنه كان يملك بيروت وعكا وجبيل. ويبدو أنه اكتفى بإنابة بعض رجاله بها واستقر مقامه هو بمصر بعيدا عن صخب السياسة وضجيج الحكم لكن هذه المرحلة شهدت فى نفس الوقت محاولات أمراء مرداسيين آخرين لاستعادة ملكهم الضائع ، وأبانت عن شخصيتين من أمراء هذه الأسرة كانا يطمعان فى العودة إلى حلب وهما : أبو ذؤابة عطية بن صالح، ومحمود بن نصر بن صالح [١] ، ففاز بها محمود بن نصر بن صالح بعد أن أنزل بالفاطميين هزيمة ساحقة قرب تل السلطان فى موقعة الفنيدق فى أغسطس سنة ١٠٦٠م [٢] ، دخل على أثرها حلب واستقر بها مقاما .

أما آخر مراحل حياة ثمال ، وهى المرحلة الممتدة من أوائل عام ٤٥٣هـ ، إلى نهاية عام ٤٥٤هـ ، فقد قضاها بحلب بعد أن استردها من ابن أخيه محمود ، فلم يكد محمود يستقر بحلب حتى بعث الخليفة المستنصر ثمالا من مصر بعد أن صرفه عن عكا وبيروت وجبيل وقال له ... « إن هذه الأماكن أخذتها عوضاً

= ابن القلانسى : ذيل ص٨٦ ، ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص٢٦١

ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٢٧٣ ، ابن ميسر : اخبار مصر جـ٢ ص٨ ،

Lane — poole: op. cit. P. 114

(١) أبو الفدا : المختصر جـ١ ص١٤١ — ١٤٢

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص٨٦ — ٨٧ ، سبط بن الجوزى : مرآة جـ١ ورقة ١٤٤ — ١٤٥

عن حلب ، وقد عادت إلى ابن أخيك فتمضى إلى حلب وتستعيدهـا منـه ، وأمده بالمال اللازم لتحقيق هذا الأمر . (١)

مضى ثمال إلى شمال الشام وطفق يجمع عشيرته ، ومالبث أن نزل بهم على معرة النعمان في طريقه إلي حلب ، ولما أحس محمود بذلك سارع بالاستنجـاد بالامبراطور البيزنطى وبشبيب بن وثاب النميرى صـاحب حران (٢) ورغم ذلك تعرض محمود لهزيمة قاسية بقرب حلب فى صفر سنة ٤٥٣هـ (١٠٦٢م) على يد ثمال ، وانتهى الأمر بعقـد صلح بينه وبين عمه ضمن ثمال بموجبه لمحمود معيشة بخمسين ألف دينـار وثلاثين ألف مكوك غـلة » وآلت حلب وقلعتها لثمال ، فبعث يبشر الخليفة المستنصر بذلك ، فأرسل اليه الخلع . ثم قام ثمال بإرسال أخيه عطية بن صالح إلى الرحبة فأقام بها (٣) .

ولم تلبث حياة ثمال أن أشرفت على نهايتها حين مرض فى ذى القعدة سنة ٤٥٤هـ (نهاية سنة ١٠٦٢م) فسارع باستدعاء أخيه عطية من الرحبة وأوصى له بحلب وولاه الأمر ، ومالبث أن جاز إلى ربه فى نهاية ذلك الشهر، وبذلك

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ١ ص٢٨١

ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٢٨٤

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٧ص ٢٦٢. وكان على عرش الامبراطورية حينئذ ، الامبراطور قسطنطين العاشر (دوكاس) ١٠٥٩ ــ ١٠٦٧ .

Diehl : Hist. of the Ryzantine Empire. P. 101 - 5

(٣) ابن العديم : المرجع نفسه ، ص ٢٨٦ ، ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٢٧٤

انتهت حياة أمير مرداسي شهير، وربما أشهر أمراء تلك الأسرة ، لحياته الحافلة وعصره الزاهر ، لأنه بالرغم من كل ما حدث — نجح في حفظ استقلال إمارته من الأطماع المحيطة ، خاصة من قبل البيزنطيين (١) . وقد ملأت أخباره صفحات طويلة من المصنفات المعاصرة واللاحقة .

(١) Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Halab»

(٣) عطية بن صالح

٤٥٤ — ٤٥٧هـ (١٠٦٢ — ١٠٦٥م)

قدر بعدئذ لعطية بن صالح ، ثالث الإخوة ، أن يرث حلب بعد وفاة ثمال ، وقد بدأت المراجع تردد اسمه منذ سنة ٤٥١هـ حين نجح فى الاستيلاء على الرحبة بعد مقتل البساسيرى [١] ، وحاول الفوز بحلب دون ابن أخيه محمود أثناء تنحى ثمال عنها لكنه فشل فى ذلك ، فأقام بالرحبة إلى أن استدعاه ثمال منها وعقد له الولاية على حلب فى نهاية سنة ٤٥٤هـ كما سبقت الإشارة .

ورث عطية إذن حلب ، ليصبح رابع الأمراء من بنى مرداس وثالث أبناء صالح ممن تولوا أمرها ، فاستهل عهده بمنح ابن أخيه ثمال ويدعى ثابت بن ثمال معرة النعمان وكفر طاب وحماه ، ردا لجميل والده ، ومارس سلطاته كأمير حلب الجديد ، لكن ذلك لم يرض — بطبيعة الحال — محمود بن نصر المرداسى ، المطالب الدؤوب بملك حلب ، وكان حينئذ مقيما بحلته فى عين سليم [٢] فبعث إلى عمه عطية يقول له : « إن معز الدولة (ثمال) شرط على نفسه أن يرد على البلد عند موته لما تسلمه منى وأنا أخذته بسيفى من المصريين عن

---

(١) ابن العديم : زبدة : جـ١ ص٢٧٥

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص٢٦٢ ، ابو الفدا : المختصر جـ٢ ص١٤٢
ابن الوردى : تاريخه جـ١ ص ٣٢٤ — ٣٢٥

غلبة وقهر ، وهو إرثى من أبى » . وقد حازت عدالة هـذه القضية عطف كثير من زعماء بنى كلاب ، فوقفوا إلى جانبه وساروا معه لمنازلة حلب ، وجرى فرض الحصار عليها أكثر من مرة سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) لكن الأمر انتهى حينئذ بعقد صلح بين عطية وابن أخيه محمود ، منح الأخير بموجبـه إقطـاعا بخمسة وعشرين ألف دينار ، من جملته سرمين وبعض ضواحى حلب »[١] .

ويبدو أن هـذا الاقطاع لم يقنـع محمودا ولم يلهه عن طلب حلب ذاتها ، فسرعان ما نقض الصلح وقام فى العام التـالى على رأس جيش من بنى كلاب بالاستيلاء على حماة وكفرطاب ومعرة النعمان ، وهى البلاد التى كانت فى حوزة ابن عمه ثابت بن ثمال من لدن عمه عطية ، ثم مالبث أن نزل بنى كلاب قريبا من حلب ، ولمـا حاول عطية دفعه عنهـا أنزل به محمود هزيمة ساحقة فر على أثرها إلى حلب فى حالة سيئة ، وحاصر محمود حلب ذاتها وقاتلها قتالا ضاريا ، ومنع تسرب المؤن إليها حتى « أشرفت على أمر عظيم من الجوع » وعندئذ لم يجد عطية بدا من عقد صلح جديد مـع ابن أخيه سلمه بمقتضاه كل ما بيده عدا حلب والرحبة وبالس ومنبج وعزاز وقنسرين[٢] .

وكان أن استبد الخوف بعطيـة وتأكد عزم محمود على طرده من حلب ذاتها ، فقام باستدعاء طائفة من الترك كانوا قد نزلوا تحت قيادة رجل يدعى

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ١ ص٢٩٣

(٢) ابن القلانسى : ذيل ٩٢ ، سبط بن الجوزى : مرآة جـ١ ورقة ٢٨٠
ابن العديم : زبدة جـ١ ص٢٩٤ ،

Camb. Med. Hist. 5. P. 259

ابن خان بديار بكر فى أراضى الأمير الكردى ، وذلك ليتخذ منهم عطية عضدا ضد ابن أخيه محمود ، فقدم هؤلاء إلى حلب « فى ألف قوس » فأكرمهم عطية وبالغ فى الحفاوة بهم ، ويشير المؤرخ ابن العديم إلى هـذه الحادثة بقوله : « وكان هـذا أول دخول الترك إلى الشام » . لكن لم يمض وقت طويل حتى تقوجس عطية وأهل حلب منهم خيفة ، فأوعزوا إلى أحداث حلب بعصفيتهم فنهبوهم ليلا فى صفر سنة ٤٥٧ هـ وقتلوا منهم جماعة ، وفر الباقون حيث التحقوا بجيش محمود (١) .

على أن الفوضى التى تعرضت لها حلب حينئذ ، واضطراب السلطات فيها ، وضعف حاكمها عطية ، قد أغرى محمودا بمحاولة لإنهاء هذه الأوضاع ، ووضع حد لما تتعـرض له الإمارة من قلق ، فضلا عمـا أحدثه انضمام الأتراك وبنى كلاب إليه من حماسة بالغة ، فزحف إلى المدينة من مرج دابق فى جمادى الآخرة سنة ٤٥٦ هـ ، (مايو سنة ١٠٦٥ م) ، واستطاع إنزال الهزيمة بعطية وحاصره فى حلب مدة ثلاثة أشهر ، آثر عطية بعدها الاستسلام لابن أخيه ، وسلم إليه حلب ورضى أن يعوض عنها بالرحبة وعزاز ومنبج وبالس ، أى « جميـع الضياع الواقعة شرقى حلب وشمالها ، بينما ظفر محمود « بحلب وقبليها واصطلحا صلحا خالصا » (٢) .

وهكذا انقسمت الإمارة إلى قسمين ، كل منها يحكمه أمير مرداسى ، لكن

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ١ ص٢٩٤ — ٢٩٦ ، ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٢٧٤

(٢) ابن العديم : نفسه ، ص٢٩٧ ، ابن القلانسى : ذيل ص٩٣

ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ٢٦٢

عطية أنهى بذلك عهده فى حلب و ترك الإمارة المرداسية لآخر مرة . ولا شك أن عهده كان قصيرا مليئا بالفوضى والحروب و النزاع ، و ليس بـه ما يلفت النظر فى الأمور الداخلية أو الخارجية . والواقع أن عطية لم يكن على شاكلة أخويه نصر وثمال ، ولم يكن له ما اشتهر عنهما من حنكة ودراية بالشئون السياسية والعسكرية، لذا جاء عصره القصير عصر فوضى واضمحلال وحروب ونزاع لم تفق منه الإمارة إلا بتخليه عن حلب [١] لكنه مع ذلـك لم يستسلم كلية لضياعها ، فأخـذ يداوم الخروج على ابن اخيه وحاول أكثر من مرة مهاجمة حلب مستعينا فى ذلك بالبيزنطيين دون جدوى ، فلما يئس نهائيا سافر إلى القسطنطينية فأقام بها إلى أن لقى حتفه هناك حيث « سقط من سطح كان نائما عليه وهو سكران فمات سنة ٤٦٤ هـ » ، وكان ذلك ختاما لحياة هذا الأمير المرداسى [٢] .

---

(١) Camb. Med Hist, 5. P. 259

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١٠٦

Sobernheim : Encyc, Isl. art. «Halab»

(٤) محمود بن نصر صالح

٤٥٧ — ٤٦٧ هـ (١٠٦٥ — ١٠٧٤ م)

استعاد محمود بن نصر حلب بعد نشاط متصل وجهد دائب ، والحقيقة أن بقاء الإمارة المرداسية واستمرار بنى مرداس فيها يدين بالفضل لنشاط هذا الأمير وجهوده الدائبة ، بعد أن خرجت فعلا من أيديهم . وليس من شك فى أن محمودا كان أميرا طموحا مثابرا حريصا على إرثه وملكه ، وغيورا على إمارته ، وقد دال على ذلك بقوله عن عمه ثمال الذى تنحى عن حلب للفاطميين : « إنه ضيع مملكتنا وإرثنا ، وقد استعدتها بسيفى وبذلت فيها مهجتى » وقوله « أنا أخذت البلد بسيفى من المصريين من غلبة وقهر وهو إرثى عن أبى » (١) فعودة حلب لهذا الأمير كانت إذن نتيجة حتمية وقضية عادلة لأمير أصر على استعادة إرثه والاحتفاظ بملك آبائه .

دخل محمود حلب فى رمضان سنة ٤٥٧ هـ (يوليو سنة ١٠٦٥ م) بعد أن خرج منها عطية إلى الرحبة ، فبادر بمحاولة كسب تأييد القبائل العربية وجلب رضائها ، فقام فى العام التالى مباشرة بافتداء من وقع فى أسر البيزنطيين من نساء بنى حماد وبنى نمير (٢) وخاصة بعد أن اضطربت أحوال حلب فى نفس العام ووقع بها وباء عظيم حتى مات فى رجب من تلك السنة أكثر من أربعة

---

(١) ابن العديم : زبدة ج١ ص٢٨٥ ، ٢٩٣

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٩٣

آلاف شخص فضلا عن سائر الشهور ، ومنح محمود في نفس العام هارون بن خان — أمير جماعة الترك — معرة النعمان فنزلها هـذا في نحو ألف رجـل « فما رؤى أعف منهم عن البساتين والكروم وغيرها ، وكانوا لا يأخذون من أحد شيئا إلا بثمنه وسقوا دوابهم الماء بثمنه »[١] .

على أن ظاهرة انسياب جماعات الترك إلى بلاد الشام منذ عهد هذا الأمير أخذت تزداد وتتكرر ، مما يدعونا إلى الاعتقاد بأن محمودا كان يشجع أولئك الترك على القدوم ، ربما ليستخدمهم في جيشه ويرهب الروم بهم ، فقد أغضى الطرف أحيانا عن نشاطهم في نواحي إمارته ، فانتشرت جماعاتهم في أراضي الإمارة ينهبون ويقتلون[٢] وإذا كانت جمـــاعة ابن خان المشار اليها قد عفت عما للأهالي في القرى والمدن ، إلا أن الجماعات الأخرى التي أخـذت تفد تباعا لم تعف عن ذلك ، فأنزلت بالحلبيين وبغيرهم من السكان ضروبا من التعسف وألحقت بهـم كثيرا من الخسائر ، خاصة جماعة صندق التركي التي وصلت سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) واجتاحت أعمال حلب الى معرة النعمان إلى كفر طاب إلى حماه إلى حمص فرفنية ... « وشتوا في هذه السنة فنهبوا الضياع وسبوا منها وعاقبوا من وجد هناك وفتحوا جباب الغـلة ومدافنها » وطفق صندق هذا يفرض الإتاوات على كثير من القرى والجهات التي امتنعت عليه، فلما انقضي الشتاء عاد « إلى بلاد الروم بعد أن أكرمه محمود بن نصر بتحف وهدايا

---

(٣) ابن العديم : المرجع السابق جـ٢ ص٩ — ١٠
ابن خلدون : العبر جـ١ ص٢٧٤

(٤) سبط بن الجوزى : مرآة جـ٩ ورقة ٣٠٤

حملها اليه ،(١) . وعلى هذا يبدو أن سياسة محمود تجاه الأتراك بالذات قـد اتسمت بشيء من الملاينة والملاطفة (٢) .

وأول من نزل من الأتراك السلاجقة بلاد الشـــام هو هارون بن خان المشار إليه من قبل، وقدوصل إلى حلب سنة ١٠٦٢ م باستدعاء عطية بن صالح له، وفى سنة ١٠٦٧ — ١٠٦٨ م هاجم قائد تركي آخر هو « إفشين » مدينة أنطاكية فى ألف من أصحابه واستولوا على سبايا وغنائم كثيرة (كما سيلى)

---

(١) كان الأتراك السلاجقة قد بدأوا يجتاحون أطواف الإمبراطورية البيزنطية منذ أواخر عهد طغرلبك ١٠٣٧ ــ ١٠٦٣م وعهد خليفته ألب أرسلان ١٠٦٣ ــ ١٠٧٢م ، وقد صمدت الإمبراطورية فى البداية لهم بسبب خطوط الدفاع القوية التى كان قد أقامها الإمبراطور باسيل الثانى ، لكنهم عصفوا بعد ذلك بأرمينية بسبب تراخى الإمبراطورية فى تحصينها من ناحية ، ولما أظهره سكانها من الاستياء لما نزل بهم من اضطهاد دينى من ناحية أخرى ، لذا استطاع الأتراك الاستيلاء على مدينة آنى سنة ١٠٦٥م ثم على قيصرية سنة ١٠٦٧م وكذلك خونت (خوناز) ولم تفلح جهود الإمبراطور رومانوس الرابع فى صدهم فقد تعرض لهزيمة ساحقة فى مانزكرت سنة ١٠٧١ م .

Diehl : op. cit P. 103

Ostrogorsky : op. cit. P. 303

Vasiliev : op. cit. P. 415, 468 - 9

Bréhier : Vie et Mort de Byzance. P. 259, 279, 230

Crousset : Hisr. de L'Armenie. P. 553

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص٨٢ ــ ٨٤

عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٣٠

(٢) ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص١٦

ووصل إلى بلاد الشام سنة ١٠٧٠م (٤٦٢هـ) جيش صندق التركي، كما تردد المراجع اسم أحد القادة الترك الذى يدعى أحمد شاه بعدئذ، وهو الذى خدم عند نصر بن محمود المرداسي، وعند ابنه سابق، آخر أمراء بنى مرداس سنة ١٠٧٥-١٠٧٩م وكذلك يتردد اسم قائد آخر من الترك هو محمد بن دملاج الذى التمس منه سابق، أمير حلب المعونة ضد أعدائه من بنى كلاب، وعندما شرع السلطان ملكشاه السلجوقى فى غزو سورية وسير تاج الدولة تتش لضم بلاد الشام إلى الامبراطورية السلجوقية. كان أشهر القادة الترك فى شمال الشام ثلاثة هم : إفشين، وصندق، ومحمد بن دملاج، فأمرهم ملكشاه بالانضمام إلى جيش تتش [١].

ويبدو أن هجمات أولئك الترك كان لها ضلع فى تحول محمود المرداسي إلى الولاء للسلاجقة والخلافة العباسية، والتماسه الحماية من السلطان ألب أرسلان [٢] فقد أرسل إلى السلطان ألب أرسلان فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) بموافقته على إقامة الخطبة فى حلب للخليفة القائم بأمر الله العباسى، فسر الخليفة والسلطان بذلك وأرسلا اليه الخلع مع نقيب النقباء طراد بن على الزينى [٣].

(١) ابن العديم : زبدة، جـ١ ص٢٩٤ - ٢٩٥، جـ٢ ص١١ - ١٢، ١٦، ٤٧، ٥٤
ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص٢٧٤ - ٢٧٥، ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ٢٦٢،
سبط بن الجوزى : مرآة، جـ٩ ص٢٨٩.

(٢) Camd Med. Hist. 5. P. 261

(٣) ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ١٦، ١٧ - ابن القلانسى : ذيل ص ٩٨

ولم يتنبه محمود إلى مغبة هذه الخطوة إلا حينما وصل ألب أرسلان فجـأة إلى الرها فى أوائل عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) وأرسل فى استدعائه للمثول بين يديه، فلم يجب محمود هذه الدعوة خوفا منه . وعندئذ تحول ألب أرسلان إلى الشام ونزل بالفنيدق قرب حلب، فاستبد الخوف بمحمود وأخذ يحصن حلب استعدادا للحصار ، لكن السلطان قال : « أخشى أن أفتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم » (١) وآثر أن يوسط شيوخ القبائل لإقناع محمود بالخروج إليه وبذل الطاعة له ، وفى نفس الوقت ، شدد الحصار على حلب ، فلم يسع محمود فى النهاية إلا أن يرضخ ، فاصطحب والدته علوية (السيدة) وخرج ومعه مفاتيح البلد وقدم فروض الطاعة والولاء للسلطان ، فأكرمه هذا ، « وكتب له توقيعا بحلب » ثم مالبث ألب أرسلان أن رحل إلى مانزكرت للقاء الروم (٢) .

ويبدو أن ألب أرسلان طلب من محمود قبل رحيله أن يعمل على تقويض دعائم الحكم الفاطمى فى بلاد الشام ، بدليل قيام محمود فى شعبان سنة ٤٦٣ هـ (مايو سنة ١٠٧١ م) بعد رحيل السلطان بمحاولة غزو دمشق وانتزاعها من الوالى الفاطمى ابن منزو الكتامى ، لكنه لم يكد يصل إلى بعلبك حتى أخذ

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ ،

ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص١٩ ــ ٢١ ، ابن القلانسى : ذيل ص ٩٩

Wiet : L'Egypte Arabe. P. 238

(٢) Brehier ; op. cit p. 280

Grousset : Hist. des Croisades. I. P. XXXII

يتراجع بسبب ماوصله من أخبار هجوم عمه عطيه على أعمال حلب . ويؤكد هذا أيضا ماحدث من تفاهم بينه وبين زعماء الترك والتركمان العاملين فى وسط الشام وفلسطين من قبل السلاجقة ، أمثـــال قرلو التركي واتسز بن أوق ، وكانوا « أول من طلـع من الترك إلي بلاد فلسطين [١] » ومهما يكن من أمر ، فان رحيل السلطان استتبعه اطمئنان محمود من جهة السلاجقة ، وقيامه بخطوات تؤكد هذا الاطمئنان .

وقد اهتم محمود كثيرا بتدعيم سلطاته فى الإمارة واختيار معاونيه ، وكان دقيقا فى اختيار رجاله وولاته فى القلاع والحصون ، فكان يولى فى كل قلعة رجلا من أهل حلب ... « وتكون ذريته وأهله تحت يده » ، وقد اختار لمدينة عزاز الشاعر الشهير محمد بن سنان الخفاجي بمشـورة وزيره ابن أبى الثريا ، وقرب إليه الشاعر الشهير ابن حيوس الذى وفد إليه من طرابلس سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢م) وكذلك قرب إليه سديد الملك أبو الحسن بن منقذ مؤسس الإمارة المنقذية فى شيزر ، لكنه مالبث أن تغير عليه ، فاضطر ابن منقذ إلى ترك حلب إلي كفر طاب ، ثم مالبث أن فر سرا إلى طرابلس سنة ٤٦٥ [٢] فأكـرمه أمين الدولة بن عمار ورفض تسليمه لمحمود الذى ألح فى طلبه ، وحتى بعـــد وفاة أمين الدولة وتولية جلال الملك بن عمار ، كرر محمود طلبه ، لكن جلال الملك رفض أيضا تسليم ابن منقذ .

ويبدو أن ذلك كان له ضلع فى خروج محمود بجيشه إلى طرابلس ، حيث

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص ٣٠/٣١ ، ابن القلانسى : ذيل ص٩٨

(٢) Derenbourg : Vie D'Ousama Ibn Mounkidh, P. 516

ألقى الحصار عليها فترة ، ولكنه مالبث أن عاد بعد أن « أخذ من أهلها مالا »[١] ودون ذلك كان محمود حفيا بحاشيته دقيقا فى اختيار رجاله ، وبرغم أحداث عصره وتلاحق الوقائع فى زمنه ، فقد كان كريما مع الشعراء حفيا بهم مغدقا عليهم[٢] .

وقد مرض محمود فى أخريات أيامه ، ثم مالبث أن توفى فى جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ (يناير سنة ١٠٧٥ م) ، وأحصى ماوجد بخزائنه فكانت قيمته من العين والمتاع والآلات والثياب والمراتب ... « ألف ألف وخمسمائة ألف دينار (نصف مليون) »[٣] ويعد محمود آخر أمراء بنى مرداس الأقوياء ، إذ ترك من بعده ذرية ضعافا لم يكن أيا منهم أهلا للقيام بدور ذى أهمية أو لاحتلال مكانة مرموقة ، فبدت الإمارة وكأنها تترنح توشك أن تتداعى ، وأخذت تقترب فعلا من نهايتها .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ص ٢٦٢

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ص ٦٤ ـ ٦٧

(٣) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٤٥ ـ ابن القلانسى : ذيل ص ١٠٨
أبو الفدا : المختصر ، جـ ٢ ص ١٤٢ ، ١٩٣ .

(٥) - نصر بن محمود

٤٦٧ — ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ - ١٠٧٦ م)

أوصى محمود بالإمارة من بعده لأصغر أبنائه وهو شبيب ، لكن رجاله لم ينفذوا وصيته بل أقاموا ابنا آخر وهو نصر بن محمود ، فاستهل هذا حكمه بقتل وزير الدولة أبو الحسن على ابن أبي الثريا ، إذ اتهمه بأنه أشار على والده بولاية أخيه الأصغر شبيبا ، كما أعدم أحد ولاة والده ويدعى ناجية ابن على [(١)].

غير أنه سارع بعدئذ بكسب رضى الحلبيين « فأطلق من كان في اعتقال أبيه من أحداثهم وعم الناس بجوده ، ونشر الهدوء في ربوع الإمارة وأمن الناس ، ولذلك عاد سديد الملك بن منقذ من طرابلس إلى حلب لأول مرة في عهده منذ فراره إليها أيام محمود [(٢)].

وكان نصر بن محمود — كوالده — حفيا بالشعراء مغدقا عليهم ، وخاصة الشاعر ابن حيوس الذى مدحه كثيراً فنال رعايته وكريم إغداقه [(٣)] ، واستوزر بعد ابن أبي الثريا الوزير بن النحاس الحلبي ، كما قرب إليه أحمد

---

(١) ابن العديم : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٥ ، ٤٨ ، ابن الأثير : ج ٧ ص ٢٦٢

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ج ٢ ص ٥٤

(٣) ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٦٤ — ٤٧

(٤) ابن خلكان : وفيات ، ج ٤ ٦٤ — ٦٧

سبط بن الجوزى : مرآة ج ٩ ورقة ٤٦٥ — ٤٦٦

زعماء الأتراك بشمال الشام ويدعى أحمد شاه وعهد إليه باستعادة منبج من أيدي الروم (١) .

وفي العام التالي لولاية نصر ، تعرضت أعمال حلب الجنوبية لإغارات شديدة من قبل التركمان تحت قيادة اتسز بن أوق الذي كان يعمل على بسط نفوذه في وسط الشام وجنوبه ، متظاهرا بطاعة السلاجقة ، ماضيا في تقويض دعائم الحكم الفاطمي في تلك الجهات ، لكنه ما لبث أن ظهر فجأة في شمال الشام فأغار على أعمال حلب الجنوبية وضايق إمارة بني مرداس واستولى على رفنية « وسلمها إلى أخيه جاولي » ، الذي اتخذها قاعدة يشن منها هجمات جديدة على أعمال حلب بعد انصراف اتسز إلى الجنوب ، فأحدثت هذه الإغارات قلقا بالغا في الشمال وهلعا كبيرا بين سكان حلب « فجفل أهل الشـــام بين يديه ... ونهب كل ماقدر عليه » .

على أننا نجهل الأسباب التي دعت أتسز إلى القيام بهذه الأعمال العدائية ضد نصر ، مع أن التعاون بينه وبين أمـــير حلب السابق كان كاملا ، فقد استعان به محمود المرداسي من قبل ضد أعدائه . وليس هناك تعليل لهذه الإغارات إلا رغبة هؤلاء التركمان في اجتياح البقاع الوسطى والشمالية من بلاد الشام بعد أن نجحوا في فرض وجودهم في فلسطين ، ولعل خير دليل على ذلك أن أتسز قام بعد عودته من الشمال مباشرة بالاستيلاء على دمشق سنة ١٠٧٥ م (٤٦٨ هـ) ، بعد أن ترك جاولي في رفنية لمراقبة الأوضاع في الشمال

---

(١) Lane - poole : op. cit. P. 115

ومضايقة حلب [1] .

ولما استفحلت إغارات جاولي ضـد أعمال حلب ، جهز نصر جيشا عهد بقيادته لأحمد شاه زعيم الأتراك ، وأمره بقتال جاولي ، ورغم تعرض أحمدشاه في أول الأمر للهزيمة ، إلا أنه نجح في النهاية في الانتصار على جاولي الذى فر إلى دمشق فى حالة سيئة ، بينما تعرض أصحابه للقتل والأسر ، فسير أحمـد شاه بعضهم ... « في الوثاق إلى حلب مشاة » [2] .

وهكذا نجـح نصر في تأمين حدود إمارته من ناحية الجنوب ، ووضـع حدا لأطماع اتسز ابن أوق وأخيه جاولي ، ولكن برغم نجاحه في ذلك ، فقد أقدم على خطوة خطرة كلفته حياته فى النهاية . وذلك حين أمر بالقبض على أحمد شاه — القائد المنتصر — واعتقله في القلعة ، بل إنه لم يكتف بذلك ، فقام بالهجوم على مساكن الأتراك خارج حلب لتسكين ثورتهم والقضاء على هياجهم ، فرماه أحـدهم بسهم في حلقه فقتله في الحـال ، وذلك في شوال سنة ٤٦٨ هـ (مايو سنة ١٠٧٦ م) [3] .

ولا بد وأن نصر خشى استفحال أمر هذه الجماعة وازدياد نفوذ قائدها ،

---

(١) تكثر الروايات أن أتسز بن أوق كان يعمل فى بلاد الشام لحساب السلطان ملكشاه الذى كان أكثر تحمسا من ألب أرسلان لتصفية أملاك الفاطميين فى تلك البلاد ، ولهذا فانه ترك الحرية للأتراك ليمهدوا للغزو السلجوقى الذى ما لبث أن اجتاح المنطقة بأسرها .
ابن القلانسى : ذيل ص ٩٨

(٢) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٤٨

(٣) ابن العديم : نفسه ص ٤٩ ، ابن القلانسى : ذيل ص ١٠٩

فبادر باتخاذ هذه الخطوة الخطرة التى تعرض بسببها للوم المؤرخين . فقد وصفه ابن العديم بأنه كان حينئذ أهوجا (١) لأنه لم يقدر قوة هذه الجماعة وعظم نفوذ قائدها ، فأقدم على عمل طائش كلفه حياته فى نهاية الأمر ، ودفع ثمناً لهـذا التهور ، والواقع أن قوة الجماعات التركية كانت قد أخذت فى الإزدياد منذ عهد محمود ، ولم يكن من السهل استئصال شأفتهم دفعة واحدة ، أو القضـاء على خطرهم مرة واحدة ، لهذا فقد أخطأ نصر كثيراً فيما أقـدم عليه ، ولم يحسن تقدير الموقف ، فراح ضحية قصر نظره وسوء تصرفه .

---

(١) نفس المرجع ص ٤٩

(٦) سابق بن محمود

٤٦٨ — ٤٧٢ هـ (١٠٧٦ — ١٠٧٩ م)

بعد أن قتل الأتراك نصر بن محمود ، زحفوا إلى دمشق فى ظروف بالغة الخطورة وألقوا الحصار عليها وتجهزوا لقتال أهلها،عندئذ سارع والى القلعة ويدعى « ورد » إلى استدعاء بعض رجالات الإماره ومنهم سديد الملك بن منقذ للتشاور فى الأمر ، فاستقر رأيهم على إقامة سابق بن محمود — وهو أخ الأمير الراحل — فى الحكم ، فحمل إلى المدينة « ورفع إلى القلعة بحبل من السور وهو سكران ونادوا بشعاره » ، وأشاروا عليه بفك أسر أحمـــد شاه مقدم الأتراك لتسكن الفتنة ، فأمر بإطلاق سراحه، فنزل أحمد شاه إلى جماعته فأخمد الفتنة وسكن الثائرة(١) ، وبدا حينئذ أن هذا الأمير المرداسي الجديد قد اجتاز عقبة كبيرة كانت تهدد ملكه .

لكن ذلك سرعان ما غدا موضع شك كبير،إذ لم ينقض أكثر من شهر حتى حدثت فتنة جديدة أثارها فى هذه المرة بنو كلاب ، إذ اجتمعوا حول أخيه وثاب بن محمود وطالبوا له بالإمارة ، وانضم إلى وثاب أخوه الأصغر شبيباً ، وابن خالها مبارك بن شبل ؛ عندئذ استدعى سابق القائد أحمد شاه واستشاره فى الأمر خاصة وقد عاث بنو كلاب فى أعمال حلب وأفسدوا فيها ، فاستقر

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص٢٦٢ ،
ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص ٢٧٥

Lane - poole : op. cit. P. 115

رأى أحمد شاه على مكاتبة زعيم تركى آخر يدعى محمد بن دملاج للتحالف معه ضد بنى كلاب (١) .

خرج أحمد شـاه من حلب فى نحو ألف فارس ، وانضم إليه ابن دملاج بجماعته وذلك فى ذى الحجة سنة ٤٦٨ ﻫ (يونيو ١٠٧٦م) ، وكان بنو كلاب قد اجتمعوا فى أرض قنسرين وهم فى جموع عظيمة ، لكن يبدو أن خروجهم فى هذه المرة لم يكن عن اقتناع بشرعية هذا الأمير أو أحقيته فى الحكم ، لأنهم لم يثبتوا فى ميدان القتال رغم قوتهم وكثرتهم العددية . فلم تكد طلائع الأتراك تقترب وتتدافع إلى ساحة القتال ، حتى تراجع بنو كلاب بغير قتـال وأخلوا أماكنهم منهزمين ، تاركين عتـادهم وعـددهم وأسلحتهم ، فغنم الأتراك حللهم وكل ما كانوا يملكون (٢) .

وترتب على ذلك مسير وثاب بن محمود وزعماء بنى كلاب أمثال مبارك بن شبل وحامد بن زغيب إلى بلاط السلطان ملكشاه السلجوقى يسألونه العون ضد سابق ، فوعدهم السلطان المعونة وأمر أخيه تاج الدولة تتش بالمسير إلى بلاد الشـام فى أوائل سنة ٤٧٠ ﻫ (١٠٧٧ م) . وبمسير تتش إلى بلاد الشام تبزغ صفحة جديدة فى تاريخ هذه المنطقة ، وتشرف على فصل جديد فى تاريخها فى العصور الوسطى (٣) .

---

(١) ابن العديم . زبدة ، جـ٢ ص٥٤

(٢) المرجع نفسة ص ٥٤ ، Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Halab»

(٣) ابن العديم ، المرجع نفسه ص ٥٥ ـ ٥٦

سابق بن محمود والسلاجقة ونهاية العهد المرداسي :

وصل تاج الدولة تتش إلى بلاد الشام فانضمت اليه جموع من بنى كلاب، وأجفل أمامه جماعة الأتراك أصحاب أحمد شاه ، وكانوا منتشرين فى ضواحى حلب ، فدخلوا المدينة ، وما لبث أن وصل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ، صاحب الموصل ، لمساعدته فى الاستيلاء على حلب بأمر ملكشاه [1] ولما اكتملت جموعهم ، ألقوا الحصار على حلب فى ذى القعدة سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) وامتد الحصار اكثر من ثلاثة أشهر ، واشتدالقتال عندها واتصل، وقتل خلاله القائد أحمد شاه [2] . لكن شرف الدولة مسلم لم يكن متحمسا لسقوط المدينة ، بل إنه كان يراسل سابقا فى السر ، بما يقوى نفسه وكان ينكر على بنى كلاب خلطتهم بعسكر الترك ، ثم أردف ذلك بالانسحاب من أمام المدينة بعد أن نجح فى إدخال كثير من المؤن والعتاد إليها لتصمد للحصار ، فارتفعت روح الحلبيين وقويت نفس سابق [3] .

أدى انسحاب مسلم من أمام حلب وصمود المدينة أمام تتش إلى اضطرار هذا إلى رفع الحصار عنها ، ولكنه شرع فى الاستيلاء على أعمالها وتوابعها ،

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٢ ، Kay : po. cit. P. 498

(٢) ابن العديم زبدة ، جـ٢ ص ٥٧

(٣) كان شرف الدولة مسلم يرغب فى الاستيلاء على حلب وضمها لملكه وإقامة حكم يمتد من كردستان إلى شمال سورية والحيلولة دون انتشار النفوذ السلجوقي في هذه البلاد حتى لا لايكون خطراً على ملكه .

Grousset : Hist des Croisades. I. P. XLIV

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٢

فاستولى على منبج وحصن الفايا وحصن الدير وشحنها بالرجال ، وهاجم في عنف حصن بزاعا وفتحه عنوة وقتل كل من كان فيه نظرا لشدة مراسهم ، ولما أنزلوه بالترك من نكاية من قبل ، ثم أمر بنهب هذا الحصن ثم شحنه بالرجال ، ثم هاجم عزاز وأنزل بها الخراب والدمار ، فاستسلم له كثير من أهلها ، ورحل بعد ذلك إلى بعض قرى حلب ناحية عزاز فاستولى عليها وشحنها بالمقاتلة (١) . وعلى هذا فقد ضيق على حلب كثيرا وحرمها من قاعدتها وإمداداتها ومركز عمرانها وقوتها ، فزاد ضعفها ثم انهيارها في نهاية الأمر .

وهكذا واصل تتش تقويضه لمعالم الإمارة المرداسية ، فبعد أن تسلم دمشق من أتسز بن أوق سارع بالعودة من جديد إلى الشمال فنهب ضياع بعلبك ثم هاجم فجأة رفنية في جمادى الأولى سنة ٤٧١ هـ ، فقتل جماعة من التجار كانوا يجتازون في طريقهم إلى طرابلس واستباح أموالهم وحريمهم وبقي بها نحو عشرة أيام ثم رحل إلى حصن الجسر ، وهو حينذاك لأبي الحسن بن منقذ ، فتلقاه هذا وبالغ في إكرامه وسأله ألا يتعرض لكفر طاب فأجابه تتش إلى ذلك (٢) .

ثم رحل تتش الى قسطون فنهبها وأنزل بأهلها ضروبا من العقاب ، ثم نزل بجبل السماق » حتى لم يبق بها موضع ولا برج إلا افتتحه وأهلكه واستباح

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص٦٢ ــ ٦٣

ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص١٢٧

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص٦٥ ــ ٦٦

حريمهم وأولادهم » ولم ينج أهل سرمين ومعرة مصرين إلا بدفع ما فرضه عليهم من إتاوات ، لكنه نكل بضياع معرة النعمان الشرقية « وأخذ ما لا يمكن إحصاؤه وغاب أهلها فهلك منهم خلق ، ثم نزل تل منس وفرض عليها الإتاوة أيضا هى ومعرة النعمان ، لكن معرة تارح استعصت عليه فأحرقها ... » وهلك جميع من كان بها » (١) .

وهكذا استطاع تتش أن يهدم معالم إمارة بنى مرداس ؛ حتى ليقرر المؤرخ ابن العديم أنه « لم يبق فى أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب » وأصابت هذه الإغارات شمال الشام فى اقتصاده «فتلف أهله بعد ذلك بالجوع» وكان ذلك سببا فى هروب كثير من الناس إلى بلاد شرف الدولة مسلم ، فأكرمهم وأحسن إليهم وأخذ يفكر جديا فى الاستيلاء على حلب ووضع حد لهذا الاخطبوط السلجوقى فى جوف بلاد الشام (٢) .

وفى نفس الوقت أصبح أهل حلب وحاكمها أكثر ميلا للتسليم لهذا الأمير العربى حاكم الموصل، حفظا للمدينة من السقوط فى أيدى السلاجقة ، إذ تعرضت من جديد فى سنة ٤٧٢ هـ لحصار تتش الذى لم يتراجع عنها فى هذه المرة إلا بصعوبة بالغة عائدا إلى دمشق ، وعندئذ قاد مسلم جيشه متوجها نحو حلب فوصل إليها فى ذى الحجة عام ٤٧٢ هـ (١٠٢٩م) ، ولكنه لم يكد يقترب منها حتى أغلقت أبوابها فى وجهه وامتنعت عليه . ويبدو أن أميرها سابقا كان قد

---

(١) ابن العديم : المرجع السابق جـ٢ ص٦٦

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص٦٧

أعاد النظر في أمر تسليمها لمسلم ، وذلك بتحريض من أخويه شبيبا ووثابا الذين لحقا به في القلعة ، ولم يمكناه من التسليم ، (١) ، ولابد وأنهما أثارا حماسته للحفاظ على الإمارة وقررا الدفاع عنها معه .

ومع هذا لم يأمر مسلم جيشه بقتال أهل المدينة أو اقتحام أسوارها،وذلك لرغبته — دون شك — فى الاستيلاء عليها كما هى ، مع علمه بضعفها وقلة الأقوات بها وقصور إمكانيات أميرها . ويشير كل من ابن الأثير وابن العديم إلى دور بارز قام به الشريف حسن بن هبة الله الحتيتى، نقيب الأحداث بالمدينة، فى تسليم حلب إلى مسلم، إذ يقال أن ابنا له وقع فى يد مسلم خارج المدينة فعاملة معاملة طيبة وسمح له بالدخول إليها ، فاجتمع هذا بوالده واستقر الرأى على فتح الأبواب لمسلم ، ففتحوها له ونادوا بشماره وذلك فى ذي الحجة سنة ٤٧٢ هـ فدخلها مسلم .. ، وأحسن إلى كافة أهلها وخلع على أحداثهم وتصدق بمال كثير وغلة ، (٢) ، وأما سابق وأخويه فقد تحصنوا بالقلعة فحاصرهم مسلم ثم قبض عليهم واستقر الأمر فى النهاية على منح شبيب ووثاب قلعتى عزاز والأثارب وعدة ضياع ، ومنح سابق مواضع أخرى فى أعمال الرحبة ، وتزوج مسلم من منيعة أخت سابق ، وكان وسيط هذا الصلح سديد الملك ابن منقذ ،

---

(١) ابن العديم : المرجع السابق ص ٦٨ ،
ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٧٥

(٢) ابن العديم : المرجع السابق جـ٢ ص ٦٩
ابن الأثير : الكامل ، جـ٨ ص ١٢٧

Grousset : op. cit. I. P. XLIV

وقد اقـــترن ذلك بأن « غار المـاء في قلعة حلب ونزل منهـا أولاد محمود وانقضت دولة آل مرداس » .

وعلى هذه الصورة خرجت حلب من أيدى المرداسيين ولم تعد إليهم بعدها مطلقا، وانضوت تحت لواء مسلم بن قريش العقيلى قبـــل أن يستولى عليها السلاجقـة [1] وحين قلعتى عـزاز والأثارب اللتين منحهما مسلم لولدى محمود المرداسى ، عاد فطمع فيهما وقبض على شبيب ووثاب سنه ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) وأخذ منهما القلعتين « وعوضهما الحانوتة وقـــرقيسيا ودوبرا من أعمـال الرحبة »[2] وهكذا صفى مسلم الإمارة المرداسية ونفى الإخوة الثلاثة المرادسيين إلى جهات قـرب الرحبة حتى تصفو له حلب وما حولهـا ، ويضع نهاية للعهد المرادسي فى شمال الشام .

والواقع أن نهاية هذه الإمارة العربية كان أمرا محتوما نظرا لتسابق القوى الإسلامية المحيطة فى سبيل الاستيلاء عليها ووضع حد لاستقلالها ، فضلا عن النشاط الدائب للسلاجقة وأمراء التركمان فى بلاد الشام ، بالإضافة إلى ضعف واضمحلال الإمارة ذاتها ، وضعف همة أمرائها وحداثة أعمارهم وقلة تجاربهم، ولهذا انتهت هذه الإمارة فى زحمة أحداث العصر ، وانهدمت بذلك أول إمارة عربية قامت فى بلاد الشام فى القـرن الخامس الهجرى ، بعد أن عمـرت نيفا وخمسين عاما .

.. ..

---

(١) Lane - poole : op. cit. P. 115

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة ، جـ ١ ص ٥٠

(د) بنو مرداس والدولة البيزنطية

تهيأ للامبراطورية البيزنطية في النصف الثاني من القرن العاشر ، وأوائل القرن الحادي عشر الميلاديين ، مركزا هاما في الشرق بفضل جهود أباطرتها من الأسرة المقدونية ، لاسيما نقفور فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩م) ويوحنا زمسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦) وباسيل الثاني (٩٧٦ — ١٠٢٥م) فبفضل نشاط هؤلاء الأباطرة في الشرق خاصة نقفور وزمسكيس، أتيح للبيزنطيين أن يصلوا في بلاد الشام إلى أقصى ما وصل إليه النفوذ البيزنطي منذ عهد جستنيان واستعادوا للامبراطورية هيبتها في الشرق بحملات متلاحقة تشوبها حماسه بالغة واندفاع عظيم أغرى بعض المؤرخين المحدثين بالنظر إلى تلك الحملات كحلقة متقدمة من حلقات الحرب المقدسة أو الحروب الصليبية [١] .

وقد أشرنا فيما سبق إلى موقف الدولة البيزنطية تحت حكم باسيل الثاني من أحداث الشام إبان إرساء قواعد الحكم المرداسي في حلب وتوابعها على يد صالح بن مرداس ، وخلصنا من ذلك إلى أن الإمبراطور باسيل كان لديه في الجبهة الأوربية مايشغله عن أحداث الشرق ومايصرفه عن التفكير في الانغماس في شئون بلاد الشام، فلم يحدث احتكاك بين الإمبراطورية البيزنطية والإمارة الناشئة على عهد هذين الحاكمين ، بل على عكس ذلك يعتقد أن صالح بن

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج١ ص ٦٥ — ٦٦

عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص١١٥

مقدمات العدوان الصليبي ص٧٨

مرداس وبقية زعماء القبائل قاموا بالإتصال بالامبراطور يسألونه التأييد قبل شروعهم فى محاربة الخلافة الفاطمية (١)

ولما ولى عرش الإمبراطورية قسطنطين الثامن (١٠٢٥ —١٠٢٨م) خلفة لباسيل الثانى ، سارع بعقد اتفاقية صلح ومهادنة مع الخلافة الفاطمية سنة ١٠٢٧(٢) فأقر بذلك قواعد السلام فى الشرق ، ولم يحدث ما يعكر صفو السلام بين البيزنطيين والمرداسيين فى بلاد الشام .

وفى عام ١٠٢٨م تولى العرش الإمبراطور رومانوس الثالث ١٠٢٨-١٠٣٤م خلفا لقسطنطين الثامن ، وولى فى حلب نصر بن صالح بن مرداس سنة ١٠٢٩م يشاركه أخوه ثمال بن صالح ، وأخذت الظروف تتبدل فى غير طريق السلام ، فبعد مقتل صالح بن مرداس وانفراط عقد التحالف العربى سنة ١٠٢٩م ، نجح الدزبرى فى استعادة كثير من المدن التابعة للامارة المرداسية لاسيا بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن ابن عكار ، ويبدو أن هذه الظروف أغرت حاكم أنطاكية ميخائيل المعروف باسم اسبونديل Espondele بالخروج لقتال أميرى حلب نصر وثمال (٣) فقام بمهاجمة حصن قيبار من أعمال حلب ، دون أن يتلقى بذلك أمرا من الإمبراطور ، فنهض الأميرين

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 216

(٢) Byzantium. Edited by Baynes and Moss. P. 317 (Vasiliev)

(٣) ابن العديم : زبدة ج١ ، ص٢٣٧ ،

Crousset : L'Empire du Levant, P. 127

المرداسيين للدفاع عن الحصن واستطاعا أن ينزلا بحاكم أنطاكية هزيمة ساحقة وأرغماه على عقد الصلح ، وذلك فى نهاية أكتوبر سنة ١٠٢٩ م (شوال سنة ٤٢٠ هـ) [١].

ونكاد نجزم بأن نشاط الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام ونشاط قائدها الدزبرى حينئذ كان له دخل كبير فى إثارة الإمبراطورية البيزنطية وجرها للحرب وتوريط الإمارة المرداسية نتيجة لكل ذلك . فقد قاد الإمبراطور رومانوس الثالث جيشه فى العام التالى وزحف إلى بلاد الشام محاولا الاستيلاء على حلب وهدم إمارة بنى مرداس فلم تكن الهزيمة التى تعرض لها ميخائيل إسبونديل على يد أمراء حلب هى الدافع الوحيد لخروج الإمبراطور حينئذ إلى بلاد الشام فى تلك الحملة الكبيرة ، إذ لابد وأن قيام الدزبرى وأمير طرابلس بالاستيلاء على قلعة المنيقة الواقعة على الطريق بين أنطاكية وحلب كان له ضلع فى إنفاذ هذه الحملة [٢] ، هذا فضلا عن دأب المسلمين منذ سنة ١٠٢٩ م على مهاجمة الأملاك البيزنطية فى ديار بكر [٣] وتضيف بعض المصادر العربية حدوث نزاع بين أميرى حلب نصر وثمال واستنجاد نصر بالإمبراطور ضد أخيه [٤] ولا بد

---

(١) Schlumberger : L'Epopée. III. P. 71

يحى بن سعيد : التاريخ ص٢٥٣ ، ابن العديم : زبدة جـ١ ص٢٣٧

Sobernheim. Encyc, Isl. art. «Shibl Al Dawla Nasr»

سبط بن الجوزى : مرآة جـ٨ ص٢٦٧

(٢) Schlumberger : op: cit. III. P. 71

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص٣٤١ (سنة ٤٢٠ هـ)

(٤) ابن العديم : زبدة جـ١ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩

وأن الإمبراطور رومانوس الثالث كان حريصا أيضا على أن يكسب شهرة كبيرة بحملته إلى الشرق كتلك التى حازها أسلافه نقفور وزمسكيس وباسيل الثانى .

ومهما يكن من أمر ، فقد خرج الإمبراطور رومانوس الثالث بنفسه إلى أنطاكية وحشد جيشاً كبيرا قدره المؤرخ بن العديم بستمائة ألف مقاتل ، وقال عنه إبن الأثير أنه بلغ ثلاثين ألفا منهم البلغار والروس والخزر والأرمن والبجناك والإفرنج والكرج (١) .

وقد بادر الإمبراطور قبل كل شيء بإعفاء حاكم أنطاكية إسبونديل لما حل به من الهزيمة من قبل ، وتولى بنفسه قيادة الحملة ، وجهز الجيش بآلات الحصار وأدوات اقتحام الحصون ، وسير طلائعه تحت قيادة زوج أخته البطريق قسطنطين كارانثينوس Karanthenos لحراسة الدروب وتأمين سلامة الحملة ، على أن يلحق به بعد ذلك (٢) , وعلى الرغم من ارتفاع بعض الأصوات تحذر الإمبراطور مغبة هـذا العمل ، إلا أنه أصر على إتمامه « وصرف سمعه عن مشورة المتنصحين له ... وأغفـــل ما اقتضته السياسة من التحفظ والتيقظ والاستظهار في كل باب بما يقتضيه الصواب » (٣) .

ترتب على إصرار الإمبراطور على المضي فى حملته أن التأم شمل الاخوين أميرى حلب ، فتأهبا للدفاع عن الإمارة ، بينما سرت نوبة حماسة طاغيـة بين

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٤٩

(٢) Sclumberger : op. cit. P. 73 - 4

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤

المسلمين فى المنطقة، بدوها وحضرها، استعدادا للحرب. ومع ذلك أرسل نصر سفارة إلى الإمبراطور على رأسها ابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس يبلغه فيها تمسكه بشروط الهدنة واستعداده لحمل رسوم التبعية التى كان يحملها أمراء حلب للامبراطور باسيل غير أن رومانوس اعتقل مقلد بن كامل ومضى قدما فى حملته(١).

سار رمانوس من أنطاكية فى جموعه قاصدا حلب، ونزل بجيشه على تبل من نواحى عزاز فى شمال غرب حلب قريباً من الجبل « فى موضع بعيد عن الماء » ، وضرب حول عسكره خندقاً ، بينما نزل العرب فى مواضع تكثر بها المياه ، وكان الوقت صيفاً شديد الحرارة (٢) .

أرسل الإمبراطور بعد ذلك سرية كبيرة على رأسها القائد ليوخيروسفاكيس Chirosphaktes إلى حصن إعزاز لمراقبة تحركات العرب وشن الهجوم عليهم إلا أن هذه السرية تعرضت لكمين نصبه الكلابيون قريباً من إعزاز فأنزلوا بها هزيمة ساحقة ... « وأسروا جماعة من أولاد الملوك ، وقائد السرية نفسه ، وقتلوا كثيراً من رجالها » (٣) . وقد شجع هذا الانتصار العرب على مهاجمة المعسكر البيزنطى فى أغسطس سنة ١٠٣٠م (شعبان سنة ٤٢١هـ) فأخذوا يندفعون فى موجات متلاحقة فى قلب المعسكر ، بينما راح آخرون يطوقونه ويمنعون الماء والمؤن عنه . وعندئذ أسقط فى يد الإمبراطور ورجاله واضطربته

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٣٩

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١ ص ٣٤٩ ،

Camb. Med. Hist. 5. 256

(٣) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٤١

Schlumberger : op: cit. III, P. 79

خططهم وانهارت معنوياتهم ، وبدأ رجالهم فى الفرار فطاردهم المسلمون وأعملوا فيهم السيف وأسروا كثيراً منهم ، ولاحت نذر الهزيمة على جيش الإمبراطور « فاعتذر قائلا : لولا عطش عسكرى لبلغت مرادى » (١) وبدأ يخلى مكانه متقهقراً ، وعندئذ اندفع نصر المرداسى على رأس فرقة من نحو تسعمائة فارس « على سوق الملك فنبهوه ، وكان الإمبراطور قد اشتد ارتباكه وتحطمت معنوياته فانهزم هو ورجاله ناحية أنطاكية ، ومنح الله أكتافهم للعرب فأخذوا يتخطفون العسكر ويأسرون ويقتلون فى مؤخرة الجيش المرتد ، فأضحى الارتداد هزيمة ساحقة للجيش الكبير ، واستولى العرب على غنائم هائلة وكميات وافرة من الأسلحة والأموال والثياب والعتاد ، وأخذ شبل الدولة نصر تاج الملك وبلاطه ولباده » (٢) ، أما الإمبراطور نفسه فقد هام على وجهه بعد أن ... « نزع خفه الأحمر لئلا يعرفه أحد ، ولبس خفاً أسود » ثم اجتمع عليه بعض رجاله الذين عرفوه وعادوا معه إلى بلاده (٣) .

على هذه الصورة انتهت حملة رومانوس الثالث ضد حلب وباءت جهود هذا

---

(١) ابن العديم : المرجع السابق ص ١٤١ ،

Grousset : L'Empire du Levant. P. 127

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٤٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٤٩ ويقول ابن العديم أن طائفة من بنى قطن من نمير وردت عند الهزيمة فأخذت ثقل الملك نحوا من ثلاثمائة بغل محملة حتى أنهم تقاسموا الدنانير الأرمانوسية بالقصعة فحصل لكل واحد منهم ثمانى عشرة جفنة ج ١ ص ٢٤٣

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٥٠ ،

Schlumbereger : op. cit. III P. .87

الإمبراطور بالفشل الذريع وتحتم على حاكم أنطاكية نقتاس (نقيطا فى المصادر العربية) أن يسترد قلعة المنيقة، فقام فى خريف نفس العام ١٠٣٠م (٤٢١هـ) بالهجوم عليها، فعاث فى البلد العربى وأفسد حصن المنيقة وهجم رفنية وسبى عشرة آلاف من أهلها. ويبدو أنه لم يستطع أن يحقق أهدافه فى استرداد المنيقة بالذات فعجل بالعودة إلى أنطاكية (١).

غير أن العلاقات بين أمير حلب المرداسى والبيزنطيين أخذت فى التحسن تدريجياً، فقد صالح نصر حاكم أنطاكية بعد ذلك... «وجعله سفيراً بينه وبين ملك الروم فى طلب المدنة» هذا فضلاً عن قيام أمير طرابلس — الذى نجح البيزنطيون فى تأليبه على الخلافة الفاطمية — بالوساطه بين الطرفين، فتقررت المدنة على أن «يحمل نصر فى كل سنة إلى ملك الروم خمسائة ألف درهم» ويطلق سراح حيرو سفاكيس القائد البيزنطى الذى أسر عند إعزاز من قبل وفى مقابل ذلك قام الإمبراطور بإطلاق سراح مقلد بن كامل بن مرداس، رسول نصر «وأعطـــاه صليباً من ذهب مرصعاً أمانا لنصر ووفاء بالشرط» (٢) واستقرت المدنه بينهما وحمـــل نصر ما عليـــه من أموال إلى الإمبراطور فقرت نفسه.

أدركت بعدئذ القوتان الكبيرتـان المتنازعتـان فى بلاد الشام وهما

---

(١) ابن العديم: زبدة ج١ ص٢٤٦، يحيى بن سعيد ص٢٥٧، ٢٥٩،
Schlumbereger : op. cit. III. P. 91

(٢) ابن العديم: المرجع السابق ص ٢٤٦ — ٢٤٧،
يحيى بن سعيد: التاريخ ص ٢٥٧، ٢٥٩

Wiet : L'Egypte Arabe P. 221

الامبراطورية البيزنطية فى أخريات أيام رومانوس الثالث والخلافة الفاطمية أيام الظاهر ، أهمية إحلال السلام بينهما بسبب ماترتب على نزاعهما من فوضى واضطراب فى المنطقة بعد أن تعرضت أملاك البيزنطيين للهجوم على يد العرب وما حل بالنفوذ الفاطمى فى بلاد الشام من اهتزاز ، فجرت مفاوضات بين الطرفين لعقد معاهدة أمن وسلام بينهما [١] سنة ١٠٣٢م (٤٢٣هـ) ، وكان من أهم شروط الإمبراطور البيزنطى ألا يتعرض الفاطميون لحلب وأن يتركوها تؤدى ما هو مقرر عليها من رسوم التبعية السنوية للامبراطورية ، إلا أن الخليفة الفاطمى لم يوافق على هذا الشرط وترتب على ذلك تعثر المفاوضات بين الطرفين فى أخريات أيام رومانوس الثالث وأوائل عهد ميخائيل الرابع البافلاجونى (١٠٣٣ — ١٠٣٤م) فأخذ الخليفة الفاطمى يضغط على الإمبراطورية البيزنطية ، فقام باستخدام المواد التى انتزعها من الكنائس فى عمارة سور أقامه حول بيت المقدس ، وهدم بعض المبانى المسيحية [٢] ، وكان الخليفة قد نجح فى سنة ١٠٣٣م فى استعادة طرابلس التى تمتعت بتأييد الإمبراطور خلال فترة عصيانها على الخلافة ، يضاف إلى ذلك فشل الحملة البحرية التى وجهها الإمبراطور لمهاجمة الإسكندرية سنة ١٠٣٣م [٣] ، هذا فضلا عن أن نصر المرداسى نفسه لم يركن لحدود التبعية للبيزنطيين ، فقام فى سنة ١٠٣٥م (٤٢٦هـ) بالتصدى

---

(١) Wiet : L' Egypte Arabe. P. 221

(٢) Wiet : op. cit. P, 223

(٣) Bréhier : L' Eglise et L'Orient. P. 39
Camb. Med. Hist. 5. P. 275

لحاكم أنطاكية وأنزل به الهزيمة قرب حلب وتبعه إلى اعزاز ... « وغنم غنائم كثيرة وعاد سالماً » (١) .

وقد تضافرت كل هذه العوامل على تقريب وجهات النظر بين القوتين الكبيرتين فدانتا إلى عقد الهدنة ، التي تمت فى سنة ١٠٣٨م فى زمن كل من ميخائيل الرابع والخليفة المستنصر بالله الفاطمى . ونظراً لاضمحلال الإمبراطورية وتداعى نفوذها ، لم تتمسك هذه المرة بالشرط المتعلق بحلب ، فتراخت قبضتها على الإمارة المرداسية ولم تتحمس لاستمرار تبعيتها لها ، فنتج من ذلك إطلاق أيدى الدزبرى فى شمال الشام بأسره ، فنجح فى القضاء على نصر المرداسى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) والاستيلاء على حلب ومد النفوذ الفاطمى من جديد إلى تلك المنطقه (٢) .

على أننا نلاحظ أن العلاقات بين بيزنطة والمرداسيين بعد عهد نصر لم تتخذ شكلا خطيرا بسبب تحفز الخلافة الفاطمية وترقبها بعد أن استعادت هيبتها فى بلاد الشام ، وبسبب ماطرأ على الإمبراطورية البيزنطية نفسها من نواحى الضعف والاضمحلال لتوالى الأباطرة غير الأكفاء والنساء على حكمها بعد عهد باسيل الثانى ، فكانت هذه الظروف بداية مرحلة ضعف واضمحلال بالنسبة

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٩

(٢) بن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٥١ ، أخبار الدولة المنقطعة ورقة ٦٧ (مخطوط) .

Brehier : op. cit. P. 39

Wiet : op. oit. P. 223

للامبراطورية استمرت بعد سنة ١٠٢٥م حتى سنة ١٠٨١م [١] .

غير أن الأمر لم يخل بطبيعة الحال من وجود علاقات بين الطرفين استحالت في كثير من الأحيان إلى مظاهر شكلية وفقدت حرارتها وأهميتها ، ولكنها على كل حال كانت تعبيراً عن رغبة كامنة لدى بيزنطة في استمرار الشعور بما يربطها بهذه الإمارة من مصالح على أن مقتل نصر المرداسي سنة ١٠٣٨ م (٤٢٩هـ) واستفحال أمر الدزبرى في شمال الشام قد أحدث دون شك قلقاً في البلاط البيزنطى ، فسارع الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١م) بإرسال مبعوث إلى حلب لمقابلة ثمال واستجلاء حقيقة الأمر وما يمكن أن تسفر عنه الأحداث ، إلا أن هذا المبعوث وصل في ظروف بالغة الخطورة بينما كان ثمال يستعد للهرب من حلب ، فنهب العامة متاع هذا المبعوث البيزنطى ولم تلبث حلب نفسها أن سقطت في يد الدزبرى [٢] .

ويبدو أن ذلك كان هو الدافع الحقيقى لخروج حاكم أنطاكية للهجوم على حلب قبل أن يدخلها الدزبرى « فكسر عسكر أنطاكية الحلبيين وعاد الدمستق إلى أنطاكية »[٣]

وحينما أراد ثمال أن يستعيد حلب بعد وفاة الدزبرى سنة ٤٣٣هـ (١٠٤٢م)

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٢٨ ،

Vasiliev : op. cit. P: 463

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٩

يبعث رسولا إلى البلاط البيزنطي يلتمس المعونة والتأييد من الملكة ثيودورا سنة ١٠٤٢م فأرسلت هذه إلى ثمال « هدايا كثيرة وشرطت عليه أن يحمل فى كل سنة ما كان يحمله أخوه نصر ، على الشروط المشروطة عليه » (١) ولكن يبدو أن نجاح ثمال فى استعادة حلب فى حماية التأييد الفاطمى ، فضلا عن تغير الظروف فى البلاط البيزنطي ووصول قسطنطين التاسع إلى العرش بعد زواجه من زوى ZOE أخت ثيودورا قد أوقفت التنسيق بين ثمال والبيزنطين فى شمال الشام (٢) .

على أن استرضاء البيزنطيين فى عهد ثمال ارتبط بمدى ماكان يتعرض له من خطر على أيدى الفاطميين غالباً ، فطيلة عشر سنوات بعد ذلك ، لانعثر على مايشير باضطراد تلك العلاقات الودية بين إمارة حلب والبيزنطيين أو استمرار أداء حلب لرسوم معينة للبلاط البيزنطي ثمناً للسلام ، حتى سنة ٤٤٣هـ(١٠٥١م) حين يذكر أن ثمالا أرسل شيخ الدولة على بن أحمد الأيسر رسولا إلى القسطنطينية « بالمال المقرر عليه فى كل سنة وبهدية » . وقد لقي هذا المبعوث حفاوة البيزنطيين وتكريمهم ... « عن غيره من الرسل » وعاد إلى حلب حاملا « هدية سنية عوضا عن هديته » (٣) وليس لدينا تفسير لذلك سوى رغبة ثمال فى كسب تأييد البيزنطيين بعد أن تعرض لخطر النشاط الفاطمى فى بلاد الشام

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٢ — ٢٦٣

(٢) Baynes ; The Byzantine Empire. P. 53

Diehl : op. cit. p. 104—105

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٨ ،

من جديد، فقد تصدى لجيش ناصر الدولة الحسين بن حمدان قائد الفاطميين في سنة ٤٣٩هـ ، ولحزب قوي معارض في حلب شك في تعاونه مع الفاطميين فقبض على زعمائه ولم يطلق سراحهم إلا في عام ٤٤٢هـ كما تعرض في عام ٤٤١ لقتال رفق الخادم « القائد الفاطمي ، وأنزل به الهزيمة ؛ كل ذلك لا بد وأنه كان وراء رغبته في التماس التأييد والعون من البلاط البيزنطي .

على أن الظروف الدولية عادت من جديد في سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) فألقت ظلها على علاقة ثمال بالدولة البيزنطية . فيحدثنا المؤرخ ابن العديم أن ثمالا أرسل سنة ٤٤٧هـ هدية إلى ثيودورا (١٠٥٤ — ١٠٥٦م) ... « والتمس منها الزيادة في مرتبته فقبلت هديته وعوضته عنها وأجابته إلى ملتمسه »(١) ، ففي نفس العام دخل السلاجقة بغداد وهرب البساسيري منها إلى الرحبة حيث انحاز اليه ثمال ، كما ظفر مبعوث السلاجقة والخلافة العباسية السنية بإقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم في جامع القسطنطينية بأمر الملكة ثيودورا دون مبعوث الخلافة الفاطمية أبا عبدالله القضاعي ، الذي أرسل إلى المستنصر بذلك فغضب هذا وأمر بالقبض ... « على جميع ما في كنيسة القيامة ... وكان هذا من الأسباب الموجبة لفساد ما بين المصريين والروم »(٢) . وعلى هذه الصورة تشابكت العلاقات الدولية ويغلب على الظن أن ثمالا أراد بسفارته إلى البيزنطيين وبانحيازه إلى البساسيري — داعي الفاطميين — الاحتفاظ بالوضع الراهن

---

(١) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٧٠ ؛

Baynes : op. cit. P. 53

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص٧

ومواقفه المعتدلة بين القوتين الكبيرتين المجاورتين له فى المنطقة ، وعدم إثارة أى منها ضده .

لكن يبدو أن علاقة ثمال بالبيزنطيين قد أصابها الفتور خلال فترة تنحيه عن حلب والتجائه إلى مصر بين سنتى ٤٤٨ — ٤٥٢ هـ ، فحين عاد لينازع ابن أخيه محمود ملك حلب فى أوائل عام ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) لجأ محمود إلى الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر (دوقاس) ١٠٥٩ — ١٠٦٧ م ، وكان رسول محمود إلى البلاط البيزنطى هو عبدالله بن محمد الخفاجى ، إلا أن هذا لم يلق أذنا صاغية هناك ... « فبقى عندهم إلى أن ملك ثمال حلب »(١) . ودليل آخر على فتور تلك العلاقات فى أواخر أيام ثمال ، أن أنطاكية أضحت مأوى للفارين من وجه ثمال والمنازعين لحكمه ، فقد هرب اليها أبو العلاء بن سمان بعد فشله فى اغتيال ثمال ، « وسار إلى أنطاكية، وصار بها أسقفا إلى أن مات »(٢).

على أن الأمر ساء حتى وصل إلى حد الحرب السافرة بين ثمال والبيزنطيين فى أنطاكية . ففى المحرم من عام ٤٥٤ هـ (يناير سنة ١٠٦٢ م) عمر البيزنطيون حصنى قسطون وعين التمر (٣) فرد ثمال على ذلك بالاستيلاء على حصن أرتاح بين حلب وأنطاكية (٤) فى جمادى الأولى سنة ٤٥٤ هـ، وعندئذ سارع البيزنطيون

---

(١) ابن العديم زبدة ، جـ ١ ص ٢٨١—٢٨٢

Diehl : op cit. P. 105

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٨٦

(٣) من أعمال حلب ، ياقوت : معجم جـ ٤ ص ٩٧

(٤) ياقوت : معجم جـ ١ ص ١٩٠ — ١٩١

إلى طلب الصلح ، فاشترط ثمال هدم الحصنين الجديدين ، « وأن يكون ليلون للمسلمين لا علقة لهم فيه ويحملون عن حصن أرتاح مالا ويرده عليهم فضمنوا ذلك » لكن ذلك لم يكن خاتمة المطاف فى هـذا الدور ، بسبب تأليب حاكم أنطاكية لعمال ثمال فى الحصون القريبة خاصة معرة مصرين ، بل أنه قام ورجاله بمهاجمة قرية مريمين من أعمال حلب وأحرقوها ونهبوها فى شـوال من نفس العام ، فرد ثمال على ذلك بالاستيلاء على قيبار وقتل من بها من الرجال وسبي النساء والصبيان [١] وعلى هذه الصورة جرت علاقة ثمال بالبيزنطيين فى أنطاكية فى أواخر مراحل حياته ولم تنته إلا بوفاته فى ذى القعدة سنـ ٤٥٤ هـ (ديسمبر ١٠٦٢ م) .

وبعد ذلك آلت حلب لعطية بن صالح لفترة قصيرة مضطربة ٤٥٤-٤٥٧هـ (١٠٦٢ — ١٠٦٥ م) لا نعثر خلالها على ما ينبىء عن أحداث ذات أهميـة فى العلاقات بين الطرفين ، لـكن من الثابت أن الإمبراطورية البيزنطية منذ بدايه النصف الثانى من القرن الحادى عشر أخذت تتعرض لخطـــر الأتراك السلاجقة الذين أخـذوا ينسابون داخل أراضيهـا واستطاعوا فى غارتين كبيرتين أن ينزلوا بالأقاليم الشرقية منها الخراب والدمار فى عام ١٠٤٨ م على يد ابراهيم ينال ، وفى عام ١٠٥٤ على يـــد طغرلبك نفسه [٢] ، واستطاع السلاجقة بعد ذلك أن يعصفوا بأرمينية ، فاستولوا على مدينة آنى سنة ١٠٦٥

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٨٧

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٨٢ ، ٨٤

ثم قيصرية سنة ١٠٦٧ وكذلك على خونت (خوناز) CHONES [1] .

وليس من شك فى أن تتابع هذه الأحداث الخطيرة فى الوقت الذى خلا فيه العرش البيزنطى من إمبراطور قوى ذو همة ونشاط، قد أوقع الإمبراطورية فى اضطراب وقلق انعكسا على علاقاتها بالشرق ، فى الوقت الذى شهدت فيه حلب نزاعا متواصلا بين أميريها المرداسيين عطية بن صالح وابن أخيه محمود بن نصر .

لكن الدلائل كلها تشير الى أن البيزنطيين مالوا شيئا ما إلى جانب عطية بن صالح ، ربما إحساسا منهم بضعفه وسهولة استمالته ، فعلى الرغم من كراهيتهم للأتراك السلاجقة، إلا أنهم سمحوا بعبور طائفة كبيرة منهم تحت قيادة ابن خان فى طريقهم إلى حلب لمعاونة عطية فى بداية عهده بها، بل إنهم أمدوا ابن خان، « بالخلع والدنانير إكراما لأسد الدولة عطية لأنه كان مهادنهم » [2] ، وحين اضطر عطية فى آخر الأمر إلى تسليم حلب لابن أخيه محمود سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) لجأ إلى البيزنطيين فى أنطاكية واستعان بهم أكثر من مرة لاستعادة حلب ، ولما يئس نهائيا من ذلك سافر إلى القسطنطينية فأقام بها إلى أن لقى حتفه هناك سنة ٤٦٤ أو ٤٦٥ هـ فى بعض الروايات [3] .

---

(١) Vasiliev : op. cit. P. 415, 488 - 9

Ostrogorsky : op. cit. P. 303

عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٣٠

(٢) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٩٤

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦٢ ، ابن العديم : بدة جـ ١ ص ٣٢

ابن القلانسى : ذيل ص ١٠٦

وبقيام محمود بن نصر فى حكم حلب سنة٤٥٧-٤٦٧ هـ (١٠٦٥-١٠٧٥) شهد شمال الشام ورود جماعات الأتراك، سبق أن أشرنا الى أهم قياداتهم وقد غدت هذه الجماعات عنصـــر تخريب ودمار لاملاك البيزنطيين فى أنطاكية وأعمالها فى الوقت الذى التزمت فيه أنطاكية بسياسة الدفاع ، من ذلـك أن القائد إفشين خرج سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) يقودنحو ألف من الأتراك وهاجم بهم أعمال أنطاكية وأنزل بها الخراب والدمار ، « وأخذوا منها نحو أربعين ألف جاموس ، وأجبروا الأهالى على الاحتماء فى الحصون والجبال والمغائر ، ، وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئا ، وقد نتج من ذلـك أن ، «خرب بلد الروم خرابا لم يسمع بمثله وبقيت الغلات فى البيادر ما لها من يرفعها منهم » . وقد عاود إفشين الكرة فى العام التالى ١٠٦٨ م فألقى الحصـار على أنطاكية نفسها ولم يتركها إلا بعد أن أخذ من أهلها مائة ألف دينار ، « ومثلها من ثياب الديباج والآلة » [١] وفى نفس العام استولى ابن خان التركى على أرتاح بعد أن فرض عليها الحصار نحو خمسة أشهـر ، « ونهب جميـع ما فيها وما فى حصنها من الأموال ، وقتل من رجالها نحو ثلاثة الآف رجل » [٢] .

تحتم على رومانوس الرابع (١٠٦٧ - ١٠٧١ م) الذى خلف قسطنطين العاشر على العرش [٣] أن يكبح جماح الأتراك ويستعيد للبيزنطيين شيئا من هيبتهم فى الشرق . وعلى الرغم مما اشتهر به هذا الإمبراطور من حنكةودراية

---

(١) ابن العديم : نفسه جـ ٢ ص ١١ - ١٢ ، ابن الوردى : تاريخه ، جـ ١ ص ٣٧٢

(٢) ابن العديم : نفسه جـ ٢ ص ١٢ - ١٣

(٣) Diehl : op. cit. P, 105.

بالشئون السياسية والعسكرية ، إلا أن أثره في التصدى للأتراك لم يكن حاسما [١] . فقد وصل الإمبراطور بجيشه إلى شمال الشام في العام التالى ١٠٦٩م (٤٦١ هـ) واستطاع فعلا أن يسترد أرتاح ويستولي على منبج ، ونهبها وقتل أهلها بعد أن هزم محمود ، وبنى كلاب وابن حسان الطائي ومن معهما من جموع العرب » [٢] لكنه اضطر إلى العودة إلى بلاده سريعا بسبب ما تعرض له جيشه من وباء وغلاء .

ويبدو أن هذه الحملة البيزنطية قد أخرجت أنطاكية من جديد إلى دور الهجوم بعد التزامها بسياسة الدفاع سنوات ، لأن حاكمها خرج في نفس العام (١٠٦٩ م) شعبان سنة ٤٦١ هـ فاستولى على حصن أسفونا قرب معرة النعمان، وقتل كثيرا من رجاله ، ولكن رد محمود المرداسي كان سريعا ، إذ خرج في حشد عظيم فاستعاد الحصن ونكل بمن كان به من الروم ، ولم يلبث بعد ذلك أن عقد صلحا مع دوق أنطاكية الأرمنى كاشاتور Kachatur وبمقتضاه حصل محمود على قرض قدره أربعة عشر ألف دينار ووافق على هدم حصن أسفونا [٣] .

وحين تحول محمود من الولاء للفاطميين إلى الولاء للسلاجقة والعباسيين ،

---

(١) Brehier : Vie et Mort de Byzance, P. 280

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٠٧ ،

ابن الوردى : تاريخه جـ ١ ص ٣٧٣

(٣) ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ١٤ ــ ١٥ ، ياقوت : معجم جـ١ ص ٢٤٩

Camb. Med. Hist. 5. P. 261

طلب منه السلطان ألب أرسلان أن يقاتل البيزنطيين فى أنطاكيـة ويحارب الفاطميين فلما تلكأ محمود فى ذلك قاد ألب أرسلان جيشه فى ربيع سنة ١٠٧١م ونزل على حلب وجرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بإذعان محمود واعترافه بالتبعية للسلطان لكنه مع ذلك لم يتعهد بشن الهجوم على أنطاكية (١)، فى حين أن نهاية رومانوس الرابع نفسه كإمبراطور كانت على يد ألب أرسلان فى مانزكرت فى صيف نفس العام ١٠٧١ (٢)، وتعرضت الإمبراطورية بعد ذلك لخطر الغزو والإرهاق والسخط وقامت فيها الثورة بعد الأخرى بقيـة عهدة الأسرة المقدونية حتى قيام الأسرة الكومنينية سنة ١٠٨١ (٣).

وكان ولدا محمود وهما نصر وسابق (١٠٧٥ - ١٠٧٩ م) آخـر أمراء بنى مرداس فى حلب، وبسبب ضعف سلطتهما وازدياد نفـوذ الأتراك من ناحية، ومجاهدة الإمبراطورية البيزنطية فى هذه الفترة فى التصدى لخطـــر السلاجقة والنورمان من ناحية أخرى، بسبب ذلك لم يجر بين حلب والبيزنطيين ما يستحق الذكر حتى سقطت حلب ذاتها فى يد شـرف الدولة مسـلم العقيلى سنة ١٠٧٩ م، فى حين أن أنطاكية وقعت هى الأخرى فى يد الأرمن بعد أن قتل آخر حاكم بيزنطى فيها سنة ١٠٧٨ م، فسارع أهلها من الأرمن بتسليمها إلى فيلاريتوس الأرمنى (٤) ثم ما لبثت أن سقطت بعد ذلك فى يد سليمان بن قتلمش

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٠٩

(٢) man : The Byzantine Empi·e. P. 253 - 4

(٣) عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٣٢

(٤) Grousset : L'Empire du livant P. 179-80

سنة ١٠٨٥ م وامتد النفوذ السلجوقى فشمل المنطقة كلها تقريبا ، وحرمت الإمبراطورية البيزنطية من أثمن قاعدة لها فى الشام ومن مدينة كانت تعتبرها درة عقدها في الشرق ، وهكذا انهدمت ملامح قطبي العلاقات البيزنطية المرداسية فى عامين متتاليين .

.. .. ..

(هـ) بنو مرداس والخلافة الفاطمية

لم يلبث الفاطميون بعد أن استولوا على مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م)، أن تطلعوا إلى الاستيلاء على بلاد الشام لتأمين وجودهم فى مصر، ولم يكد جوهر الصقلى ينتهى من فتح مصر حتى أرسل حملة إلى بلاد الشام تحت قيادة جعفر ابن فلاح الكتامى فى أواخر سنة ٣٥٩ هـ فاستولى على الرملة وأنزل الهزيمة ببقايا الإخشيديين فى فلسطين ودخل طبرية دون مقاومة ثم مالبث أن استولى على دمشق ذاتها. [1]

وعلى الرغم من أن هذا النجاح بسط نفوذ الفاطميين حتى أواسط بلاد الشام، إلا أنهم كانوا دائمى التحفز لمد سلطانهم أبعد من ذلك، حتى يستطيعوا منازعة الخلافة العباسية سلطانها الروحى ويسلبونها زعامتها للعالم الاسلامى. وقد عاق هذا الهدف لبعض الوقت تعدد القوى المهيمنة على مقدرات المنطقة ورغبتها فى الاحتفاظ بالأوضاع الراهنة، إن لم يكن تغييرها لصالحها، فقد كان هناك الحمدانيون فى حلب بمن انضم إليهم من بقايا الإخشيديين من عشائر بنى كلاب وكذلك البيزنطيون الذين نجحوا لأول مرة تحت قيادة نقفور فوقاس سنة ٩٦٩ م فى استعادة أنطاكية. وما لبثوا أن أرغموا أمير حلب على توقيع صلح مهين معهم سنة ٩٧٠م (٣٥٩هـ) [2] كذلك كان هناك قرامطة البحرين الذين عولوا على فرض أنفسهم على بلاد الشام بعد نجاح غاراتهم على

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج ١ ص ١٦٨، ١٧٣ – ١٧٥

(٢) Vasiliev : Hist. de L'Empire Byzantine. I. P. 409

تلك البلاد سنة ٣٥٧ هـ [1] .

وقد استطاع الفاطميون دون شك القضاء على كثير مـــن العقبات التى اعترضت حكمهم لهذه البلاد ، وقطعت تسلسله أحيانا ، فوضعوا حدا لنشاط القرامطة فى بلاد الشام واستعادوا دمشق منهم سنة ٣٦٣هـ(٩٧٥م) [2] وكذلك قضوا على حركات المغامرين من أمثال أفتكين التركى سنة ٣٦٧هـ بعد أن انحاز إليه الحسن بن أحمد القرمطى، لكن الفاطميين استطاعوا فى النهاية وضع حد لمشروعاتهما معـا [3] ، كذلك ثار بفلسطين بنو الجراح الطائيين سنة ٣٨٨هـ ، سنة ٤٠٠ — ٤٠٤هـ ، إلا أن الفاطميين نشطوا فى القضـاء على ثوراتهم واستطـاعوا إنزال الهزائم بهم فى أوائل القرن الخامس الهجرى واستعادوا نفوذهم الضائع هناك ، وظل الحال كذلك بقية عهد الحاكم بأمر الله ومطلع عهد الظاهر لإعزاز دين الله حتى قيام حلف القبائل العربية سنة ٤١٥هـ (١٠٢٤م) الذى ضم كل من حسان بن الجراح وصالح بن مرداس وسنان بن عليـان زعماء القبائل لتقسيم أملاك الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام ، وهو الحلف الذى أشرنا إليه فيما سبق [4] .

أدرك الفاطميون خطورة هـذا الحلف بالنسبة لأملاكهم فى بلاد الشام فجهزوا جيشا كبيراً عقدوا قيـادته لأنوشتكين الدزبرى سنة ٤٢٠هـ لمحاربة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٩٠

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 181 - 2

(٤) ابن العديم : زبدة ، جـ ١ ص ٢٢٣ ،

ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦١

القبائل المتحالفة — كما سبقت الإشارة — واستطاع الدزبرى فعلا إلحاق الهزيمة بقبائل الشام المتحالفة على شاطىء نهر الأردن جنوبى طبرية فقتل صالح بن مرداس وهرب حسان ابن الجراح إلى الإمبراطور البيزنطى، واسترد الفاطميون البقاع الجنوبية والوسطى من بلاد الشام، لكن حلب ظلت بيد نصر بن صالح بن مرداس (١).

على أننا يجب أن نسرع إلى تسجيل ملاحظة هامة — قبل المضى فى عرض العلاقات بين بنى مرداس والفاطميين — وهي أن مضمون تلك العلاقات خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يكمن فى رغبة جامحة لدى الخلافة الفاطمية في الاستيلاء على حلب وبسط سيطرتها على بلاد الشام بأسرها. وقد نجحت فى ذلك إلى حد بعيد بين عامى ١٠٣٨–١٠٥٨م حتى لنستطيع القول بأن النفوذ الفاطمى في بلاد الشام بلغ أوجه فى تلك الفترة، وشمل بلاد الشام كلها تقريبا باستثناء أنطاكية التى ظلت فى حوزة الدولة البيزنطية، يقابل ذلك كله رغبة ملحة لدى أمراء بنى مرداس فى الاحتفاظ بإمارتهم وضمان استقلالها، وفى إطار هذه السياسة جرت العلاقات بين الطرفين.

ترتب على انفراط عقد التحالف العربى فى بلاد الشام ومقتل صالح بن مرداس وهروب حسان أن أطلقت يد الدزبرى فى بلاد الشام سنة ٤٢٠ هـ (١٠١٩م) فضيق كثيرا على إمارة حلب، كما قام بصحبة والى طرابلس بالاستيلاء

---

(١) سبط بن الجوزى مرآة، جـ ٨ ورقة ٢٦٥ – ٢٦٦،
ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٢٧٢

على قلعة المنيقة بين حلب وأنطاكية فأثارا بذلك البيزنطيين(١). ولكن الدزبرى مالبث أن عاد إلى دمشق وترك نصر بن صالح يتصدى لحملة رمانوس الثالث سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م).

ويبدو أن نجاح نصر في إنزال الهزيمة بالامبراطور البيزنطي قد أوجد حماسة طاغية في بلاد الشام، وجدت صداها لدى الخلافة الفاطمية في مصر، لاسيما وأن نصر بعث رسولا إلى الخليفة الظاهر . . . « حمل اليه من جملة ما غنمه من الروم من الثياب والصياغات والأوانى والالطاف الكثيرة ... ووقع فعله عندهم أحسن موقع »، وبقى الرسول بمصر فترة. فلما توفى الظاهر وتولى المستنصر الخلافة . . « سير معه خلعا لنصر بن صالح ولقبه مخلص الأمراء، خاصة الإمامة، شمس الدولة ومجدها ذو العزمتين » (٢).

ثم كان أن بقيت الأوضاع على ذلك حتى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م)، كان الدزبرى قد اتخذ من دمشق مقرا لإدارة الأملاك الفاطمية في بلاد الشام، وطمحت نفسه من جديد للاستيلاء على حلب، وتشير المصادر العربية إلى دور بارزلوالى طرابلس جعفر بن كليد الكتامى في تحريض الدزبرى على ذلك، فضلا عن رغبة كامنة لدى الدزبرى نفسه في توطيد نفوذه فى بلادالشام ربما توطئة لخلع طاعة الخلافة والاستقلال بما تحت يده من أملاك (٣). ويبدو أن عقد

---

(١) Schlumberger . L'Epopée. III. P. 71

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٧ – ٢٤٨ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ورقة ٣٤٩ .

Camb. Med. Hist. 5. P. 238

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١

الصلح بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية فى نفس العام هو الذى يفسر اتصال الدزبرى بالإمبراطور البيزنطى قبل أن يشرع فى مهاجمة حلب[1]. ومهما يكن من أمر ، فقد حشد الدزبرى جيشه واستمال كثيرا من العشائر القبلية فى بلاد الشام ورحل تجاه حماه .

وحينما علم نصر بذلك، سار فى جيشه فنزل قرب سلمية وهناك جرت الحرب بين الطرفين دارت فيها الدائرة على نصر واضطر إلى التراجع لتنظيم قواته ، فاستنجد بشبيب بن وثاب ، ولكن الدزبرى عاد فألحق به هزيمة ساحقة غربى لطمين بقرب حماه وقتل نصر نفسه فى المعركة وذلك فى شعبان سنة ٤٢٩ هـ (مايو ١٠٣٨ م)[2] .

وقد ترتب على مقتل نصر إذ ذاك أن استولى الدزبرى على حلب فى رمضان من نفس السنة ، بعد أن هرب منها ثمال بن صالح إلى الجزيرة ، ثم ما لبث الدزبرى أن استولى على قلعة المدينة من يد مقلد بن كامل بن مرداس ، « ونادى فى مدينة حلب بأن يخرج منها جميع الجنود والحواشي الذين كانوا يخدمون ابن صالح » وبعد ذلك سار إلى بالس ومنبج فاستولى عليهما ثم عاد إلى دمشق بعد أن رتب أمور حلب وولى عليها غلامه رضى الدولة بنجوتكين[3].

بقيت حلب فى يد الدزبرى مدة أربع سنوات ٤٢٩ — ٤٣٣هـ (١٠٣٨ —

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, P. 223

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ٢٦١

(٣) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٥٧ — ٢٥٨

١٠٤٢ م) كان حريصا خلالها على تأمين سلامتها ومراقبة تحركات ثمال بن صالح في أرض الجزيرة،على أن الدزبرى مالبث أن أتى من التصرفات ماجعل السلطات الفاطمية توجس خيفة منه ، فكتب الجرجرائى إلى ولاة الشام بترك الانقياد له ، وكاتب أجناد دمشق يغريهم به وكتب المستنصر توقيعا لثمال بن صالح بملك حلب [1] .

سار ثمال بتوقيع المستنصر إلى حلب فتسلمها من بنجوتكين مملوك الدزبرى في جمادى الآخرة سنة ٤٣٣ هـ (يناير سنة ١٠٤٢م) ووصله تشريف من المستنصر وعلى هذا يمكن القول أن حلب عادت إلى الحكم المرداسي في ظل الحماية الفاطمية .

لكن الصفاء بينهما لم يدم طويلا ، لأن ثمال مضى فى إصلاح الأوضاع العسكرية والمالية فى المدينة ، وأهمل في حمل مافرض عليه من الأموال ،فبعث نحو مائتى ألف دينار إلى مصر ورصد نحو خمسة وسبعين ألف دينار .. « برسم عمارة القلعة ومساكنها ومصانعها » ونحو ثلاثين ألفا .. « لاقامة العوض عما استنفذ من العدة وهلك من أصحاب الأسلحة باستعمالها والابتذال لها فى الحرب »، واستبقى لنفسه مافيمته نحو خمسة عشر ألفا [2] .

ويبدو أن هذه التصرفات أثارت قلق السلطات الفاطمية وحركت كوامن

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٧٣ ، ابن العديم : جـ ١ ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠

(٢) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٦٣

شكوكهم فى نيات الأمير المرداسى الجديد ، فسارعوا بإنفاذ القائد ناصر الدولة الحسن بن حمدان والى دمشق لقتاله والاستيلاء على حلب سنة ٤٣٩ هـ [1] ، وعلى الرغم من نجاح ابن حمدان فى الاستيلاء على حماه ومعرة النعمان وإنزال الهزيمة بالحلبيين الذين خرجوا لقتاله ، حتى ليقال أن آلافا منهم قتلوا خنقا وهم يتدافعون على أبواب المدينة هربا من سيوفه ، إلا أنه لم يستطع دخول حلب واضطر إلى النزول بقربها فى قرية تدعى صلدى على نهر قويق ، وهناك تعرض فى الليل لسيل جارف « لم يسمع بمثله ، ففرق أكثر المضارب وأتلف الرجال وأهلك الدواب » وعندئذ .. « أسرع ابن حمدان بالعودة إلى دمشق » . وليس من شك فى أن ذلك كان نصرا لثمال على الخلافة الفاطمية استتبعه فى العام التالى (٤٤٠ هـ) استعادته لمدينتى حماه وحمص ، بعد أن نكل بالحاميات الفاطمية فيها ، فاستعادت الإمارة المرداسية بذلك حدودها القديمة تقريبا . [2]

ثم إن ماحدث فى العام التالى (٤٤١ هـ) من إنفاذ رفق الخادم من مصر فى جيش فاطمى كبير لقتال ثمال ، إنما يفسر رد الفعل العنيف لدى السلطات المصرية بعد هزيمة ابن حمدان ، ورغبة الخلافة فى استعادة هيبتها فى شمال الشام ، فقد أولى المستنصر هذه الحملة بالذات اهتماما كبيرا فسير رفق « فى أبهة وقوة وعدة وافرة وآلات جليلة وعساكر كثيرة تبلغ عدتهم ثلاثين ألفا وخرج المستنصر لتشييعه وتقدم لجميع ولاة الشام بالانقياد اليه » [3] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦١ ، ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٣

(٢) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥

ابن ميسر : أخبار مصر جـ ٢ ص ٣

(٣) ابن ميسر : نفس المرجع ص ٤

وصل رفـق الى دمشق فى مطلع عام ٤٤١ هـ، وسار منها إلى حـلب فى صفر من نفس العام ، وفى ربيع الأول دارت الحرب بينه و بين الحلبيين ،وفى البداية أمر بحمل الأموال والأثقال إلى معرة النعمان ربما لحفظها ، ولكن هذه الخطوة كانت بالغة الخطورة ، لأنها أعطت انطباعا بعدم الاطمئنان إلى نتيجة المعركة فأخذ العسكر فى الرحيل وقد داخلهم الوجل » . ولم يجد الحلبيون صعوبة كبيرة فى إنزال الهزيمة الساحقة بفلول الجيش الكبير حتى جرح رفق نفسه وأسر فى النهاية ، « وحمل إلى حلب على بغل ، مكشوف الرأس ومعه جماعة من أماثل عسكره ،فاختلط عقله ومات بالقلعة بعد ثلاثة أيام » بينما وقع فى الأسر معظم قادته وكثير من رجاله ، وانتهت الحملة بالفشل الذريع .(١)

وعلى الرغم من نجاح ثمال فى هذه الحرب ، إلا أنه أدرك خـطر معاداة الخلافة الفاطمية ، وخطر المضى فى حربها . فمال إلى مسالمتها وكسب تأييدها ، بينما اقتنع الفاطميون بفشل محاولاتهم للاستيلاء على حلب ،حتى أن المستنصر « سخط على الوزير الجرجرائى لشروعه فيما عادت مضرته على الدولة من تسيير العساكر إلى حلب ونفى إلى صور » (٢) . ولعل ذلك قد قرب وجهات النظر بين الطرفين ، فأصبحا أكثر رغبة فى إحـلال السلام ، خاصة وأن ثمال أطلق الأسرى الفاطميين وسيرهم إلى مصر ، ثم مالبث أن بعث ماهو مقرر عليه من أمـوال كما بعث ببعض الهدايا والألطاف الفاخرة ، فلم يسع المستنصر إلا أن

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ص ٤ ـ ٥

(٢) المرجع السابق ص ٥

يرسل إليه « توقيعا بحلب وسائر أعمالها »(١). وكانت تلك الحرب آخر حرب جرت بين ثمال والفاطميين ، إذ ظل موال لهم بقية عهده حريصا على مسالمتهم.

ثم أكد ثمال هذا الاتجاه من جديد سنة ٤٤٧ هـ بانحيازه إلى البساسيرى حليف الفاطميين وداعيتهم ، حينما هرب من بغداد أمام طغرلبك السلجوقي وجاء إلى الرحبة « فلقيه ثمال وأكرمه وحمل إليه مالا عظيما » (٢). وعلى الرغم من أن ثمالا أحس بخطر هذا الانحياز وماقد يجره عليه من ويلات، إلا أنه مضى في معاضدة البساسيرى ، بل وسلمه مفاتيح الرحبة « ليجعل فيها ماله وأهله »، ومالبث أن استجاب لنداء المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى الداعي الفاطمي ومبعوث الخلافة الفاطمية لنصرة البساسيرى الذى كتب إليه من دمشق طالبا تسهيل مهمته ومعاونته على اجتياز الطريق بما معه من خزائن ، يقول المؤيد : فورد

---

(٣) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

(٤) البساسيرى تائد تركي كان فى خدمة الخليفة القائم بأمر الله العباسي فى بغداد قرب منتصف القرن الخامس الهجرى ، وكان يدين بالمذهب الشيعى ، فلما ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة قام بحركة سياسية أطاح فيها بالخليفة العباسى ودعا المستنصر بالله الفاطمى فى بغداد ونفى الخليفة العباسى إلى أقصى شمال العراق ، وظلت الدعوة الفاطمية تقام فى بغداد مدة تقرب من عام ، حتى تدم السلاجقة بقيادة طغرل بك فأنزلوا الهزيمة بالبساسيرى وحلفائه وأعادوا الخليفة القائم بأمر الله وفرضوا حمايتهم على الخلافة العباسية .

الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣٩٩ ـ ٤٠١ ،

المؤيد فى الدين : السيرة ص ٩٦ ، ١٨٢ ،

Arnold : The caliphate. P. 80 .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٥٤ (سنة ٤٤٥ هـ)

الجواب « بما سكنت نفسي إليه وعقدت خنصر تحصيلي عليه »[١]، وما لبث ثمال أن خرج للقاء المؤيد عند الرستن على نهر العاصي قرب حمص في حفاوة بالغة، حتى ليشيد المؤيد بذلك بقوله « ووفق ابن صالح بحسن خدمته توفيقا أبان عن صالح عمله ، وصافي اعتقاده » ثم سار الجمع إلى حلب ومنها أخذوا يستعدون للانحدار إلى الرحبة (٢) .

وعلى الرغم من أن ثمالا سار بصحبة المؤيد إلى الرحبة حيث التأم شمل الدعاة الفاطميين والمناوئين للخلافة العباسية. البساسيري والمؤيد وثمال وقريش ابن بدران العقيلي صاحب الموصل ، كما نجح المؤيد في استمالة دبيس بن مزيد، إلا أنه من الثابت أن ثمالا لم ينحدر مع البساسيري إلى بغداد حين دخلها هذا بعد خروج طغرل بك منها في طلب أخيه إبراهيم ينال[٣]، حيث أقام الخطبة فيها المستنصر ونفى الخليفة القائم بأمر الله العباسي . ويبدو أن انحياز ثمال إلى جانب البساسيري في الرحبة ، وتسليم مفاتيح تلك المدينة إليه لتكون قاعدة له، وتسهيل مهمة المؤيد وحفظ ماجاء به من الخزائن ، هي أقصى ماقدمه ثمال لحركة البساسيري من عون ومؤازرة . وليس من شك في أن هذا الدور كان اتقاء لعداء الخلافة الفاطمية ، أكثر من كونه دلالة على اقتناع ثمال بحركة البساسيري ذاتها .

على أن ثمالا أدرك صعوبة الحفاظ على إمارته وسط أطماع القوى المجاورة

---

(١) المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي : السيرة ص ١٠١ (نشر محمد كامل حسين)

(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ — ١٠٨

(٣) ابن الأثير . الكامل ج ٨ ص ٨٣ (سنة ٤٥٠ هـ)

فضلا عن مضايقات بنى كلاب له ، لهذا آثر التنازل عنها طواعية للخلافة الفاطمية فى أواخر سنة ٤٤٨ هـ أو ٤٤٩ فى بعض الروايات (١) فمنحته الخلافة بيروت وعكا وجبيل عوضا عنها — كما سبقت الاشارة — وتسلم مكين الدولة ابن ملهم المدينة التى غدت لمدة أربعة سنوات ولاية فاطمية .

شهدت المنطقة بعدئذ نشاط أميرين مرداسيين مطالبين بملك حلب وهما عطية ابن صالح ومحمود بن نصر بن صالح ، وفى نفس الوقت تعرض ابن ملهم لثورة أحداث حلب ضده ، وأسفر هذا العصيان عن تسليم المدينة لمحمود بن نصر فى جمادى الآخرة سنة ٤٥٢ هـ ، بينما تحصن ابن ملهم فى قلعه حلب فى انتظارا لنجدة من مصر (٢) .

أمدت الخلافة الفاطمية ابن ملهم بجيش يقوده ناصر الدولة الحسن بن حمدان ، وقد نجح هذا القائد الفاطمى فى أول الأمر فى استعادة حلب ونجدة ابن ملهم والتنكيل بأحداث المدينة ، إلا أنه تعرض فى النهاية لهزيمة ساحقة على يد محمود بن نصر قرب تل السلطان فى رجب سنة ٤٥٢ هـ ووقع فى أسر محمود الذى سارع بدخول حلب فى شعبان من نفس العام ، فلم يجد ابن ملهم بدا من تسليمه القلعة (٣) .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٨٦ ، ابن ميسر : أخبار مصر ص ٨ ،
ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٧٣ ، Lane-poole: op. cit. p. 114

(٢) ابو الفدا : المختصر ، جـ ٢ ص ١٤٢

(٣) ابن العديم : زبدة ، جـ ١ ص ٢٧٧ — ٢٨٠
Camb. Med. Hist. 5. P. 259

على أن ضياع حلب من أيدى الفاطميين أثار غضبا وحنقا لدى السلطات الحاكمة فى مصر ، فسارع الخليفة المستنصر بإنفاذ ثمال المرداسى المقيم بمصر حينذاك وطلب إليه استعادة حلب من ابن أخيه محمود ، وقد نجح ثمال بمعونة الفاطميين فى استرداد حلب ، من ابن أخيه فى أوائل عام ٤٥٣ هـ .. « فكاتب المستنصر بظفره بحلب ، فسير إليه الخلع مع ظفر المستفادى ولأخيه وأولاده ، (١) ، وهكذا عادت حلب من جديد للحكم المرداسى فى ظل الحماية الفاطمية .

آلت حلب بعد وفاة ثمال إلى أخيه عطيه بن صالح ، ويبدو أن تغلغل النفوذ البيزنطى فى حلب على عهد هذا الأمير كان حائلا دون تقاربه مع الخلافة الفاطمية ، كما يبدو أن الخلافة لم تؤمل كثيرا فى هذا الأمير ولم تعول على تبعيته ، فبادرت إلى تعضيد محمود بن نصر ، أقوى أمراء البيت المرداسي حينئذ ، والمطالب النشط بملك حلب ، فلم يكد محمود يلقى الحصار للمرة الأخيرة حتى بادر الخليفه المستنصر بإنفاذ رسوله ظفر المستفادى برسالة ودية إلية ولقبه . . . « عظيم أمراء العرب عضد الدولة سيف الخلافة . (٢) وهى خطوه لاشك أملتها رغبة ملحة لدى الفاطميين فى الحفاظ على نفوذهم فى حلب بأية وسيلة ، ولو كان نفوذا إسميا . على أن الدلائل كلها تشير إلى أن محمودا لم يكن يعبأ حينئذ بالخلافة الفاطمية ، ولم يكن حريصا على ملاينتها . ففى سنة ٤٦٩ هـ ، بعث إليه المستنصر يطالبه . . . « بحمل المال وغزو الروم

---

(١) ابن العديم : نفسه ص ٢٨٦ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦٢

(٢) ابن العديم : المرجع السابق ص ٢٩٧

وصرف ابن خان ومن معه من الغز إن كان على طاعته » . فكان رد محمود أنه ليس لديه مالا يحمله إلى مصر . . » أما الروم فقد هادنتهم . . . فلا سبيل إلى محاربتهم ، وأما ابن خان والغز فيدهم فوق يدى » (١) . وهذا الرد يحمل فى الحقيقة عدم اكتراث بالخلافة وعدم مبالاة بها ، وفى العام التالى (سنه ٤٦٠ هـ) تجرأ محمود على ضم حصن أسفونا قرب معرة النعمان (٢) ، وكان تابعا للفاطميين تسلمه من يد أمير مغربى بوساطة سديد الملك ابن منقذ (٣) ، ثم مالبث فى النهاية أن خرج عن طاعة الخلافة كلية وأقام الخطبة للخليفة العباسى سنه ٤٦٢ هـ . (١٠٧٠ م) (٤) .

وقد تضافرت عوامل شتى فى تشجيع محمود على هذا التحول من بينها : إحساسه — دون شك — بما أضحت إليه الخلافة الفاطمية من الضعف والاضمحلال ، بعد أن نزلت بها الكوارث الاقتصادية واجتاحتها ثورات الجند ، وماتعرضت له من حركات انفصالية وانسلاخ فى أملاكها ، وعجزها عن حفظ وحدة أراضيها (٥) . . . ومن بين تلك العوامل أيضا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٧٩

(٢) ياقـوت : معجم جـ ١ ص ٢٤٩

(٣) ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ١٢

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٠٨

سبط ابن الجوزى : مرآة ، جـ ٩ ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٥) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 238

ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٤

ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٤

المقريزى : اغاثة الأمة ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٤

ابن القلانسى : ذيل ص ٩٨

ما شهدته المنطقة من ورود جماعات الترك أمثال إفشين وصندق وغيرهم ، ولا بد أن هجماتهم المتلاحقة كان لها ضلع فى تحول محمود إلى الولاء للسلاجقة والعباسيين ، والتماسه الحماية من السلطان السلجوقى ألب أرسلان (١)

وقد عبر محمود نفسه عن هذه المشاعر يوم أمر بقطع الخطبة للمستنصر وإقامتها للقائم العباسي سنة ١٠٧٠ م حين قال لأهل حلب « قد ذهبت دولة المصريين وهذه دولة جديدة ومملكة سديدة ونحن تحت الخوف منهم وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم والرأى أن نقيم الخطبة خوفا من أن يجيئنا وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل » (٢) .

على هذه الصورة ولي نفوذ الفاطميين من حلب وبدأ يحل محله نفوذ تركي سلجوقى وقطعت خطبة المستنصر فيها ولم تحرك الخلافة ساكنا ، وهذا يؤكد ما أمست فيه الخلافة من ضعف وخور ، وما تعرضت له من محن واضمحلال .

* * *

تلك هى امارة بنى مرداس التى قامت فى حلب فى القرن الخامس الهجرى ، وعمرت أكثر من خمسين عاما ، لعل خير ما يميز عهدها أنه محاولة جريئة من لدن النفوذ القبلى الذى تغلغل فى بلاد الشام طيلة قرن من الزمان قبل قيامها ،

---

(١) Camb. Med. Hist. 5. P. 261

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج ٢ ص ١٧ — ١٨

وتجربة ثانية — بعد التجربة الحمدانية — لعودة الحكم العربى الخالص والاستقلال الذاتى إلى تلك البلاد بعد فترات تبعية للدويلات المستقلة فى مصر، الطارحة لنفوذ الخلافة العباسية .

ومن حسن حظ بنى مرداس ، أن صادفت جهودهم فى حلب فترة ركود من قبل الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة إمبراطورها الشهير باسيل الثانى وولاية سلسلة من الأباطرة الضعاف، لم ترق همتهم لمد سيطرة بيزنطة على بلاد الشام من جديد مع أن قاعدتهم فيها وهى أنطاكية ظلت شوكة دائمة فى ظهر القوى الاسلامية فى بلاد الشام،فنجا بنو مرداس بذلك من أخطار داهمة ربما هددت كيانهم، ولم يتعرضوا سوى لمحاولات قليلة من قبل بيزنطة لم تغير من الأوضاع الموجودة شيئا يذكر ، وقنع البيزنطيون فى كثير من الأحيان بعلاقات شكلية مع حلب ذرا للرماد فى العيون ، وحفظا على مظاهر ود كاذبة .

لكن من سوء حظ بنى مرداس أن عاصروا فى حلب فترة نشاط من قبل الخلافة الفاطمية ، التى ورثت عبء توحيد الشام ومصر ومد السيطرة على تلك البلاد تجنبا لمخاطر التعرض للقوى الأخرى ، فعانى بنو مرداس من خطر التصدى لجيوش تلك الخلافة الزاحفة إلى الشمال مرارا قبل أن تفتر همة تلك الخلافة وتتردى فى مشاكلها وأعبائها وتنوء بحملها ، ويرث السلاجقة معظم أملاكها فى بلاد الشام ومن بينها حلب وبقايا إمارة بنى مرداس .

* * *

بنو عمار فى طرابلس ١٠٧٠ — ١١٠٩م

أ — قيام الإمارة وعصر جلال الملك أبو الحسن على بن عمار

ب — عصر فخر الملك بن عمار وجهوده ضد الصليبيين

جـ — الانقلاب الداخلى فى طرابلس ودخولها فى حوزة الفاطميين

د — سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين سنة ١١٠٩م

(أ) قيام الامارة وعصر جلال الملك
أبو الحسن على بن عمار

حدث قبل أن تفقد الإمارة المرداسية استقلالها بنحو عشر سنوات وتنضوى حلب تحت لواء قوة إسلامية أخرى ، أن شهدت بلاد الشام قيام إمارة عربية ثانية أسسها أمين الدولة أبو طالب بن عمار سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) فى مدينة طرابلس ، منسلخا بها عن طاعة الخلافة الفاطمية ، مستقلا بها عن نفوذ القوى الإسلامية المجاورة ، لتمضي فى خطها الاستقلالى نحو أربعين عاما قبل أن تسقط طرابلس فى أيدى الصليبيين وتصبح إحدى الإمارات اللاتينية فى بلاد الشام .

وليس من شك فى أن الظروف كانت مهيأة حينئذ لقيام هذا النوع من الإمارات المستقلة نظرا لما أمست فيه الخلافة الفاطمية من ضعف واضمحلال منذ النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى ، وما نزل بها من محن وكوارث اقتصادية ، ذلك أن مصر تعرضت سنه ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) لمجاعة مروعة استمرت سبع سنين متوالية ، عم فيها القحط والغلاء وانتشرت الأوبئة، وجاءت هذه المحنة الشديدة — على حد قول المقريزى — بسبب . « ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل وعدم من يزرع ما شمله الرى (١) » . وبلغ من شدة

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٢٤

تلك السنين السبع وما قاسته مصر إبانها أن شبهها ابن ميسر بسنين يوسف عليه السلام ... « يمد فيها النيل ويطلع وينزل فلا يجد من يزرع أراضى مصر من من اختلاف العسكر وانقطاع الطرقات في البر والبحر (١) ».

وارتبطت تلك المحنة القاسية بقيام الفتن والقلاقل وثورات الجند من الأتراك والسودان فى سنتى ٤٥٩ ، ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ — ١٠٦٨ م) . ونظرا لضعف الخليفة المستنصر ولطول مدة حكمه وتسلط الأمراء والقادة ، أن عجزت السلطات الحاكمة عن كبح جماح تلك الجماعات ، فساءت أحوال مصر واضطربت أمورها ، وأمست فى حالة غاية في السوء . وصادف ذلك قيام الفتن والثورات والحروب فى بلاد الشام أيضا بين بدر الجمالى والى دمشق حينئذ وبين جند دمشق وأهلها (٢) . « فصار الحرب قائما بمصر والشام » كما يقول المؤرخ ابن ميسر فى نغمة أسف وحزن ، زاد لوعتها اشتداد وطأة الغلاء والقحط العامين التاليين ٤٦١ ، ٤٦٢ هـ (٣) .

وانعكست هذه الحالة دون شك على نفوذ الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام ، فكان عام ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) بالذات عام نكبة على أملاك الفاطميين هناك فقد استقلت صور تحت حكم قاضيها ابن أبى عقيل ، وضاعت بيت المقدس والرملة الى أيدى الأتراك ، وقطعت الخطبة للمستنصر فى

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٤

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٩٣

(٣) ابن ميسر : نفسه ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

حلب (١) ، واستقلت طرابلس تحت حكم ابن عمار .

وهكذا أدت تلك الكوارث الاقتصادية والسياسية ، فضلا عن نشاط السلاجقة وتقدمهم فى أملاك الخلافة الفاطمية فى بلاد الشام ، إلى ازدياد ضعف تلك الخلافة واضمحلالها وفقدها السيطرة على كثير من ولاياتها ، فانسلخت بعض الإمارات والمدن عن طاعتها فى وقت عجزت فيه عن وضع حد لهذه النزعات والتصدى لتلك الحركات .

أما طرابلس — موضوع هذا الفصل — فكانت قد دخلت فى حوزة الفاطميين ابتداء من سنة ٩٧١ م (٣٦٠ هـ) عندما استولت جيوشهم بقيادة جعفر بن فلاح على مدينة دمشق ، فى حين كانت طرابلس إحدى مدن إقليم الغرب الذى يضم أيضا بيروت وصيدا ، ويتبع دمشق من الناحية الإدارية ، وفى بداية الأمر ، أقر الفاطميون على إقليم الغرب الأمير عز الدولة تميم ابن النعمان بن عامر بن هانىء التنوخى ، وكان مقره مدينة بيروت . وفى سنة ٩٧٤م (٣٦٣ هـ) جرى فصل طرابلس عن إقليم الغرب ، إذ عهد بها الخليفة المعز لدين الله إلى ريان الخادم الذى اتخذها مقرا ، فلم تعد بذلك تابعة لدمشق بل غدت ولاية قائمة بذاتها (٢) .

ومنذ ذلك الوقت ، تتابع الولاة الفاطميون على طرابلس بعد ريان حتى

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ٩٧ ، ١١٢ ، ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٢٢ (الكامل) .
Wiet : L'Egypte Arabe, P. 238

(٢) ابن الفرات : تاريخه جـ ٨ ص ٧٧ (تحقيق زريق ونجلاء عز الدين)

بلغوا ثمانية ولاة إلى وقت استقلالها على يد ابن عمار سنة ١٠٧٠م (٤٦٢هـ) ، وهم بترتيب عهودهم : القائد نزال الكتامى ، وجيش بن محمد بن الصمصامة ، وعلى بن جعفر بن فلاح ، والأمير تميم التنوخى ، وميسور الخادم ، والقاضى أبو الحسن على بن عبد الواحد بن حيدر الكتامى ، والقائد أبـو سعادة ، ثم أخيرا مختار الدولة بن بزال الكتامى ، آخر الولاة قبل استقلالها [١] .

وقد ترتب على استقرار الحكم الفاطمى فى طرابلس وفى الجهات الساحلية بصفة خاصة ، ورسوخ قدم الفاطميين هناك ، أن انتشر المـذهب الشيعى فى فى تلك المدينة ، فضلا عن بعض مناطق من بلاد الشام ، بـل غالى الأهالى فى التشيع ، فعرفت جماعات منهم بالحاكمية والآمرية فضلا عن الدروز والنصيرية والرافضة ، وغيرهم من غلاة الشيعة المنتشرين فى جهات متفرقة من بلاد الشام ، خاصة فى الجهات الساحلية [٢] .

ويحدثنا الرحالة ناصر خسرو ، والذى زار طرابلس قرب منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، أن سكانها كانوا يبلغون حينئذ نحو عشرين ألفا كلهم

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٣ ، ٢١٠ — ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧
ابن القلانسى : ذيل ص ٣٠ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٥١
ابن العديم : زبدة ج١ ص٢٠٠ ، ٢١٥ ،
المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٠٠ ملحق ٢
السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٥٠ — ٥٣
Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Ibn Ammar»
Wiet : op. cit. New Edition

(٢) الأنصارى الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١١

شيعة (١) ، وتنتمي إلى المدينة كثير من القرى المنتشرة حولها غالبية أهلها من الشيعة (٢) ، ويميل أهل طرابلس بطبيعة الحال للدولة الفاطمية راعية المذهب الشيعي . وليس من شك في أن هذه الميول كان لها وزنها وأهميتها أمام أي ثائر يبغي الانفصال بطرابلس عن الخلافة الفاطمية ، فلم يكن من السهل عليه أن يمضي طويلا في انفصاله ، قبـــل أن ينجح في ذلك القاضي أمين الدولة ابن عمار ، الذي حفظ استقلالها وورثها أسرته من بعده مـدة تقرب من أربعين عاما .

على أن حصانة طرابلس ومناعة موقعها وشدة مراس أهلها حفظتها من السقوط أكثر من مرة في أيدي البيزنطيين الذين راموها منذ دخولها في حوزة الفاطميين ، فقد هاجمها الإمبراطور حنا زمسكيس (شمشقيق) إبان حملته على بلاد الشام سنة ٩٧٥ ، فاستعصت عليه وأنـزلت حاميتها بمعاونـة الأسطول الفاطمي الهزيمة بالجيوش الإمبراطورية ، وعندئذ عـبر زمسكيس عن غضبه بإتلاف الضياع المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون (٣) .

وفي سنة ٩٩٥ م (٣٨٥ هـ) هاجمها الإمبراطور باسيل الثاني بعد أن استولى على شيزر وحمص وأنطرطوس ، لكن طرابلس في هذه المـرة أيضا صمدت واستطاعت حاميتها الفاطمية الدفاع عنها ، وحينما عاد باسيل مرة ثانية إلى بلاد الشام سنة ٩٩٩ م حيث استرد شيزر وأحرق حمص واستولى على بعلبك ، حاول

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٣

(٢) Bull : Encyc. Isl. art. «Tarabulus»

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٦٦

أيضـا الاستيلاء على طرابلس ، لكنه فشل مرة أخـرى أمامها ولم يصادف توفيقا فى الأعمال الحربية التى قام بها بعد ذلك ضد المدن الساحلية (١) .

وهكـذا استطاعت طرابلس أن تسلم من الغزوات البيزنطيـة ابتداء من الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى ، لكنها فى الحقيقة لم تسلم كليـة من إصبع بيزنطى وراء بعض القلاقـل التى اجتاحتهـا ضد النفوذ الفاطمى فى بعض المراحل ، اذ يؤكد مؤرخ الإمبراطورية البيزنطية Schlumberger أن الإمبراطور رومانوس الثالث كان وراء الفتنة التى أثارها أمير طرابلس سنة ١٠٣٠ م عندما جاهر بخلع طاعة الفاطميين وعقد معاهدة صلح ومهادنة مـع الإمبراطورية تعهد بموجبها بدفع جزية سنوية للامبراطور ولابد وأن اهتمام الدولة البيزنطية بإثارة هذه الفتنة وتأليب أمراء المدن على الخلافة الفاطميـة خاصة طرابلس ناتج من إحساسها بأهمية هـذه المدينة ، لأنها تفتح الطريق للبيزنطيين فى المدن الساحلية فى بلاد الشام (٢) .

ولا بد وأن هذا الوالى هو مختار الدولة بن بزال الكتامى ، آخـر الولاة على طرابلس قبل استقلالها ، الذى نعلم جيداً أنه تولى أمر طرابلس منذ سنة ٤٠٧ هـ حتى توفى فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠١٦ — ١٠٧٠ م) (٣) . ويبدو أنه عاد مرة أخرى إلى طاعة الفاطميين ، إذ جرى إبرام معاهدة صلح

---

(١) المرجع السابق ص ٦٨ ، ٦٩ ،

Sclumberger : L'Epopée, II. P. 156

(٢) Schlumbereger : op. cit. III. P. 91

(٣) Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Ibn Ammar»

بين الخلافة الفاطميـة والإمبراطورية البيزنطية سنة ١٠٣٨ م لم تتضمن إشارة إلى شيء من النفوذ البيزنطي في طرابلس أو المطالبة بأية امتيازات في هذه المدينة (١) .

على أن هذه الفتنة لم تكن الوحيدة التي شهدتها طرابلس ضد النفوذ الفاطمي على الرغم من سكوت المصادر عن ذكر شيء من ذلك . ذلك أن المـؤرخ سبط بن الجوزي انفرد بإمدادنا بمعلومات فريدة عن اندلاع فتنة أخـرى أثارها « بنى أبي الفتح » في المدينة سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) أي قبل سنوات قليلة من استقلال المدينة على يد ابن عمار ، فقد استطاع بنو أبي الفتح هؤلاء الاستحواذ على السلطة في طرابلس وخلعوا طاعة الفاطميين وأعلنوا الاستقلال، إلا أن الخلافة الفاطمية بادرت بإنفاذ قائدها في بلاد الشام وهو ابن منزو الكتامي (٢) وبصحبته والي الرمـــلة ، ونجح ابن منزو بفضل سياسته وبفضل جهود شخصية هامـــة بدأت تفرض نفسها على الأحداث حينئذ ، وهي شخصية القاضي أبو طالب ابن عمار ، في القبض على بني أبي الفتح حيث « بعث بهم إلى صور وعاملهم بالمكروه » (٣) وتمكن في نهاية الأمر من إنهاء هذه الفتنة وإخماد هذه الثورة .

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe. P. 223
Cambi Med. Hist. 5. P. 257

(٢) تولى أمر دمشق من قبل الفاطميين سنة ٤٥٦ هـ ثم صرف عنها بعد ذلك وكان من قبل واليا على حمص قبل أن يستولى عليها المرادسيون .
ابن القلانسي : ذيل ص ٩٢، ص ٩٥ – ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٦٥

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة جـ ٩ ص ٢٩٣

وعلى الرغم من أن هذه الحادثة لم تسترع انتباه المؤرخين المحدثين ممن أرخوا لمدينة طرابلس فى هذه المرحلة ، إلا أننا نجد فيها أهمية كبيرة بالنسبة لابن عمار بصفة خاصة . ففضلا عن أنها تشير إلى محاولات دائبة من قبل بعض الطامعين للانفراد بحكم المدينة وسلخها عن أملاك الخلافة ، فإن فى أحداثها دورا بارزا للقاضي ابن عمار ، الذى تؤكد الرواية احتياله على بنى أبى الفتح للخروج معه لمقابلة ابن منزو لمفاوضته فى أمر الصلح بينما كان يعمل سرا على التخلص منهم ، فحين وثق أحدهم فيه ، وخرج معه لمقابلة القائد الفاطمى « بان له أن القاضى خدمه حتى حصله عند ابن منزو . . وكان ابن عمار قد أصلح جماعة من أحداث البلد ومقاتلته فاستأمن منهم جماعة . . فضعف أمر أبى الفتح واختلف أهل البلد ففتحوا الأبواب ونادوا بشعار المستنصر » (١) . فالفضل فى إنهاء هذه الثورة يرجع — كما هو واضح — للدور الذى لعبه القاضي ابن عمار ، ولذا أسفر التقارب بين ابن عمار وبين ابن منزو الكتامى عن عقد مصاهرة سياسية بينهما ، فتزوج جلال الملك أبو الحسن ابن عمار ، وهو ابن أخي القاضى ابن عمار ، من أخت القائد الفاطمى ابن منزو الكتامى (٢) .

وترجع أهمية ثورة بنى أبى الفتح المذكورة إلى أن فيها أول إشارة إلى ابن عمار نفسه ، الذى تشير الدلائل إلى تصاعد نشاطه واطراد نفوذه فى المنطقة بعدئذ ، كما أنها تتضمن أول إشارة الى اهتمام هذا القاضى بمستقبل

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة ، جـ٩ ورقة ٢٩٣

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٩٦

طرابلس ، فضلا عن أنها توحى برغبة كامنة لديه لمحاولة الاحتفاظ بالأوضاع الراهنة فى المدينة فى ظـــل النفوذ الفاطمى المتهالك توطئة للوثوب عليها والانفراد بحكمها وهى فوق ذلك كانت سابقة خطيرة وقريبة لإمام ابن عمار احتذاها فى الانسلاخ بالمدينة عن نفوذ الفاطميين .

وليس من شك فى أن تظاهر ابن عمار بالإخلاص للخلافة الفاطمية خلال تلك الفتنة قد أعطاه رصيدا كبيرا من النفوذ فى المدينة ، بل وفى بلاد الشام كلها ، بدليل قيامه بالوساطة بين الخليفة المستنصر وبين محمود بن نصر المرادسى ، أمير حلب ، فيما حدث بينهما من نزاع سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) أى بعد هذه الفتنة بنحو عامين ، حينما بعث المستنصر إلى محمود يطالبه بحمل ماهو مقرر عليه من المال ، وغزو الروم وصرف ابن خان ومن معه من الغز . فكان رد محمود أنه ليس لديه من المال ما يحمله إلى مصر ، وأما الروم فقد هادنهم ولا سبيل الى محاربتهم ، وأما الغز فيدهم فوق يده — أى أنه لم يعبأ بالخلافة ولم يجب أيا من مطالبها ، وعندئذ أمر الخليفة واليه على دمشق ، وكان حينئذ بدن الجمالى ، بمحاربة محمود . . . « فدخل القاضى ابن عمار المقيم بطرابلس بينهم وأصلح الحال » (١) . وليس من شك فى أن ابن عمار لمس عن كثب خلال ذلك مدى الضعف الذى آلت اليه الخلافة الفاطمية وعدم استطاعتها الحفاظ على أملاكها ونفوذها فى بلاد الشام ، فتاقت نفسه إلى الوثوب على طرابلس وتملكها .

وهكذا وجدت فكرة الاستقلال بطرابلس طريقها إلى نفس ابن عمار ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٧٩

فما لبث بعد سنوات قليلة — أى فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) حين سنحت الفرصة بعد موت الوالى الفاطمى ابن بزال وانشغال الخلافة ، بما نزل بها من كوارث وما أصابها من فوضى سنة ٤٦٢ هـ ، أن استولى على أعنة الحكم فى المدينة وسارع بإعلان استقلاله بها ، وتلقب بأمين الدولة وأخذ يباشر السلطة كحاكم مستقل .

وتشير كثير من الدلائل إلى أنه كان رجلا عاقلا ذكيا بعيد النظر ، وكان على جانب كبير من الدهاء والفطنة ، فضلا عن أنه كان فقيها شيعيا محبوبا [١]، اكتسب منزلة مرموقة لدى سكان المدينة الشيعية ، لأنه ، « كان عظيم الصدقة كثير المراعاة للعلويين » [٢] كل ذلك يفسر سياسة الاعتدال وعدم الاشتطاط التى اتبعها تجاه الخلافة الفاطمية بعد استقلاله ، إذ أنه لم يعلن عداءه لها ومعارضته لسياستها حتى لا يثير أهل طرابلس عليه ، كما أنه لم يتورط فى الخضوع لأى من القوى الأخرى ، بل اكتفى بسياسه حيادية تجاه القوى المختلفة ، وكانت هذه السياسة من أبرز سمات عصر هذا القاضى . [٣]

أرسي إذن القاضى أمين الدولة أبو طالب بن عمار قواعد الحكم فى طرابلس،ووضع أسس الإمارة المستقلة فيها،فلم تحرك الخلافة الفاطمية ساكنا،

---

(١) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٩ ورقة ٤٠٣ — ٤٠٤

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٢

ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

ولم تستطع منعه من المضى فى مشروعه ، فسار فى تأسيس إمارته فى كثير من الارتياح والاطمئنان .

وليس بين أيدينا ماينبيء عن تفصيلات الأحـداث الداخلية والخارجية طوال السنتين اللتين قضاهما القاضى ابن عمار فى الإمارة، لكن يبدو أن اهتمام هذا الأمير بشئون الرعية فى النواحى الاقتصادية ، حتى بلغت طرابلس الذروة فى الازدهار الاقتصادى، ورغبته أيضا فى الارتقاء بمـدينته من الناحيتين العلمية والفكرية بحـكم ميوله وثقافاته ، قد آتت أكلها ، فهو الذى أسس بطرابلس دار العـلم التى ضمت أكثر من مائة ألف مجلد والتى ذاع صيتها فى الخافقين ، وعدت مفخرة عهد بنى عمار بأسره . فضلا عن أن ابن عمار نفسه كان كاتبا مقتدرا ، ومصنفا بارعا شجع العلماء ، وطلاب العلم على الوفـود إلى طرابلس فى طلب العلم ، فغدت المدينة مركز إشعاع فكرى وعلمى هام ، ومحط رجال العلم والباحثين . (١)

أما بالنسبة لعلاقة ابن عمار مع الإمارة المرداسية ، فكان يسودها الجفاء بسبب احتواء ابن عمار لسديد الملك بن منقذ الذى لجأ اليه هاربا من محمود بن نصر فى حلب ، فأكرمه ابن عمار ورفض تسليمه لمحمود الذى ألح فى طلبه . (٢) وعلى الرغم من تشابه الظـروف التى عاشتها الإمارتان فى ذلك الوقت ، حيث

---

(١) حتى : لبنان في التاريخ ص ٣٥٣

Grousset : Hist. des Croisades. I. P. 132

(٢) ابن العديم زبدة ، جـ٢ ص٣٥

Derenbourg : Vie d'Ousama, Livre de baton. P. 516

نفض محمود طاعة الفاطميين في الوقت الذي استقل فيه ابن عمار عن الخلافة الفاطمية أيضا ، إلا أن ابن عمار — فيما يبدو — لم يكن حريصا على إقامة علاقة وثيقة مع المرداسيين ربما ليظل بعيدا عن دائرة نفوذ السلاجقة التي تغلغلت في حلب في ذلك الوقت .

وعلى كل حال ، فقد نجح ابن عمار في تخطيط سياسته بعيدا عن كافة القوى المجاورة والبعيدة، وحفظ استقلال إمارته وسط تطلعات تلك القوى طيلة عامين قضاهما في الحكم حتى توفي في رجب سنة ٤٦٤ هـ (ابريل ١٠٧٢م) [١] .

وبمجرد وفاة أمين الدولة أبي طالب ابن عمار ، دب النزاع بين أفراد أسرته طمعا في الحكم ، وامتدت الفتن بينهم إلى أن ظفر به أحد أبناء أخيه محمد ، ويدعى جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار .

وتقوم الرواية المتواترة التي ذكرها أحد المؤرخين المحدثين فيما يخص بهذا النزاع على الأسس التالية :

— أن أمين الدولة توفي على الأرجح دون أن يعقب ، ولكن كان له أخ يدعى محمدا ، وأن النزاع دب بين ابني هذا الأخ وهما : جلال الملك أبو الحسن وفخر الملك أبو علي ، بعد أن استبعد محمد نفسه من الولاية .

— أن الفضل في اعتلاء جلال الملك عرش طرابلس يرجع لمعاونة سديد الملك ابن منقذ الذي كان قد لجأ إلى طرابلس من قبل ،حيث عضد جلال الملك

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص١١١ ، السلامي : مختصر التواريخ ورقة ٢٦٦ (مخطوط).

بمماليكه وساعده ضد مناوئيه فنجح في الاستيلاء على الحكم في المدينة (١) .

غير أننا لا نرتاح كثيرا لهـذه الرواية ، ولا نستطيع أن نغفـل ما فيها من قضايا قابلة للنقاش ؛ فبالنسبة لما حوته من أن أمين الدولة توفى دون أن يعقب، فعلى الرغـم من أننا لا نعارض ذلك فعلا ، إلا أن المراجـع رددت كثيرا اسم أمير من أمراء هذه الأسرة يدعى ، ذا المناقب بن عمار ، تزعم ثورة ضد ابن عمه فخر الملك إبان تعرض طـرابلس لخطر الصليبيين — كما سيلي — مما يوحى بأن هذا الأمير كان يتحين الفرصة للاستيلاء على الحكم ، ربما اقتناعا بأحقيته فيه وشرعية ثورته للانفراد بحكم المدينة ، ولو في ظل الحماية الفاطمية. ولعل ذلك هو الذى دفع المؤرخ المحدث زامباور إلى الاعتقاد بأن ذا المناقب هذا هو ابن القاضي الراحـل أمين الدولة أبي طالب بن عـمار ، أى الوريث الشرعى للحكم في طرابلس . (٢)

وبالنسبة لما حوته الرواية المشار إليها من أن النزاع على الحـكم جرى بين ولدى محمد وهما جلال الملك وفخر الملك ، بعد استبعاد محمد نفسه ، فيعارضه ماذكره كل من ابن العديم وابن الفرات من أن النزاع وقع بين جلال الملك وبين عمه « أخا أمين الدولة ، حيث تدخل ابن منقذ إلى جانب جلال الملك . «فأخرجوا أخا أمين الدولة وتولى جلال الملك » (٣) . ومن المستبعد أن يكون النزاع قد جرى بين جلال الملك ووالده محمد وبفرض حـدوثه ، إذن لنص ابن العديم

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٦٨ — ٦٩

(٢) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ج ١ ص ١٦٠

(٣) ابن العديم : ز . ح ج ٢ ص ٢٥ ، ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

وابن الفرات عليه ، فلم يكن النزاع إذن بين جلال الملك وأخيه فخر الملك ، ولا بين جلال الملك ووالده محمد .

فمن ناحية ، لا نسمع طوال عهد جلال الملك — قرابة ثلاثين عاما — عن أية مصاعب لقيها حكمه من جـانب أخيه فخر الملك أو أية ثورة قام بها هذا الأخ بل تشير الدلائل إلى عكس ذلك من استتباب الأمن وسيادة روح الإخاء والود بين الاثنين . هذا فضلا عن أن جلال الملك وفخر الملك لم يكونا الابنين الوحيدين لمحمد ، فقد كان لهما أخ ثالث يدعى جمال الدولة ، يرجح « هنرى ماسيه » أنه مـــولى بدر الجمـالى الذى نسب إليه بدر (١) ويؤيده فى ذلك زامباور (٢) .

ومن ناحية أخرى ، لم يقع النزاع بين جلال الملك وبين والده محمد ، وهو أمر ـ فضلا عن استبعاد حدوثه ـ لا نجد نصا واحداً يشير اليه ، ومن المرجح أن محمداً هذا قد توفى فى حياة أمين الدولة ، أى قبل قيام هذا النزاع بوقت .

كل هذا يجعلنا نعتقد أنه كان هناك أخ آخر لأمين الدولة غير محمد ، لابد وأن همته ارتقت للفوز بالإمارة بعد وفاة أخيه وشعر بأحقيته فى ذلك دون أبناء أخيه محمد . ولدينا دليل على ذلك ، فقد أشار المؤرخ سبط بن الجـوزى فى أحداث نفس العام الذى توفى فيه أمين الدولة (٤٦٤ هـ) إلى نجاح جلال الملك فى الاستئثار بالحكم بعد أن نفى عمه المدعو أبا الفتح ونكل بالحـزب

---

(١) هنري ماسيه فى ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣٠

(٢) زامباور : معجم ج ١ ص ١٦٠

الذى يعاضده فى المدينة وعلى رأسه ابن المايكى ، أحد الفاطميين اللاجئين إلى طرابلس (١) .

فلابد وأن أبا الفتح هذا هو الأخ الثانى لأمين الدولة قاضى طرابلس المتوفى وهو الذى جرى النزاع بينه وبين جلال الملك ، ولابد وأنه لم يكن شخصية هامة أو رجلا مقتدراً يستطيع فرض نفسه على الأحداث ، لذا جرى استبعاده وتخطيه فى الحكم . ويبدو أن هذا الرجل لم يوفق فى الحصول على قاعدة عريضة من تأييد أهالى طرابلس أنفسهم ، فلجأ إلى حزب صغير يتزعمه رجل فاطمى لاجىء مما ساعد على تكتل بقية الأسرة ضده وحرمانه من الوصول إلى السلطة .

هذا ويبدو أن الأمير ذا المناقب المشار إليه آنفاً والذى جعله زامباور ابنا للقاضى الراحل لم يكن كذلك ، بل نرجح انه ابن لأبى الفتح هذا ، وأنه ظل يتحين الفرصة للاستئثار بالحكم الذى فشل والده فى الحصول عليه ، حتى واتته تلك الفرصة فخلع طاعة ابن عمه وأعلن نفسه حاكما فى الإمارة فى طاعة الخلافة الفاطمية ، كما سنفصل فيما بعد .

ولو كان ذو المناقب هذا ابنا للقاضى أمين الدولة ، إذن لأوصى له بالولاية من بعده وعقد له على الإمارة ولو فى وصاية أفراد أسرته إن كان صغيراً ، ويعقد له المصاهرات السياسية — كما مر بنا — مع رجال العصر بدلا من ابن أخيه جلال الملك ، لو كان شاباً .

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٩ ورقة ٤٠٣ ، ٤٠٤

من ذلك كله نستنتج أنه بعد وفاة أمين الدولة أبى طالب وأخيه محمد من قبله ، لم يعد هناك سوى أخ آخر لهما يدعى أبا الفتح وابنه ذا المناقب ثم أبناء محمد وهم ثلاثة : جلال الملك وفخر الملك وجمال الدولة . وكان جلال الملك أقواهم وأكثرهم دهاء ، فاتخذ من تأييد الأهالى ومن معاضدة ابن منقذ وسيلة للوصول للحكم ونجح فى ذلك أيما نجاح ، حتى ليقول ابن الاثير أنه ... « ضبط البلد أحسن ضبط فلم يظهر لفقد عمه أثر ... » [1] وقال سبط ابن الجوزى أنه : « رم البلاد أحسن رم » [2] وشرع فى تسيير دفة الحكم فى نفس الخط الاستقلالى الذى بدأه عمه أمين الدولة مؤسس الامارة من قبل وعلى هذه الصورة انتهت مشكلة الوراثة فى إمارة بنى عمار التى كانت بحاجة إلى جهود مثل هذا الأمير النشط .

والواقع أن جلال الملك يعد أعظم أمراء الأسرة دون جدال ، إذ نجح فى حفظ استقلال الإمارة نحو ثلاثين عاما وسط أنواء الشام وعواصفه ، وبين مطامع القوى المحيطة ، ورغم نشاط الأسطول المصرى على السواحل الشامية وتدخل السلاجقة فى شئون الشام وفرض نفوذهم فى كثير من بقاعه ، وفى هذا الإطار ظل جلال الملك فى حكم طرابلس طيلة تلك المدة .

ومنذ البداية ، ظهر الاتجاه الاستقلالى والتيار الحيادى فى سياسة هذا الأمير تجاه العسكريين المتنازعين الفاطمي والسلجوقى ، إذ طنق جلال الملك

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١١١

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة جـ٩ ورقة ٤٠٣ — ٤٠٤

يصفى العناصر ذات الميول المشبوهة فى طرابلس ، فأظهر فى العام التالى لولايته مباشرة (٤٦٥ هـ) تبرما وضيقا لوجود الشاعر ابن حيوس فى طرابلس ، فآثر هذا الخروج منها إلى حلب حيث اتصل بأميرها المرداسي وكان طرده من طرابلس بسبب « ميله إلى الدولة المصرية » كما يقول ابن العديم [1] . وفى نفس الوقت رفض جلال الملك تسليم سديد الملك بن منقذ للأمير محمود المرداسى الذى غدا دائرا فى فلك السلاجقة منذ سنة ١٠٧٠ م وتعرض ابن عمار من أجل ذلك فى أغلب الظن إلى هجوم الجيش الحلبى تحت قيادة محمود بن نصر المرداسى الذى ألقى الحصار على طرابلس فترة ولم يتراجع عنها إلا بعد أن « أخذ من أهلها مالا » [2] وهكذا اتجه جلال الملك منذ البداية فى خط حيادى عازفا عن كافة القوى المجاورة غير منحاز لأى منها .

وعلى الرغم من مرونة ابن عمار وكياسته ، لم يسلم من مؤامرات السلطات الفاطمية الحاكمة التى كانت تتطلع دوما لاستعادة طرابلس ، فقد اكتشف فى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٧٦ م) مؤامرة كبيرة كانت تحاك فى طرابلس ، للاطاحة به دبرها جماعة من وجوه المدينة بتعضيد من بدر الجمالى الوزير الفاطمى ، فقد وقع فى يد جلال الملك كتاب مرسل من بدر الجمالى إلى زعماء المؤامرة ، « ينبىء عن موافقة تجرى بينهم للقبض على جلال الملك وتسليم

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٤٠

(٢) ابن الأثير . الكامل جـ٧ ص٢٦٢

البلد ، (١) ، فسارع بالقبض على زعماء المؤامرة ، وصادرهم وقتل منهم جماعة وأنهى المكيدة فى مهدها .

ويبدو أن هذه الحادثة كان لها أثر فيما أبداه جلال الملك بعدئذ من لين وملاطفة للفاطميين ، رغبة منه فى عدم توسيع الهوة معهم تجنبا لعدائهم واتقاء لضررهم . فقد حدث أن اضطر ابن منزو الكتامى (أخا زوجة جلالة الملك) إلى الهرب من دمشق سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) على أثر اندلاع الفتن فيها ، فلجأ إلى مدينة بانياس وظل قابعا فيها حتى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٨٠ م) ، ونظرا لخروجه عن طاعة الخلافة الفاطمية ، لم يأمن على نفسه فى بانياس ، فلجأ إلى قاضي صور ابن أبى عقيل الثائر على تلك الخلافة أيضا ، ثم فضل فى النهاية اللجوء إلى زوج أخته جلال الملك بن عمار ، ولكن ابن عمار لم يتردد فى تسليمه للسلطات المصرية حيث جرى اعتقاله فى مصر ، ثم مالبث أن لقى حتفه . « قتلا بالنعال فى سنة ٤٨١ هـ » (٢) . على كل حال حاول جلال الملك تجنب الصدام مع الخلافة الفاطمية ، وعدم إثارة القلاقل معها لأن ذلك يجنبه دون شك إثارة أهل المدينة الشيعيين المائلين إلى تلك الخلافة .

تطلع جلال الملك بعد ذلك إلى توسيع رقعة إمارته ومد نفوذه إلى أبعد من طرابلس ، وحمله ذلك على الاستيلاء على جبلة فى سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨١ م) بعد أن نجح قاضيها أبو محمد عبد الله منصور بن الحسين التنوخى المعروف

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة جـ١٠ ورقة ٤

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٩٦

بابن صليحة في الاستيلاء على المدينة وتخليصها من البيزنطيين وبعث يستعين بابن عمار فوجد ابن عمار في هذه الأحداث فرصة لضم جبلة إلى إمارته فآلت إليه فأقر بها ابن صليحة [١] .

ويذكر المؤرخ سبط ابن الجوزى أن تاج الدولة تتش استولى في سنة ٤٧٧ (١٠٨٥ م) على أنطرطوس وسلمها لجلال الملك بن عمار نظير مبلغ من المال [٢] كما ضم ابن عمار أيضا حصن عرقة وهو على بعد يسير إلى الشمال من طرابلس ، ونجح كذلك في الاستيلاء على جبيل إلى الجنوب من طرابلس ، فغدت إمارته بذلك تضم بالإضافة إلى طرابلس كل من جبلة وأنطرطوس وعرقة وجبيل ، أى أنها شملت شريطا على ساحل البحر المتوسط امتد من جبلة شمالا الى مشارف بيروت جنوبا. وتلك هى إماره بنى عمار فى أوج اتساعها.

غير أن الأوضاع التى أسفر عنها قدوم السلطان ملكشاه السلجوقى إلى بلاد الشام سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧م) كانت نتائجها سيئة بالنسبة لإمارة طرابلس وابن عمار . فقد أقطع ملكشاه حلب لقسيم الدولة آقسنقر ، والرها للأمير بوزان ، وأنطاكية لياغي سيان ، وحرم تاج الدولة تتش من بسط نفوذه على البلاد بأسرها بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من ذلك ، وجعله يقبع فى وسط الشام متخذا من دمشق مقرا ، وقد أوجدت هذه التسوية استياء لدى تتش الذي كان يعمل على بسط هيمنته على المنطقة كلها ، فلم يقنع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٩

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمن ج ١٠ ورقة ٦٨ .

بدمشق وبيت المقدس ، وعاد من جديد يطلب من السلطان إطلاق يده فى بلاد الشام لتقويض ما بقى من دعائم الحكم الفاطمى وتوسيع نطاق إقطاعه على حساب الإمارات المستقلة هناك ، فلم يجد ملكشاه بأسا من ذلك ، بـــل أمر رجاله وأتباعه آقسنقر وبوزان بمساعدته على ذلك([1]) ، فطفق تتش يعمل على مد نفوذه وتوسيع أملاكه ، فاستولى بمعاونة آقسنقر وبوزان فى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢ م) على حمص من أميرها خلف بن ملاعب الكلابى ، ثم استولى على حصن عرقة التابع لابن عمار وكذلك على أفامية ، ثم قصـد طرابلس ذاتها فألقى الحصار عليها هو وحليفيه .

والواقع أن ابن عمار أظهر عندئذ ذكاء وفطنة عظيمين ، فقد وجد أمامه « جيشا لا يدفع إلا بحيلة » على حد قول ابن الأثير ، فأرسل إلى الأمراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم ليصلحوا حاله ، ولم يزل بهم حتى لمس استجابة لدى أحد أعوان قسيم الدولة آقسنقر ، « ورأى عنده لينا فأتحفه وأعطاه ، وحمل له ثلاثين ألف دينار وتحفا بمثلها وعرض عليه المناشير التى بيده من السلطان بالبلد » ، وعندئذ عمل هذا القائد هـو وقسيم الدولة فى صالح ابن عمار فقال قسيم الدولة لتتش ، « لا أقاتل من هذه المناشير بيده » فأغاظ له تتش وقال ، « هل أنت إلا تابع لى ، فقال آقسنقر : أنا تابعك إلا فى معصيـة السلطان ، ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة الى الرحيل غضبان » ([2]) .

وهكذا نجت طرابلس من هجوم السلاجقة لتحتفظ باستقلالها فى ظـل

---

(١) عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٥ ــ ٦٦

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٦٠ ــ ١٦١

بنى عمار ، كما نجا جلال الملك من أطماع تاج الدولة تتش جبار الشام حينذاك ، الذى ما لبث أن شغلته حرب الوراثة على السلطنة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه فى نفس العام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، حتى اذا ما راح ضحية طموحه خلال تلك الحرب ، تفككت إمارته فى بلاد الشام من بعده ولم يعد هناك خطـــر حقيقى يهدد ابن عمار من قبل السلاجقة .

على أن إمارة بنى عمار قدر لها أن تتعرض لعدو آخر لا يقـل خطورة عن ذلك ، وهم الصليبيون الذين ما لبثوا أن طرقوا أبواب الشام بعـد ذلك بسنوات قليلة ، ليعصفوا بالقوى الإسلامية المتهالكة فيه ، ويخترقوا أراضيه فى اندفاعهم نحو الجنوب إلى الأراضي المقدسة فى ظروف بالغة الخطورة بالنسبة للمسلمين عامة ولقوى الشام بصفة خاصة .

ذلك أن الصليبيين فى الحملة الأولى وصلوا إلى مشارف الشام فى خريف سنة ١٠٩٧ م (٤٩٠ هـ) واقتحموا مدينة أنطاكية فى يونيـو سنة ١٠٩٨ (رجب ٤٩١ هـ) بعد حصارها قرابة ثمانية أشهر ، ونجحوا فى إنزال هزيمة قاسية بالجيوش الإسلامية المتحالفة بقيادة قوام الدولة كربوغا أمير الموصل ، الذى قدم لاستعادة المدينة منهم والتصدى لخططهم فى أواخر يونيو ، وكان أحد أمراء الحملة الصليبية وهو بلدوين البولونى قد نجح فى إقامة إمارة صليبية فى مدينة الرها فى أقصى شمال العراق فى مارس سنة ١٠٩٨ م ، وبعد الهزائم التى تعرض لها المسلمون على أيدى أولئك الغزاة أصبح نجاح الصليبيين فى الوصول إلى بيت المقدس وإقامة مملكة صليبية فى الأراضي المقدسة أمـــرا ميسورا [1] .

---

(١) = Conder : The Latin Kingdom. P. 38

فبعد استيلائهم على أنطاكية ، تقدم جانب كبير منهم تحت قيادة ريموند دى سانت جيل (الصنجيلى) ناحية الجنوب فاستولوا على البارة فى سبتمبر ١٠٩٨م وعلى معرة النعمان فى ديسمبر من نفس العام (١) ، ووصل ريموند إلى كفر طاب فى أوائل عام ١٠٩٩م ، ومكث بجيشه هناك حتى ١٦ يناير حيث لحق به قائدان آخران من قادة الحملة هما : روبرت النورمانى وتنكرد بفرقهما ، وعندما رأى أمير شيزر العربى أبو العساكر سلطان بن منقذ تجمع الفرق الصليبية على مشارف إمارته بادر بإيفاد رسولين إلى القائد الصليبى ريموند لمفاوضته فى الصلح مبديا استعداده لتقديم المعونة للصليبيين وإرسال أدلاء لإرشادهم لعبور نهر العاصى عبر المخاضة وتقديم كافة الإرشادات لهم فى اجتيازهم الإقليم ، نظير عدم تعرضهم لإمارته بسوء . (٢)

ثم مر الصليبيون بعدئذ بحصن مصياف فى ٢٢ يناير سنة ١٠٩٩م ، ثم بعرين ومنها إلى سهل البقاع ، وما لبثوا أن هاجموا حصن الأكراد الذى احتمى به مسلمو تلك النواحى ، فسقط فى أيديهم فى ٢٩ يناير سنة ١٠٩٩م ، وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص الذين وفدوا محملين بالهدايا ليخطبوا ود الفرنج حتى لا يتعرضوا لبلدهم بسوء .(٣) ويعلق أحد

= ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧ (سنة ٤٩١ هـ) ،
ابن العديم . زبدة ، ج ٢ ص ١٣٧

(١) Grousset : Hist. des Crois I. P. 122-3

(٢) Gesta Francorum. P. 78 (Trans. by s. de Chair)

(٣) Gesta Francorum. p. 80

مؤرخى الحروب الصليبية من المحدثين على مبادرة الأمراء العرب فى بلاد الشام ببذل الطاعة والولاء والمسالمة مع الصليبيين بأنهم لاشك أدركوا خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم من ذلك الخطر ، فآثروا اتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبيين وقبول ما تقدموا به من عروض . (١)

ومن حصن الأكراد بدأ الصليبيون يتجهون ناحية عرقة ، وباتجاههم إلى هذه القلعة يكونون فى الواقع قد بدءوا فى اجتياز أراضي تابعة لأمير طرابلس إذ كانت عرقة ضمن أملاك بنى عمار فى ذلك الوقت (٢) ، الأمر الذى ترتب عليه رد فعل سريع فى طرابلس ، حيث بدأ ابن عمار فى رسم ملامح التعامل مع هذا الجيش الغازى .

على أنه يجب أن نجيب على سؤال هام قبل المضى فى عرض بقية الأحداث وهو : من الذى كان يجلس على عرش طرابلس فى ذلك الوقت ، وقدر له أن يشهد هذا الحدث الكبير ويتعامل مع هذا العدو الخطير ؟ ، أكان جلال الملك أبو الحسن على قبيل وفاته ، أم أخاه فخر الملك أبو على بعد ولايته ؟ ، أو بمعنى آخر : من هو « ابن عمار الصليبيين » ؟ ، على حد تسميته فى المصادر الصليبية .

والواقع أن الآراء تباينت وتضاربت فيما يخص بهذا الموضوع ، واختلف

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٢٢٧

(٢) Grousset : op. cit. I. P. 141

المؤرخون والكتاب المحدثون في ذلك فاعتقد الأغلبية منهم أنه فخر الملك أبو علي ، وذهب آخرون إلى أنه جلال الملك ، وساعد على غموض هذه القضية وتضارب الأقوال فيها ، سكوت المصادر المعاصرة عن ذلك والتزام المؤرخين القدامى الصمت إزاء هـذا الموضوع . إذ سكت ابن القلانسي وابن الأثير وابن العديم وأبو الفدا ، وحتى سبط ابن الجوزى الذى نجد له إفاضات خاصه عن بنى عمار بالذات سكت هو الآخر أيضاً ولم يذكر شيئا عن ذلك ، وخلت المصادر العامة من ذكر شيء عن وفاة جلال الملك أو تحديد زمن اعتلاء فخر الملك الولاية بعد أخيه .

والاتجاهات البادية فى كتاب المؤرخين تشير إلى أن فخر الملك أبو على هو « ابن عمار الصليبيين » ، أى أنه الأمير الذى قدر له أن يشهد هذا الغزو ويتعامل مع الجيش الزاحف عبر إمارته إلى الجنوب ، وذلك لأن جلال الملك فى رأيهم توفى سنة ١٠٩٩م (٤٩٢هـ) فتولى أخوه فخر الملك الحكم من بعده فى ظروف بالغة الخطورة بالنسبة للامارة ، فكـان عليه أن يتصدى لهـذا الحدث الضخم ويتعامل مع هذا الجيش الغازى .

وممن أشار إلى ذلك سوبرنهايم Sobernheim فى مقاله فى دائرة المعارف الإسلامية عن ابن عمار [١] ، ووافقه فى ذلك جاستون فيت [٢] ، Gaston - Wiet ولكن جروسيه Grousset تحاشى التصريح بذلك عنـــد حديثه عن

---

(١) Sobernheim : Encyc, Isl. art. «Ibn Ammar»

(٢) Wiet : Encyc. Isl. art «Banu Ammar» N. E.

موقف بنى عمار من تقدم الصليبيين ، فلم يعين أى الأخوين شهد هذا الحدث: أهو جلال الملك أم فخر الملك . فأكتفى بقوله « ابن عمار » دون تحديد[١] وقد أيد بعض المؤرخين المحدثين فى الشرق[٢] ماذكره كل من سوبرنهايم وفيت لكن رانسمان Runciman أشار إلى أن جلال الملك هو الذى راسل الصليبيين يطلب السلام حينما كانوا عند حصن الأكراد[٣] ، وعلى هذا فان هناك شبه إجماع بين المؤرخين المحدثين على أن فخر الملك هو ابن عمار الصليبيين .

وإذا جارينا أولئك المؤرخين المحدثين فى روايتهم ، فلا بد لنا أن نعتقد أن جلال الملك توفي فى أوائل عام ١٠٩٩م ، وبالذات فى يناير ، أى قبل أن يتجه الصليبيون ناحية عرقة بعد استيلائهم على حصن الأكراد فى ٢٩ يناير سنة ١٠٩٩ حتى يمكن القول أن فخر الملك هو الذى بدأ عهده بالتعامل مع الجيش الصليبي الذى أخذ يطرق أبواب الإمارة . إلا إذا كان جلال الملك قد تنحى عن الحكم لأخيه فخر الملك فى مطلع ذلك العام لأى سبب من الأسباب .

غير أننا نكاد نجزم بأن جلال الملك أبو الحسن هو « ابن عمار الصليبيين »

---

(١) Grousset : op. cit. I. P. 123 - 3

(٢) حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٧٥

السيد عبد العزيز سالم طرابلس الشام ، ص ٧٣

(٣) Runciman : A Hist . of the Crusades. I. p. 270

وليس فخر الملك أبو علي ، وأن جلال الملك هو الذي شهد هذا الغزو الصليبي قبيل وفاته وتعامل معه ، وهم في طريقهم ناحية الجنوب عبر إمارته ، ودليلنا على ذلك :

— لدينا نص للمؤرخ ابن الفرات ذكر فيه أن جلال الملك توفى في شعبان سنة ٤٩٢ هـ إذ يقول : « فلم يزل (جلال الملك) مستوليا عليها حتى مات في سلخ شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، كما هو مذكور في ترجمته ، وملكها بعده أخوه فخر الملك »(١) . فاذا علمنا أن شعبان سنة ٤٩٢هـ يوافق يوليو سنة ١٠٩٩ وأن هذا الشهر هو الذي سقطت فيه بيت المقدس في أيدى الصليبيين آخر المطاف . أدركنا في يسر وسهولة أن جلال الملك هو الذى كان يتولى أمر طرابلس أثناء اجتياز الصليبيين أراضى الإمارة ، وأنه هو الذى تعامل مع هذا الجيش الغازى عبر أراضيه فى طريقه إلى بيت المقدس ، كما أن قول ابن الفرات . « فملكها بعده أخوه فخر الملك » ينفى كلية تنحى جلال الملك عن الحكم قبل وفاته ، فاعتلاء فخر الملك لاحق مباشرة لوفاة أخيه جلال الملك ، كما أن ابن الفرات زاد أطمئنانا بقوله : « كما هو مذكور فى ترجمته » أى أنه أخذ مادونه من مصنف معاصر ترجم لحياته .

— ولدينا نص آخر للمؤرخ سبط ابن الجوزى ، يشير إلى أن جلال الملك كان لايزال فى حكم طرابلس فى سنتى ٤٩٣ — ٤٩٤ هـ حين تعرضت جبلة لخطر الصليبيين فى ذلك الوقت ، وهذه الفترة توافق سنة ١١٠٠م ، أى

---

(١) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

بعد نجاح الصليبيين فى غزوهم لبلاد الشام (١) ، وعلى الرغم من أننا لا نوافق هذا المؤرخ على المضى بعهد جلال الملك أبعد من سنة ٤٩٢ هـ ، إلا أن مايهمنا فى هـذا النص هو الإشـارة إلى النشاط الصليبى فى بلاد الشام زمن جلال الملك ومحاولات الصليبيين ضد أملاك إمارة طرابس فى عهد هذا الأمير .

— هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإننا نجد الأسلوب الذى اتبـع مع الصليبيين عندما طرقوا أبواب إمارة طرابلس يتمشى مع أسلوب جـلال الملك القائم على الملاينة والملاطفة واللباقة والكياسة السياسية، وهو نهج اشتهر به جلال الملك وسياسة اتبعها فى معالجة المشاكل التى عرضت له على امتـداد حكمه الطويل ، وآتت أكلها من قبل مع الفاطميين والسلاجقة والمرداسيين فلم ينل أحدهم من استقلاله أو حرية إمارته برغم المحاولات الدائبة التى بذلت فى سبيـل ذلك ، فلابد وأنه صاحب هذه الطريقة التى حفظت لطرابلس فى هذه المرة أيضا كيانها واستقلالها، ولابد أنه راسم سياسة التعامل مع الجيش الصليبى الغازى .

هذا بخلاف أسلوب فخر الملك الذى نجده أكثر بعداً عن الملاينة وأكثر ميلا للتشدد ، وسيتضح فيما بعـــد نهجه فى التصدى للحصار الصليبى ، وسنرى مثابرته وصبره فى محاربة الصليبيين ، الأمر الذى ينفى مسئوليته عـن وضع سياسة الملاطفة والاستسلام للفرنج أثناء عبورهم أراضى الإمارة فى طريقهم إلى بيت المقدس .

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة جـ١٠ ورقة ٢٣٢ ـ ٢٣٣

لهذا كله نرجح أن جلال الملك لم يمت قبل هذه الأحداث ، وأنه هو الذى تعامل مع الجيش الغازى ، وأن فخر الملك تولى بعد أن كان الصليبيون قد اجتازوا أراضى الإمارة فعلا ووصلوا إلى بيت المقدس ، ولم يكن له يد فيما جرى من مفاوضات بين إمارة بنى عمار وبين ريموند الصنجيلى عندما اتجه الصليبيون لأول مرة ناحية عرقة التابعة لبنى عمار .

فلم يكد الصليبيون يتجهون ناحية عرقة بعد استيلائهم على حصن الأكراد ، حتى بادر جلال الملك بإرسال مبعوثين إلى ريموند يعرض ولاءه للصليبيين ويتعهد بدفع الأموال لهم ويطلب إرسال ممثلين لريموند إلى طرابلس لمناقشة ترتيبات عبور الجيش الصليبي أرض الإمارة ، كما يطلب إرسال الأعلام الصليبية ليرفعها فوق طرابلس إشـــارة إلى ولائه وصداقته لهم (١).

ولم يمانع الكونت ريموند فى إيفاد مبعوثيه إلى طرابلس لمناقشة المسائل التى عرضها جلال الملك ، فوصلت رسله إلى المدينة قبل أن يشرع فعلا فى حصار عرقة ، إلا أن أولئك الرسل انبهروا أمام عظمة طرابلس وثرائها ومدى ماعليه أميرها من غنى ، فلما عادوا إلى المعسكر الصليبي أشاروا على ريموند بمهاجمة إحدى القلاع التابعة لابن عمار لإجباره على زيادة ماعرض دفعه من أموال والحصول على تنازلات أخرى ثمنا للسلام .

ونظرا لحاجة ريموند إلى المال فى ذلك الوقت ، فقد رأى صواب تلك

---

(١) Gesta Francorum. P. 80, 83

الفكرة وسارع بإلقاء الحصار على عرقة الواقعة على نحو خمسة عشرة ميلا إلى الشمال الشرقى من طرابلس ، فوصل الجيش الصليبى إلى أسوارها فى ١٤ فبراير سنة ١٠٩٩ (١) . وقام ريموند أيضا بإنفاذ قسم آخر من جيشه تحت قيادة ريموند بيليه PILET وريموند أمير تورين TURENME لمهاجمة أنطرطوس على ساحل البحر ، وكانت تابعة أيضا لبنى عمار . وعلى الرغم من أنه لم يكن يهدف من مهاجمة أنطرطوس إلى الضغط على أمير طرابلس العربى بقدر ما كان يرغب فى فتح الاتصال بالحامية الصليبية فى اللاذقية فضلا عن فتح الطريق إلى البحر للحصول على الإمدادات البحرية (٢) ، إلا أن سقوط أنطرطوس فى ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ شكل خطرا كبيرا على طرابلس نفسها باعتبارها إحدى المدن التابعة لها ، وفى سقوطها نذير بهدم الإمارة وإنقاصها من أطرافها .

وفى الوقت الذى جرى فيه حصار عرقة ، قام جودفرى بوايون وروبرت دى فلاندرز بالهجوم على جبلة، وكان قاضيها أبو محمد عبد الله بن منصور التنوخى قد طرح طاعة بنى عمار واستقل بها ، وامتد حصار جبلة من ٢ إلى ١١ مارس سنة ١٠٩٩م بحيث لم يجد أميرها فى النهاية بدا من الاذعان ، فعقد أتفاقا مع الصليبيين تعهد بموجبه بدفع مبلغ من المال وتقديم عدد من الخيل ثمنا للسلام (٣) وعندئذ

---

(١) Archer : The Crusades. P. 81 - 82
Runciman : op. oit. I. p. 270

(٢) Grousset : op. cit. I. P. 132-3

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٩

فانصرف جودفرى وروبرت حيث سارعا بالانضمام إلى ريموند لمعاونته فى حصار عرقة .

وبعد سقوط أنطرطوس ومضى ريموند فى حصار عرقة ومهاجمة جبلة على أن مقترحات ابن عمار كانت لا تزال معروضة ريثما يتم الاستيلاء على عرقة بالذات والضغط بشدة على طرابلس لكسب مزيد من تنازلات ابن عمار ، على أن الاستيلاء على عرقة كان يمثل اتجاها ملحا فى سياسة ريموند بالذات ، فقد لجأ إلى إشعال حماس جنوده بأن وعدهم بنهب المدينة إذا هم نجحوا فى اقتحامها ، وأشعل عاطفتهم الدينية بأن زعم لهم أن سقوط المدينة يعنى تخليص مائة أسير مسيحى مقيدين فى قلعتها (١) ويبدو أن ريموند أخذ يعمل منذ ذلك الوقت للاستيلاء على عرقة ليتخذ منها ومن أنطرطوس نواة للامارة التى بدأ يحلم بها فى طرابلس (٢) .

غير أن حصار عرقه امتد قرابة أربعة أشهر دون طائل ، على الرغم من أن جيوش الصليبيين اجتمعت حولها وشددت الحصار عليها ، خاصة بعد لحاق جودفرى وروبرت بجيش ريموند منذ ١٤ مارس . وليس من شك أن مناعة القلعة وقوة مراس حاميتها كفلت لها الصمود طوال هذه الفترة ، على الرغم من الامكانات التى توفرت للجيوش الصليبية حينئذ من سهولة التموين بطريق البحر وسهولة الحصول على الأسلاب والخيرات من إقليم طرابلس الغنى الذى

---

(١) Michaud's History of the Crusades I. P. 188 (Traus. by Robson)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٣٣

دأبت السرايا الصليبية على الإغارة عليه من آن لآخر (١) .

ولما طال حصار عرقة دون نتيجة ، رأى جودفرى وأيـــده روبرت ضرورة رفع الحصار عنها والتقدم سريعا ناحية بيت المقدس ، وقد عارض ريموند الصنجيلى – بطبيعة الحال – هذا الاتجاه لأنه يحرمه من الاستفادة من هذه الجموع لتأسيس نواة لإمارته المرتقبة مثلما فاز بوهيموند بأنطاكية من قبل إلا أن جودفرى وروبرت استطاعا حمله على الاستسلام لرأى الأغلبية الصليبية،ومن ثم جرى رفع الحصار عن عرقة فى ١٣ مايو سنة ١٠٩٩ م .(٢)

وليس من شك فى أن فشل الصليبيين أمام عرقة قد دعم موقف ابن عمار أمير طرابلس وزاد من أمله فى تحقيق شروط أفضل مع الصليبيين ، فسرعان ماأعاد النظر فى سياسته وعروضه السابقة ،بل يذهب المؤرخ ميشو Michaud إلى أنه أعلن الحرب على الصليبيين وجرد سيفه فعلا لقتالهم كنتيجة لفشلهم أمام عرقة محاولا انتهاز الفرصة للتخلص منهم ووضع حد لزحفهم عبر أراضى إمارته . لكنه – فى رأى هذا المؤرخ — تعرض لهزيمة دامية على أيدى الصليبيين أذعن على أثرها وعاد إلى رشده ، وتعهد بدفع جزية كبيرة ، كما تعهد بإمداد الجيش الصليبى بكل ما يلزمه أثناء الزحف ، وقام أيضا بإطلاق سراح نحو ثلاثمائة من الأسرى المسيحيين لديه (٣) . لكن الحقيقة أن جلال الملك عاد للتمسك بأهداب السلام من جـــديد ليس على أثر هزيمة دامية كما ذهب هذا المؤرخ ، ولكن رغبة منه فى تجنب ويلات الحرب بعد أن اقترب

---

(١) Runciman : op. cit. I. P. 271

(٢) Grousset : op. cit. I. P. 141

(٣) Michaud's Hist. I. P, 196

الصليبيون من طرابلس ورأى تعطشهم لسفك الدماء لدرجة أنهم أعملوا السيف في جماعة من الوادعين المقيمين خارجها وأجبروا الباقين على الفرار ، وذلك برواية المصادر اللاتينية المعاصرة [١] ؛ لم يكن إذن إذعانه نتيجة للهزيمة — كما غالى المؤرخ المشار إليه آنفـا — بل أننا نلمس شيئا من التعصب والغلو في في كتابات هذا المؤرخ بالذات لايفسره سوى إعجابه بما حققه الصليبيون في بلاد الشام والأراضى المقدسة ، وما أنجزوه هناك ، فهي إذن انتصارات باهرة وأعمال مجيدة وراء كل محاولة سلام يضطر إليها أمير مسلم في بلاد الشام .

ومهما يكن من أمر ، فقد عاد جلال الملك ابن عمار من جديد إلى الإذعان كما تعهد بدفع الجزية وقام بتحرير نحو ثلاثمائة أسـير ، وقام بدفع ١٥ ألف دينار للصليبيين كغرامة حـربية ، وقدم عـددا من الخيول للجيش الصليبي [٢] ، وتضيف المصادر الصليبية أنه تعهد باعتناق النصرانية إذا نجـح الصليبيون في الانتصار على الجيوش الفاطمية [٣] . وعلى الرغم أننا نستبعد مـوافقة أمير مسلم على هذا الشرط مهما كانت نتائج رفضه ، فضلا عن جـلال الملك القاضى والورع والفقيه العالم ، إلا أنه يبدو أنه تعهد فقط بتسليم طرابلس لهم إذا هم نجحوا في الاستيلاء على أورشليم [٤] وهي نفس السياسة المرنه والنهج الكيس

---

(١) Gesta Francorum أعمال الفرنجـــة وحجاج بيت المقـــدس ص ١١١ ترجمة الدكتور حبشى .

(٢) Runciman : op. cit. I. P. 275

(٣) أعمال الفرنجة ص ١١٣

(٤) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٥٦

الذى ميز طريقة هذا الأمير فى معالجة مثل هذه المعضلات لحفظ استقلال إمارته، ولا تنم عن أبدا عن تفريط أو تقصير .

وعلى هذا فقد غادر الصليبيون إقليم طرابلس فى ١٦ مايو سنة ١٠٩٩ م وقام بإرشادهم إلى بيروت أدلاء من لدن ابن عمار [1] ، وبوصول الصليبيين إلى بيروت فى ١٩ مايو يكونوا قد خرجوا من نطـــاق إمارة طرابلس مجتازين أراضيها إلى أراض أخرى تابعة للخلافة الفاطمية ، ويكون بذلك قد انتهت مرحلة هامة فى علاقة بنى عمار بالصليبين . فى الوقت الذى فرض الصليبيون فيه الحصار على بيت المقدس شهدت طرابلس نهاية عهد أميرها جلال الملك وولاية أمير جديد هو أخوه فخر الملك بن عمار ، الذى يبدأ بولايته فصل جديد فى عصر هذه الإمارة وفى قصة العلاقات مع الصليبيين فى بلاد الشام .

---

(١) Groussèt : op. cit. I. P. 141

(ب) عصر فخر الملك بن عمار ، وجهود هذا الأمير ضد الصليبيين

توصلنا في الصفحات السابقة إلى أن فخر الملك لم يكن على رأس السلطة في طرابلس وقت وصول الصليبيين واجتيازهم أراضي الإمارة ، وبالتالي لم يكن هو واضع السياسة التي اتبعتها الإمارة تجاه الجيش الصليبي العابر إلى الجنوب ، لأنه تولى بعد وفاة أخيه جلال الملك في يوليو ١٠٩٩ م ، بعد أن كان الصليبيون قد وصلوا فعلا إلى بيت المقدس وفرضوا الحصار عليها توطئة للاستيلاء عليها .

والواقع أن حظ هذا الأمير كان سيئا للغاية ، لأنه ورث إمارة تتكالب من حولها الأطماع ، وتركة مثقلة بالمتاعب ، وبلدا قد أنقص من أطرافه ، وفقد شيئا كثيرا من أمنه وسلامته ، كما أن الغيوم ما برحت تظلل بلاد الشام بأسرها بعد الهزائم التي تعرض لها المسلمون على أيدي الصليبيين ، وغدا من العسير على إمارة طرابلس أن تثق في مستقبل آمن وعهد هادىء ، خاصة بعد أن فلت قوة السلاجقة في شمال الشام ، ولحقتها قوة الخلافة الفاطمية في الجنوب ، ولم يعد ثمة هدف تجتمع عليه القوى الإسلامية المفككة في بلاد الشام في السنوات التي أعقبت الغزو الصليبي .

هذا فضلا عن أن فلسفة الحركة الصليبية ذاتها وأطماع قادتها وأمرائها قد جعلت من طرابلس هدفا مرموقا لأمير صليبي ألحت عليه فكرة الفوز بإمارة في بلاد الشام وتأسيس حكم ثابت في أحد مراكزها الكبرى ، أمير

تجسدت أحلامه كلها في طرابلس بعد فشله في تحقيق أمنيته في أماكن أخرى من بلاد الشام ، لهذا كان عهد فخر الملك بن عمار في طرابلس عهد كفاح ونضال ، قضى أغلبه في صد هجمات الصليبيين ومحاولة حفظ استقلال إمارته ، ولم يبخل في سبيل ذلك بجهد أو مال . قبل أن تتداعى جهوده في النهاية وتسقط المدينة في أيدى الصليبين في سنة ١١٠٩ م بعد نحو عشر سنوات من توليه زمام الحكم فيها .

وفخر الملك هو ثانى الإخوة من أبناء محمد بن عمار ، أخى أمين الدولة ، مؤسس الإمارة ، وكان إذ ذاك أهم أمراء الأسرة بعد وفاة جلال الملك ، وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن حياة فخر الملك وصفاته الشخصية وخلقه ، إلا أن الدلائل كلها تشير إلى أنه كان أميرا مثابرا صبورا طموحا ، وكان فضلا عن ذلك رجل سياسة وعلم أيضا ، ورجل دولة وحرب معا ، كما أنه كان يتمتع — كأخيه جلال الملك — بالكياسة واللباقة ، ولولا ذلك لما استطاع تأخير سقوط الإمارة قرابة عشر سنوات دأب فيها ريموند الصنجيلى وخليفته من بعده على مهاجمة هذه الامارة فى إصرار وإلحاح ، فى الوقت الذى لم تلق فيه المدينة معونة تذكر من القوى الإسلامية المجاورة أو البعيدة .

ويمكن تقسيم عهد فخر الملك إلى ثلاث مراحل .

— المرحلة الأولى : وتشمل نحو ثلاث سنوات من سنة ٤٩٢ — ٤٩٥ هـ ، (١٠٩٩ — ١١٠٢ م) قضاها فى محاولة استعادة المدن التى فقدتها الإمارة من قبل وإرساء قواعد الحكم وإعادة الهدوء والسلام إلى ربوع إمارته بعد تعرضها لعداء الجيش الصليبى الزاحف إلى بيت المقدس .

— المرحلة الثانية : وتشمل نحو سنتين من سنة ٤٩٥ — ٤٩٧ هـ (١١٠٢ — أوائل سنة ١١٠٥ م) قضاها فخر الملك في نضال ضد ريموند الصنجيلى الذى نشط حينئـذ فى محاولة غـزو الإمارة والاستيلاء على طرابلس ذاتها .

— المرحلة الثالثة : وتمتد نحو ثلاث سنوات من سنة ٤٩٨ — ٥٠١ هـ (١١٠٥ — ١١٠٨) قضاها فخر الملك فى كفاح ضد وليم جوردان خليفة ريموند ، ومن أجل مواصلة الكفاح خرج إلى بغداد يطلب النجدة من المشرق ، لكنه حين عاد وجد إمارته قد خرجت من يده ، ثم ما لبثت طرابلس أن سقت في يد الصليبيين سنة ١١٠٩ م .

١ ـ بداية عهد فخر الملك بن عمار
(١٠٩٩ — ١١٠٢ م)

آلت الإمارة إلى فخر الملك بعد أن فقـدت مدينتين من توابعها وهي جبلة وأنطرطوس . فقد كان والى جبلة أبو محمد عبيد الله بن منصور التنوخي، وهو ابن قاضيها الراحل أبو محمد عبد الله بن منصور قد خرج عن طاعة بني عمار في أواخر أيام جلال الملك واستقل بجبلة وأقام الخطبة للعباسيين (١) . أما أنطرطوس فقد استولى عليها الصليبيون أثناء زحفهم ناحية الجنوب في ١٧ فبراير سنة ١٠٩٩ (٢) ، وذلك قبل ولاية فخر الملك بن عمار .

وقد وجـه فخر الملك منذ البداية جهوده لاستعادة هاتين المـدينتين لتعود الإمارة إلى حدودها القديمة أيام جلال الملك ، وقد بدأ بجبلة وحاول الاستيلاء عليها إلا أنه فشل في ذلك فلجأ إلى الاستعانة بسلاجقة دمشق تحت قيادة دقاق وطغتكين نظير مبالغ من المال . وقد قام دقاق وبصحبته طغتكين بالهجوم على هذا الوالي الخارج في جبلة وألقوا الحصار عليه ، « فلم يظفروا منه بشيء وأصيب أتابك طغتكين بنشابة في ركبته وبقي أثرها » ، وانتهى أمر هذا الهجوم إلى الفشل ، غير أن ابن صليحة آثر في النهاية التخلي عن جبلة بسبب محاولات ابن عمار الدائبة ضده من ناحية ، ولتعرضه لخطر الهجوم الصليبي من ناحية أخرى،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٩٩

(٢) أعمال الفرنجة ص ١١٠

فلجأ إلى أقرب أمير مسلم إليه فراســــل طغتكين فى دمشق ليسلمه المدينة ، « ويصل بماله وحاله فأجابه إلي ما اقترح » (١) وسير طغتكين ابنه بورى إلى جبلة فتسلمها من ابن صليحة وبذا غدت جبلة تابعة لإمارة دمشق السلجوقية .

على أن بورى أساء السيرة فى جبلة ، وأتى هو وأصحابه أفعالا أنكرها أهل المدينة ، «فراسلوا القاضي فخر الملك أبا على بن عمار ، وطلبوا منه أن يرسل إليهم بعض أصحابه» فسارع فخر الملك بإنفاذ جانب من جيشه إلى جبلة واستطاع رجاله دخول المدينة فعلا وقاتلوا بورى وجماعته فألحقوا بهم الهزيمة واستولوا على جبلة وحملوا بورى أسير إلى طرابلس ، فأفرج عنه ابن عمار وأحسن إليه وسيره معززا مكـرما إلى والده بدمشق وكتب إلى طغتكين يعتذر له عما حدث ويبرر استيلاءه على جبلة بخوفه من أن تقع فى أيدى الفرنج (٢)، ويبدو أن ابن عـمار أراد بهذه الخطوة تجنب الصدام مع إمارة دمشق وعـدم إثارة المتاعب معهـا ، بعد أن نجـح فى إعادة إحـــدى المدينتين المفقودتين إلى حظيرة إمارته .

أما المدينة الأخرى وهى أنطرطوس ، فقد انتهز فخر الملك فرصة انشغال ريموند الصنجيلى بمصاحبة الحملة اللمباردية — كما سنفصل بعد قليل — وقام من جانبه بالهجوم على أنطرطـوس واستعادتها ، فعادت الإمـارة بذلك إلى حدودها القديمة أيام سلفه جلال الملك ، وغدت من جديد تسيطر على الطريق

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٣٩

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤

الساحلى الممتد من اللاذقية شمالا حتى حدود بيروت جنوبا [١].

والواقع أن فخر الملك كان أمامه نحو ثلاث سنوات بعد اعتلائه الحكم فى طرابلس أى حتى سنة ١١٠٢م لم تصادفه خلالها عقبات كبيرة ولم يتعرض لخطر داهم قبل أن يشرع ريموند فى حصار طرابلس ابتداء من سنة ١١٠٢، ولهذا أتيح لفخر الملك أن يرسي قواعد حكمه خلال هذه الفترة ويستعيد مافقدته الإمارة من قبل من توابع فى شيء كثير من الارتياح والاطمئنان.

ويبدو أن عدم تعرضه لخطر الصليبيين فى تلك الفترة بالذات قد جعله أكثر ميلا لاتباع سياسة معتدلة تجاههم، ولابد وأن هذه السياسة هى التى أملت عليه معاونته بلدوين البولونى أمير الرها، الذى اجتاز بطرابلس فى ٢١ أكتوبر سنة ١١٠٠م فى طريقه إلى بيت المقدس ليتولى عرشها بعد وفاة أخيه جودفرى، إذ استقبله فخر الملك فى طرابلس وبالغ فى إكرامه، وكان بلدوين قد تعرض لمخاطر جمة فى طريقه قبل أن يصل إلى المدينة وبلغ رجاله درجة خطيرة من الاعياء فضلا عن محاولة سلاجقة دمشق قطع الطريق عليهم، وقد أمد فخر الملك بلدوين ورجاله بما كانوا فى حاجة إليه من الميرة والغذاء، كما تعهد بأن يحيطه علما بتحركات دقاق ملك دمشق السلجوقى. [٢]

لكنه سرعان ما اضطر لتغيير هذه السياسة المعتدلة، حينما تعرض للخطر

---

(١) Runciman : op. cit. II. P. 57

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٨٤

الصليبى تحت قيادة ريموند الصنجيلى ، بـل إنه اضطر لتعديل سياسته تجـاه القوى الإسلامية نفسها التى كان يحاول العزوف عنها والابتعاد عن تياراتها ، فبادر بالارتماء فى أحضان القوى الإسلامية المجاورة وطلب حمايتها ونجدتها ، كما سنفصل فيما بعد .

* * *

٢ - فخر الملك بن عمار وريموند الصنجيلى

١١٠٢ — ١١٠٥م

كان ريموند دى سانت جيل Saint Gilles أكبر الأمراء بجنوب فرنسا يحكم جميع بين كونتية تولوز ومار كزية بروفانس، ومن ثم كان أكثر قادة الصليبيين مالا، إذ تعد إمارة تولوز أغنى بقاع فرنسا، كما أن بروفانس لا تقل غنى وثروة عن تولوز [١] . وزاد من جاه ريموند ارتباطه برباط المصاهرة بالبيت المالك بأسبانيا فى أرغونة ، ومن ثم شارك فى كثير من الحروب الصليبية ضد المسلمين فى الشرق ، فهو أول أمير ناقشه البابا أوربان الثانى فى الحملة الصليبية، وأول أمير قبل الاشتراك فيها وقاد أضخم الجيوش الصليبية وأكثرها عددا ، وشرفه البابا بصحبته لمندوبه أدهمار مرافقا للحملة [٢] .

ونظرا لتحمس ريموند للحرب الصليبية ، فقد نذر على نفسه أن يقضي بقية حياته بالأراضي المقدسة ولا يعود مرة ثانية إلى الغرب . وكان حينئذ فى الخامسة والخمسين من عمره ، ومن أجل ذلك باع جزءا من أملاكه للانفاق على حملته ، واصطحب زوجته وابنه الأصغر فى حين ترك ابنه الآخر من زوجة أخرى ويدعى برتراند ليتولى إدارة بقية أملاكه هناك [٣] .

أسهم ريموند بعد ذلك فى فتح أنطاكية سنة ١٩٠٨م وارتقت همته للفوز بها أو حتى اقتسامها مع بوهيموند ، لكن هذا حرمه من التطلع إليها وانفرد

---

(١) Mills : The Hist. of the Crusades. I. P. 292

(٢) Michaud's Hist. I., P. 87

(٣) Ibid. P 88

بها وحده ، فانصرف ريموند بعدئذ لمحاولة تأسيس إمارة له حول البارة ومعرة النعمان في شمال الشام على حساب سلاجقة حلب ، إلا أن بوهيموند وقف له بالمرصاد مرة أخرى وانتزع منه معرة النعمان وأرغمه على التخلي عن أطماعه في المنطقة ، وذلك في أوائل عام ١٠٩٩ م (١) . فأراد الاستيلاء على عسقلان وأرسوف ولكن جودفرى تصدى له في هذه المرة أيضا وحرمه من تحقيق هذا الهدف بحجة أن المدينتين تابعتين لبيت المقدس . عندئذ عاد ريموند حانقا إلى شمال الشام في صيف سنة ١٠٩٩ م ، حيث دخل مدينة اللاذقية ، ولكنه لم يمكث بها طويلا إذ غادرها في العام التالي سنة ١١٠٠ م في طريقه إلى القسطنطينية للاجتماع بالإمبراطور ورسم سياسة ناجحة للحد من نفوذ بوهيموند في شمال الشام (٢) .

وبينما جرى تفكير الإمبراطور البيزنطي وريموند في عمل حاسم ضد النورمان في أنطاكية وصلت إلى القسطنطينية حملة سنة ١١٠١ فاستأثرت بتفكير الإمبراطور الذي سارع بتعيين حليفه ريموند للاشراف عليها وتوجيهها نحو الأراضي المقدسة ، فوجد ريموند في ذلك فرصة لا تعوض للاستفادة من هذه الحملة لتحقيق أطماعه في بلاد الشام (٣) .

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 123 - 4

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٤٤

Michaud's Hist. I. p. 273

Grousset : op. cit. I. P. 374

(٣) Archer : op. cit P. 106

غير أن هذه الحملة سرعان ما تغير هدفها بتوجيهها لحرب بنى دانشمند فى كبادوكيا لتخليص بوهيموند من الأسر ، وترتب على ذلك تعرض هذه الحملة لكارثة كبيرة على أيدى الأتراك نظرا لوعورة الطرق وجدب البلاد وشدة الحرارة وقلة المؤن فحلت الهزيمة سريعة بصليبى هذه الحملة فى أوائل أغسطس سنة ١١٠١ م وفر ريموند نفسه من ساحة المعركة حيث ركب سفينة عادت به إلى القسطنطينية وانتهى أمر هذه الحملة إلى الفشل الذريع (١) .

وعلى الرغم من هذا الفشل ، فقد استطاع ريموند الصنجيلى أن يجمع فلول الناجين ويبحر بهم إلى السويدية ميناء أنطاكية تحت ستار التوجه بهم إلى الأراضي المقدسة ، وذلك فى يناير سنة ١١٠٢م ، بينما كان يخطط للاستفادة من هذه الفلول للاستيلاء على إمارة له بسواحل الشام لكنه ما لبث أن وقع فى يد غريمه تنكرد الذى اعتقله بقلعة أنطاكية بعد اتهامه بخيانة الصليبيين والتحالف مع البيزنطيين ضد المصالح الصليبية فى بلاد الشام، ولم يطلق تنكرد سراح ريموند إلا بعد أن تنازل هذا عن مطالبه وادعاءاته فى أنطاكية واللاذقية .

ترتب على هذه المصالحة بين تنكرد وريموند نتائج بالغة الأهمية ، كما لاحظ أحد مؤرخينا المحدثين(٢) ، إذ أنها وضعت حدا للتنافس بين النورمان وأبناء بروفانس كما أنها أتاحت الفرصة لريموند للعمل فى بلاد الشام لحسابه الخاص وليس لحساب الإمبراطورية البيزنطية ، لأنه بلا شك أدرك مؤخرا

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٩٥ ،

Grousset : op. cit. I. P. 324-5

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٥٣-٣٥٤

أن تحالفه مع البيزنطيين لم يجده نفعا بل أضره ، إذ اعتبره الصليبيون خائنا لأهدافهم وسياستهم فى الشرق ، فى حين اكتشف الامبراطور البيزنطى أيضا أن ريموند ليس بالحليف القوى الذى يعتمد عليه لخدمة مصالح الإمبراطورية.

وليس من شك فى أن هذه المصالحة جاءت على حساب القوى الإسلامية فى بلاد الشام من جهة أخرى ، خاصة إمارة طرابلس التى بدأت بعدئذ تعانى من ضغط ريموند الذى نشط فى مهاجمتها وألقى الحصار عليها ، والواقع أن الصليبيين أدركوا منذ البداية أن إمارة طرابلس الإسلامية بالذات تقطع الاتصال بين إمارتى الرها وأنطاكية فى الشمال والمملكة الصليبية فى الجنوب(١). ومن هنا نظروا إليها نظرة حذر ورغبوا فى تصفيتها ليجرى الاتصال سهلا بين أوصال كيانهم الصليبى كله شمالا وجنوبا .

بدأ ريموند هذه المرحلة الجديدة فى جهوده فى بلاد الشام فى أوائل عام ١١٠٢م بالعمل ضد أنطرطوس ، فقد استعان بفلول الحملة اللمباردية لإلقاء الحصار على هذه المدينة التى كانت قد عادت إلى بنى عمار ، وعاونه فى ذلك أيضاً أسطول جنوا الذى كان مارا بسواحل الشام حينذاك ونجح ريموند فى النهاية فى الاستيلاء عليها فى فبراير سنة ١١٠٢ م ، وقد رفض ريموند مصاحبة فلول الحملة بعدئذ إلى بيت المقدس وأجاب بأنه سيتخذ من أنطرطوس قاعدة لتكوين إمارة له فى تلك المنطقة ومن ثم انصرفت جموعهم بدونه إلى

---

(١) Runciman : op. cit. II. P. 57

أبو الفدا : منتخبات من المختصر فى أخبار البشر (Rec. Hist. Or. I. P.7).

بيت المقدس [١] .

غير أن الهجوم على طرابلس ذاتها غدا هدف ريموند إذ ذاك ولم يحاول أن يخفى هذا المخطط أو يجعله سراً ، مما أحدث رد فعل عنيف فى طرابلس فسارع أميرها فخر الملك بن عمار بتحذير كل من أمير حمص وأمير دمشق من أطماع ريموند وطلب فى نفس الوقت نجدتهما للوقوف فى وجهه ، هذا على الرغم من أن ريموند كان قد أصبح فى نحو ثلاثمائة فقط من أتباعه ، بينما فارقته الجموع الأخرى إلى بيت المقدس ، كما سبقت الإشارة [٢] .

وعلى الرغم من قـــلة عدد رجال ريموند فى ذلك الوقت ، إلا أن همته ارتقت إلى مهاجمة طرابلس فى هذا العدد القليل ، فبعث فخر الملك بن عمـار إلى أمير حمص العربى جناح الدولة الحسين ، والى دقاق أمير دمشق السلجوقى يستعجل النجدات ، فبعث إليه أمير حمص جزءاً من قواته ، وبعث أمير دمشق بألفى فارس ، واجتمعت هذه القوات مع قوات طرابلس بالقـرب من باب المدينة حيث « صافوا صنجيل هنـاك » [٣] ، ودارت المعركة بين الطرفين انتصر فيها ريموند « فانفل عسكر المسلمين من عسكـر المشركين وقتل منهم الخلق الكثير ، وفقل من سلم إلى دمشق وحمص » [٤] ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، وقد بالغ المؤرخ ابن الأثير فى وصف المعركة

---

(١) Grousset : Hist. des Croisasdes. I. P. 336
L' Empire du Levant. P. 208

(٢) Runciman : op. cit. II. P. 58

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١١

(٤) ابن القلانسى : ذيل ص ١٤١

التى دارت عند طرابلس بما يظهر عبقرية ريموند فى التصدى للقوات الإسلامية الكبيرة ونجاحه فى إلحاق الهزيمة بها ، إذ « أخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص وبقى هو فى خمسين ، فأما قوات حمص فقد سارعت بالفرار من غير قتال ، وتبعتها قوات الدماشقة ، ولم يثبت فى الميدان سوى أهل طرابلس ، وعندئذ حمل ريموند عليهم بكل قواته فأنزل بهم هزيمة ساحقة وقتل منهم سبعة آلاف رجل . والمبالغة واضحة فى رواية ابن الأثير ، لاسيما وأن كل من ابن القلانسي وسبط بن الجوزى لم يشيرا الى شيء من ذلك وأشارا فقط إلى هزيمة القوات الإسلامية على يد ريموند (١) .

شجع هذا الانتصار ريموند على مواصلة نزال طرابلس وحصارها ، فضلا عما أتاه من نجدات من قبل نصارى الجبل والسواد من الموارنة الذين كانوا يسكنون جبال طرابلس وماحولها والذين اشتهروا « بالرمى على القوس الثقيل بالنشاب الخارق » (٢) والذين مالوا منذ البداية إلى الصليبيين وعاونوهم وأرشدوهم إلى طرق ومسالك سورية ومعابرها ، وأمدوهم بالميرة والمؤن (٣) .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد اقتنع ريموند بصعوبة الاستيلاء على طرابلس بسبب ضآلة قواته من ناحية ، ولحصانة المدينة من ناحية أخرى ، فتحصينات

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٤١ ، سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٣٩

(٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ٢٦٤

(٣) حتى : لبنان فى التاريخ ، ص ٣٩٢

طرابلس مقامة على شبه جزيرة الميناء الداخلة فى البحر والتى ليس من السهل اقتحامها (١) ، لهذا اكتفى ريموند بما عرضه فخر الملك بن عمار من جزية من المال وعدد من الخيول ، وانسحب إلى أنطرطوس فى (مارس — أبريل ١١٠٢ م) وأرجأ مشروع فتح طرابلس إلى وقت آخر تتوافر فيه لديه القوة الكافية والسلاح والمؤن .

لكنه اتخذ من أنطرطوس قاعدة للهجوم على الجهات المجاورة ، ولمضايقة طرابلس فى نفس الوقت ، إلا أن طرابلس صمدت لتلك المضايقات بفضل الإمدادات التى كانت تأتيها بطريق البحر ولاهتمام فخر الملك باتباع أسلوب الهجوم المضاد ضد الصليبيين فى الجهات القريبة ليشغلهم عنه (٢) ، ثم ما لبث ريموند أن استغل وصول أسطول جنوى إلى اللاذقية مكون من أربعين سفينة ، وذلك فى شتاء سنة ١١٠٣ فأسرع يطلب معونته للهجوم على طرابلس ، غير أن هذا الهجوم لم يؤد إلى نتيجة فانسحب الأسطول الجنوى وأبحر ناحية الجنوب حيث ألقى الحصار على جبيل (بيلوس القديمة) الواقعة على الساحل بين طرابلس وبيروت ، وكانت حينئذ قلعة صغيرة تابعة لبنى عمار ؛ فلما تعرضت جبيل للهجوم البحرى وكذلك الهجوم البرى ، لم تستطع المقاومة طويلا فاستسلمت فى أواخر سنة ١١٠٤ م وتعرض أهلها لضروب من التنكيل والعذاب (٣) ، كما منح ريموند ثلثها للجنوية مكافأة لهم (٤) .

---

(١) Archer : op. cit. P. 115

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٩

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ٢١٧

(٤) Grousset : Hist. des Croisades. I. p. 340 – 41

وبسقوط جبيل فى جنوب طرابلس ، ومن قبلها أنطرطوس فى شمالها، أصبح ريموند يطوق بنى عمار من الشمال ومن الجنوب ، كما أنه وضع بذلك ملامح الامارة الصليبية فى طرابلس ، ولم يبق سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الإمارة (١) .

وبعد استيلاء ريموند على جبيل ، زاد إصراره على الاستيلاء على طرابلس برغم حصانتها وانفتاحها على البحر وحصولها على الإمدادات اللازمة بحرا إذا تعرضت للحصار البرى ، ولذلك عمد ريموند فى هذه المـــرة إلى تغيير أسلوبه، فشرع منذ أواخر عام ١١٠٣ فى إقامة معسكر كبير فى الضياع القريبة من طرابلس ، توطئة لبناء قلعة كبيرة على الجبال المقابلة ، ووقع اختياره على تله على الضفـة اليسرى من نهر قاديشا وهى تلة أبى سمـرة الحالية ، وكانت تعرف باسم « تلة الحجاج » Mon Pereginus (٢) وهى على مسافة نحـو ثلاثة أميـال إلى الداخل ، وذلـك لمراقبـة الأوضاع فى طرابلس وإحكام الحصار عليها . وقـد أطلق المسلمون على هـذه القلعة اسم « قلعة صنجيل » نسبة إلى ريموند دى سانت جيل (٣) .

ومن أجل أن يحصل ريموند على معونة الإمبراطور البيزنطى فى بناء هذه القلعة الكبيرة، قام بمحاولة طرد تنكرد من اللاذقية تقربا للامبراطور واجتلب

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦٠

(٢) Buhl : Encyc. Isl. art. ‹Tarabulus›
Charles Mills : The Hist. of the Crusades. I. P. 292

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : نفس المرجع ص ٣٦٠ ج ١

رضاه ، وفى مقابـل ذلك أمـده الإمبراطور بأدوات البناء والبنائين المهـرة والأخشاب اللازمة بطريق البحر من قبرص . وفى ربيع سنة ١١٠٤ م كانت القلعة قد قاربت على الانتهاء وأضحت تمثل خطـرا كبيرا على بنى عمـار فى طرابلس (١) .

ويبدو أن اتجاه ريموند إلى بناء مثل هذه القلعة لإحكام الحصـار على طرابلس لم يكن أمرا جديدا ، فقد اتبع نفس الطريقة القائد العـربى سفيان بن مجيب الأزدى عند محاصرته طرابلس من قبل معاوية بن أبى سفيان والى الشام — وطبقت هذه الفكرة فى أماكن مختلفة أخـرى . ومن المحتمل أن تكون آثار برج سفيان لا تزال قائمة حتى ذلك الوقت ، فأوحت إلى ريموند بفكرة إنشاء قلعته . ومن المحتمل أيضا أن يكون ريموند قد أقام حصنه فى فى المكان الذى بنى عليه برج سفيان من قبل (٢) .

ترتب على إقامة هذه القلعة نتائج بالغة الخطورة ، وأحدث بناؤها رد فعل عنيف فى طرابلس، إذ غدت تهدد أمن المدينة وسلامتها، لهذا خرج فخـر الملك بن عمار بنفسه من طرابلس على رأس قواته وفاجأ القلعة بهجوم كبـير ، « فقتل من به ونهب مافيه وأحرق وأخرب وأخذ من السلاح والمـال ، الشىء الكثير ، وعاد إلى طرابلس » (٣) وكان ذلك فى التاسع عشر من

---

(١) Runciman : op. cit. II. P. 60

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ٩٥ — ٩٦

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ١٤٦ ،
ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٥
أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١

ذي الحجة سنة ٤٩٧ هـ (١٤ سبتمبر سنة ١١٠٤ م) ويبدو أن فخر الملك لم يوفق كلية في هدم الحصن بل نجح فقط في إصابته بأضرار جسيمة نتيجة اشتعال النيران فيه ، حتى لتذهب الروايات إلى أن ريموند لقي حتفه على أثر هذه الغارة ، إذ وقف ، «على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة ... فانخسف بهم فرض صنجيل من ذلك ومات » ، وكانت وفاة ريموند في ٢٨ فبراير سنة ١١٠٥ م [١] ، متأثرا بجراحه . ويذكر كل من ابن القلانسي وسبط بن الجوزي أنه كان قد عقد معاهده مع فخر الملك بن عمار قبل وفاته على أن يكون للفرنج ظاهر طرابلس بحيث لا يقطعون الميرة عنها ولا يمنعون المسافرين منها (٢) . وهكذا هلك ريموند دى سانت جيل قبل أن يحقق أمنيته بالاستيلاء على مركز كبير ببلاد الشام يجعل منه إمارة له ومقراً ثابتاً لحكمه ، ولكن إذا لم يكن قد نجح في الاستيلاء على طرابلس ذاتها ، فإنه صاحب الفضل دون شك في تأسيس إمارة طرابلس الصليبية وواضع إطارها العام وممهد الاستيلاء عليها (٣) .

وبوفاة ريموند الصنجيلي في جمادى الأولى سنة ٤٩٨ هـ (فبراير سنة ١١٠٥ م) ، انتهت مرحلة أخرى من نضال فخر الملك بن عمار في طرابلس ، وانتهت حلقة أخرى من مراحل عهده هي الحلقة الممتدة من سنة ١١٠٢ — ١١٠٥ م لتبدأ الحلقة الثالثة في عهده وفي سلسلة كفاحه من أجل إمارته .

---

(١) Mills : op. cit. I.P. 292

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٧

سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٥٤

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦١

٣ – فخر الملك بن عمار ، ووليم جوردان

١١٠٥ — ١١٠٨ م

لم يكد فخر الملك بن عمار يخلص من عدوه اللدود ريموند الصنجيلي ، حتى واجه خلفه وابن اخته وليم جوردان الذى نصبه أتباع ريموند أميـــراً على أملاكه في الشرق ، وكان لريموند ولدين : الأكبر وهـو برتراند ، تركه ريموند يحكم إمارة تولوز نيابة عنه في الغرب مع أنه لم يكن ابنا شرعياً له ، أما الأصغر وهـو الفونسو جوردان فكان هو الإبن الشرعي وقد صحب والده إلى الشرق ، ونظراً لصغر الفونسو هذا فقد استقر رأى أنصـال ريموند على إقامة ابن أخت ريموند ، وليم جوردان ، أميراً عليهم ليكمل مشروعات الأمـير الراحل ويتابع سياسته في الشرق (١) وكان وليم جوردان في الأصل كونتا لسرديفيا Gerdagne (٢) ، وقد قدم إلى الشرق حديثـا (٣) ، لكنه مالبث أن نفذ سياسة ريموند واتجاهاته كلهـــا ، نحرص على إقامة الصداقة مع

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦٧ حاشية (١) ، ص ٢٦٢ وقد ظل برتراند يحكم إمارة تولوز بعد وفاة والده نحو ثلاث سنوات لكن عـدم شرعيته دفعت أهل تولوز إلى استدعاء أخاه الأصغر الفونسو ليقيموه أمـيرا عليهم فتم الاتفاق بين الأخوين سنة ١١٠٨ على أن يرث برتراند أملاك والده في الشرق في حين يرث الفونسو أملاكه في الغرب ونفذت الاتفاقية فعلا .

(٢) Mills : op. cit. I. P. 293

(٣) Grousset : op. cit. I.P. 245-6

البيزنطيين وعمل كذلك دائبا على إحكام الحصار حول طرابلس لإضعافها توطئة للاستيلاء عليها .

ونظرا لاستئناف وليم جوردان سياسة الصداقة والتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية فقد حظي بتأييد الإمبراطور ومساعدته . إذ يروى ابن الأثير أن « ملك الروم أمر أصحاب اللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس فحملوها في البحر » ، غير أن فخر الملك حاول إعاقة وصول هذه الإمدادات فأنفذ بعض سفنه للاشتباك مع السفن البيزنطية ، « فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد فظفر المسلمون بقطعة من الروم وأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا » (١) ، وهكذا كان النصر في هذه المعركة البحرية للأسطول الإسلامي .

غير أن وطأة الحصار اشتدت على طرابلس بقية عام ١١٠٥ م (٤٩٩ - ٥٠٠ هـ) وكان لتحكم وليم جوردان في قلعة صنجيل المشرفة على الطرق الرئيسية المؤدية إلى المدينة أثر كبير في إحكام الحصار على المدينة ومنع تسرب الإمدادات إليها ، فعانت طرابلس كثيرا وتعرضت لغلاء شديد ، فلم يجد ابن عمار بدا من محاولة الاستنجاد بالأمير سقمان بن أرتق التركماني أمير ماردين وحصن كيفا في ديار بكر آملا في مبادرته وشهامته لدفع الفرنج عن طرابلس (٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٣٥

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٦

والواقع أن اتجاه فخر الملك إلى سقمان بن أرتق في أقصى شمال العراق، إنما يفسره عدة ملابسات . فمن ناحية ، أدرك ابن عمار ضعف القوى الإسلامية المجاورة ، وعدم طلاقة يدها وقدرتها على نجدته ، فضلا عما كان يميز طابع العلاقات بينه وبينهم من فتور إن لم يصل إلى حد العداء . ففي دمشق ساب طغتكين كرسي الإمارة من حكامه الشرعيين سلاجقة دمشق خلفاء دقاق بن تتش وراح يتأرجح بين الاحتفاظ به أو التنازل عنه تحت ضغط الأحزاب المعارضة في المدينة ، فلما استنجد به فخرالملك بن عمار ، وتواصلت مكاتباته من طرابلس بالاستصراخ والاستنجاد ، مع ماكان يغلف العلاقات بينهما من عداء ، وتحت ضغط التبعات وحدتها ، تظاهر طغتكين بعدم رغبته في الاحتفاظ بالحكم في دمشق وكاتب سقمان ابن أرتق يستدعيه ليسلم إليه دمشق ، لكنه عاد سريعا فسحب هذا الطلب وندم عليه لولا تغير الأحداث وتلاحقها في ذلك الوقت (١) . أما بالنسبة لحلب ، فقد أدرك فخر الملك أن رضوان صاحبها أضعف من أن يتخذ مبادرة بنجدته بسبب تعرضه لخطر تنكرد أمير أنطاكية الفرنجي ، ففي الوقت الذي استنصره فخر الملك واستنجد به دارت الحرب بين رضوان وتنكرد عند أرتاح هزم فيها رضوان هزيمة ساحقة في رجب سنة ٤٩٨ هـ (مارس ١١٠٥ م) وعادت فلول جيشه إلى حلب بعد أن فقدت نحو ثلاثة آلاف من الرجال واضطرت حامية أرتاح إلى إخلائها أمام تنكرد (٢)

---

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ١٤٦

(٢) Grousset : op. cit. I. P. 420

سبط بن الجوزي : مرآة جـ١٠ ورقة ٢٥٥

أما بالنسبة للفاطميين فى مصر ، فقد كانت حالتهم تزداد سوءا وأخـــذوا يفقدون أملاكهم تباعاً بعد أن تعرضوا للهزيمة فى غضون سنة ١٠٩٩ م ، وفقدوا كل من أرسوف وقيسارية فى سنـــة ١١٠١ ومنيت حملاتهم على فلسطين بالفشل الذريع فى سنوات ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٥ م (١) . وفقدوا مدينة عكا الحصينة فى مايو سنة ١١٠٤ (٢) ، وغدا نفوذهم يعانى تضييقـا شديدا فى بلاد الشام .

وهكذا لم يكن بوسع فخر الملك أن يتطلع إلى نجدتهم فضلا عما كانوا يبدونه من رغبة ملحة فى استعادة طرابلس ذاتها . إذن لم يكن سلاجقة دمشق أو حلب أو حكام مصر أملا حينئذ أمام فخر الملك ، هذا فى الوقت الذى كان نجم سقمان بن أرتق التركمانى آخذ فى الارتفاع وشهرته تزداد ذيوعا بعد بلائه فى حرب الفرنج ، والواقع أن سقمان بن أرتق أظهر شهامة ونجابة فى حربه ضد الصليبيين عند أنطاكية ، إبان حملة كربوغا سنة ١٠٩٨ ، فقد كان أحد الأميرين اللذين ثبتا بجانب كربوغا بعد انسحاب قوات السلاجقة عند ظهور بوادر الهزيمة (٣) ، ثم أنه أظهر تفهما كاملا للجهاد المقدس وأبان

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣٩ ــ ٤١ ، ابن الأثير : ج ٨ ص ٢١٨

Conder : The Latin Kingdom. P. 84

Lane-Poole : A Hist. of Egypt in the Middle Ages, VI.P.164

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١٤٣ ــ ١٤٤

Wiet : L' Egypte Arabe. P. 264

Smail : Crusading Warfare : P. 23

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٨٧

عن وازع دينى وإيمان عميق حين أغفل مابينه وبين جكرمش أمير الموصل سنة ١١٠٤ م ووحد جهوده معه للهجوم على الرها فى ذلك العام ، وما ابثة أن أنزلا الهزيمة بالقوات الصليبية المتحالفة التى هاجمت حـران فى نفس العام حيث نجحا فى أسر بلدوين دى بورج وجوسلين، بينما فر تنكرد وبوهيموند بعد قتل وأسر كثير من رجالها [١] .

يستنتـج من ذلك كله أن اتجاه فخر الملك بن عـمار إلى سقمان ابن أرتق أملته ضرورة ملحة وساندها اقتناع كامل بضعف القوى الإسلامية المجاورة من ناحية ، وقوة وشهامة التركمان فى أقصى شمال العراق من ناحية أخرى .

ولم يكد سقمان بن أرتق يتلقى الاستدعاء من طرابلس ودمشق حتى نهض فى جيشه وسار ناحية الشام ، الا أنه مرض فى الطريق واشتدعليه المرض عند القريتين قرب حمص ، فأشار عليه رجاله بالعـودة إلى حصن كيفا لكنه رفض قائلا ، « بل أسير ، فان عوفيت تممت ماعزمت عليه ولا يرانى الله تثاقلت عن قتال الكفار خـوفا من الموت ، وأن أدركنى أجـلى كنت شهيدا سائرا فى جهاد » [٢] . ولم يمض بعد ذلك يومين حتى جاز إلى ربه فى صفر سنة ٤٩٨ هـ وعاد رجاله إلى حصن كيفا يحملون جثمانه ، وبذلك فقد ابن عمار آخر أمل تعلق به لإنقاذ طرابلس . [٣]

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ١٤٨

(٢) ابن الأثير : نفس المرجع جـ ٨ ص ٢٢٧

ابن القلانسى : ذيل ص ١٤٦ــ ١٤٧

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦٣

وزاد من سوء حالة ابن عمار حينئذ اشتداد وطأة الحصار حول المدينة ومنع وصول المؤن إليها ، في الوقت الذى باتت تفتقر إلى معونة من القوات الإسلامية المجاورة ، ولما استبد الخوف بأهلها وعانت المدينة ضائقة مالية كبيرة ، رأى ابن عمار أن يصادر أموال الأغنياء ويوزعها على الفقراء لتخفيف وطأة الكارثة الاقتصادية ، فأجرى الجرايات على الجند والضعفاء ، فلما قلت الأموال عنده شرع يقسط على الناس مايخرجه فى باب الجهاد »[1] ، واحتاج الأمر إلى مصادرة أموال بعض الأغنياء ، فالتجأ اثنان منهم إلى المعسكر الصليبي ، فحاول ابن عمار استعادتهما بشتى الطرق ولكنه فشل ، « فوضع عليهما من قتلهما غيلة » . وهكذا جد فخر الملك ابن عمار في الحفاظ على مدينته وتحمل فى سبيل ذلك كثيرا من المشاق .

والحقيقة أن فخر الملك بن عمار قد اكتسب شهرة كبيرة بما أظهره حينئذ من صبر ومثابرة وجهاد ، نالت إعجاب المؤرخين المعاصرين واللاحقين[2] ، فقد امتد حصار طرابلس نحوا من ثلاث سنوات أخرى واشتد خلالها القتال وعم المدينة البؤس وخاصة فى سنتى ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ولكن أهلها أظهروا مع ذلك قوة مراس وجلد عظيمين ، وأظهر أميرهم فخر الملك شجاعة نادرة وصبرا عظيما .

وساعد ثراء المدينة وما اشتهرت به من ثروات وغنى ، على الحصول على بعض المؤن بأثمان باهظة ، « فباع أهلها من الحلى والأوانى الغريبة مالاحدله ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٥

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٢١

حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدينار»[١] وساعد هذا الثراء أيضا على تهريب المؤن إليها من جزيرة قبرص البيزنطية ، بل ومن إمارة أنطاكية الصليبية ذاتها وجزائر البنادقة ، كما أن افتقار الصليبيين إلى قوات بحرية تحكم الحصار حول مداخلها قد ساعد أيضا على وصول بعض المؤن إليها من عرقة على ساحل البحر [٢] .

وقد استمر حصار وليم جوردان لطرابلس ممتدا من سنة ١١٠٥ إلى سنة ١١٠٨ دون نتيجة حاسمة نظرا لاستمرار افتقار الصليبيين لقوة بحرية فعالة تحكم الحصار حولها بحرا . [٣]

---

(١) الفضة النقرة هي سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من النحاس الأحمر تضرب منها الدراهم النقرة .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦

سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٤٣٧

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٦٣

السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ١٠١

Runciman : op. cit. II. P. 60

(ج) الانقلاب الداخلى فى طرابلس ودخولها فى حوزة الفاطميين

خروج فخر الملك بن عمار الى بغداد للاستنجاد بالسلطان السلجوقى والخليفة العباسى :

لم يعد فخر الملك يأمل كثيرا فى نجدات القوى الإسلامية المجاورة ، بعد أن طال حصار الصليبيين لمدينته حتى ١١٠٨ م ، ولم يعد أمله معقودا على تلك القوى بعد أن ثبت قصورها وفشلها وضعفها . فلا كان رضوان فى حلب أهلا لهذه المهمة وقد تردى فى هاوية فشله وهزيمته أمام الصليبيين ، ولا أضحى طغتكين فى دمشق معينا وملاذا وقد تخبط فى سياسته وسيطرت عليه أطماعه الواسعة وحركه جشعه ، ولم يعد بإمكان الخلافة الفاطمية عمل شىء وقد فقدت هيبتها ، وطردها الصليبيون من معظم أملاكها فى فلسطين ، وأنزلوا بجيوشها الهزائم المتوالية . وحتى حين يمم فخر الملك وجهه شطر الأراتقة فى شمال العراق ، شاء حظه العاثر أن يموت سقمان بن أرتق وهو فى طريقه إليه سنة ١١٠٥ م ، ففقد ابن عمار بذلك آخر أمل فى النجدة وعانت طرابلس بعدئذ فترة من الشدة والقسوة والحصار .

فكر فخر الملك بعد ذلك فى الاتجاه وجهة جديدة عله يحصل على معونة تمكنه من فك الحصار عن المدينة . وكان أن اتجه ناحية المشرق يطلب المعونة من السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقى والخليفة المستظهر بالله العباسى ، وهما حماة الإسلام فى المشرق .

ولم يكن اتجاه فخر الملك إلى الشرق فى ذلك الوقت بالذات (١١٠٨ م)

وليد صدفة بحتة أو نتيجة فكرة عابرة ، بل إنه مبنى على دراسة كاملة للظروف التى عاشها المشرق حينئذ ، وكان دليل حساسية فائقة لما كان يجرى هناك فى الناحية الأخرى من العالم الإسلامى .

فقبل سنة ١١٠٥ م (٤٩٩ — ٥٠٠ هـ) شغلت السلطنة السلجوقية بالخلاف الذى نشب بين السلطان بركيا روق وأخيه محمد بن ملكشاه ، ودارت رحى الحرب بينهما هناك على امتداد خمس سنوات منذ سنة ١٠٩٩ حتى سنة ١١٠٤ م وحدثت بينهما خمس مواقع حربية كبيرة خلال تلك السنوات عانت خلالها الدولة السلجوقية كثيراً من الاضطراب والفوضى لم تهدأ ولم تنته إلا بعقد الصلح بينهما عام ١١٠٤ م ثم بوفاة بركيا روق فى العام التالى ، وانفراد محمد بالسلطنة منذ ذلك العام (١١٠٥ م) [١] — وبعد انفراد محمد بالحكم فى سنة ١١٠٥ م وحتى سنة ١١٠٨ م شغل خلالها بأحداث جمة صرفته عن التفكير فى شئون الشام وما يجرى فيه ، وأولها : محاولة طرد أمير الموصل الثائر جاولى سقاوة الذى شق عصا الطاعة ورفع راية العصيان وتثاقل عن الخدمة [٢] . وثانيها انشغال السلطنة بحرب الباطنية وكسر شوكتهم بعد أن استفحل خطرهم هناك وزاد بلاؤهم وتآمرهم على اغتيال السلطان محمد

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٢٠ (سنة ٤٩٧ هـ)

Camb. Med. Hist. 4. P. 310

الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ، ص ٢٢٨ (نشر إقبال)

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة ، جـ ١٠ ص ٢٧٢ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٥ .

Grousset: op. cit. I. P. 431

نفسه (١) . وثالثهـا انشغاله باخماد فتنة الأمير العربى سيف الدولة صدقة بن مزيد الذى أثار الفتنة فى الحلة وفى جنوب العراق وآوى الفارين من وجـه السلطان ونشر الفوضى فى جنوب العراق ، فتعرض من أجل ذلك للهـــزيمة والقتل فى مارس سنة ١١٠٨ م قرب الحلة على يد جيوش السلطان (٢) .

وهكذا كانت الظروف غير ملائمة قبل سنة ١١٠٨ م لطلب النجـدة من السلطنة السلجوقية نظراً لما كانت تمر به من ظروف دقيقة ، لكن بانتهـاء السلطان محمد من متاعبه ومعوقات حركته ، بعد أن أخضع المارقين عن سلطته من الولاة وقلم أظفار الباطنية وقضى على طموح الأمير العربى صاحب الحـلة لم يعد ثمة مايعوقه عن التفكير فى شئون الشام ولم يعد ثمة مايعوق فخـر الملك ابن عمار كذلك عن طلب النجدة منه .

ونكاد نجزم بأن فخر الملك بن عمار كان على دراية تامة بهذه الأحداث كثير الاحساس بها . فالثابت أنه وصل إلى بغداد فى مايو سنة ١١٠٨ م أى بعد أن انتهى السلطان من آخر عقبة فى طريقه بقضائه على صدقة بن مزيد فى مارس ١١٠٨ م (رجب سنة ٥٠١ هـ) (٣) . ويؤكد هذا الاتجاه المؤرخ ابن الأثير بقوله « فلما بلغ فخر الملك انتظام الأمور للسلطان محمد وزوال كل

---

(١) الراوندى : راحة الصدور ص ٢٣٥

Browne : Account of a Rare Manuscript. P. 605-8

(٢) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٩ ص ١٥٦ ، ابن القلانسى : ذيل ص ١٥٩

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ١٥٩ — ١٦٠

تحالف ، رأى لنفسه وللمسلمين قصده والانتصار به ، (١) . إذن كان اتجاه فخر الملك بن عمار إلى بغداد في ذلك الوقت بالذات لطلب النجدة اتجـــاه مدروس وعمل مخطط لامكان فيه للصدفة أو الارتجال .

وقبل أن يخرج فخر الملك إلى بغداد قام بترتيب أمور طرابلـس وأناب بها ابن عمه أبا المناقب يعاونه لفيف من أصحابه ، « ورتب معه الأجناد براً وبحراً ، وأعطاهم جامكية ستة أشهر سلفا ، وجعل كل موضع إلى من يقـوم بحفظه بحيث أن ابن عمه لايحتاج فعل شيء من ذلك ، (٢) . وقد قصد ابن عمار بإطلاق رواتب الجنــــد لستة أشهر مقدما وتوزيع القوات المدافعة على تحصينات المدينة أن يسهل مهمة نائبه أثناء غيابه ويمضي في طريقه وهو أكثر اطمئنانا ؛ ويرجح أحد المؤرخين المحدثين أن فخر الملك حصل أيضا قبل رحيله على تصريح من وليم جوردان بعبور أراضي تابعة للاحتــــلال الفرنجي (٣) .

وبعد ذلك خرج فخر الملك بن عمار من طرابلس قاصداً بغداد متخـذا الطريق البرى ، فمر في طريقه بدمشق واجتمع بأميرها طغتكين قبل أن يمضي إلى بغداد . والحقيقة أن مرور ابن عمار بدمشق والاجتماع بأميرها يعد أمراً مفاجئا يثير الانتباه فعلا ، ولانجده يتمشي مع سير الأحداث السالفة ولا يتسق

---

(١) ابن الأثير : الـكامل جـ٨ ص ٢٥٠

(٢) ابن الأثير : المرجع السابق جـ٨ ص٢٥٠

(٣) Runciman : op. cit. II. P. 63

مع طبيعة العلاقات بين ابن عمار وطغتكين التي لم تصل حد الصفاء ولم تسم إلى مرتبة الصداقة ، مما يحتم هذا اللقاء ، بل كان بوسع ابن عمار أن يتجنب المرور بدمشق ويتخذ طرقا أقصر إلى بغداد . فما الذى جعله يعرج على دمشق ويجتمع بطغتكين ؟

ويغلب على ظنى أن طغتكين هو الذى سعى فى طلب هذا اللقاء حينما نما إلى علمه نبأ عزم ابن عمار على التوجه إلى بغداد لمقابلة السلطان . ويشير المؤرخ ابن القلانسى إلى أن طغتكين كان قد أحس بتغير السلطان السلجوقى عليه بسبب سعاية المعض فيه ، وأنه بات قلقاً لهذا التغير [1] ، وليس من شك فى أن اغتصاب طغتكين لإمارة دمشق من يد سلاجقتها كان لا يلقى تأييداً فى بغداد ، فضلا عن شعور طغتكين الدائم بعقدة الذنب من هذه الناحية ، مما جعله دائم القلق من جهة السلطنة السلجوقية . فلما علم بعزم ابن عمار على المسير إلى بغداد رأى اغتنام الفرصة للمشاركة فى هذا الموكب الذاهب إلى بغداد لمحو ما كان قد علق بنفس السلطان ، ومحاولة استرضائه ، فبادر بإرسال أحد معاونيه ويدعى الأمير أرتق بن عبد الرازق إلى ابن عمار يشير عليه بالمرور على دمشق قبل رحيله إلى بغداد ومما يؤكد هذا قول ابن القلانسي ، « وكان فخر الملك قد خرج من طرابلس فى البر فى تقدير خمسمائة فارس وراجل ومعه هدايا وتحف أعدها للسلطان عند مضيه إليه إلى بغداد . فلما وصل أرتق إليه واجتمع معه تقررت الحال بينهما على وصوله إلى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦١

دمشق فى صحبته ، (١) .

وليس من شك أيضا فى أن طغتكين كان يعلم تماما أن أمور الشام وأحواله ستطرح للمناقشة فى مباحثات ابن عمار والسلطان السلجوقى ، فأراد بدعوته لابن عمار أن يكسب جانب هذا الأمير قبل أن يفرغ بكل مالديه أمام السلطان بما لايخدم أهداف طغتكين ومصلحته . ودليل ذلك أيضا الحفاوة البالغة التى لقيها ابن عمار عند دمشق من قبل طغتكين . « وبالغ طغتكين فى إكرامه وتناهى فى احترامه وحمل إليه أمراء العسكرية ومقدموه من الخيل والبغال والجمال وغير ذلك ماأمكنهم حمله واتحافه به ، ودعاه طغتكين للدخول إلى المدينة وأقام له مأدبة حافلة ، وأدخله حمامه» (٢) .

وفى دمشق استقر الرأى على أن يبعث طغتكين ولده تاج الملوك بورى فى صحبة ابن عمار إلى بغداد ومعه هدية نفيسة تليق بالسلطان . ويدل انفاذ أبا النجم هبة الله بن بديع ، « الذى كان مستوفيا للسلطان الشهيد تاج الدولة (تتش) (٣) » فى صحبة بورى أن طغتكين كان يحاول إشعار السلطان أن الأمور تجرى فى دمشق على نحو مايشتهى ، وأن الحزب السلجوقى الذى كان يخدم تتش وأولاده يعد من دعامات العهد الجديد . وبالاختصار ، كان مرور ابن عمار بدمشق حينئذ بناء على دعوة وجهها إليه طغتكين وتنفيذا لرغبة ملحة لدى هذا الأخير لتحميله أمانة عرض أمور المنطقة أمام السلطان بما يخدم أهدافه

---

(١) ابن القلانسى : المرجع السابق ص ١٦٠

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٥٠

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦١

ومصالحه وليس من شك فى أنها لحة ذكاء قدمها هذا الأتابك الدءوب الذى استطاع بهذا الأسلوب أن يمضى فى سلب إمارة دمشق من أصحابها الشرعيين ويورثها أبناءه من بعده .

وحينما وصل فخر الملك إلى دمشق ، علم أن ابن عمه أبا المناقب طرح طاعته وأعلن خروجه عليه ، « ونادى بشعار الأفضل بن أمير الجيوش بمصر » . فكتب فخر الملك إلى أصحابه بطرابلس يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوابى ففعلوا ماأمرهم به (١) . ولم يحل ذلك دون استئناف فخر الملك لرحيله إلى بغداد ، فاستصحب تاج الملوك بورى ومرافقه ابا النجم ابن بديع وغادر دمشق سنة ٥٠١ (٢٣ أبريل سنة ١١٠٨م) . وليس من شك فى أن شهرة فخر الملك بن عمار كانت قد سبقته إلى بغداد ، ومجاهدته فى صد الصليبيين وبلائه فى حربهم كانت قد ذاعت فى المنطقة فى ذلك الوقت . فحينما وصل إلى بغداد لقى من الحفاوة مازاد على تقديره وأمله (٢) ، فقد أنفذ السلطان كافة الأمراء ورجال الدولة لاستقباله واكرمه بأن أرسل له مركبته الخاصة وقال له خواص السلطان ، « قد أمرنا أن يكون جلوسك فى دست السلطان » . ولما وصل إلى مجلس السلطان محمد ، « أجلسه وأكرمه وأقبل عليه يحدثه » ، كما بادر الخليفة المستظهر بإرسال رجاله وكبار معاونيه ليكونوا فى استقبال ابن عمار وتحيته ، « فلقوه وأنزله الخليفة وأجرى عليه الجراية العظيمة » ، وكذلك أيضا فعل

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٥٠

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة جـ١٠ ص ٢٧٨

السلطان « فعل معه ما لم يفعل مع الملوك الذين معهم أمثاله » ، ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله ، « وهذا جميعه ثمرة الجهاد فى الدنيا ولأجر الآخرة أكبر » (١) والواقع أن فخر الملك لقى من السلطان والخليفة من الحفاوة والإكرام مايتناسب ودوره فى الجهاد ضد الصليبيين ، وماجعله يأمل فى نجدة سريعة ومعونة عاجلة يخلص بها إمارته من الحصار الصليبى .

وحينما بدأت المباحثات بينه وبين السلطان ، بسط ابن عمار الظروف التى تعيشها الإمارة والمحنة التى تجتازها بسبب حصار الفرنج لها ، كما أوضح للسلطان مدى قوة الجيش المحاصر لها مع عجز المدينة عن الاستمرار فى القتال، الأمر الذى يتطلب معونة سريعة . وعرض ابن عمار استعداده لتمويل الحملة التى يأمر السلطان بإنفاذها لمعاونته ودفع نفقاتها وتحمل أعبائها ، فوافق السلطان على ذلك ، ووعده بإنفاذ الجيش لنجدته (٢) . وفى نفس الوقت .. قرر دمج العسكر المجرد معه الإلمام بالموصل وانتزاعها من يد جاولى سقاوة ثم المسير بعد ذلك إلى طرابلس ، وكان السلطان قد عهد بقيادة هذه الحملة للأمير شرف الدين مودود .

وعلى الرغم من اقتناع السلطان محمد بقضية ابن عمار وموافقته على إنفاذ حملة للجهاد ضد الصليبيين ، إلا أنه ـ فيما يبدو ـ كان يعلق أمر هذه الحملة ومسيرها الى بلاد الشام على نجاحها أولا فى طرد والى الموصل المستبد جاولى.

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٥٠

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص١٦١

سقاوة، لأنه دون شك كان يريد وضع الموصـل فى أيد أمينة قبـل أن يزج بجيشه ليخوض حربا ضارية ضد الصليبيين .

لكن ابن عمار فضـل البقاء فى بغداد ولم يصاحب الحملة إلى الموصل ، حتى يفرغ مودود من مهمته هناك . فامتد بابن عمار الانتظار فى بغداد قرابة أربعة أشهر (مايو - أغسطس ١١٠٨م) رمضان ٥٠١ - منتصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ، استبد به القلق على إمارته وزاد من خوفه تأخر وصول مودود بينما كان السلطان محمد قد رحل عن بغداد منذ شهر شوال سنة ٥٠١هـ (يونيو سنة ١١٠٨م) ، فقرر ابن عمار العودة إلى بلاد الشام دون أن يحصل على بغيته أو يحقق رجـاءه، فوصل إلى دمشق فى منتصف المحرم سنة ٥٠١ هـ (أغسطس سنة ١١٠٨م) بينما لم تسقط الموصل فى يد مودود إلا فى صفر سنة ٥٠٢هـ (سبتمبر سنة ١١٠٨ م) أى بعد رحيل ابن عمار إلى الشام بنحو شهر(١) كانت الظروف قد تغيرت خلال تلك المدة فى طرابلس وحدث بها انقلاب أدى إلى دخولها فى حوزة الفاطميين .

دخول طرابلس فى حوزة الفاطميين :

الواقع أن خروج فخر الملك بن عمـــار من طرابلس وغيابه عنها تلك الفترة كان له نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لأوضاع المدينة ، انتهت بضياعهـا نهائيا من يده ، ودخولهـا فى حوزة الخلافة الفاطمية قبل أن تسقط فى أيدى

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٨ ص ٢٥١ - ٢٥٢ (أحداث سنة ٥٠١ ، ٥٠٢ هـ)

الفرنج . (١)

بدأت سلسلة الأحداث في طرابلس بعد رحيل فخر الملك عنها بقليل ، فلم يكد يصل إلى دمشق وهو في طريقه إلى بغداد ، حتى علم بقيام انقلاب في طرابلس تزعمه ابن عمه ونائبه أبو المناقب بن عمار - كما سبقت الاشارة - الذي أعلن الثورة ونادى بشعار الوزير الفاطمي الأفضل ، لكن هذه الثورة قتلت في مهدها ، إذ بادر فخر الملك بالكتابة إلى أصحابه في المدينة يأمرهم بالقبض على أبي المناقب ونقله إلى حصن الخوابي التابع لطرابلس ففعلوا ما أمرهم به ، وانتهت هذه الثورة في مهدها. وعلى هذا الأساس واصل فخر الملك السير ناحية بغداد . (٢)

لم تكن هذه الثورة هي الوحيدة التي حدثت خلال تلك المدة، إذ يبدو أن أهل المدينة ضجروا من طول الحصار ومن تأخر فخر الملك في بغداد ، في الوقت الذي اشتد فيه الحصار الصليبي حول المدينة ، فناقشوا الموضوع وقلبوا الأمر فيما بينهم واستعرضوا امكانات القوى المجاورة القادرة على نجدتهم ، فوجدوا أن القوة الوحيدة القادرة نسبياً على ذلك هي الخلافة الفاطمية، وخاصة أن أسطولها لا يزال يرتاد الموانى الشامية ، ولديها إمكانات مد المدينة بالمؤن والميرة والذخائر لمجابهة الجيش المحاصر . عندئذ مالوا إلى خلع طاعة ابن عمار والدخول في طاعة الفاطميين .

---

(١) Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Ibn Ammar»

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص٢٥١

ويشير كل من ابن القلانسي وابن الأثير وسبط بن الجوزى إلى أن أهل طرابلس أرسلوا إلى الأفضل فى مصر يلتمسون منه إرسال والى من قبله ، « يصل إليهم في البحر ومعه الغلة والميرة فى المراكب لتسلم إليه البلد ، فوصل إليهم شرف الدولة بن أبى الطيب واليا من قبل الأفضل » ومعه الإمدادات اللازمة ، وكان أول عمل قام به هذا الوالي الفاطمى هو أن قبض على أعوان فخر الملك بن عمار وأهله وصادر أمواله وأثاثه وذخائره ، « وحمل الجميع إلى مصر فى البحر » [١] ولا شك في أن هذا العمل قد جرد المدينة من ثروتها ومن خيرة المدافعين عنها [٢] مما بالغ فى إضعافها وزاد فى محنتها . ويبدو أن هذه الأحداث جرت فى الوقت الذى وصل فيه فخر الملك بن عمار إلى دمشق عائدا من رحلته الفاشلة في بغداد ، لأنه أقام فى دمشق أياما بعد سماعه هذه الأخبار ثم استقر رأيه بعد ذلك على التوجه إلى جبلة بمعونة من طغتكين فدخلها بعد أن ضاعت منه طرابلس . [٣]

على أن المؤرخ ابن الفرات شذ عن هؤلاء المؤرخين فذكر رواية مؤداها أن أبا المناقب بن عمار لم يعلن طاعته للفاطميين حين أعلن الثورة على ابن عمه، وأن أهل طرابلس هم الذين قبضوا على أبى المناقب وأنهم هم الذين نادوا

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦١

ابن ميسر : أخبار مصر ج٢ ص ٤٣

سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٧٩

(٢) Schernheim : Encyc. Isl. art. «Ibn Ammar»

(٣) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٨

بشعار الأفضل وطلبوا منه واليا يتسلم البلد ، فسارع بإنفـــاذ وإليه إلى طرابلس ، فتسلمها منهم . [١]

ويفهم من هذه الرواية الأخيرة أن الثورة التى حدثت فى طرابلس كانت ثورة واحدة بدأت بخروج أبى المناقب وعصيانه ، وانتهت بتسليم المدينة لوالى الأفضل ومعنى ذلك أيضا أن فخرالملك علم بضياع المدينة وهو لا يزال بدمشق قبل رحيله إلى بغداد فزاده ذلك — على حد قول أحد المؤرخين المحدثين — إصرارا على المضى نحو بغداد لطلب المعونة لاسترجاع إمارته وكذلك لدفع الصليبيين عنها ، أى أنها كانت مهمة مزدوجة [٢] .

ولكننا لا نميل إلى تأييد هذا الاتجاه ولا نؤيد هذه الرواية ، ففضلا عن إجماع المؤرخين بالنسبة للرواية الأولى ، فإننا نجد منطق الأحداث يؤكدها ، وطبيعة الأمور توحى بقربها من الواقع . فأبو المناقب أعلن الثورة فعلا فى البداية ، ولكن ثورته قضى عليها فى المهد وظلت المدينة فى طاعة فخرالملك طيلة الشهور الأربعة التى قضاها فى بغداد ، وكانت الأزمة خلالها تتفاقم فى المدينة ، وساعد على زيادة حدتها تأخر فخر الملك فى بغداد وعدم استطاعته عمل شىء لإنجاد المدينة ، ويبدو أن ذلك أفقد أهل المدينة كل أمل فى نجدة تأتى من الشرق وأعطاهم انطباعا بأن فخر الملك لا يلقى استجابة فى بغداد ، ولا بد وأن هذه المسائل قد طـرحت للمناقشة فيما بينهم ، بينما التحفز والـترقب المشوب

---

(١) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٨

(٢) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام ، ص ١١٢

بالقلق يشد أعصابهم والحصار يشتد من حـولهم ، في الوقت الذى أخذ فيه حزب ابن عمار يضعف فى المدينة يوما بعد يوم بسبب تأخر وصول النجدة أو مايوحى بقرب وصولها . وكان أن استعرض رجال المدينة القوى المجاورة وناقشوا أكثرها قدرة على نجدتهم ومدهم بالميرة والذخائر ، فلم يجدوا سوى الخلافة الفاطمية فبادروا بمكاتبة الأفضل يطلبون معونته وحمايته . ولا بد أيضا أن أخبار محنة المدينة و تبرم أهلها كانت تصل إلى ابن عمار تباعا فى بغداد ، مما جعله يقرر الرحيل عائداً دون انتظار وصول جند السلطان من الموصل ، ولكنه مع ذلك وصل بعد فوات الأوان بعد أن كانت المدينة قد خرجت فعلا من يده ودلفت إلى حوزة الفاطميين .

أما القول بأنه علم بانضواء المدينة إلى الفاطميين وهو لايزال بدمشق قبل رحيله إلى بغداد ، مما زاده إصرارا على الرحيل لطلب النجدة ، فأمر مستبعد، لأن الروايات كلها — حتى رواية ابن الفرات — تؤكد أن أهل المدينة فعلوا ذلك بسبب ضجرهم وطول الحصار ورغبتهم فى النجدة والميرة والذخائر ، ويستبعد حدوث ذلك بمجرد خروج ابن عمار لأن الآمال كانت حينئذ معلقة برحيله إلى بغداد والترقب الذى يحدوه الامل يطغى على كل المشاعر، بدليل القضاء على عصيان أبى المناقب فى المهد ، إذن لابد وأن ذلك الضجر الذىأدى إلى تلك الأحداث الهامة قد جاء بعد أربعة شهور من رحيل ابن عمار وانقطاع الأمل فى النجدة التى خرج من أجلها .

ولو حدثت هذه الفتنة وهو بدمشق لما استأنف فخر الملك سيره إلى بغداد ، لأن طلبه النجدة من بغداد فى ظروف كتلك معناه توريط للسلطنة السلجوقية فى حرب ضد عدوين كبيرين فى وقت واحد وهما: الخلافة الفاطمية وكذلك الصليبيين،

وهو مشروع كبير لم يكن من السهل طرحه للمناقشة حينئذ ، في الوقت الذي أشارت فيه النصوص إلى الموضوعات التي دارت في محادثات ابن عمار والسلطان ، وكلها تدور حول جهاد ابن عمار ضد الصليبيين وتصديه لحصارهم وامتداح السلطان لهذا العزم والتصميم وطلب ابن عمار النجدة لطرد محاصري بلده من الفرنج ، ولا نجد إشارة إلى أن تلك النجدة سيطلب منها العمل على استرداد المدينة من الفاطميين ومحاربة الصليبيين في وقت واحد .

ومهما يكن من أمر — فقد ضاعت طرابلس من ابن عمار إلى الأبد ، ولم يجرؤ على دخولها أو محاولة استردادها ، ولم يجد أمامه إلا أن يولي وجهه ناحية جبلة ، مستعينا في ذلك بقوات طغتكين لدخولها ، وأفلح في ذلك فعلا فأطاعه أهلها فقنع بها فخر الملك قبل أن يعصف الصليبيون بكل من جبلة وطرابلس ذاتها في العام التالي (١) .

---

(١) Sobernheim : Encyc. Isl. art. «Ibn Ammar»

(د) سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين

(سنة ١١٠٩ م)

تمخضت الحملة الصليبية الأولى عن تأسيس بعض الإمارات الصليبية في أطراف بلاد العراق وفي بلاد الشام. فكانت إمارة الرها فى أقصى شمال العراق ثم إمارة أنطاكية فى شمال بلاد الشام ، كما تأسست المملكة الصليبية فى بيت المقدس ، وبذلك أصبحت الفرصة مهيأة أمام الصليبيين للعمل المدروس المخطط الذى يمكنهم من حفظ إماراتهم وحماية كيانهم الشاذ وسط الحشود الإسلامية الآخذة فى الإفاقة من هول الصدمة . والواقع أن الصليبيين سرعان ما انتبهوا إلى أن إمارة بنى عمار فى طرابلس تفصل بين أجزاء ممتلكاتهم فى الشمال وفى الجنوب ، وتجزئ كيانهم وتمنع الاتصال بين أوصال هذا الكيان ، فليس غريبا أن يكون الاستيلاء عليها قد أصبح هدفا حيا من أهدافهم فى السنوات الأولى من استقرارهم فى الشرق ، ولعل دأب ريموند الصنجيلى على هدم معالم هذه الإمارة منذ البداية كان يحظى بتأييد عقلاء الفرنج ، كما أن التئام شمل الجيوش الصليبية العاملة فى بلاد الشام وشمال العراق أمام طرابلس ذاتها فى سنة ١١٠٩ م يؤكد ما غدت تلقاه هذه المسألة من تأييد الجموع الصليبية ، وما أضحت تحظى به من اهتمام قادة الفرنج فى ذلك الوقت (١) .

---

(١) Mills : The Hist. of the Crusades. I. p. 292

وعلى الرغم من ضآلة إمكانات بنى عمار وصغر مساحة إمارتهم، إلا أنها صمدت أمام الهجمات العنيفة التي بدأت تجتاحها . فقد فقدت أنطرطوس في أوائل عام ١١٠٢ م ، ثم فقدت جبيل في أواخر عام ١١٠٤ م ، وحوصرت طرابلس من شمالها وجنوبها ، وزاد التضييق عليها (١) وكانت ثالثة الأثافي خروج طرابلس ذاتها من يد بني عمار، وانضوائها تحت حكم الخلافة الفاطمية سنة ١١٠٨م ولم يبق من أملاك تلك الإمارة سوى عرقة وكذلك جبلة التي لجأ إليها فخر الملك بن عمار مؤخراً .

أما عرقة — الحصن العريق الذي رأينا صموده في وجه الصليبيين من قبل — فكان بيد وال أقامه فخر الملك بن عمار ، إلا أن هذا الوالي انتهز فرصة الأحداث التي تعرضت لها طرابلس وقام من جانبه بطرح طاعة ابن عمار وأعلن استقلاله بالحصن غير أنه سرعان ماتبين له صعوبة الحفاظ عليه أمام هجمات الفرنج ، « فضاق به القوت وانقطعت عنه الميرة لطول مكث الفرنج في نواحيه » . وعندما اقتنع الوالي بضعفه عن التصدى للفرنج وعجزه عن حفظ القلعة بادر بالكتابة لطغتكين أتابك دمشق قائلا له : « أرسل من يتسلم هذا الحصن مني فقد عجزت عن حفظه ، ولئن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخرة من أن يأخذه الفرنج » عندئذ أرسل له طغتكين رجلا من أعوانه يدعى إسرائيل في نحو ثلاثمائة رجل تسلم منه الحصن ثم قتله غيلة قبل أن يطلع هذا الوالي طغتكين على ماخلفه بالقلعة من الأموال (٢) .

---

(١) Grousset : L'Empire du Levant. P. 208

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٦٥ (سنة ٥٠٢ هـ) ؛

ابن القلانسي : ذيل ص ١٦٢

ويبدو أن طغتكين رأى بعد أن صارت عرقة بيده ، ضرورة تأمين الطرق بينها وبين دمشق ، فهاجم بعض الحصون والقلاع التابعة للصليبيين واستولى على حصن الأكمة فى مارس سنة ١١٠٨ م (رجب سنة ٥٠١ هـ) وكان ينوى زيارة عرقة نفسها لتفقد تحصيناتها والعمل على تقويتها ، إلا أن هذه التحركات أثارت مخاوف وليام جوردان ، فسحب فرقة من جيشه المحاصر لطرابلس من نحو ثلاثمائة فارس ونحو مائتين من المقاتلين المحليين ، وفاجأ طغتكين وجيشه بقرب حمص فلاذ هذا بالفرار وتبعه جيشه الذى تفرق وانسحب إلى حمص فى حالة سيئة ، وغنم الصليبيون ، « من الخيل والكراع غنيمة كبيرة وتفرق العسكر فى الشجر والجبال ووصلوا إلى حمص على أقبح صفة وأشنع صورة من غير لقاء ولا محاربة » (١) .

عاد وليم جوردان من متابعة الجيش الإسلامى المنهزم ، فألقى الحصار على عرقة نفسها وهاجمها على امتداد ثلاثة أسابيع ، ويشير المؤرخ ابن القلانسى إلى أنها كانت تعانى حينئذ من مجاعة شديدة ، « فقل القوت بها وانقطعت الميرة » فى وقت نزلت فيه الثلوج وهطلت الأمطار بغزارة فعاقت كل محاولة لنجدتها فاستسلمت فى النهاية لوليم جوردان ، وطلبت حاميتها الأمان . . « فأمنهم على نفوسهم وتسلم الحصن » (٢) فوضع به حاميـــة من لدنه وعاد لحصار طرابلس . وهكذا سقطت عرقـــة فى يد الفرنج فى أبريل سنة ١١٠٨ م

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦٢

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٥٦

(رمضان سنة ٥٠٢ هـ) ولم يبق من حطام إمارة بنى عمار سوى جبله القى لاذى بها فخر الملك من قبل .

على أن التجمد الذى أمسى فيه الحصار الصليبي لطرابلس على يد وليم جوردان لم يلبث أن قطع بوصول برتراند ابن ريموند قادماً من الغرب ليرث أمـــلاك والده في الشرق . فقد ظل برتراند يحكم إمارة تولوز نحو عشر سنوات إلى أن قام أعوان ريموند وبارونات الامارة باستدعاء الطفل ألفونسو جوردان الابن الشرعى لريموند ونصبوه أميرا عليهم واتفق على أن يرحل برتراند الى الشرق ليرث أملاك والده هنالا ، بينما يبقى الفونسو على أملاك والده في الغرب ، ومن ثم قدم برتراند على رأس جيش كبير قـــوامه نحو أربعة آلاف فارس وراجل محمولا على نحو أربعين سفينة (١) .

ولا بد وأن برتراند كان ينوى مهاجمة طرابلس بالذات والاستيلاء عليها بمجرد وصوله إلى بلاد الشام ليجعلها قلب إمارته المرتقبة في الشـرق (٢) ، لانه قام بعملين يؤكدان هذه الرغبة ، فقد حرص وهو في طريقه إلى بلاد الشام أن يمر على جنوة للاتفاق مع حكومتها على الاستعانة بأسطولها لمهاجمة المدينة بحـرا ، وهى المعونة التى كان يفتقدها الحصار فعلا ، فحصل على موافقه جنوه على ذلك نظير منح الجنوية امتيازات واسعة فى طرابلس (٣) ، وبعد ذلك عـــرج برتراند على القسطنطينية ليطلب معونة الامـبراطور

---

(١) Grousset : Hist. des Crois. I. P. 352 - 3

(٢) Michaud : op. cit. I. P. 287

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٣٦٨

الكسيوس كومنين صديق والده الحميم ، ليتمكن من تنفيذ خططه فى الشرق . وحينما وصل إلى القسطنطينية استقبله الامبراطور استقبالا حافلا وحرص على معاملته كأحد أبنائه ومنحه كثيرا من الهدايا ، ووعده النصرة والمساعدة فى مشروعاته ، وفى مقـــابل ذلك حلف له برتراند يمين الطاعة والولاء (1) .

ثم كان أن قاد برتراند جيشه ومعـــه الجنوية وما انضاف إليهـم من البيازنة (2) ، فبلغت عدة السفن التى قادها نحو ستين سفينة نزل بهم فى ميناء السويدية ، ميناء أنطاكية ، وذلك فى مارس سنة ١١٠٩ م (شعبان سنة ٥٠٢ ه) (3) . واجتمع بتنكرد وطلب معونته للحصول على أملاك والده فى بلاد الشام . ولابد أن برتراند لوح لتنكرد بحقوق والده (ريمـوند) القديمة فى كل من أنطاكية واللاذقية حتى ينهض تنكرد لمعونته ، غير أنه هذا اشـترط أن يساعده برتراند لاسترداد المصيصة فى قليقية من أيدى البيزنطيين فرفض برتراند قبول هذا الشرط لما يعنيه ذلك من نقض عهده للامبراطور البيزنطى فترتب على ذلك أن فقد برتراند كل أمل فى التفاهم مع تنكرد من ناحية وأثار غضبه من ناحية أخرى ، وأصبح غير مرغوب فى بقائه فى أنطاكية ، ومن ثم أبحر على رأس جيشه وحلفائه من الجنوية

---

(١) Grousset : op. cit. II. P. 353

(٢) Mills : op. cit. I. P. 392

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص١٦٣

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان جـ١٠ ورقة ٢٨٣

والبيازبة إلى أنطرطوس (١) .

وكانت أنطرطوس حينئذ بيد نائب وليم جوردان ، فلم يحل دون نزول برتراند بها باعتبارها إحدى أملاك أسرة ريموند ، وحصل على ما يحتاج إليه من المؤن منها وشرع فى مطالبة وليم جوردان برد كل أملاك والده إليه باعتباره الوريث الشرعى لهذه الأملاك . لكن وليم جوردان رفض ذلك معتبرا نفسه صاحب الحق فى هذه الإمارة وخاصة أنه عمل على الحفاظ عليها بعد وفاة ريموند من ناحية ، كما قام بتوسيع رقعتهـــا من ناحية أخرى باستيلائه على بعض المعاقل من أيدى المسلمين . . عندئذ تأزم الموقف بين الأميرين ، فالتمس وليم جوردان المعونة من تنكرد وتعهـــد بأن يكون تابعا له ، بينما سار برتراند بقواته إلى طرابلس وفى صحبته الأسطول الجنوى وبعث إلى الملك بلدوين فى بيت المقدس يخـــبره بما حدث ويطلب معونته لاستعادة أملاك والده على أن يصبح تابعا من أتباعه (٢) .

على أن حرص بلدوين الأول على تأكيد زعامته للصليبيين ورغبة فى توحيد كلمة الفـرنج ، فضلا عن استيائه من تنكرد لمـا أظهره من روح عدائية تجاه أمـير الرها وتابعه أمـير تل باشر ، كل هذا دفع الملك إلى الاسراع ناحية الشمال على رأس قوة مكونة من نحو خمسمائة فارس بعد أن طلب إلى تنكرد ووليم جوردان لقائه عند طرابلس .

---

(١) Grousset : op. cit. I. P. 353 - 4

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ/ ص ٢٥١ ـ ٢٥٩ (سنة ٥٠٣ هـ) ،

ابن القلانسى : ذيل ص ١٦٣

وفى قلعة صنجيل قرب طرابلس اجتمع الزعماء الصليبيون : الملك بلدوين الأول وتنكرد ووليم جوردان وبلدون دى بورج وبرتراند ، وكان للبقاقة الملك وحسن سياسته الفضل الأكبر فيما جرى من مصالحة بين الأطراف المتنازعة لاسيما وليم جوردان وبرتراند ، فاتفق على أن تقسم أملاك ريموند بينهما على أن يأخذ برتراند جبيل وقلعة صنجيل وطرابلس التى اتفق الجميع على التعاون للاستيلاء عليها ، فى حين يأخذ وليم جوردان كل من عرقة وأنطرطوس ، وفى حالة وفاة أحدهما دون أن يعقب تؤول ممتلكاته إلى الثانى [1] .

وجاءت هذه المصالحة على حساب إمارة طرابلس إذ تعاون جميع الزعماء الصليبيين على اقتحامها وتحرك الأسطول البروفنسى الجنوى ليحاصرها بحرا ، بينما أخذت الفرق البرية لكل من بيت المقدس وأنطاكية والرها وتل باشر فضلا عن قوات وليم جوردان وبرتراند تحكم الحصار عليها برا . وقد بدأ هذا الحصار فى سنة ١١٠٩ م ، (مطلع شهر رمضان سنة ٥٠٢ هـ) .

بعث الوالى الفاطمى شرف الدولة برسائل عاجلة إلى مصر يستعجل وصول النجدات والميرة والذخيرة والمؤن بطريق البحر . والواقع أن الخلافة الفاطمية كانت قد جهزت أسطولا كبيرا لنجدة المدينة فعلا ، يحمل أعدادا من المقاتلين

---

(١) Runciman : op. cit. II. P. 68
Grousset : op. cit. I. P. 356
Mills : op. cit. I. P. 294

كما يحمل كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن ، ولكن الخلاف نشب بين قادة ذلك الأسطول وهو لا يزال فى موانى الدلتا ، ومرت الشهور والأمير الأفضل عاجز عن حسم تلك الخلافات وتسيير الأسطول إلى طرابلس ، بينما كانت المدينة صامدة للحصار وللهجمات الصليبية براً وبحرا لكنها غدت تعانى شدة كبيرة بسبب نقص المؤن وقلة الذخائر وتناقص المقاتلين . ويشير المؤرخ ابن الفرات إلى حادثة غريبة جرت بينما كانت المدينة تتعرض لتلك المحنة ، وتترقب النجدة ، وبرغم مايظلل هذه الحادثة من شكوك ، إلا أنها توحي بمدى الانحلال الذى أصاب السلطات الحاكمة فى مصر ، وعدم الاكتراث الذى استوجب لوم المؤرخين لهم ، فبينما أهل المدينة فى محنتهم ، يقول ابن الفرات ، «إذا بمركب قد أقبل فاشكوا فى أن فيه نجدة ، فطلع منه رسول وقال : قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة وأنها تصلح للخدمة ، وقد أمر بإرسالها إليه ، وأرسلوا إليه حطب المشمش مايصنع منه عيدان للملاهى فعند ذلك أيسوا من نصره وضعفت قواهم وخارت نفوسهم وذلوا » [٢] . وليس من شك فى أن هذا النص هو الذى هال له بعض مؤرخى الغرب من المحدثين ، وتلقفه مؤرخ الحروب الصليبية المتعصب Michaud وصاغ منه عبارات تنم عن غمز ولمز وسخرية من خلافة القاهرة [٣] ، برغم مافى هذه الحادثة من شكوك ، لكننا مع هذا نستوحى منها مدى ماشهدته الخلافة الفاطمية من

---

(٢) ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٨ - ٧٩

(٣) Michaud : op. cit. I. P. 287

الاضمحلال وسوء التدبير وعدم اكتراث بالنسبة لما تتعرض له أملاكها على يد الفرنج في بلاد الشام .

وبعد تأخر وتردد خرج الأسطول المصرى قاصدا طرابلس ، وشاء سوء حظه أيضا أن يتعرض للعواصف التى ردته المرة بعد المرة عن الوصول إلى المدينة ، « وسير الريح ترده ، لما يريد الله تعالي من نفاذ الأمر المقضي » [1] وعندئذ أيقن أهل المدينة بالهلاك ، وذلت نفوسهم فى الوقت الذى نشط فيه الفرنج فى الهجوم والتف الأسطول الجنوى بحكم الحصار حولها واقتربت أبراج الفرنج من أسوار المدينة وتكاثرت،وغدا سقوطها وشيك الحدوث.[2]

ويبدو أن الوالى الفاطمى أيقن حينئذ عبث المقاومة فاتصل بالصليبيين يطلب لنفسه وللحامية الفاطمية الأمان ، إذ يشير المؤرخ أبو الفدا إلى أن الصليبيين سمحوا للقائد الفاطمى وحاميته بالخروج من المدينة وذلك قبل أن تسقط المدينة فى أيديهم فعلا ، فخرج المستأمنون منها إلى دمشق .[3]

على أثر ذلك استمات الفرنج فى الهجوم على المدينة وقربوا أبراجهم منها، وجدوا فى الهجوم عليها من كل جهة حتى سقطت فى أيديهم فى ١٢ يونيو

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦٣ ،
ابن الأثير . الكامل جـ٨ ص٢٥٩ (سنة ٥٠٣ هـ)

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة جـ ٩ ورقة ٢٨٣

(٣) أبو الفدا : المختصر جـ٢ ص٢٢٤

سنة ١١٠٩ (ذى الحجة سنة ٥٠٢ﻫ) . لكن الآراء مع ذلك اختلفت فى كيفية سقوطها ، هل كان عنوة وبحد السيف ، أم أنها استسلمت للغزاة طواعية ، واستأمن أهلها للفرنج فى نهاية الأمر ؟

وقد اعتقد المؤرخون المحدثون فى الغرب أن المدينة قد استسلمت للفرنج استسلاما عاما ، بدليل سماح الفرنج للوالى الفاطمى والحامية بالخروج منها سالمين على أثر طلبهم الأمان ، وأن الزعماء الصليبيين - لاسيما برتراندو بلدوين قد وفوا بوعودهم وعهودهم لأهلها المستأمنين ، فابتعدوا عن سلك الهدم وإحداث الخراب والدمار ، كما فسر أولئك المؤرخون حوادث السلب والنهب والقتل والتخريب فى بعض أجزائها بأنه حدث على يد الجنوية الذين لم يتقيدوا بعهد أو يلتزموا بوعد ، أى أن المدينة دخلت فى حوزة الفرنج استسلاما . (١)

لكن الواقع أن هناك إجماع بين المؤرخين العرب القدامى على أن المدينة لم تستسلم للغزاة ولم تطلب الأمان منهم ، بل أنها قاتلت بشرف وكافحت حتى النهاية حتى سقطت مرغمة فى أيدى الصليبيين فى أواخر سنة ٥٠٢ﻫ . وقد أجمع على ذلك كل من ابن القلانسى وابن الأثير وسبط بن الجوزى وأبوا الفدا وابن الفرات ، وأشاروا إلى ماحدث من الخراب والدمار والسلب والنهب والقتل وإشعال الحرائق حتى دمرت مكتبة آل عمار فيها ، « وكتب دور

---

(١) Grousset : op. cit. I. P. 357 - 8

Runciman : op. cit. II. P. 69

Michaud : op. cit. I. P. 287

العلم الموقوفة ، على يد الغزاة كنتيجة لاقتحام المدينة عنوة ودخولها بحـــد السيف .(١)

ويبدو لنا فعلا أن دخول الفرنج إلى هذه المدينة الباسلة لم يكن بالسهولة التى صورها المؤرخون فى الغرب ، كما نستبعد أن يؤثر أهلها فى النهاية هذه الخاتمة الهزيلة لكفاحهم المشرف، وهم مشهورون بقوة المراس وعراقة الكفاح طوال تاريخهم حتى قبل هذه الأحداث . ولهذا فنحن نؤيد الروايه التى أتت أجماعا من المؤرخين العرب القدامى ونقرر معهم أن المدينة كافحت وناضلت وقاتلت حتى النهاية ، دون أن تستسلم أو تطلب الأمان ، مع أن طلبها الأمان فى مثل تلك الظروف لم يكن لينقص من قدر أهلها وحماتها ، الذين خذلتهم القوة الإسلامية وخاصة الخلافة الفاطمية وباتوا دون سند أو حماية أو نجدة .

أما خروج الوالى الفاطمى وحاميته سالمين من المدينـة ، وهو ما فسره المؤرخون الغربيون بأنه دليل استسلام المدينة كلها ، فاننا لانجده دليلا على ذلك ، إنما أشار إليه بعض المؤرخين القدامى خاصة ابن الأثير على أنه حدث قبل سقوط المدينة فعلا ، وقبل دخول الفرنج إليها ، وأنها كانت دعوة انهزامية مبكرة من قبل هذا الوالى قادته إلى طلب الأمان لنفسه ولجنده فلقيت قبولا لدى زعماء الفرنج فأمنوه مقابل مدهم بما لديه من معلومات عن المدينة وماتمر به من ظروف دقيقة .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٩ ، سبط بن الجوزى : مرآة ج١٠ ورقة ٢٨٣ أبو الفدا : المختصر ، ج٢ ص ٢٢٤ ، ابن الفرات : تاريخه : ج ٨ ص ٧٨

وأما التزام بعض القادة الصليبيين بالاعتدال وعدم الميل لإحداث الخراب والدمار ، فلم يكن وفاء لعهد سبق منحه ، وإنما يفسره رغبة كامنة لدى كل من بلدوين وتابعه برتراند في الاستيلاء على المدينة كما هي دون تخريب أو تدمير حفاظا عليها باعتبارها ستصبح مقر إمارة جديدة على سواحل الشام .

أما تفسيرهم لما حدث من تخريب ونهب وقتل بأنه جاء من قبل الجنوية دون غيرهم ، فإننا لانجد الجنوية أكثر تعصبا من غيرهم من جماعات الغزاة خاصة من قدم منهم حديثا من الغرب في جيش برتراند[1] وبالتالي لانميل إلى هذا التخصيص والتحديد .

والخلاصة ، أن الدلائل تشير إلى أن طرابلس لم تستأمن أو تستسلم للفرق الصليبية المهاجمة وأنها ظلت تقاوم حتى النهاية حتى عجز مقاتلوها عن دفع الأبراج المتكاثرة على أسوارها على الرغم من نجاحهم في البداية في إحراق بعض تلك الأبراج ورد المغيرين فيها . ومن ثم كانت الخاتمة البائسة لكفاح هذا المعقل الإسلامي الكبير والنهاية المؤلمة لهذه القلعة العريقة .

هذا ويجب أن ننوه بأن حرصنا على تأكيد سقوط طرابلس عنوة وبحد السيف

(١) يذكر أن أحد رجال الدين الصليبيين ممن جاءوا مع برتراند من الغرب دخل غرفة كبيرة في مكتبة آل عمار فعمد إلى أعداد كبيرة من القرآن الكريم المكدسة فوضع فيها النار وأخذ يرقب ذلك في تشف ونشوة ، ثم مالبث الغزاة أن أشعلوا النار في المكتبة بأسرها . وذلك مثل لما أحدثه الغزاة من الخراب والدمار في شيء من القسوة والحنق والتعصب يستوى في ذلك الجنوية وغيرهم .

Michaud : op. cit. I. P. 288

ليس نابعا من محاولة إظهار قوة الصليبيين أو غير ذلك ، وإنمـــا هي رغبة صادقة في عدم حرمان أهل هذه المدينة من شرف القتال إلى آخر لحظة وبكل بسالة عن مدينتهم حتى سقطت بشرف في أيدى أعداء تكاثروا عليها واستأسدوا ضدها ، ولم يكن سقوطها طواعية ضنا بأرواح مقاتليها أو حرصا على دماء رجالها ، وإنما كان دخول الفرنج إليها على أشلاء مقاتلين شجعـــان قاتلوا بشرف في ظروف غير متكافئة ، وليس من شك في أن تقاعس الفاطميين عن نجدتها ومدها بالمؤن والذخيرة والرجال كان العامل الأساسي في ورودها هذا المورد التعس ووصولها لهذه النتيجة المؤلمة ممـــا استوجب لوم المؤرخين المعاصرين واللاحقين لهم وجعلهم هدفا لمؤاخذة أولئك المؤرخين .

وهكذا سقطت طرابلس ، وانهدم معقل إمارة بني عمار التي عمرت نحو أربعين عاما . ويعلق مؤرخ الحركة الصليبية على ذلك بأن الظروف شاءت أن تكون طرابلس آخر مدينة كبرى في الشام تسقط في أيدى الصليبيين وآخر إمارة كبرى يؤسسهـا الصليبيون بعد الرها وأنطاكية وبيت المقدس ولكنها في الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشـام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر (١) .

مصير فخر الملك بن عمار :

كان فخر الملك بن عمار قد قنع بجبلة التي غدت البقية الباقية من حطـام إمارته الزائلة ، منذ دخولها في أغسطس سنة ١١٠٨ م (المحرم سنة ٥٠٢ هـ)

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٦١

وتقع جبلة جنوبى اللاذقية وإلى الشمال من بانياس وأنطرطوس . والحقيقة أن فخر الملك لم يحاول منذ ذلك الوقت العودة إلى طرابلس أو التدخل فى فى شئونها ، إذ لانجد مايشير إلى أى نشاط طوال العام الذى قضاه فى جبلة ، ويبدو أنه كان قد يئس من القوى الإسلامية بعد عودته صفر اليدين من بغداد ، كما أن بقية آماله قد تلاشت حين علم بانضواء المدينة تحت الخلافة الفاطمية ، واقتنع بأن مدينته قد غدت بين فكى القوى الصليبية والخلافة الفاطمية ولا أمل فى استعادتها مع تقاعس السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية فى المشرق ، فآثر الخلود إلى السكينة آملا أن يتركه الصليبيون يقضى بقية عمره فى تلك المدينة الصغيرة التى غدت حصاد إمارة ضائعة .

لكن هذا الأمل غدا موضع شك كبير حين سقطت طرابلس فى أيدى الفرنج فى يونيو سنة ١١٠٩ ، ثم كان استيلاء تنكرد على بانياس بعد ذلك بقليل (١) فأصبح فخر الملك بين شقى الرحى ، وأصبح الصليبيون يحيطون به من الشمال والجنوب ، إذ كانت اللاذقية فى يد تنكرد كما آلت اليه بانياس مؤخراً وغدا وجود فخر الملك فى جبلة يعد مخاطرة كبيرة ، لأن تنكرد انصرف بعد استيلائه على بانياس للهجوم على جبلة نفسها ، « وكان القوت فيها قليلا فقاتلها إلى أن ملكها فى الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٠٢ هـ (يونيو ١١٠٩ م) بأمان » (٢) .

ويبدو أن فخر الملك عرض على تنكرد الاحتفاظ بجبلة فى ظل الحماية

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦٣ — ١٦٤

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢٥٩ (سنة ٥٠٣ هـ)

الصليبية على أن يدفع لتنكرد الجزية المقررة ، لكن تنكرد رفض ، وعندئذ لم يجد فخر الملك بدا من الخروج منها حزينا ، فقصد إمارة شيزر ، فتلقاه أميرها سلطان بن على بن منقذ الكنانى ، « واحترمه وعرض عليه المقام عنده فأبى » (١) وواصل السير إلى دمشق فوصل إليها فى المحرم سنة ٥٠٣ ﻫ (أغسطس ١١٠٩ م) فأكرمه طغتكين ، « وأنزله فى دار وأقطعه الزبدانى وأعمالها »(٢) .

قضى فخر الملك فترة فى إقطاعة فى الزبدانى فى وادى بردى ، ثم توجه إلى الموصل حيث وزر للأمير مسعود بن محمد السلجوقى حتى عام ٥١٢ ﻫ (١١١٨ م) ، وذلك قبل أن يصبح الأمير مسعود سلطانا ، ثم ظهر فخر الملك بعد ذلك فى خدمة الخليفة العباسى المسترشد بالله (٣) .

لكنه لم يمكث طويلا فى خدمة هذا الخليفة ، إذ يذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥١٤ ﻫ (١١٢٠ م) أن فخر الملك سار فى صحبة سديد الدولة بن الأنبارى مبعوث الخليفة المسترشد إلى إيلغازي بن أرتق التركمانى ليقيم عنده ، وكان إيلغازى حينئذ صاحب إمارة ماردين فى ديار بكر التى ضم اليها حلب سنة ١١١٨ م وكان ابن الأنبارى موفدا من قبل الخليفة إلى ايلغازى

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٨٣

(٢) ابن القلانسى ذيل ص ١٦٤ — ١٦٥

(٣) Sobernheim : Enoyc. Isl. art " Ibn Ammar "

بالخلع والهدايا وبرسالة يشكره فيها الخليفة، على مايفعله من غزو الفرنج، (١)
وذلك بعد نجــاح إيلغازى فى إنزال الهزيمة الكبيرة بروجر الأنطاكى فى
ساحة الدم فى سنة ١١١٩م (٢) فلابد وأن فخر الملك آثر حينئذ العودة إلى
بلاد الشام ليقيم فى كنف هذا الحاكم القوى وسعى من أجل ذلك لدى الخليفة
فبعثه هذا فى صحبة ابن الأنبارى، وتنقطع عنا أخبار فخر الملك بن عمار بعد
ذلك، فلا ندرى بأى بلد أقام بقية حياته، ولا أين توفى.

---

(١) ابن الأثير . الكامل جـ ٨ ص ٢٩٤ (سنة ٥١٤ هـ)

(٢) Smail : Crusading Warfare. P. 57

بنـــو منقذ فى شيزر ١٠٨١ — ١١٥٧م

أ — بنو منقذ قبل امتلاكهم قلعة شيزر .

ب — تأسيس الإمارة فى شيزر سنة ١٠٨١ م

(عهد سديد الملك أبو الحسن على بن منقذ)

حـ — خلفاء سديد الملك بن منقذ وسياستهم تجـــاه السلاجقة والصليبيين :

١ — عز الدولة أبو على المرهف نصر بن على ١٠٨٢ — ١٠٩٨

٢ — عز الدين أبو العساكر سلطان ١٠٩٨ — ١١٥٤

د — بنو منقذ والبيزنطيون

هـ — نهاية بنى منقذ سنة ١١٥٧ م .

(أ) بنو منقذ قبل امتلاكهم قلعة شيرز

بعد قيام إمارة بنى عمار فى طرابلس بنحو عشر سنوات ، وبعد انهيار إمارة بنى مرداس فى حلب بنحو سنتين ، برزت إمارة جديدة فى بلاد الشام أقامها سديد الملك أبو الحسن بن منقذ فى شيزر على نهر العاصى سنة ١٠٨١ م لتعمر هى الأخرى فترة من الزمان، ولتصبح الإمارة العربية الثالثة فى بلاد الشام، والنموذج الثالث لهذا النوع من الدويلات المستقلة .

والواقع أن تلك الإمارات الثلاث تشابهت فى كل شيء ، حتى فى الظروف التى صاحبت قيام كل منها والنهج الذى سارت عليه والسياسة التى اتبعتها ، فضلا عن تعرض كل منها لأخطار الطامعين وتكالب القوى المجاورة والبعيدة والدخيلة على هذه المنطقة . لكن إذا كانت إمارة بنى مرداس قد عمرت نحو نصف قرن من الزمان وإمارة بنى عمار قد عمرت هي الأخرى نحو أربعين عاما حتى هدمتها القوى الصليبية فان إمارة بنى منقذ كانت أطولها عمرا ، لأنها عمرت نحو ثلاثة أرباع قرن حتى راحت ضحية عوامل طبيعية لا بشرية ، إذ هدمتها الزلازل المدمرة فجعلتها أثرا بعد عين .

لكن الشيء الذى نستطيع أن نقرره مطمئنين هو أن هذه الإمارات الثلاث احتذت كل منها حذو الأخرى ونشأت على مثالها ، ولم تكن أى منها وليدة أحداث خاصة أو مصادفات فريدة ، ويكفى لتأكيد هذا الاتجاه أن سديد الملك بن منقذ ، مؤسس هذه الإمارة الجديدة ، أقام فى حلب فترة وشارك فى أحداثها ، ثم ظهر فى طرابلس ولعب دورا هاما فى تاريخها ثم خرج

منها ليؤسس إمارة جديـدة على نسق ما شاهده فى كل من حلب وطرابلس فكان له ما أراد ، وظهرت إمارة بنى منقذ فى شيزر سنة ١٠٨١م (٤٧٤ هـ) .

وسبقت الاشارة من قبل إلى أن بنى منقذ ينتسبون إلى قبيلة كنانة من كلب وهى القبيلة التى عمرت وسط الشام طبقا للتوزيع القبلى الذى أسفرت عنه أحداث القرون الأولى للهجرة وعلى الرغم من أن شهرة بنى منقذ ارتبطت كلية بامتلاكهم قلعة شيزر التى جعلوها مقر هذه الإمارة موضوع الفصل ، إلا أنهم معروفون لدينا قبل هـــذه الحادثة بوقت يزيد على نصف قرن . فقد كانوا يمثلون أسرة هامة منذ فجر القرن الحادى عشر ، وكانت لهم مكانة خاصة لدى صالح بن مرداس أمير حلب الذى أقطعهم إقطاعا بالقرب من شـــيزر(١) فاستقروا فى تلك المنطقة وأخذوا يشاركون فى أحداثها .

على أننا لا نعلم شيئا عن منقذ الكنانى الكلبى مؤسس الأسرة وجدها الأول ولا عن ابنه نصر بن منقذ ، لأن كل ما وصلنا من معلومات عن هذه الأسرة

---

(١) اعتقد ابن الأثير أن شيزر ذاتها منحت كإقطاع لبنى منقذ من لدن صالح « وكانت لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس » . وقد لاحظ هذا الخطأ المؤرخ أبو الفدا فقال تعليقا على قول ابن الأثير « وليس الأمر كذلك فان صالحا كانت وفاته سنة ٤٢٠ هـ وملك بنى منقذ لشيزر كان فى سنة ٤٧٤هـ أى بعد وفاة صالح بأربعة وخمسين سنة » والصحيح أن اقطاعهم كان قريبا من شيزر وليس شيزر ذاتها منحهم اياه صالح . (ابن الأثير : جـ٩ ص ٥٣ — ٥٤ (سنة ٥٥٢ هـ) — أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص ٣١) .

يبدأ من الشخصية الثالثة فيها وهو أبو المتوج مقلد بن نصر والد سديد الملك أبو الحسن علي مؤسس الإمارة في شيزر .

ذلك أن مقلد بن نصر هذا نجح في الاستحواذ على كفرطاب سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١م) فارتبط اسمه بها مقيل ، ابن منقذ الكفر طابي ، وفرض نفسه على أحداث العصر وغدا له وزن بين رجال الشام حينئذ ، مكنه من أن يلعب دورا هاما في مجريات الأمور في بلاد الشام ، فلاذ به أنوشتكين الدزبري قائـــد الفاطميين الشهير حين لفظته الخلافة الفاطمية وثارت به دمشق ، فلم يجد بداً من الخروج إلى حماه ، « وكاتب ابن منقذ الكفر طابي فحضر إليه في نحـو ألفي رجل من كفر طاب فاحتمى به » (١) وذلك في سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١م) .

ويقول ابن خلكان عن مقلد بن نصر هذا انه « كان رجلا نبيل القدر سائر الذكر رزق السعادة في بنية وحفدته » (٢) واستطاع أن يبسط نفـوذه من

---

(١) أبو الفدا المختصر جـ ٢ ص ١١٦ ، ابن الوردي تاريخه جـ ١ ص ٣٤٨

اعتقد فيليب حتى أن مقلد الذي استولى على كفر طاب شخص آخر غير أبي المتوج مقلد بن نصر وذكر أن هذا الأخير ولي بعد مقلد وخلفه في حكم كفر طاب ، لكن الثابت انهما شخص واحـــد وأن أبا المتوج مقلد بن نصر حكم كفر طاب سنة ١٠٤١ وتوفي سنة ١٠٥٩ .

حتى : مقدمة كتاب الاعتبار لاسامه ص (م) ،

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ص ٣٥٧ (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد)

Honingmann. Encyc. Isl. art. «Shaizar»

زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة جـ ٢ ص ١٦٥

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٣٥٧

منطقة كفر طاب إلى نهر العاصي بالقرب من قلعة شـيزر التي ظلت في حوزة البيزنطيين حيث دخل في حوزته أيضا الجسر القريب منها والذى سمى بعدئذ بجسر بنى منقذ نسبة إلى آل منقذ (١) .

ويبدو أن مقلد وأمراء أسرته لم يتخذوا كفر طاب نفسها مقرا دائما لهم فكانوا « يترددون إلى حماه وحلب وتلك النواحى ولهم بهـا الدور النفيسـة والأملاك الثمينة ، وذلك كله قبل أن يملكوا قلعة شيزر » ، وليس من شك في أن ذلك أعطاهم فرصة الاتصال بأمراء حلب وغيرهم ، « وكان ملوك الشـام يكرمونهم ويجلونهم وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم » ، وظل المقلد بن نصر يؤدى دوره « في رياسته وجلالته » إلى أن توفى بحلب في ذى الحجة سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٩م) وحمل إلى كفر طاب حيث دفن بها (٢) .

ثم آل الأمر من بعده إلى ابنه سديد الملك أبو الحسن على ، وهو الأمير الذى يهمنا والذى أسس الإمارة في شيزر — وكان كما وصفته الروايات: «شجاعا مقداما قوى النفس كريما ، كما كان ممدحا مقصودا ، مدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط والخفاجي وغيرهم» ، وكان هو نفسه شاعرا مجيدا (٣) ، وقال عنه

---

(١) درر التيجان : مخطوط ورقة ٣٢٦

(٢) ابن خلكان : وفيات جـ ٤ ص ٣٥٧

(٣) Derenbourg : Ousama I. Mounkidh. Extrait du Livre de Baton par Osama. P. 516

درر التيجان : ورقة ٣٢٩ (مخطوط)

أبو المحاسن أنه كان نحويا لغويا شاعرا (١) وعده العماد الإصفهانى من الطبقة الأولى فى الشعراء والناظمين (٢) . ولعل حبه للكتب وميوله وثقافاته وكذلك شهامته كلها تتجلى فيما رواه عنه حفيده أسامه بن منقذ فى كتاب العصا من روايات طريفه (٣) ، كما كان سديد الملك ذكيا « موصوفا بقوة الفطنة » وتروى فى ذلك روايات كثيرة أيضا ، وفوق ذلك فهو الذى استطاع الاستحواذ على قلعة شيزر ، أى أنه مؤسس إمارة بنى منقذ فى شيزر (٤) .

وقد تابع سديد الملك أبو الحسن على منذ البداية سياسه والده فى بسط هيمنته على منطقة كفر طاب وضواحى شيزر، متطلعا دون شك إلى الاستحواذ على شيزر ذاتها ، ولا يزال أيضا متنقلا بين كفر طاب وحماه وحلب ونال منزلة خاصة لدى الأمير محمود بن نصر بن صالح المرداسى ، وشارك فى مجريات الأمور فى حلب ، ففى سنة ٤٦٠ﻫ (١٠٦٨م) سعى لدى أحد عمال الفاطميين المغاربة فى حصن أسفونا قرب معرة النعمان (٥) ليسلم الحصن لمحمود المرداسى ، ووافق العامل المغربى على ذلك وقام بتسليم الحصن لمحمود . « وتولى ذلك الأمر سديد الملك أبو الحسن على بن منقذ (٦) » ، كما كانت له بصمات أخرى فى شئون الحكم فى حلب فى بحكم منزلته وقربه من أميرها ، إلا أن العلاقاته

---

(١) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٢٤

(٢) العماد الأصفهانى : خريدة القصر وجريدة العصر ج ١ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ ، ٥٥٥

(٣) Derenbourg : op. cit. pp. 503-4

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٨

(٥) ياقوت : معجم ج ١ ص ٢٤٩

(٦) ابن العديم : زبدة ج٢ ص١٢

بين سديد الملك ومحمود المرداسي سرعان ماساءت فاستشعر سديد الملك الخطر على نفسه فما لبث أن غادر حلب سراً إلى كفرطاب ثم إلى طرابلس في عام ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) وهناك شارك في مشكلة الوراثة في بيت آل عمار بعد وفاة مؤسس إمارتهم القاضي أبي طالب بن عمار ، حيث عضد جلال الملك بمماليكه ورجاله حتى نال السلطة في طرابلس كما سبقت الإشارة ، ومن ثم استقر به المقام هناك على الرغم من إلحاح محمود في طلبه دون طائل . فلما يئس محمود من استعادته لجأ إلى مصادرة أملاكه في حلب (١) .

لم يعد سديد الملك إلى حلب إلا بعد وفاة محمود سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) وبعد ولاية ابنه نصر بن محمود حيث احتل ابن منقذ من جديد مكانته بين رجالات القصر في حلب ، وكان له دور هام تصريف شئون الإمارة إبان الأحداث الهامة التي أعقبت اغتيال نصر على يد الأتراك بعد نحو عام من ولايته . وكان لابن منقذ دور هام في عقد الولاية لسابق بن محمود سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) وتسيير دفة الحكم في إمارة بني مرداس (٢) .

على أن الأمل عاود سديد الملك في الاستيلاء على قلعة شيزر ، ولا بد وأن اتصاله بإمارة بني عمار قد أوحى اليه بفكرة الاستحواذ على مركز يصلح ليكون إمارة مستقلة كتلك الإمارتين العربيتين ، لأننا نجده في سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٨ م) يعود من جديد إلى كفر طاب حيث بدأ في إقامة حصن على تل يقع غربي شيزر ، وعلى مسافة قريبة منها عرف بحصن الجسر ليشرف منه

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٣٤ ـ ٣٦ ؛ ابن القلانسي : ذيل ص ١٠٦

(٢) ابن العديم : نفسه ، ص ٥٣

على قلعة شيزر ويتحكم فيها توطئة للاستيلاء عليها (١)

ويذكر المؤرخ ابن العديم أن سديد الملك لم يشرع في عمارة ذلك الحصن إلا بعد أن أذن له سابق بن محمود ـ أمير حلب ـ بذلك ، فعمره في ذلك العام « ليضايق به شيزر ويقطع المادة عنها من بلد الروم » (٢) وتشير الدلائل إلى أنه استقر مقاما بذلك الحصن منذئذ معولا عليه فيما يبدو للاستيلاء على شيزر ذاتها (٣)

ـ في نفس العام أخذت جيوش تاج الدولة تتش السلجوقي تقترب من بلاد الشام وكان أحمد شاه التركي على رأس جيش يحاصر مدينة أنطاكية فلما أحس بقرب تتش انصرف عنها عائدا إلى حلب بينما هرعت جماعات التركمان المقيمين بظاهر حلب وضواحيها إلى الهرب من أمام تتش فدخلت منهم فرقة كبيرة على رأسها أحمد شاه نفسه إلى حصن الجسر لائذين بابن منقذ .. « فتركوا أموالهم وأهاليهم بهذا الحصن وعادوا إلى خدمتهم بحلب » (٤) ويبدو أن سديد الملك قام بهذا العمل لإرضاء سابق المرداسي لأن هذه الجماعة كانت في خدمته .

على أن هجوم تتش على حلب في نفس العام ١٠٧٨ م (٤٧١ هـ) ثم قيامه

---

(١) Honigmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٢) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٥٦

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة جـ١٠ ورقة ٣٨

(٤) ابن العديم : المرجع السابق جـ٢ ص ٥٦

بأعماله العدوانية ضد طرابلس قد أقنع سديد الملك بن منقذ بضرورة التفاهم مع هذا الغازى السلجوقى ، فحين وصل تتش إلى حصن الجسر فى جمادى الأولى سنة ٤٧١ هـ (نوفمبر سنة ١٠٧٨م) ، « أكرمه أبو الحسن بن منقذ فأعلمه تتش بما عول عليه من نهب الشام فسأله فى بلدة كفر طاب ألا يعترضها فأجابه » ، وهكذا حصل ابن منقذ على وعد من تتش بعدم التعرض لمدينته الصغيرة كفر طاب ، بينما انصرف تتش إلى حصار حلب محاولا الاستيلاء عليها والفوز بها للمرة الثانية .

غير أن الأحداث تلاحقت بعد ذلك وظهر شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى أمام حلب فى ذى الحجة سنة ٤٧٢هـ (يونيو سنة ١٠٨٠م) بناء على استدعاء من سابق المرداس ، غير أن هذا الأمير المرداسى عاد من جديد يضن بمدينته ، فأغلق أبوابها ومنع منها مسلم الذى لم يجد بدا من إلقاء الحصار عليها ويحدثنا المؤرخ ابن العديم أن سديد الملك بن منقذ وفد حينئذ على شرف الدولة ونزل معه على حلب بل كان له دور كبير فى معاونته على فتح حلب بعد أن كاد مسلم ينصرف عنها ، « وكان شرف الدولة قد عزم على الرحيل من حلب لما حل بهم من الضجر ومصابرة أهل حلب » لكن سديد الملك استطاع أن يقنعه بالمضى فى حصارها وأن يطلعه على أحوال المدينة وماتكابده من ضيق « فأعلم شرف الدولة بذلك فقوى نفسه فملكها »[١]

على أننا نجهل الأسباب التى دعت سديد الملك بن منقذ إلى التحول إلى جانب

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جـ ٢ ص ٦٩

Derenbourg : Vie d' Ousama. P. 592

شرف الدولة مسلم عازفا عن الأمير المرداسي الذى ربطته به علاقات طيبة من قبل كما رأينا ، كما أن انحياز سديد الملك إلى جانب شرف الدولة مسلم ومساعدته في الاستيلاء على حلب بالذات يعنى إعلان عدائه لتاج الدولة تتش الذى ما برح يعمل على الفوز بهذه المدينة وهو أمر يحتاج إلى تفسير أيضا .

ويغلب على ظنى أن سديد الملك أراد بهذه الخطوة الكيد لتاج الدولة تتش فعلا والانضمام إلى صف أعدائه ومناوئيه ، فقد أشار أسامة بن منقذ إلى حادثة غريبة ربما تفسر ما حدث من سوء التفاهم بين سديد الملك وتتش إذ قال أسامة : « فإن جدى سديد الملك رحمه الله سير ولده عز الدولة نصرا رحمه الله إلى خدمة تاج الدولة وهو معسكر بظاهر حلب فقبض عليه واعتقله ووكل به من يحفظه ، وكان لايدخل إليه سوى مملوكه »[(١)] إلا أن نصر تمكن مع ذلك من الهرب من المعسكر حيث عاد إلى والده ، وعلى الرغم من أن أسامة لم يعين لنا تاريخ هذه الحادثة فإنه من المعروف أن تتش حاصر حلب حينئذ مرتين: الأولى قبل زيارته لحصن الجسر فى نوفمبر سنة ١٠٧٨م(٤٧١هـ)والثانية فى العام التالى ١٠٧٩م(٤٧٢هـ) قبل بدأن يستولى عليها شرف الدولة مسلم، فلابد وأن هذه الحادثة جرت فى المرة الثانية . فلما ساءت العلاقة بينهما بسببها ، بادر سديد الملك بالانحياز إلى صف مسلم الذى ما لبث أن وصل إلى المدينة بدعوة من أميرها سابق . بل أن سديد الملك رحل بنفسه لمعاونة مسلم على فتحها حين أغلق سابق أبوابها ومنع منها مسلم .

لم يكن انحياز سديد الملك بن منقذ لصف مسلم فى حقيقته تعبيرا عن تغيره

---

(١) اسامه . كتاب الاعتبار ص ٥٤

على سابق أو عدائه له بقدر ما كان تعبيرا عن استيائه من تاج الدولة تتش ورغبته فى النكاية به ، هذا فضلا عن رغبته فى مصادقة القوة الجديدة ممثلة فى مسلم العقيلى والسير فى ركاب هذا الغازى الجديد ، وهى نفس سياسة الكياسة واللباقة التى دأب على اتباعها أمراء الإمارات العربية الثلاث للحفاظ على استقلال إماراتهم وكيانهم . ولابد وأن شعور أولئك الأمراء بضآلة دويلاتهم وقلة امكاناتهم جعلتهم دوما فى حاجة إلى مسايرة القوى المجاورة والسير فى ركابها ، إذا كان عليهم أن يحتفظوا بالأوضاع بالنسبة لهم فى بلاد الشام . ومن هنا سارع ابن منقذ فى شراء رضاء شرف الدولة مسلم الذى بات يدعم سلطانه فى شمال الشام وشمال العراق ويتطلع لإقامة دولة عربية كبيرة تحول دون استفحال خطر السلاجقة فى تلك البلاد . (١)

ولعل أبلغ دليل على أن السياسة التى اتبعها سديد الملك مؤخراً لم تكن موجهة أصلا ضد مصالح سابق المرداسي ، ما حدث من قيام ابن منقذ بدور الوسيط بين شرف الدولة مسلم والأمير سابق المرداسى ، فأقطع سابق وأخواه شبيب ووثاب بعض الاقطاعات واتفق على أن يتزوج مسلم منيعة أخت سابق ، وكان السفير بينهم فى ذلك سديد الملك على بن منقذ وبتدبيره جرى ذلك، (٢) وبهذا الدور حاول سديد الملك الظهور من جديد فى صورة الحريص على مصالح الأطراف المتنازعة المسارع فى عمل الخير الحريص على استتباب الأمن وسيادة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٢ ــ ١٠٣

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج٢ ص ٧١ ــ ٧٢

روح الإخاء بين الأمراء بعد أن نفذ رغبته فى حرمان تتش من الحصول على حلب ودخولها فى حوزة مسلم القوة الجديدة فى شمال الشام .

غير أن المؤرخ ابن العديم لم يفته التلميح بأن ابن منقذ لم يلعب هذا الدور بدون ثمن ، فقال ، « ولما سفر بن منقذ فى تسليم حلب وتسلمها شرف الدولة وعد ابن منقذ وعودا جميلة ومناه أمانى حسنة وأكرمه غاية الإكرام » [1] ، ويبدو أن ابن منقذ فاز من حطام إمارة بنى مرداس بحصن أسفونا الواقع قرب معرة النعمان غربى كفر طاب والذى كان قد توسط من قبل فى أمر تسليمه لأمير حلب محمود المرداسى من يد أحد العمال المغاربة .

وعلى هذه الصورة ، مضى سديد الملك بن منقذ فى المشاركة فى أحداث العصر قبل أن يتملك شيزر ويؤسس الإمارة فيها ، فقد اتصل بأمير حلب محمود المرداسى وخدم فى طرابلس لدى جلال الملك بن عمار ، وعاد ليصرف شئون الحكم فى حلب فى فترة حرجة قبل أن يلى حكمها سابق ، وظل على ولائه وصداقته لهذا الأمير حتى ظهرت قوى أخرى رأى مسايرتها ومال إلى مصادقتها فسالم فى البداية تاج الدولة تتش ثم سار فى ركاب شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى ، وبهذه الطريقة أتيح لسديد الملك أن يلعب دوره فى الأحداث وأن يبلور سياسته ويحدد معالمها تجاه القوى الأخرى فى الوقت الذى استبدت به الرغبة لإقامة إمارة مستقلة لم يجد أنسب من شيزر لتكون مركزا لها ومقراً لحكومته .

... ...

(١) المرجع السابق ، ص ٧٥

(ب) تأسيس الامارة فى شيزر سنة ١٠٨١ م
(عهد سديد الملك أبو الحسن على بن منقذ)

سبقت الإشارة من قبل إلى أن شيزر كانت مدينة قديمة شهيرة ، وأشير كذلك إلى أهمية موقعها وممزاتها ، وكلها جوانب أهلتها لتكون معقلا إسلاميا هاما ومركز إمارة مستقلة . وكان شيزر قد خضعت للحكم الإسلامى منذ سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) حينما استقبلت القائد الاسلامى ذائع الصيت أبى عبيدة بن الجراح بعد أن فتح حمص وحماه ، فدخلت شيزر بذلك ضمن أملاك المسلمين ، وغدت تابعة لجند حمص فى التقسيمات الإدارية والعسكرية الإسلامية فى بلاد الشام . (١) وظلت شيزر تابعة للمسلمين طويلا باستثناء فترة قصيرة حينما غزاها الإمبراطور نقفور فوقاس سنة ٩٦٨ م (٣٥٧ هـ) واستولى عليها لمدة لم تزد على عام واحد ، عادت بعده للحكم الإسلامى . كما غزاها الإمبراطور باسيل الثانى مرتين : الأولى فى سنة ٩٩٤ - ٩٩٥ م (٣٨٣ هـ) ثم استولى عليها من جديد سنة ٩٩٩ م (٣٩١ هـ) وظلت بيد البيزنطيين طوال ثمانين عاما (٢) على الرغم من أن أحمد بن الحسن الأصفر - قائد قبيلة تغلب - كان قد رامها سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ - ١٠٠٥ م) ، واستطاع هو وحلفاؤه إنزال الهزيمة بالبيزنطيين وطردوا الحامية البيزنطية منها ، إلا أنها مع ذلك عادت من جديد

---

(١) Demombynes : La Syrie. P. 89

(٢) Honingmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

لحكم باسيل بعد أن سقط الأصفر في يد لؤلؤ حاكم حلب حيث اعتقلة بقلعة المدينة . (١)

بدأ ابن منقذ العمل بالاستيلاء على قلعة شيزر في سنة ١٠٧٨ م (٤٧٠ ﻫ) حين عمر الحصن الذى عرف بحصن الجسر غربى شيزر ، على تل مرتفع يقع على مقربة منها ، وبذلك غدا سديد الملك بن منقذ يشرف على القلعة ويحصرها ويمنع إمدادات الروم عنها . ويبدو أنه أدرك منذ البداية صعوبة الاستيلاء على قلعةشيزر وأن هذه العملية تحتاج منــــه لشيء كبير من الصبر من ناحية والدهاء من ناحية أخرى ، فلم يرغب فى أن يحكم السيف لى هذه العملية منذ البداية نظرا للحصانة الطبيعية للقلعة ومدافعه الروم عنها .

وكانت شيرر فى سنة ١٠٨١ م تابعة للامبراطور ألكسيوس كومنين بمقتضى اتفاقية عقدت بينه وبين أسقف البارة الذى اتخذ شيزر مقرا له (٢) . وكانت شيزر بهذه الصورة تمثل بقعة بيزنطية وسط أراضى وممتلكات إسلامية تحفظها حامية بيزنطية تأخذ أوامرها من الأسقف . (٣)

ويذكر المؤرخ أبو الفدا أن الوالى البيزنطى بشيزر حينئذ كان يدعى ديمترى ويشير إلى أنه استقى ذلك من كتاب تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن منقذ (٤) وليس من شك فى أن تبعية شيزر للامبراطورية البيزنطية واهتمام

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جا ص١٩٦

(٢) Honingmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٣) Grousset : Hist. dss Croisades. I. P. 126

(٤) ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ٣١

الأسقف بالدفاع عنها كان له ضلع فى جعل ابن منقذ يتريث ويلجأ الى أسلوب غير أسلوب الحرب .

ومن حسن الحظ أن المؤرخ سبط بن الجوزى حفظ لنا نص خطاب بعث به سديد الملك بن منقذ إلى بغداد بعد استيلائه على شيزر ، أماط فيه اللثام عن الأسلوب الذى اتبعه للاستيلاء على هذه القلعة. وقد أشار سبط بن الجوزى إلى أنه نقل نص هذا الخطاب مما كتبه محمد بن الصابى الذى نعلم جيداً أنه عاصر هذا الحدث ، وكان له شأن فى حياة بغداد الفكرية والعلمية بحكم وظيفته فى ديوان الرسائل فى بغداد . فهو غرس النعمة محمد بن هلال الصابى ، المتوفى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وهو ابن المؤرخ الذائع الصيت هلال الصابى ، الأمر الذى زاد اطمئناننا إلى هذا الخطاب ، فضلا عن أن المؤرخ ابن الوردى أورد نص الخطاب أيضا نقله فى أغلب الظن عن سبط بن الجوزى ومصادر أخرى .

وتدل لهجة الخطاب ومقدمته على أن سديد الملك كان فخوراً جداً بنجاحه فى الاستيلاء على شيزر [١] إذ يقول : « كتابى من حضرة شيزر حماها الله تعالى ، وقد رزقنى الله عز وجل من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم مالم يتأت لمخلوق فى هذا الزمان » وفى شرح الأسلوب الذى اتبعه سديد الملك تجاه هذا الحصن يقول : « انى نظرت إلى هذا الحصن فرأيت أمراً يذهل

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة جـ١٠ ص ٣٨
ابن الوردى : تاريخه جـ٢ ص٥٧

الألباب ويطيش العقول ، يسع ثلاثة آلاف رجل بالأهل والمال وليس فيه حيلة لمحتال فعمدت إلى تل قريب يعرف بتل الجسر فعمرته حصنا وجمعت فيه أهلي وعشيرتي ، وكان بين التـــل وشيزر حصن يعرف بالخراص (أو الجراص) فوثبت عليه وأخذته بالسيف » (١) .

على أن دهاء ابن منقذ وحسن حيلته يتجليان فيما لجأ اليه من أسلوب بعدئذ إذ يقول : « وحين ملكته (حصن الخراص) أحسنت إلى أهله ولم أكلفهم إلى ما يعجزون عنه وخلطت خنازيرهم بغنمي ونواقيسهم بأصوات المؤذنين عندي ، وصرنا مثل الأهل مختلطين . فحين رأى أهل شـــيزر فعلي مع الروم أنسوا بي وصاروا يحبونني » ، بل إنهم بدأوا يتسللوا من من شيزر إلى الحصن واحداً واحداً ، « إلى أن حصل عندي نحو نصفهم فأجريت عليهم الجرايات ومزجتهم بأهلي وحريمهم بحريمي وأولادهم مع أولادي » ، وغالى ابن منقذ في التظاهر في مصادقة أولئك الروم ، فكان يعاونهم ضد أعدائهم ، « ومن قصد حصنهم أعنتهم عليه ، وحضر شرف الدولة مسلم بن قريش فأخذ منهم عشرين رجلا فقتلهم فدسست اليهم عشرين عوضهم » . ولقد أثمرت هذه السياسة فعلا ، وجعلت أهل شيزر يأنسون بهذا الأمير العربي ويلمسون فيه الود والصفاء والإخلاص . فما أن انصرف شرف الدولة مسلم حتى نزلوا وعرضوا عليه تسليم الحصن فتظاهر في البداية بالرفض قائلا ، « ماهـذا الموضع خيرا منكم » ، لكنهم عادوا ضاربين عرض الحائط بواليهم وسلموا شيزر إلى ابن منقذ ، « ونزلوا منه وحصلت

---

(١) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

فيه ومعي سبعمائة رجل من بني عمي ورجالي وحصلوا في الربض ولم يؤخذ لواحد منهم درهم . (١) .

ولقد أحدث هذا العمل دويا هائلا وأثرا طيبا في المنطقة بأسرها ، حتى لقد مالت بعض الجاليات البيزنطية والأرمنية إلى التسليم لسديد الملك بن منقذ ، لما ذاع بينهم من تسامحه وحسن معاملته وكريم فعله ، إذ يقول : «سمع بذلك أهل برزيه وعينتاب وحصون الروم فجاءتني رسلهم ورغب كلهم في التسليم إلى » (٢) .

وعلى هذه الصورة ، وبذلك الأسلوب ، نجح سديد الملك بن منقذ في الاستحواذ على شيزر . ويبدو أنه اضطـــر إلى إرضاء الأسقف البيزنطي صاحب شيزر بمبلغ من المال إذ يشير المؤرخ ابن القلانسي إلى أن ابن منقذ استولى على حصن شيزر ، « من الأسقف الذي كان فيه بمال له وأرغبه فيه إلى أن حصل في يده وشرع في عمارته وتحصينه»(٣) . وكان ذلك في أواخر ديسمبر سنة ١٠٨١ (رجب سنة ٤٧٤ هـ) وسمح ابن منقذ للحامية البيزنطية بالرحيل عنها (٤) .

---

(١) سبط ابن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٩
ابن الوردي : تاريخه ج ٢ ص ٥٧

(٢) سبط ابن الجوزي : نفس المرجع ص٣٩

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ١١٣

(٤) Honingmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

ويضيف المؤرخ أبو الفدا إيضاحا لهـذا فينقل عن أسامة ، « فلما طالت المضايقة لدمترى المذكور ، راسل جدى هو ومن عنده من الروم في تسليم حصن شيزر إليه باقتراحات اقترحوها عليه» .ولابد وأن دفع مبلغ من المال للأسقف كان أحد هذه الشروط فضلا عن ، « بقاء أملاك الأسقف الذى بها عليه، فإنه استمر مقيما تحت يد جـدى حتى مات بشيزر ، (١) . ويؤكد ابن العديم هذه الرواية بقوله : « وكان سـديد الملك بن منقذ قد عمر قلعة الجسر ، وقصد مضايقة شيزر وبها أسقف البارة وضيق عليه إلى أن راسـله واشتراها منه واستحلفه على أشياء اشترطها عليه » (٢) ويذكر كل من صاحب درر التيجان وابن خلكان أن سديد الملك بن منقذ « تسلمها بالأمان » وذلك فى رجب سنة ٤٧٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٨١ م) . (٣)

نستنج من ذلك كله أن سديد الملك لجأ إلى أسلوب الدهـاء والحيلة حتى يضع يده على شيزر ، فاكتسب فى البداية ثقة المسيحيين من أهلها وأهـل الحصون القريبة وحسن ظنهم ، وتمادى في التظاهر بمصادقتهم والحرص على مصالحتهم حتى أنسوا به ، ووثقوا فى مقاصده ، ثم كان عليه أن يدفع مبلغا من المال للأسقف ويتعهد بأن يحفظ عليه أمواله وأملاكه ويسمح له بالاقامة فيها ، كما كان عليه أن يسمح برحيل الحامية البيزنطية منهـا بسلام ، ولاشك أنها كانت شروط فى متناول يده لم يتردد فى قبولها حتى يحصل على تلك القلعة

---

(١) أبو الفدا المختصر ج ٣ ص ٣١ ـ ٣٢

(٢) ابن العدم : زبدة ، ج ٢ ص ٧٦

(٣) درر التيجان ، ورقة ٣٢٦ (مخطوط) ، ابن خلـكان : وفيات ج ٣ ص ٧٦

الحصينة والمعقل المنيع ، ليضع بداية فصل جديد فى قصة الإمارة المنقذية فى حوض نهر العاص الأوسط .(١)

على أن نجاح ابن منقذ فى الاستيلاء على شيزر سنة ١٠٨١م لم يحظ برضاء الأمير العربى شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى الذى كان قد استولى على حلب منـــذ يونيو سنة ١٠٨١ م ، والذى كان يتطلع لتملك هذه القلعة بالذات ، فما أن علم بنجاح ابن منقذ فى ذلك حتى استبد به الغضب وأمر بإنفـــاذ جيش كبير لطرد ابن منقـــذ منها وإدخالها فى حوزة العقيليين (٢) .

وكان أن خرج جيش مسلم من حلب وعلى رأسه على بن قريش أخا مسلم ، قاصدا شيزر فاستولى فى طريقه على حصن أسفونا قرب معرة النعمان وغربى كفر طاب ، وكان تابعا إذ ذاك لابن مقذ ، ثم شرع فى مراسلة ابن منقذ للتنازل عن شيزر وتسليمها طواعية بدلا من تحكيم السيف ، إلا أن هذا رفض الإنذار ومضى يتأهب للحصار . . « فحمل من الجسر الى شيزر ما يكفى لمن فيه مدة طويلة من سائر الأشياء » ثم لم يلبث ابن قريش أن نزل على شيزر فى ذى الحجة سنة ٤٧٤ هـ (ابريل سنة ١٠٨٢ م) وألقى الحصار عليها فعلا . . ولحق به شرف الدولة مسلم نفسه فى أوائل عام

---

(١) Grousset : op. cit. I. P. 126

(٢) ابن العـــديم : زبدة جـ ٢ ص ٧٧ ،
سبط بن الجـوزى : مرآة جـ ١٠ ورقة ٣٩ ــ ٤٠

٤٧٥ هـ وقاما معا بتشديد الحصار على شيزر (١) .

وقد أثـار هذا العمل حفيظة ابن منقــذ الذى لاشك أحس أنه يجازى جزاءا أسيفا على قيامه باستخلاص تلك القلعة من الروم ، ولهذا استبدت به المعاندة فقال .. « لئن لم ينته عنى (مسلم) لأعيدنه إلى الروم (الحصن) ولا أسلمه اليه ولا إلى غيره أبدا » . . . غير أن شرف الدولة أدراك دون شك صعوبة اقتحام شـيزر ففضل ترك جانب من جيشه مقيما على الحصار للمضايقة ، وسار هو بالجانب الآخر إلى حمص وعندئذ .. « نطارح ابن منقذ عليه ، وسير ابنه أبا العساكر وامرأته منصورة بنت المطوع وأخته رفيعة بنت منقذ إلى حمص ، فدخلوا عليه وحملوا إليه مالا ، فأنفذ إلى عسكره ورحله عن شيزر فى الثامن والعشرين من صفر سنة ٤٧٥ هـ » (٢) ويذكر المؤرخ سبط بن الجوزى أن ابن منقذ دفع عشرة آلاف دينار لمسلم حتى يرفع الحصار عن شيزر (٣) .

وهكذا انتهت هذه النوبة من الأخطار التى واجهت الإمارة الناشئة فى

---

(١) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، وأيضا

Derenbourg : Vie d'Ousama. P. 592 - 3

(٢) ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص٧٧ . وقال فى ذلك أحد شعراء المعرة :

أمسلم لاسلمت من حادث الردى ... وزرت وزيرا ما شددت به ازرا

ربحت ولم تخسر بحرب بن منقذ ... من الله والناس المذمـة والوزرا

فمت كمدا فالجسر لست بجاسر ... عليه ، وعاين شيزرا ثم شزرا

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة جـ١٠ ورقة ٤٩ ــ ٥٠

شيزر برحيل مسلم عنها ، ثم بسحب فرقه بعد عقد الصلح مع أميرها ، ثم مالبث مسلم نفسه أن شغل بالفتن والحروب مع السلاجقة فى بلاد الشام ، فأعطى الإمارة شيئا من الارتياح والهدوء كانت فى مسيس الحاجة إليها ، لتقف على أقدامها وتمضى فى دعم استقلالها .

غير أن سديد الملك أبا الحسن عليا بن منقذ لم يعمر طويلا بعد هذه الأحداث ، لأنه توفى بعد عقد الصلح مع مسلم بعدة أشهر ، وذلك قرب منتصف عام ٤٧٥ هـ (أواخر سنة ١٠٨٢ م) وترك الحكم فى شيزر لابنه عز الدولة أبى المرهف نصر بن على (١) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات جـ٣ ص ٨٧
ويذكر المؤرخ أبو الفدا (المختصر جـ٣ ص ٣٢) أنه توفى فى المحرم سنة ٤٧٩ هـ وقد أخذ Hcningmann برواية ابن خلكان فى مقالته عن شيزر ، وكذلك أخذ بها زامباور فى (معجم الانساب والاسرات الحاكمة جـ١ ص ١٦٥) لكن من الثابت فعلا أن سديد الملك توفى فى سنة ٤٧٥ هـ كما حدد ابن خلكان ، لأن أسامة سئل مرة فى ذلك فقال أن جده توفى سنة ٤٧٥ هـ .
ياقوت : معجم الأدباء جـ٥ ص ٢٢١ ــ ٢٢٢

(ج) خلفاء سديد الملك أبو الحسن على بن منقذ

وسياستهم تجاه السلاجقة والصليبيين

(١) عز الدولة أبو المرهف نصر بن على بن منقذ

١٠٨٢ — ١٠٩٨ م

آلت شيزر إذن بعد وفاة سديد الملك إلى ابنه نصر سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) وكان هذا الأمير — كما وصفه المؤرخون وكتاب التراجم — رجل سلم وداعية سلام ، على الرغم من تشابك الأحداث فى عصره وتداخلها. كما كان رجل دولة أيضا ، وراعيا للعلوم ومحبا للفنون (١) . . . وكان كمعظم أمراء بنى منقذ ، شاعرا مجيدا تحدث عن شاعريته أسامة بن منقذ ، وعده كل من العماد الأصفهانى وياقوت من الشعراء المجيدين (٢) ، وكان فوق ذلك عطوفا رحيما قام بتربية إخوته أحسن قيام ، سمحا صواما قواما برا بوالديه (٣) .

(١) Honingmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

(٢) العماد الأصفهانى : الخريدة جـ١ ص٥٦٨ ، ياقوت : معجم جـ٥ ص٢٣٨ـ ٢٣٩

(٣) قال والده سديد الملك فى ذلك :

جزى الله نصرا خير ما جزيت به ... رجال تضوا فرض العلا ونفلوا
هو الولد البر العطوف فإن رمى ... به حادث فهو الحمام المعجل
وألقاك يوم الحشر أبيض ناصعا ... وأشكر عند الله ما كنت تفعل

العماد الأصفهانى : الخريدة جـ ١ ص ٥٧٠ ، وسبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٠٨ـ٢٠٩ ووصفه أسامه بالزهد والورع والتقوى : الاعتبار ص ٥٤

والواقع أن حظ هذا الأمير الجديد كان أفضل من حظ والده سديد الملك نظرا لانتقال مركز الثقل إلي عواصم أخرى فى بلاد الشام ، وقوى جديدة أصبح الصراع بينها يخفف الضغط على الإمارات العربية الصغيرة . فلم تكن إمارتي بنى عمار وبنى منقذ فى طرابلس وشيزر الشغل الشاغل لتلك القوى حينئذ ، ولم تكن هدفا حيـــا لها قبل أن تصفى تلك القوى نفسها ووجودها فى المنطقة وتبقي على الأصلح منها .

ففى السنوات الأولى لحكم أمير شيزر الجديد ، كانت هناك ثلاث قوى كبيرة فى بلاد الشام . أولها قوة العرب تحت حكم شرف الدولة مسلم العقيلى أمير الموصل الذى استطاع أن يفرض وجوده فى شمال الشام باستيلائه على حلب سنة ١٠٨٠ م (٤٧٣ هـ) بل ويطمع فى مـــد نفوذه على بلاد الشام بأسرها (١) وثانيها قـوة سلاجقة الشام ممثـلة فى تاج الدولة تتش الذى استطاع الاستيلاء على دمشق سنة ١٠٧٨ م (٤٧١ هـ) وأخذ يجتاح ما حوله مؤملا أن يقوض ما بقي من النفوذ الفاطمى ، ويصفى نفوذ القوى العربية الأخرى فى بلاد الشام (٢) . ثم استحدثت قوة ثالثة على شمال الشام ممثلة فى سلاجقة الروم تحت زعامـة سليمان بن قتلمش الذى نجـح فى الاستيلاء على أنطاكية من الأرمن (٣) . بـل وراح يتـأهب لجولات أخـرى فى بـلاد الشام .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١٣٢

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٢

(٣) Grousset : L' Empire du Levant. P. 179 - 180

وقد تشابك الصراع بين القوى الثلاث ، فحاول شرف الدولة مسلم الاستيلاء على دمشق من يد تتش مؤملا فى معونة فاطمية ، فلما تكاسل الفاطميون عن معونتـه اضطر مسلم إلى الانسحاب من أمام دمشق بعد أن كادت تلحق به الهزيمة ، وذلك فى أوائل عام ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) . ويبدو أن هذا الصراع قد شجع أمير شيزر الجديد على محاولة الاستفادة منه بعد نفوذه إلى أبعد مما معه فهاجم بعض أملاك مسلم القريبة منه . اذ يحدثنا المؤرخ ابن العديم أن ابن منقذ قام بصحبة بعض أمراء الشام من العرب منهم وثاب بن محمود ومنصور بن كامل وخلف بن ملاعب بالهجوم على معرة النعمان . «وقطعوا كثيرا من أشجارها ورعوا زرعها بالظعون وقاتلوها أياماً ولم يمكنهم أهلها من فتحها » (١) .

واتخذ تشابك الصراع بين القوى فى بلاد الشام مظهرا جديدا حين زج سليمان بن قتلمش بنفسه فى الأحـداث حينئذ بعد استيلائه على أنطاكية ، وغـدا تصادمه بشرف الدولة مسلم ، أمرا مسلما به نظـرا لطموح كل منهما لفرض وجوده فى المنطقة والهيمنة على مقدراتها . ومالبثت الحرب أن اندلعت بينهما فعـلا لأسباب واهية تأكيـدا لعملية التصفية الجارية للقوى الإسلامية المستحدثة فى هذه المنطقة ، ولقد دارت الدائرة حينئذ على شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي وقتل فى الموقعة التى كان مسرحها المنطقة بين

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص ٨٠

أنطاكية وحلب (١) فانزاحت قوة عربيـة كبيرة من أمام السلاجقة فى شمال الشام .

ولم يكتف سليمان بذلك ، بل انساب ليستولى على أملاك مسلم فى شمال الشام فسرعان ماوضع يده على معرة النعمان وكفر طاب ،وهناك بدأ يتحرش بإمارة شيزر العربية ، وبدأ بالهجوم عليها فعلا لولا أن أسرع أميرها نصر بن منقذ بمصالحته « على مال يحمل إليه » . (٢)

غدا الصدام واقعا بعد ذلك لامحالة بين القوتين السلجوقيتين فى بلاد الشام وهما سلاجقة الروم بقيادة سليمان وسلاجقة الشام تحت قيادة تتش ، فلم يكد سليمان ينهى جـــولته فى الضواحى القريبة من حلب حتى طمع فى الاستيلاء على حلب ذاتها ، وألقى الحصار عليها فعلا سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧م) مما دفع شريفها الحتيتى إلى الاستنجاد بتاج الدولة تتش ، فلما قـدم هذا فى جيوشه والتقى بجيوش سليمان ، استطاع أن ينزل به الهزيمـة بل ويقتل سليمان نفسه فى المعركة قرب حلب . (٣) وبذا زالت قوة ثانية من شمال الشام هى قوة سلاجقة الروم ، وصفت المنطقة لتاج الدولة تتش أى لسلاجقة الشام، ومن هنا نستطيع القول أن إمارة شيزر العـربية بدأت ترى قـوة سلجوقية واحدة

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ١٣٧ .

Kay : Hist. of the Banu Okayl. P. 498
J.R.A.S. (1886)

(٢) ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص ٩٥

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٩

بقربها كان عليها أن تتعامل معها وتكيف سياستها تجاهها بما يضمن لها البقاء والاستمرار ويحفظ عليها استقلالها وكيانها .

على أن هذه الأحداث لم تمر دون فائدة لأمير شيزر العربي ، إذ انتهز فرصة اندلاع الحرب وانشغال السلاجقة بها ، فقام باسترداد كفر طاب التي استولى عليها سليمان من قبل وأعادها إلى حظيرة ملكه .

لكن انتصار تتش في الحرب ودخوله حلب بما جعل له اليد العليا في بلاد الشام أثار مخاوف السلطان ملكشاه وخشي أن يتمكن من إقامة دولة سلجوقية كبيرة في هذه البلاد يهدد بها أملاكه ونفوذه في المنطقة ، فآثر ملكشاه القدوم بنفسه إلى بلاد الشام ليضع حدا لنفوذ تتش ويشرف على توزيع إقطاعاتها لرجاله الأوفياء .

ولم يكد ملكشاه يصل إلى بلاد الشام ويقوم بوضع رجاله في أهم قصباته وحواضره حتى أعلن الأمير نصر بن علي بن منقذ طاعته للسلطان السلجوقي وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب [1] . فقبل ملكشاه طاعته وأقره على هذه المدن ، وأبقاه عليها [2] . وهكذا اختار أمير شيزر الدخول في طاعة هذه السلطنة والإقرار بتبعيته لها ، وليس من شك في أن ذلك كفل له السلامة إلى حد بعيد بسيره في ركاب هذه القوة الفتية الجديدة ، بل يذكر

---

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، جـ١ ق ١ ص ٦١ ،
ابو الفدا : المختصر جـ٢ ص ١٩٨

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة ، جـ١٠ ص١٩٨ .

أسامة بن منقذ فى كتاب العصا أن نصر قام بإرسال أخاه مجد الدين أبى سلامة مرشد(والد أسامة) إلى بلاط السلطان ملكشاه فى أصفهان لخدمته (٣) ، فدلل بذلك على طاعته وتبعيته للسلطنة السلجوقية .

وقد استمر الوضع على ذلك نحو عامين جرت فيها الأمور هادئة فى بلاد الشام بعد التنظيمات التى استحدثها السلطان ملكشاه وحيلولته دون استفحال خطر تتش وكبح جماح رغباته فى ابتلاع المنطقة بأسرها ، حتى طالعتنا المراجع بأخبار اندلاع الحرب بين أمير شيزر وبين قسيم الدولة آقسنقر نائب السلطنة السلجوقية بحلب سنة ٤٨١ ﻫ (١٠٨٨ م) . فيذكر كل من ابن القلانسى وابن الأثير وسبط بن الجوزى أن آقسنقر قام فى رجب من تلك السنة بإلقاء الحصار على شيزر ، « وضيق عليها ونهب ربضها ، ولم ينسحب من أمامها إلا بعد أن صالحه نصر بن منقذ وقدم إليه مبلغاً من المال فرحل عنه عائداً إلى حلب (٢) ، ولم يضف أى من هؤلاء المؤرخين أى تفسير لهذه الغارة أو أسباب قيام هذه الحرب ، وحتى المؤرخ ابن العديم لم يعطنا هو الآخر تفسيرا شافيا لقيام هذه الحرب ، بل أرجعها لحدوث نزاع بين ابن منقذ وأهل لطمين (٣) — «وجرى حلف بين أهل لطمين وبين نصر بن منقذ فى سنة

---

(١) Derenbourg : Extraits du Livre du Baton par Osama P. 504

وأسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٤٩

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٩ — ١٢٠ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٨ (٤٨١ ﻫ)

سبط بن الجوزى : مرآة جـ ١٠ ص ١١٧

(٣) ياقوت : معجم جـ ٤ ص ٣٥٨ ولطمين كورة بحمص وبها حصن

إحدى وثمانين فخرج آقسنقر إلى شيزر وقاتلها وقتل من أهلها مائة وثلاثين رجلا وعاد إلى حلب بعد أن نهب ربضها واستقرت الموادعة بينه وبين نصر صاحب شيزر، لكن يبدو أن ثمة فتنة كانت قد حدثت فى تلك القرية التابعة لابن منقذ فحاول إخمادها بالقوة مما دفع أهلها للاستنجاد بنائب حلب فحدث الاحتكاك بين الاثنين. على أن مودة ابن منقذ إلى مصالحة آقسنقر بعدئذ وموادعته أنهت هذه الحركة ولم تتسع الهوة بين الاثنين كثيرا، بدليل قيام آقسنقر بعدئذ بالاستيلاء على أفامية من يد خلف بن ملاعب الكلابى، حيث سلمها لنصر بن منقذ [١].

غير أن الأوضاع التى أسفر عنها قدوم ملكشاه إلى بلاد الشام، وتوزيع مدنها على رجاله المقربين، وحصر تتش فى دمشق وبيت المقدس، هـــذه الأوضاع لم ترض تتش بطبيعة الحـــال، فلم يستسلم كلية لهذه التعديلات، وذهب به ضيقه وضجره إلى السفر إلى بغداد لمقابلة ملكشاه فى سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) حيث طلب السماح له بالتوسع على حساب الفاطميين وبقـــايا الأسر العربية فى بلاد الشام، بل وغزو مصر، إن أمكن، وانتزاعها من يد العلويين [٢]، فلم ير ملكشاه بأسا من ذلك، فأذن له بالتوسع وأمـــر أتباعه قسيم الدولة آقسنقر وبوزان أن يسيرا فى خدمته وأن . . يطيعـــاه على هذا الغرض، [٣].

---

(١) ابن العديم: زبدة حـ ٢ ص ١٠٥

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ص ٨ ص ١٦٠ (٤٨٥ هـ)

(٣) عماد الدين الاصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٥ ـــ ٦٦

وكانت ثمرة هذا التعاون أن استولى تتش بمساعدة آقسنقر وبوزان على مدينة حمص عام ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) من يد خلف بن ملاعب الذى أساء السيرة فيها ، فانتزعها منه تتش ثم هاجم بعد ذلك مدينة عرقة التابعة لبنى عمار فامتلكها عنوة ، وكان نصيب بنى منقذ من هذه الغارة فقدهم لأفامية التى استولى عليها تتش قبل أن يلقى الحصار على طرابلس (١) .

لكن مالبثت أن قطعت هذه الأحداث حين أتت الأخبار تترى بوفاة ملكشاه ، وعندئذ تجسدت كل مطامع تتش وارتقت همته للفوز بالسلطنة ذاتها ، وهو أكبر أمراء السلاجقة وأقوى رجل فى الأسرة ، وحينما زحف إلى المشرق للوصول إلى العرش واصطدم بابن أخيه بركياروق بالرى ، انهدمت كل خططه وضاعت آماله ، بل إنه دفع حياته ثمنا لهذا الطموح ، وانجلت الأمور هناك فى المشرق عن استمرار ابن أخيه بركياروق سلطانا أعظم للسلاجقة . وفى بلاد الشام عن اقتسام أملاك تتش بين ولديه رضوان ودقاق ، ففاز الأول بحلب وتوابعها ، بينما نجح الثانى فى الاستحواذ على دمشق (٢) . وهكذا زال كابوس مخيف من مسرح الأحداث فى بلاد الشام ، فتنفست الإمارات العربية فى طرابلس وشيزر الصعداء .

لم يعد هناك ثمة أخطار عاجلة تهدد إمارة بنى منقذ من قبل هذين الأميرين السلجوقيين ، لكن نصر أمير شيزر المنقذى لم يظهر ارتياحا لوجود جناح

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ١٢٢

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١٣٠

الدولة الحسين الأمير العربي في حمص القريبة منه . وكان جناح الدولة أتابكا لرضوان أمير حلب ، لكنه خرج مغاضبا إياه حيث نجح في الاستيلاء على حمص وأقام لنفسه بها إمارة صغيرة مستقلة (١) . وعلى الرغم من أن هذا النفور من جناح الدولة لانجد مايبرره ، فإن أسامة قد أشار إليه بل تحدث عن استياء عام تجاه هذا الأمير أبداه كل من عمه أبو المرهف نصر وياغي سيان أمير أنطاكية ورضوان — بطبيعة الحال — الأمر الذى جعل ثلاثتهم يفكرون في تدبير هجوم شامل على حمص ويضعون خطة لذلك ، لولا تلاحق الأحداث وسرعتها ووصول الجيش الصليبى ، فضلا عن تغير الظروف فى شيزر ذاتها.

— والواقع أن الغزو الصليبى لبلاد الشام فى سنة ١٠٩٧ م قد أنهى فصلا غريبا فى قصة العلاقات بين القوى الإسلامية فى تلك البلاد ، كما جاء بخاصة نتيجة حتمية لما ساد بين تلك القوى من علاقات سيئة ونفور مستحكم ، على أن مايهمنا الآن من ذلك كله أن الشهور التى أمضاها الصليبيون في حصار مدينة أنطاكية بين أكتوبر سنة ١٠٩٧ م ويونيو سنة ١٩٠٨ م (٢) كانت بالغة الأهميه بالنسبة لتكييف سياسه شيزر تجاه أولئك الغزاة على لرغم من أنها كانت الشهور الباقية فى عمر أميرها أبو المرهف نصر بن على ، فلقد اهتم نصر خلالها برسم ملامح السياسة التى يتبعها مع الصليبيين ، ووضع الخطوط العريضة لتعامله معهم ، وهى سياسة — كما سيتضح — قامت على

---

(١) Grousset : Hist. des Croisades. I.P.71 (N.2)

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٣٤٢ ،

Gesta Francorum. P. 48

أساس تجنب المخاطر وتحاشي الصدام وابتغاء العافية ، وهى نفس سياسته مع السلاجقة بما يميزها من لباقة وكياسة ومرونة .

كانت أولى ردود الفعل الباهتة لدى القوى الإسلامية فى بلاد الشام تجاه حصار الصليبيين لأنطاكية واستنجاد ياغى سيان ، أن حدث تجمع إسلامى تحت قيادة دقاق بن تتش ملك دمشق الذى خرج وبصحبته طغتكين وجناح الدولة أمير حمص وأمير حماه ومعهم شمس الدولة بن ياغى سيان فى طريقهم لنجدة أنطاكية ، فاجتمعت هذه القوات بأرض شيزر قبل أن تشرع فى مهاجمة الصليبيين (١) . ويبدو أن دقاق —زعيم الحلف— كان يطمع حينئذ فى أن يشترك نصر بن منقذ معهم فى الهجوم على الصليبيين ، لكن نصرا غض الطرف عن هذه الرغبة ، ولم يبد أى استعداد للمشاركة فى القتال ، وفى نفس الوقت جاءت الأخبار بخروج سرية كبيرة من الفرنج تبغى الإغارة على أعمال حلب طلبا للمؤن ، وعندئذ سارعت القوات الإسلامية المجتمعة بالزحف للاشتباك مع تلك السرية غير عابئة باشتراك أمير شيزر وانضمامه إلى صفوفهم ، والتقت القوات الإسلامية المتحالفة بالفرنج فى أرض البارة قرب حلب فى نهاية ديسمبر سنة ١٠٩٧م، واستطاع المسلمون إلحاق بعض الخسائر بالقوات الفرنجية التى سارعت بالانسحاب إلى الروج ثم إلى أنطاكية (٢) .

لكن الشىء الذى أسفرت عنه هذه الأحداث ، هو تأكيد لإيثار بن منقذ العافية

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٣٤

(٢) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ١٣١ — ١٣٢ ،

Gesta Francorum. P. 37

وعدم رغبته في الانقياد إلى حرب لا تحمد عاقبتها ولا تعرف نتائجها، ورفضه الخروج من إمارته ليدلي بدلوه في هذه الحرب ويأخذ دوره فيها ، تأكيدا لما سبق ذكره من أن تلك السياسة هي أبرز ما استنه نصر الامارة تجاه الصليبيين، ذلك أن نصرا لم يعمر طويلا بعد هذه الحادثة ، إذ توفى بعد عدة أشهر وبعد دخول الصليبيين إلى أنطاكية بقليل (٢) ، وبعد أن حكم شيزر نحـــو خمسة عشر عاما .

وهكذا انتهى عهد أبي المرهف نصر بن منقذ سنة ١٠٩٨ م (٤٩١هـ) وهو الذى يعد ثانى أمراء بنى منقذ فى شيزر ، وثالث أمرائهم منذ قيامهم في كفر طاب سنة ١٠٤١ م . والواقع أنه استطاع خلال فترة حكمه أن يحفظ استقلال شيزر ، مستفيدا من تصارع القـــوى الإسلامية في المنطقة ، كما استطاع أن يكيف سياسته تجاه تلك القوى بما يدارأ عنه خطرها ، ثم كان التزامه بتجنب الصدام مع الصليبيين وعدم إعلان الحرب عليهم حين وصلوا إلى أنطاكية قبل وفاته بعدة أشهر ، فاستن بذلك سنـة جديـدة لخليفته ، ورسم أبرز خطوط السياسة الخارجية للامارة ، ثم إنـه استطاع أيضـا بلباقتـه وكياسته ودأبه ومثابرته أن يوسـع حـــدود ملكه ويزيد في رقعة الإمارة بالاستيلاء على اللاذقية التى وضع بها أخاه أبا العساكر سلطان نائبا عنه فيها (١) فغدت إمارة شيرز تضم إلى جانب شيزر كل من كفـر طاب واللاذقية وفامية حتى سنـة

---

(١) Honingmann: Encyc. Isl. art. «Shaizmar»
Grousset : Hist. des Croisades. I. P. 126 (N.I.)

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص١٠٨

١٠٩٢ م حين استولى عليها تتش ، فضلا عن كثير من القرى والقلاع والحصون الداخلة فى نطاق هذه المدن ، ولعل أهمها حصن الطمين قرب حمص وحصن أسفونا بقرب معرة النعمان ، وحصن أبو قبيس فى قبالة شيزر ثم حصن مصياف حتى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) قبل أن يؤول إلى الحشيشة (٢) وهذه هى إمارة شيزر فى أوج اتساعها . ويبدو أن نصر حرص منذ البداية على الاستيلاء على الحصون القريبة من شيزر ليؤمن سلامتها ويشرف منها على القوى المجاورة ويحمى ظهر شيزر ذاتها ، ولعل أحداث العصر وتصارع القوى الإسلامية قد أملت عليه هذه السياسة :

وبهذه الإنجازات احتل نصر مكانة ممتازة بين أمراء تلك الإمارة العربية فبفضل جهوده نجحت الإمارة فى الإفلات من مخططات القوى الاسلامية المتصارعة ، من شرف الدولة مسلم إلى سليمان بن قتلمش إلى تتش إلى ملكشاه وبفضل كياسته أيضا تجنبت مخاطر الصدام مع قوى الصليبيين الغازية ، وبفضل مثابرته أيضا بلغت الإمارة أوج اتساعها ودعمت استقلالها عازفة عن كافة القوى غير منحازة أو خاضعه لأى منها .

---

(٢) ياقوت : معجم جـ٤ ص ٣٥٨ ، جـ١ ص ٢٤٩ ، ١٠٣
أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ص ١٥ ،
ابن الوردى : تاريخه جـ٢ ص ٤٤

(٢) عز الدين أبو العساكر سلطان بن على بن منقذ
(١٠٩٨ — ١١٥٤ م)

حرص نصر وهو على فراش الموت أن يختار ولى عهده ويعين الأمير الجديد فى الحكم لأنه لم يعقب ، فاختار أخاه الذى يصغره مباشرة ويدعى مجد الدين أبى سلامة مرشد (١٠٦٨ — ١١٣٧م) — والد أسامة — الذى كانت له مشاركة فعالة فى شئون شيزر فى حياة أخيه ، كما ردد ابنه أسامه كثيرا فى كتاب الاعتبار [١] لكن مرشدا رفض قبول الإمارة بسبب شغفه بالصيد ونسخ القرآن الكريم ، وهما الهوايتان اللتان شغلتا جانبا كبيرا من وقته وجهده ففضلها على الاشتغال بالسياسة وصخب الحكم ، وتنازل عن الإمارة لأخيه الأصغر عز الدين أبى العساكر سلطان قائلا ، « والله لا وليتها ، ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها [٢] » . وهكذا دلفت الإمارة إلى سلطان الذى يأتى ترتيبه الثالث بين أمراء بنى منقذ فى شيزر والرابع منذ إقامة إمارتهم فى كفر طاب .

وقد ولد سلطان بطرابلس سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) وعنى والده سديد الملك وأخوه نصر بتربيته وتعليمه وتثقيفه ، فيذكر أنه سمع صحيح البخارى بشيزر من الفقيه إبراهيم الحنفى ، كما درس اللغة والأدب وكان كمعظم بنى منقذ شاعرا مرهفا وناظما مجيدا [٣] .

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٥٣

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٣ — ٥٤

(٣) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ٦ ١٨٧

ويعد عهد سلطان أطول عهود أمراء بنى منقذ فى شيزر ، فقد امتد نحـو نصف قرن من الزمان شهدت خلاله الإمارة أحداثا خطيرة من قبل الصليبين والبيزنطيين والحشاشين ، فقـد تعرضت لهجوم الفرنج مـرارا كما قصدهـا الامبراطور البيزنطى حنـــا كومنين سـنة ١١٣٨ م وحاصرها حصارا مريرا ، كما تعرضت لفتن فرقة الاسماعيلية الحشيشية (١) . لكن سلطان نجح فى حفظ إمارته وحمايتها من الضياع فى زحمة أحداث العصـر ، وأعطاها شيئا كثيرا من الاستقرار بفضل كياسته ولباقته وجهوده الدائبة وحسن سياسته

وتشير كثير من الدلائل إلى أنه نجح فى منح الإمارة عهدا من الاستقرار الاقتصادى والرخاء المادى الذى كان يسترعى انتباه القادمين إليها حينئذ. فقد روى أسامة أن عمه سلطان استقبل فارسا صليبيا كان فى طريقه إلى بيت المقدس موفدا فى مهمة سرية من لدن أمير أنطاكية ، فقال ذلك الفارس للأمير سلطان ، « قد نفذنى صاحبى فى شغل وسر له ، لكنى رأيتك رجلا عاقلا فأنا أحدثك به » فقال له عمى : « من أين عرفت أنى عاقل وماأتيتنى قبـــل الساعة ؟ » فقال « لأنى رأيت البلاد التى مشيت فيها خربة وبلدك عامر ، فعرفت أنك ما عمرته إلا بعقلك وسياستك وحدثه بما جاء فيه » . (٢) والواقع أن عهد سلطان كان عهد رخاء وازدهار فى حياة شيزر برغم تصارع القوى المختلفـة على بلاد الشام وتكاثر الطامعين فى شيزر ذاتها .

فلم يكد سلطان يلى شئون الحكم حتى أخـذ الصليبيون يدقـون أبواب

---

(١) أسامة : كتاب الاعتبار ص ٧٧ ، ١١٦ – ١١٧ ، ١٦٢

(٢) المرجع السابق ص ٨٧

الإمارة بعد نجاحهم فى الاستيلاء على أنطاكية وهزيمة القوات الإسلامية عندها، فتقدموا صوب الجنوب واستولوا على البارة ومعرة النعمان فى أواخر سنة ١٠٩٨م أى بعد ولاية سلطان فى شيزر بعدة أشهر، ثم وصلوا إلى كفرطاب فى أوائل عام ١٠٩٩م وتجمعت عندها فرق ريمون دى سانت جيل وروبرت النورماندى وتنكرد، وعلى الرغم من انهدام معظم الوحدات السياسية الصغيرة على يد الفرنج ومسارعة بقايا الأسر العربية بالهرب، خاصة من معرة النعمان للاحتماء بشيزر بعد المذابح البشرية الرهيبة التى تعرض لها سكان تلك المدينة، على الرغم من كل ذلك، صمد أبو العساكر سلطان فى شيزر ورفض قبول نصائح تلك الأسر العربية بالاستسلام للفرنج لعدم جدوى المقاومة، (١) وقام بإنفاذ رسولين إلى القائد الصليبى ريمونه بمفاوضته لتوقيع الصلح مبديا استعداده لتقديم المعونة للصليبيين وإرسال أدلاء معهم لإرشادهم لعبور نهر العاصى عبر المخاضة، وتقديم كافة الإرشادات لهم فى اجتيازهم الإقليم نظير عدم تعرضهم لإمارته بسوء. (٢).

وقد حفظت لنا المصنفات المعاصرة مضمون رسالة أمير شيزر أبو العساكر سلطان إلى الكونت ريمونه، ومنها يتضح أن سلطان آثر العافية فعلا مع هذا القائد وحاول تجنب الصدام مع الجيش الغازى، على الرغم من أن المصادر الصليبية قد بالغت كثيرا فيما أبداه سلطان من تعاون مع الصليبيين، إذ وعدهم بإرشادهم

---

(١) Grousset : Hist. des Crois. I. 126

(٢) Gesta Erancorum. P. 78

حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٧٤

إلى أقرب وأخصب الأودية وأوفر المراعى لقطعانهم وأنسب الأماكن وأكثرها إغراءا للسلب والنهب ، ومن ناحية أخرى عرض مشاركتهم فى منتجات إقليمه ومدهم بكل ما يحتاجون اليه من مؤن وزاد ، وأبدي احترامه الكامل للحجاج وحرص على موادعتهم ، وقدم كثيرا من الهدايا والأموال لريموند . (١)

وليس من شك فى أن ثمة تفسيرات جامحة نلمسها فى تلك المصادر للأسلوب المرن الذى آثر سلطان اتباعه مع الجيش الغازى الذى لاشك لم يكن لسلطان قبل به ، وليس له مقدرة على التصدى له ، بعد أن فلت قـــوة المسلمين فى الشمال ، ولم يعد ثمة آمال فى وقف زحف الصليبيين نحو الجنوب ، ولقد استطاع سلطان بهذا الأسلوب أن يتجنب هجوم الصليبيين فعلا إذا نسابوا عبر أراضى إمارته إلى إقليم طرابلس ولم يتعرضوا لشيزر بسوء ولم يهتموا بجرها للحرب بعد أن دفعت ثمن السلام .

نجت إمارة شيزر إذن من أخطار الزحف الصليبي ، واستطاعت أن تمتص اندفاع الصليبيين وأن تخرج من هذه الأحـداث دون خسائر تذكر ، ماضية فى تكريس وجودها ودعم استقلالها تحت حكم أبى العساكر سلطان بن منقذ. لكن الاستقرار الصليبي فى بلاد الشام جاء نكبة على إمارة شيزر. لأنها فقدت بسببه معظم توابعها وتقلصت أملاكها كثيرا وغدت أشبه بدائرة صغيرة لا تضم سوى شيزر وضواحيها القـريبة . فقد فقدت فى بداية الغزو الصليبي مدينة

---

(١) Gesta Francorum. P. 78
Grousset : op. cit. I. P. 127

اللاذقية التى دلفت إلى يد ريموند ثم إلى البيزنطيين فى النهاية ،ثم فقدت حصن أسفونا وحصن لطمين اللذين استولى عليها الفرنج ، كما فقدت كفر طاب ومن قبلها أفامية التى استولى عليها ابن ملاعب ثم خضعت مؤخرا لتنكرد صاحب أنطاكية . وهكذا جرى التضييق على شيزر كثيرا بل أنها تعرضت لهجوم جيش أنطاكية وجيش طرابلس بعد ذلك مرارا — كما سيلى — ولم تنج من الخطر إلا بشق الأنفس ، وبفضل تعهدها بالاستمرار فى دفع رسوم التبعية (١) .

وعلى هذا فيمكن القول أن أبا العساكر سلطان قد بدأ عهده فى شيزر بالتعامل مع الجيش الصليبى الزاحف جنوبا ، ولم يهدأ له روع أو يطمئن له خاطر إلا بعد أن اجتاز الصليبيون أراضي إمارته وابتعدوا عن ممتلكاته ، وعندئذ أخذ يمضي فى مشروعاته وفى تسيير دفة الحكم فى إمارته .

---

(١) أسامة : كتاب الاعتبار ص ١٢٠ — ١٢١

سلطان وعلاقته بالأمراء المجاورين

كانت بلاد الشام منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى قد تجزأت وتفرق أهلها شيعا وأحزابا ، وسادت نزعة انفصالية شديدة ، وفوضى ضاربة فى أرجائها ولعل خريطة المنطقة إذ ذاك تؤكد هذه الحقيقة . فلقد آلت حلب إلى رضوان بن تتش (١٠٩٥ — ١١١٣ م) ومن بعده أبناؤه حتى دانت إلى الأراتقة فى سنة ١١١٨م ثم إلى زنكى فى سنة ١١٢٨ م . كما دخلت دمشق فى حوزة دقاق بن تتش (١٠٩٥ — ١١٠٤ م) ثم إلى ظغتكين والبوريين حتى سنة ١١٥٤ م ، حين استولى عليها نور الدين محمود بن زنكى ، وقام فى أفامية خلف بن ملاعب الكلابى بعد طرده من حمص على يد السلاجقة (١٠٩١ — ١١٠٦ م) قبل أن يستولى الفرنج على أفامية (١) ، وفاز جناح الدولة الحسين أتابك الملك رضوان وزوج أمه والذى ينتسب إلى بنى كلاب أيضا بمدينة حمص ليكون بها إمارة صغيرة مستقلة (١٠٩٧ — ١١٠٣م) حتى قتله الباطنية سنة ١١٠٣ م ومن بعده برز فى حمص أحد الأمراء ممن خدموا السلاجقة ويدعى خيرخان بن قراجا ، أما حماه فكانت فى يد أميرها على الكردى الذى شارك فى الأحداث فى مطالع القرن الثانى عشر (٢) ثم

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٤٩ — ١٥٠

(٢) ابن العديم زبدة ، جـ٢ ص ١٧٤

Grousset : op. cit. I. P. 459

آلت إلى طغتكين أتابك دمشق قبل أن تستولى عليها جيوش السلطان محمد السلجوقى بقيادة برسق سنة ١١١٥ م وتسلمها لخيرخان بن قراجا ثمنا لإخلاصه للسلطنة ومشاركته فى حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين (١) فقام خيرخان بضمها إلى إمارته فى حمص ووضع عليها أخاه شهاب الدين محمود بن قراجا(٢)

كما ظلت طرابلس فى يد فخر الملك بن عمار حتى سنة ١١٠٩ م حين استولى عليها الصليبيون . وهكذا كانت إمارة شيزر فى عهد أبى العساكر سلطان محاطة بمجموعة من الأمراء العرب والتركمان والسلاجقة تفاوت عداؤهم وحسن جوارهم تجاه هذه الإمارة العربية .

وتشير كثير من الدلائل إلى أن العلاقات الطيبة قد ربطت إمارة بنى منقذ فى شيزر بكل من رضوان ملك حلب السلجوقى وفخر الملك بن عمار ، أمير طرابلس ، ودقاق بن تتش أمير دمشق . إذ تحدث أسامة بن منقذ عن قيام الاتصال بين عمه سلطان وبين رضوان فى حلب وكانت المراسلات بينهما متبادلة ، وروح الود والصفاء تميز العلاقات بين الأميرين (٣) ، كما أن العلاقات بين بنى منقذ وبنى عمار معروفة منذ عهد سديد الملك بن منقذ وجلال الملك بن عمار ، وظلت روح الود تميز العلاقات على عهد سلطان بن منقذ وفخر الملك بن عمار . ويذكر المؤرخ ابن القلانسى أن فخر الملك وصل إلى شيزر سنة ١١٠٩

---

(١) : ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٧٤

(٢) نفس المرجع جـ٨ ص ٢٦٩ (سنة ٥٠٨) ويقول أسامة أن ابن قراجا ينتسب إلى الاكراد . كتاب الاعتبار ص ٤٧

(٣) أسامة : الاعتبار ص ٥٣

بعد ضياع إمارته وطـــرده من جبلة فاستقبله سلطان بن منقذ ، « واحترمه وجماعته وعرض عليه المقام عنده »(١) وكذلك تشير الدلائل إلى عدم وجود أية مصاعب فى العلاقات بين شيزر ودمشق أوقيام فتن بينهما أوحدوث نزاعات بين أميريهما ، إذ حرص دقاق فى دمشق على عدم إثارة المتاعب مع الإمارات الأخرى ، فسادت روح الود والصفاء بين الإمارتين ، ولما آلت دمشق إلى طغتكين بعد وفاة دقاق (١١٠٤ — ١١٢٨ م) سارت العلاقات بين دمشق وشيزر على عهده فى نفس الاتجاه السابق ، وكذلك على عهـــد ابنه بورى (١١٢٨ — ١١٣٢ م) . لكن العلاقة ساءت على عهد اسماعيل بن بورى (١١٣٢ — ١١٣٥ م) الذى انتابته نوبة حماسة طاغية فافتتح عهده بالاستيلاء على بانياس التابعة للفرنج فى نوفمبر سنة ١١٣٢ م (صفر سنة ٥٢٧ هـ) واسترد حماه من أتباع عماد الدين زنكى فى العام التالى ، كما استولى على بعض الحصون التابعة لأخيه محمد أمير بعلبك فوصل بذلك إلى حوض نهر العاصى ، فتحرش بإمارة شيزر وحاول الاستيلاء على شيزر ذاتها ، لولا أن سارع أبو العساكر سلطان بتقديم مبلغ من المال له للانصراف عن المدينة ، فرحل عنها بصعوبة بالغة(٢) ، وفيما عدا ذلك لم يحـــدث احتكاك بين دمشق وشيزر على عهد بقية البوريين .

هذا فيما يختص بعلاقة شيزر بكل من حلب وطرابلس ودمشق وهى علاقات كان طابعها العام الصفاء وحسن الجوار . أما فيما يتعلق بالعلاقات بين شيزر

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦٤ — ١٦٥

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٣٤٠ — ٣٤١ (سنة ٥٢٧ هـ)

في عهد سلطان وكل من أمير أفامية خلف بن ملاعب ووالي حماه محمود بن قراجا ، فلقد اختلفت عن ذلك وشابها شيء من التنافر بل ميزتها الحروب السافرة أحيانا ، إذ يتحدث أسامة أحاديث متفرقة تشير إلى قيام النزاع المتصل بين شيزر وهاتين الإمارتين واندلاع الحروب معها .

ففي شوال سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) جرت حرب بين بني منقذ وخلف بن ملاعب بأرض كفر طاب أبلى فيها مرشد بن منقذ — والد أسامة — بلاء حسنا كما اشترك فيها سلطان نفسه ، وكاد يقتل في تلك الحرب الضروس لولا أن سارع أحد غلمان أخيه الراحل (نصر) بتلقي الضربة الموجهة إليه ، وافتداه بنفسه فنجا سلطان من القتل في اللحظات الأخيرة [1] ، ولعل هذه الحادثة تؤكد عنف الصراع وشدة القتال بين الجانبين وتحكم روح العداء بينهما .

على أنه يبدو أن ما اشتهر به خلف بن ملاعب من حب المغامرة والفساد وقطع الطرق على التجار والحجاج والآمنين، فضلا عن تشيعه وتعصبه للخلافة الفاطمية وسوء سيرته [2] هي الأسباب الحقيقية لما ساد بينه وبين بني منقذ من عداء وسوء مداخلة وهم أقرب الأمراء المسلمين إليه وأكثرهم تعرضا — دون شك — إلى فساده وأذيته .

غير أن التعرض لخطر التوسع الصليبي في المنطقة والذي بات يأخذ طابعا ثابتا قد أرغم — في أغلب الظن — هذه الوحدات الإسلامية المصغرة على الحد من

---

(١) أسامة : الاعتبار ص٥٢ ، ٥٣

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٢ ص٣٧ ، ابن الأثير : الكامل جـ٢ ص٢٣٣ — ٢٣٤

غلوائها ومحاولة كبح جماح عدائها فيما بينها ومحاولة الالتفات إلى الخطر الذي يوشك أن يبتلع الجميع، لذا حاولت هذه الإمارات التظاهر بالصفاء وعودة روح الود بينها وتغليب المصالح العامة فيما بينها ، لكن ذلك كله لم يحجب ما بينها من صراع ، ولعل أكبر دليل على ذلك ما يرويه أسامة من أن ابن ملاعب تظاهر برغبته في توحيد جهوده مع بني منقذ لطرد الفرنج من حصن أسفونا القريب من معرة النعمان ، فبعث إلى سلطان يطلب المؤازرة للاستيلاء على ذلك الحصن قائلا : « نمضي إلى أسفونا وفيها الفرنج نأخذها » فلقيت هذه الرغبة استجابة لدى سلطان الذي سارع بحشد جيشه وخرج من شيزر هو وأخوه مرشد ووصلوا إلى أسفونا « وترجلوا وزحفوا إلى الحصن فنقبوه » بينما كان ابن ملاعب قد بيت النية للغدر بهم ، إذ وصل فجأة كما يذكر أسامة : «فأخذ خيل من كان ترجل من أصحابنا » وعندئذ جرت الحرب بين بني منقذ وابن ملاعب بدلا من قتال الفرنج (١). وعلى هذه الصورة جرت العلاقات بين إمارة شيزر وابن ملاعب في أفامية .

وفي نفس الاتجاه العدائي سارت العلاقات مع والي حماه شهاب الدين محمود بن قراجا ، فلقد أمدنا أسامة بأحاديث متفرقة تنبيء عن قيام مشاحنات مع ذلك

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٩٥ — وقد اعتقد فيليب حتى أن تاريخ هذه الحادثة سنة ١١٠٩ لكن الثابت أن خلف بن ملاعب اغتيل بيد الباطنية في افامية سنة ١١٠٦ بينما سقطت أفامية ذاتها في يد تنكرد سنة ١١٠٦ فلابد وان تاريخ هذه الحادثة بين سنتي ١١٠٤ — ١١٠٦م.

ابن ميسر : اخبار مصر ج٢ ص٤٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣٣

الوالى واندلاع الحرب أكثر من مرة بين شيزر وبينه ؛ فمن ذلك ماقام به ابن قراجا بالهجوم على ضياع شيزر فأحدث بها الخـراب والدمار ، وعندئذ جرد سلطان جانبا من قوات المدينة لحـربه ، وضع على رأسها ابن أخيه أسامة بن مرشد الذى نجح فى رد المغيرين والتنكيل بهم ، « فكسرناهم وطعنا فيهم »(١). وتقدم سلطان نفسه وأخوه مرشد حيث تحققا من هزيمة قوات ابن قراجا ثم ما لبثا أن عادا إلى شيزر .

لكن محمود استعان بعدئذ بقوات أخيه خيرخان بن قراجا صاحب حمص وجرت حرب أخرى بين الطرفين أبلى فيها أسامة بلاء حسنا أمام عمه سلطان الذى امتدحه كثيرا وحيا فيه روح الفروسية والشجاعة . (٢)

غير أن محمود لم يرجع عن عـزمه فى مهاجمة شيزر وضياعها وضواحيها إذ يذكر أسامة أيضا أن ابن قراجا أغار سنة ١١٢٠ م(٥١٤هـ) على شيزر وكرر هجومه سنة ١١٢٣م (٥١٧هـ) ، « وكانت الحـرب بيننا ما تغب والمواكب واقفة والطراد بين المتسرعة ، واضطر مرشد ابن منقذ ـــ والد أسامة — إلى إنفاذ رسول إلى محمود بن قراجا ليثنيه عن مواصلة الحرب ، إلا أنه لم يذعن ، « وجاء إلى أرضنا وكمن لنا كمينا ، ودارت الحرب وأسفرت عن عودة جند محمود دون أن يحققوا أغراضهم أو ينالوا من جند شيزر ، « ورجـــع جميعهم

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص١٠٠

(٢) المرجع نفسه ص ١٠١ — ١٠٢

وكمينهم ما نالوا منه ما أرادوا ، وهكذا اتصلت الحرب بين الامارتين لتؤكد ما ساد العلاقات من عداء وقطيعة (١) .

وعلى الرغم من استعانة محمود بقوات أخيـــه خير خان وحشده جموع التركمان إلا أنه فشل فى النيل من شيزر أو تحقيق أهدافه فيهـــا واقتنع فى فى النهاية أن مصالحة بنى منقذ والاتفاق معهم لقتال الفرنج فى القلاع القريبة أهم وأصلح له ، هذا فضلا عما أحدثته غارات فـرنج أنطاكية فى المنطقة من تقريب وجهات النظر بين شيزر وحماه فعقد الصلح بين سلطان ومحمود بن قراجا وساد الصفاء بينهما من جديد (٢)

وكانت ثمرة التعاون بين الطرفين أن قاما معا بمهاجمة أفامية التابعة للفرنج لخطرها المشترك عليهما ، وذلك فى سنة ١١٢٤ (٥١٨ هـ) فقد أرسل محمود بن قراجا إلى سلطان يقول له « تأمر أسامة يلقانى .. لنمضي نبصر موضعا نكمن فيه لأفامية ونقاتلها ، فأمرنى عمى بذلك فركبت ولقيته ، وحينها اجتمع ابن قراجا وجيش شيزر ودار القتال ضاريا عند أفامية ضد الفرنج ، أصاب محمود سهم طائش « فضربه فى جانب عظم زنده » فسلم القيادة لأسامة بن منقذ واضطر للعودة إلى شيزر لكنه لم يمكث بشيزر طويلا ، إذ عاد توا إلى حماه « فأقام الغد وبعد الغد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات » وهكذا توفى محمود بن قراجا

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٥٦ ، ٣٦ ، ٣٨ — ٣٩

(٢) المرجع السابق ص ٤٦

متأثرا بجراحه لكن وفاته وضعت فى الحقيقة نهاية لخط بارز فى علاقات شيزر بحماه على عهد هذا الوالى (١)

وهكذا جرت العلاقات بين بنى منقذ أيام سلطان وجيرانهم من الأمراء المسلمين ميز بعضها الصفاء والود وروح الإخاء ، وشاب البعض الآخر العداء والفتور وقيام الفتن واندلاع الحروب والإغارات ، لكن الامر الذى يمكن ملاحظته أن سلطان استطاع التعامل بكياسة مع جميع الأمراء المجاورين ولم يلجأ إلى تحكيم السلاح إلا مضطرا وحين تعرضت إمارته للخطر وغدا من العسير تجنب الصدام المسلح .

سلطان والامارات الصليبية فى انطاكية وطرابلس :

وعلى الرغم من أن العلاقات بين شيزر والقوى المجاورة قد تشابكت وتشعبت واختلفت وتراوحت بين العداء والصفاء ، على الرغم من ذلك فان الملاحظ أن الحروب التى نشبت بين هذه الإمارة وغيرها من الإمارات الإسلامية الأخرى كانت حروبا صغيرة تتمشى مع مقاييس قوة تلك الوحدات الصغرة ، حتى لنجد صعوبة كبيرة فى وصفها بالحروب إلا فى ظل فهم حقيقى لقدرات تلك الإمارات الصغيرة ، لأنها فى غالبها لم تزد عن إغارات متبادلة واشتباك بضعة مئات من الفرسان فى أغلب الأحيان وبعضا من الرجالة وهو أقصى ما يمكن أن تحشده تلك الإمارات من قوة .

وليس من شك فى أن ذلك هو السبب فيما نلمسه من محاولة إمارة شيزر

---

(٢) أسامة : كتاب الأعتبار ص ٤٦ — ٤٧

تجنب الصدام مع القوى الأكبر بصفة خاصة مثلما حدث مع الصليبيين ، بل نشهد شيئا من الاعتراف بالقصور تجاه الإمارات اللاتينية القريبة بل ودفع رسوم مختلفة للفرنج حفظا للأمن وحماية للاستقلال .

ففى أنطاكية كان تنكرد قد بدأ يعمل على استعادة هيبة الصليبيين بعد تعرض جيوشهم للهزيمة على ضفاف نهر البليخ سنة ١١٠٤ م على يد القوات الإسلامية بقيادة جكرمش وسكمان بن أرتق ، فراح تنكرد يستأسد ضد سلاجقة حلب واستطاع فعلا أن ينزل الهزيمة بقوات الحلبيين عند تيزين شرقى أرتاح سنة ١١٠٥م حيث أعمل السيف فى جيش رضوان فقتل منه ثلاثة آلاف رجل بينما اضطرت حامية أرتاح لإخلائها [١] .

وبعد أن انتهى تنكرد من تأديب الحلبيين واسترد سرمين تحول ناحية الجنوب فاستولى على أفامية سنة ١١٠٦ م (٤٩٩هـ) بعد مقتل واليها خلف بن ملاعب على يد الباطنية — كما سبقت الإشارة — وقام تنكرد باسترداد كفر طاب إلى الشرق من أفامية بين معرة النعمان وشيزر فغدا يهدد المدن والقلاع والضياع الإسلامية القريبة وبخاصة مدينة شيزر سنة ١١٠٨ م [٢] .

ومنذ ذلك الحين بدأ تنكرد فى الهجوم على شيزر ذاتها ، من ذلك مارواه أسامة عن أغارته على شيزر فى ربيع الآخر سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) ، فاستاق

---

(١) Grousset : Hist. des Crois. I. P. 420

سبط بن الجوزى : مرآة جـ١٠ ورقة ٢٥٥

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص٤١٢ — ٤١٣

دواب كثيرة وقتل وسبي ، بل أنه هاجم القرى التابعة لشيزر ونكل بأهلها وأسر بعض أهلها نساء ورجالا ، واضطر أمير شيزر إلى عقد صلح معه تفاديا لتلك الهجمات ، وكان أمد الصلح سنة واحدة ، ولا بد وأن سلطان أقر بشيء من الخضوع لهذا الأمير الصليبي الذى لم يكن يرد له طلب فى شيزر حينئذ (١).

لكن لم يكد ينتهى أمد الصلح المبرم بين الجانبين حتى عاود تنكرد الإغارة على شيزر سنة ١١١٠ م « وجاء دنكرى وعسكر أنطاكية فقاتلنا عند سور المدينة » ولقد شهد أسامة بنفسه هذا القتال فوصف ضراوة الحرب وشدة القتال حيث اضطر أمير شيزر إلى حشد راجل المدينة فى الخارج لصد هجمات الفرنج فأبلوا بلاء حسنا « فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم » (٢) ويذكر المؤرخ ابن القلانسى أن تنكرد لجأ حينئذ إلى بناء تل ابن معشر قبالة شيزر محاولا اسقاطها مما دفع سلطان إلى الاستنجاد بالسلاجقة (٣) ... الكن يبدو أن أمير شيزر اضطر حين لم تسعفه النجدة إلى الاذعان وأبرم صالحا ثانيا مع تنكرد تعهد بموجبه بدفع قطيعة من المال ثمنا للسلام (٤).

ولم تنقطع هجمات الصليبيين على شيزر بعد وفاة تنكرد فى سنة ١١١٢ م اذ يتحدث أسامة عن هجوم صليبي على المدينة سنة ١١١٥ م (٥٠٩ هـ)

---

(١) أسامة ابن منقذ ، الاعتبار ص ٧٠ — ٧١ ، ص ٦٦ ،
Schlumbereger : op. cit. P. 112

(٢) أسامة : نفس المرجع ص ٦٦ — ٦٧

(٣) ابن القلانسى : ذيل ص ١٧٤

(٤) أسامة : نفس المرجع ص ١٢٠ — ١٢١

« ونزلوا علينا بالفارس والراجل وبيننا وبينهم العاصى وهو زائد زيادة عظيمة لايمكنهم أن يجوزوا إلينا ولا نقدر نحن نجوز إليهم ونزلوا على الجبل بخيامهم ، وقد ترك بعض أولئك الفرنج خيلهم ونزلوا فى البساتين واستسلموا للنوم وعندئذ ، تجرد شباب من رجالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا إلى أولئك النيام فقتلوا بعضهم ، ويبدو أن عدد فرنج تلك الحملة كان كثيرا إذ يقول أسامة « وتكاثروا على أصحابنا فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل » (١) ومهما يكن من أمر فقد انتهت هذه النوبة من الهجوم الفرنجى دون نتائج حاسمة ، وعادت شيزر إلى حياتها العادية بعد انسحاب الفرنج .

ويبدو أن ثمـــة هدنة جديدة وصلح قد عقد بين أمير شيزر سلطان وروجر الأنطاكى لأن هذا الأمـير بعث إلى سلطان يقول له : « قد نفذت فارسا من فرسانى فى شغل إلى القدس أسأل أن تنفذ خيلك تأخذه من أفامية ويوصلونه إلى رفنية ... فركب وأرسل إليه من أحضره » ، ويدل ذلك على قيام نوع من المهادنة بين الجانبين .

لكن أمد هذه الهدنة كان قصيرا إذ ساءت العلاقات من جديد بين شيزر وأنطاكية سنة ١١٢٢ م وكانت أنطاكية حينئذ تحت وصاية الملك بلدوين الثانى بعد مقتل روجر الأنطاكى فى ساحة الدم على يد إيلغازى الأتركمانى سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) (٢) لكن جيش أنطاكيه ظل مكمن خطر على الأملاك

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٩٢

(٢) ابن العديم . زبدة ، جـ٢ ص١٨٨ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٨٤

Grousset : op. cit. I. P. 553

Smail : Crusading warfare : P. 57

الإسلامية المجاورة وخاصة وأن إيلغازى لم يتابع جهوده — ضد أنطاكية بعد مقتل روجر بـل ألهته أحداث شمـال العراق وحلب عن ذلك (١) فتعرضت شيزر من جـديد لمضايقات جيش أنطاكية وجـرت بعض المناوشات بين الإمارتين اتبع الفرنج خلالها أسلوبا آخر ينم عن خداع ومكيدة — كما يقول أسامة — فحشدوا جيشهم تحت جنح الظلام عند تل مجاور لشيزر يسمى تل ملح ، كان مكمنا للافرنج ، بينما أرسلوا نحو عشرة من فرسانهم إلى باب شيزر مع الخيوط الأولى لضوء النهار وكان باب المدينة لم يفتح بعد ، فقال هؤلاء الفرسان للحارس وهو بالداخل « أى شيء هذا البلد ؟ » فقال لهم : شيزر « فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخب بهم » عندئذ أسرع سلطان وأسامة إلى باب المدينة وأبصروا الفرنج « رائحون غير منزعجين » فقال أسـامة لعمه سلطان « على أمرك آخـذ أصحابنا وأتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين » لكن عمه أدرك أنها مكيدة فرفض فكرة مطاردتهم قائلا : « لا ، أفي الشام افرنجي لا يعرف شيزر ؟ هذه مكيدة » وبادر باختيار فارسين من الجند وأمرها بالتوجه إلى تل ملح واستطلاع الأمر فتحقق صـدق حدسه وظنه فحينما « شارفاه خرج عليهما عسكر أنطاكية جميعه » (٢) . فتنبهت شيزر وفشلت خطة الفرنج ومحاولة أخذها على غرة ومن ثم انجلت هذه النوبة من الهجوم بعد مناوشات قليلة وعاد عسكر أنطاكية دون أن يحقق هدفه .

على أن الهدوء ساد بعدئذ فترة بسبب تعرض الإمارات الصليبية فى الشمال

---

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٢٥٤ — ٢٥٥

(٢) أسامة : الاعتبار ص ٥٦ — ٥٧

محنه أخرى بعد ساحة الدم وذلك بوقوع جوسلين أمير الرها فى يد بلك بن بهرام الأرتقى فى خريف سنه ١١٢٢ م (٥١٦ هـ) حيث حمله أسيرا إلى قلعة خرتبرت (١) . ولما حاول الملك بلدوين الثانى فك أسره تعرض فى أبريل سنه ١١٢٣ م لهزيمة قاسية على يد بلك أيضا عند نهر سنجة أحد روافد نهر الفرات ووقع الملك نفسه أسيرا فى يد بلك الذى حمله إلى خرتبرت ليسجن مع جوسلين (٢) ، وبذلك أضحت الرها وأنطاكية والمملكة الصليبية فى بيت المقدس بدون قادتها وحكامها . وليس من شك فى أن هذه الأوضاع انعكست على علاقة أنطاكية بشيزر فلم يحدث احتكاك بينهما فى تلك الفترة المضطربة بالنسبة للصليبيين بين سنتى ١١٢٢ - ١١٢٦ م بل تشير الدلائل إلى قيام نوع من المهادنة بين أمير شيزر سلطان والفرنج عامة فى بلاد الشام مكنت هذا الأمير من أن يلعب دورا هاما فى الوساطة بين الأراتقة وبين الفرنج فى هذه الفترة ، وكانت حلب قد آلت بعد مقتل بلك سنة ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) إلى أحد أبناء إيلغازى ويدعى تمرتاش الذى حاول تخفيف حدة التوتر من حوله فمال إلى إطلاق سراح الملك بلدوين الثانى الذى سبق أسره على يد بلك بعد أن كان جوسلين قد تمكن من الهرب من سجنه قبل وفاة بلك .

---

(١) Cahen : Encyc. Isl. art. «Artukids»

Le Strange : The Lands of the Eastern Csliphate. P. 117

(٢) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص ٣١٣ ، ابن القلانسى : ذيل ص ٢٠٩ .

Grousset : op. cit. I. p. 587

وتحدثنا المراجع أن أمير شيزر أبو العساكر سلطان قام بدور هام حينئذ في تقريب وجهات النظر بين الطرفين فكان لوساطته فضل كبير في إطلاق سراح بلدوين بعد أن تعهد هذا برد بعض القلاع الهامة إلى تمرتاش ومن بينها الأثارب وزردنا وكفر طاب وعزاز ، والتعهد بدفع فدية قدرها ثمانون ألف دينار (١) ، وذهب أمير شيزر في تحمسه لإتمام هذا المشروع حد تقديمه بعض الرهائن من لدنه لتمرتاش أمير حلب واصطحب بلدوين إلى شيزر حيث بقي بها إلى أن أحضر بعض الرهائن ضمانا لوفائه بعهوده فقدم ابنته وابن جوسلين أمير الرها وبعض أبناء القادة الفرنج وعندئذ أطلق سلطان سراحه في صيف سنة ١١٢٤ م (٢) .

على أن تحمس سلطان لذلك كله لم يكن له مايفسره سوى رغبته في تحسين علاقاته بالإمارات اللاتينية المجاوره ، ومحاولة كسب ود المملكة الصليبية في بيت المقدس استمرارا لسياسة الكياسة واللباقة التي دأب أمراء هذه الأسره على اتباعها ، غير أن خبرة الفرنج بهذا الأسلوب ومعرفتهم الحقة بنهج هذه الإمارات وسياستها مكنت بلدوين من أن ينكث بوعده لتمرتاش ويضرب عرض الحائط بكل ماتعهد به من قبل فيرفض تسليم القلاع المتفق عليها ويتلكأ في تسديد الفدية المقررة عليه ، لأنه كان يعلم تماما أن رهائنه في مأمن مادامت في شيزر ، وفي حوزة سلطان ، وتأكد بلدوين فعلا

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جـ ٢ ص ٢٢٢

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٢٢

أن سلطان لن يجرؤ على اتخاذ خطوة قد تعرض أمنه وسلامته للخطر ، ولهذا لم يترتب على نقضه العهد أية مضاعفات ، وخاصة أن تمرتاش أمير حلب انصرف عنها عائدا إلى ماردين يرقب الأوضاع هناك ، وينتظر وفاة أخيه سليمان ليرثه في أملاكه في أقصى شمال العراق (١) .

وهكذا أثبت سلطان من خلال هذه الأحداث رغبته في إحلال السلام مع الفرنج وإقامة علاقة صداقة مع الإمارات اللاتينية ، تجنبا لعوامل الصراع وحفظا لأمنه واستقلال إمارته .

غير أن ذلك كله تبدل بوصول بوهيمند الثاني إلى أنطاكية سنة ١١٢٦م (٥٢٠ هـ) ليرث ملك والده بوهيمند الأول ، وكان هذا الأمير الذي أسماه أسامه « ابن ميمون » متحمسا للحرب ضد المسلمين كثير الرغبة في تعكير جو العلاقات معهم لهـذا قال عنه أسامه « خرج على الناس من ذلك الشيطان ابن ميمون بلية عظيمة ، إذ استأنف الإغارة على شيزر من جديد ونزل بجيشه عليها كما يصف أسامه « فضرب خيامه ونحن قد ركبنا مقابلهم، ودارت الحرب بين الجيشين « وركب ابن ميمون وعسكره وجاءوا كالسيل » ولولا حداثة عهد بوهيموند بهذه البلاد وقلة تجاربه في حربه مع المسلمين لاسفرت هذه الحرب عن مأزق كبير لإمارة شيزر وجيشها « ولو ترك أصحابه هـــزمونا إلى أن يدخلونا المدينة » (٢) ، لكنه عجل بإنهاء الحرب وعاد إلى أنطاكية دون أن يحقق غرضه .

لكنه عاد في العام التالي الاغارة على شيزر فتصدى أسامة لمقدمات جيشه، وكادت تحدث مأساة لهـذا الفارس العربي الشهم ، لولا أن أسعفته فطنته واستطاع الإفلات من كارثة محققة ، قبـل أن ينصرف الفرنج من شيزر إلى

---

(١) ابن الاثير الكامل ج٨ ص ١٣٦ (سنة ٥١٨ هـ)
(٢) أسامة : الاعتبار ص ١٢١ — ١٢٢

إلى أنطاكية [١] وعلى هذه الصورة جرت مناوشات أخرى وحروب ومصادمات بين شيزر وأنطاكية تحت حكم أميرها الجديد بوهيموند الثانى، لكنها لم تؤد فى نهاية الأمر إلى نتائج حاسمة بالنسبة لأوضاع الإمارتين وأن كانت شيزر بعض أمنها وهدوئها .

وعلى نسق العلاقات مع أنطاكية جرت العلاقات مع طرابلس اللاتينية . والمعروف أن أملاك ريموند الصنجيلي آلت بعد وفاته إلى وليم جوردان قبل أن يفد برتراند من الغرب ، فقام وليم جوردان بمحاولة إتمام مشروعات ريموند خاصة إسقاط طرابلس والاستيلاء على توابعها ، وفى سبيل ذلك بذل الفرنج كثيرا من الجهود وفرضوا الحصار على طرابلس سنوات وعاثوا فى ضواحيها ، ولم تسلم إمارة شيزر وتوابعها هى الأخرى من هجمات الفرنج الباحثين من المؤن والزاد لمواصلة الحصار . فى سنة ١١٠٨(٥٠١هـ) أغار وليم جوردان على شيزر بغية الحصول على المؤن فى الوقت الذى اشتد فيه الحصار على طرابلس واتصل النزال عندها يقول أسامة « فما مضى إلا الأيام القلائل حتى أغار علينا السردانى صاحب طرابلس ففزع الناس إليهم [٢] » ودارت حرب بين الطرفين أبلى فيها بعض رجالات شيزر بلاء حسنا وتمكنوا من صد وليم جوردان وإرغامه على العودة .

وليس من شك فى أن الحصول على المؤن والإمدادات هو الذى كان يدفع

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٦١ — ٦٢

(٢) أسامة : الاعتبار ص ٥٠

وليم جوردان كثيرا لاجتياز الأراضى القريبة من شيزر والعبث فى ضواحيها، فقد ركب بعدئذ فى نحو ثلاثمائة من أصحابه واقترب من شيزر فرآهم أحد الفلاحين « فجاء يركض إلى أبى وعمى وقال شاهدت سرية من إفرنج تأنهين جاءوا من البرية لوخرجتم إليهم أخذتموهم ، ولما خرج رجال شيزر على رأسهم سلطان نفسه وأخوه مرشد « إذا به السردانى صاحب طرابلس فى ثلاثمائة فارس »(١) فحمل الفرنج على رجال شيزر فهزموهم وطاردوهم حتى شيزر ثم عادوا .

ولما آلت طرابلس إلى برتراند بعد سقوطها فى أيدى الفرنج قام فى سنة ١١١٠ م (٥٠٣ هـ) بالهجوم على شيزر ربما آملا فى أن يبدأ عهده بفرض هيبته على الإمارات الاسلامية القريبة ، فقد اتسم هجومه حينئذ بالجرأة والجسارة ، ولولا ثبات سلطان وأخوه مرشد لاحدثت تلك الغارة أضرارا جسيمة لإمارة شيزر (٢) .

لكن الواقع أن هجمات عسكر طرابلس لم تكن فى ضراوة هجمات أنطاكية كما أن همة أمراء طرابلس من الفرنج لم تكن لتقاس بهمة نظرائهم فى أنطاكية، ولهذا كانت معاناة شيزر من جهة أنطاكية أشد وأقسى ، فقد تحدث أسامة مرارا عن غارات جيش أنطاكية على شيزر فى حين قل حديثه عن إغارات جيش طرابلس مما يؤكد أن خطر الفرنج فى الشمال كان أعظم من خطرهم

---

(١) نفسه ص ٥٠ — ٥١

(٢) نفس المرجع ص ٥٥

ناحية الجنوب بالنسبة لإمارة بنى منقذ التى تقع على بعد متساو بينهما تقريبا متمركزة فى حوض نهر العاصى الأوسط .

وهكذا تعرضت شيزر فى عهد أبى العساكر سلطان لإغارات الامارتين اللاتينيتين القريبتين، والفضل يرجع لهمة بنى منقذ من ناحية ولحسن سياستهم ولباقتهم من ناحية أخرى فى حفظ استقلال شيزر وحماية أمنها وسلامتها وتجنيبها مواقف الحرج والضياع فى زحمة أحداث العصر .

أبو العساكر سلطان وحركة الجهاد الأقدس :

تعرضت إمارة شيزر — كما رأينا — لخطر الإمارات الصليبية المجاورة وعانت كثيرا من هجمات أنطاكية وطرابلس فى الوقت الذى بدأت فيه حركة إفاقة إسلامية كبيرة أتى ريحها من المشرق فى هذه المرة ، حين تزعم السلاجقة حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين، وآل السلطان محمد بن ملكشاه (١١٠٥–١١١٨ م) على نفسه أن يحارب الصليبيين ويسترد مااغتصبوه من الأملاك الاسلامية فى بلادالشام وأطراف العراق ، وتداول على زعامة الحرب المقدسة ضد الصليبيين فى عهد هذا السلطان ثلاثة من قادة السلاجقة العظام هم شرف الدين مودود وآقسنقر البرسقى وبرسق بن برسق فى الفترة بين سنتى ١١١٠–١١١٥ م تحت رعاية السلطان محمد الذى تحمس كثيراً لهذا المشروع الكبير (١) .

---

(١) Browne : Accounts of a rare manuscript. p. 464
أبو الفدا منتخبات من المختصر فى أخبار البشر (Rec. Hist. Or.I.p.13)
الراوندى : راحة الصدور ص ٢٣٥ ، ابن القلانسى : ذيل ص ١٧٤

وليس من شك فى أن استنجاد الأمراء المسلمين فى بلاد الشام بالسلطنة السلجوقية ، كما أن خروج الجماعات الإسلامية إلى بغداد للاستنفار للجهـــاد وطلب النجدة ضد الصليبيين قد لعب دوره فى جذب جيوش السلطنة السلجوقية إلى بلاد الشام ، وكان صوت الإمارات الصغيرة واستنجادها بالقوى الإسلامية الكبرى له ضلع كبير فى تحريك الحافز لدى السلطنة للاسراع فى إنفاذ الجيوش إلى هناك . ولقد ارتفع صوت فخر الملك بن عمار فى عام ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) بطلب النجدة من السلطنة والخلافة بل ذهبت به حاجته للمساعدة حد السفر بنفسه إلى بغداد لمقابلة السلطان ، لكن صوته ذهب وسط ضجيج الأحداث ولم يفز بما أمل فيه من معونة عاجلة فانهدمت إمارته قبل أن تصـل جيوش السلطان إلى بلاد الشام وضاعت طرابلس قبل أن تنجدها القوات الإسلامية(١) ثم مالبث أن تعالى صوت الإمارة الصغيرة الثانية فى بلاد الشام بطلب النجدة من السلاجقة حيث ضج أبو العساكر سلطان بطلب العـــون من السلطنة السلجوقية حين غدت هجمات تنكرد تأخذ طابع الضراوة التى تنم عن رغبة جامحة فى الاستيلاء على ذلك المعقل الإسلامى الهام .

وما أن شعر سلطان بأن جيوش السلاجقة تحت قيادة شرف الدين مودود أخذت تهاجم مدينة الرها الصليبية فى شمـال العراق سنة ١١١٠ م (٥٠٥ هـ) وأن ثمة مشروع للجهاد قد أخذ سمته إلى تلك المنطقة حتى بعث إلى مودود يستنجد به ، وخاصة وأن تنكرد قد شرع فى بناء تل ابن معشر قبالة شيزر

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٩ ؛ ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٨
سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٢٨٣

لمضايقتها ومحاولة الاستيلاء عليها [1] .

وجاءت استغاثة سلطان بمودود فى الوقت الذى تعثرت القوات الإسلامية أمام الرها للمرة الثانية فى سنة ١١١١ م (٥٠٥ هـ) نظرا لحصانة المدينة وحسن الدفاع عنها ، لذلك قرر مودود رفع الحصار عنها والانصراف إلى تل باشر على الناحية الأخرى من الفرات [2] وما أن عبرت القوات الإسلامية نهر الفرات حتى سارع تنكرد بإيقاف مشروعه ضد شيزر والانسحاب من أمامها إلى أنطاكية [3] .

كان لهذه الحادثة أثر كبير فى سياسة إمارة شيزر إذ أفاد أميرها سلطان — كما هو واضح — من حركة الجهاد الدينى وتأكد أن الارتباط بهذه الحركة ومسايرة قادتها وحسن التعامل معهم كفيل بكبح جماح تنكرد والصليبيين ، لهذا نلاحظ أن سلطان حرص كثيرا على كسب ود قادة الجهاد منذ ذلك الوقت وأظهر روحا طيبة تجاه الجيوش السلجوقية وحاول باستمرار أن يقدم كل مايستطيع لتلك الجيوش ويشاركها جهادها بعكس ماأظهرته بعض القوى الإسلامية الأخرى فى بلاد الشام أمثال : رضوان وطغتكين ولؤلؤ الخادم ، وعلى ذلك يمكن القول أن موقف إمارة شيزر من الجهاد كان موقفا مشرفا حاول فيه أميرها الإدلاء بدلوه فى تلك الحركة على الرغم مما قد تجلبه عليه من عداء الفرنج .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٧٤

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 463

(٣) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩

انصرف مودود من أمام تل باشر أيضا حين أتته صرخات رضوان أمير حلب الذى تعرض لهجمات تنكرد . فسارع مودود لنجدته لكنه لم يكد يقترب من حلب حتى أغلق رضوان أبواب المدينة فى وجهه ولم يجتمع به واعتقد أن هذا القائد ومن معه من قادة السلاجقة أخطر على إمارته من الصليبيين أنفسهم (١) . لذا لم يجد مودود بدا من التحرك ناحية الجنوب والتحق به عندئذ طغتكين أتابك دمشق ، واتفقت الآراء على التوجه إلى حوض نهر العاصى بعد أن آثر بعض القادة الانفصال والعودة إلى أوطانهم ولم يبق مع مودود سوى إياز ابن إيلغازى وطغتكين فرحلوا ناحية شيزر .

وفى ذلك الوقت كانت القوات الصليبية قد اجتمعت كلها على الضفة الشرقية لنهر العاصى قرب أفامية حيث بلغت عدتها ١٦ ألف مقاتل من الفرسان والرجالة (٢) ، وعندما أحس أبو العساكر سلطان بقرب مودود ومن معه من القادة خرج إلى لقائهم وحثهم على منازلة الفرنج فرحلوا جميعا وعبروا النهر ونزلوا فى قبلى شيزر « وبالغ ابن منقذ وجماعته فى الخدمة والمواصلة بالميرة » ويقول أسامة عن هذه الحادثة أن مودود نزل بظاهر شيزر فى تاسع ربيع الأول سنة ٥٠٥ هـ — (١١١١ م) فخرج إليه سلطان وأخوه مرشد وقالا له : « الصواب أن ترحل، إذ كان نازلا شرق البلد على النهر ، وتنزل

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٧٥ ، ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠

(٢) Runciman : op. cit. II p. 122

فى البلد ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات فى المدينة (١) ونلقى الفرنج بعد أن نحرز خيامنا وأثقالنا ، فرحل ونزل كما قالا له ، وأصبحا خرجا إليه من شيــــزر خمسة آلاف راجل معدين ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه» (٢) .

وطيلة أسبوعين حدثت خلالها بعض المناوشات ، أنهكت قوات شيزر العربية بالذات نشاطا جماً فى حرب الصليبيين ربما لطول ممارستهـا قتالهم وخبرتها بحربهم ، إذ كانوا يطوفون حول معسكرهم ويمنعونهم ورد مياه نهر العاصى معرضينهم للعطش والهلاك. كما دأبوا على عبور نهر العاصى وقطعوا الإمدادات والمؤن عن المعسكر الصليبى ، واشترك الاتراك فى الهجوم على المعسكر ذاته ، حيث ظفروا ببعض المغانم والأسلاب كل ذلك والفرنج معتصمين بأحد التلال ، يرفضون الدخول فى معركة فاصلة مع المسلمين « فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة ولزوهم بالقتال والفرنج يحفظون نفوسهم ولا يعطون مصافا ، (٣) ولما اشتد ضجر الفرنج واستبد بهم الخوف انتهزوا فرصة خروج المسلمين لصلاة الجمعة فى جامع شيزر فرحـــلوا قاصدين أفامية ولكنهم تجاوزوها ، ولما تنبه المسلمون لذلك تبعوهم ، وتخطفوا أطرافهم ومن

---

(١) « البلد » هو القسم من شيزر الواقـع ضمن القلعة و « المدينة » هو القسم الواقع على النهر قرب الجسر .

(٢) أسامة : كتاب الاعتبار ص ٦٨ — ٦٩

(٣) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص ٢٦٣ (سنة ٥٠٥ هـ)

ابن العديم : زبدة ، ج٢ ص١٦٠ — ١٦١

ابن القلانسى : ذيل ص ١٧٧ ، أسامة : الاعتبار ص٦٩

ظفروا به ، وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحلقة من الجهاد التى ظهر من خلال أحداثها حرص أمير شيزر على المشاركة فيها بنفسه وقواته ، وكسب ود قائدها والقائمين عليها وليس من شك فى أنها لمحة طيبة لهذه الإمارة العربية فى حركة الجهاد الدينى .

تزعم حركة الجهاد بعد مودود القائد آقسنقر البرسقى أمير الموصل لكن جهود هذا القائد اقتصرت فى هذا الدور على مهاجمة الرها اللاتينية سنة ١١١٤ م (٥٠٩ هـ) دون العبور إلى بلاد الشام ، ولهذا لم تتح له فرصة الاتصال بالقوى الإسلامية فى بلاد الشام ولم يجر بينه وبين أمير شيزر حينئذ تخطيط ومشاركة بل أن فشل هذا القائد أمام الرها وتعرضه للهزيمة على أيدى الأراتقه أدى إلى إعفائه من زعامة الحرب المقدسة ومن إمارة الموصل حيث عهد السلطان محمد بقيادة جيوشه المنفذة إلى بلاد الشام إلى ثالث شخصية من قادة الحرب المقدسة على عهده وهو الأمير برسق بن برسق (١) .

وعلى الرغم من أن ارتباط إمارة شيزر العربية بحركة الجهاد قد يفسر بأنه رد فعل طبيعى لتعرضها للخطر الصليبى فى أنطاكية ولهجمات جيش أنطاكية الذى دأب على الإغارة عليها وعلى توابعها (٢) ، وقد يفسر أيضاً بأنه نفس النهج الذى دأب على اتباعه أمراء بنى منقذ تجاه القوى الكبرى فى محاولة اكسب صداقتها وودها ومجاراتها والتكييف السريع معها بما يضمن أمنها

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص ٢٦٩ ، سبط بن الجوزى : مرآة ، ج١٠ ورقة ٣٢٤

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 498

واستقلالها على الرغم من ذلك إلا أنه يبدو أن أمير شيزر كان يأمل كثيرا فى جهود السلاجقة وجهادهم ومشروعهم الكبير لتحرير الأرض العربية وتغيير الأوضاع التي أمست فيها البلاد ، وإنزال ضربة قاضية بالكيان اللاتيني فيها . حقيقة كان الخطر الصليبي ماثلا أمام تلك الإمارة الصغيرة مما يغريها بالارتماء فى أحضان القوى الكبرى إلا أن مشروع الجهاد فى حد ذاته كان ولا بد سيجذب مثل هذه الإمارات الصغيرة للمشاركة فيه، خاصة وأن قادة تلك الحرب المقدسة كانت لهم شهرة ذائعة حينئذ بحكم قيادتهم جيوش أكبر قوة إسلامية فى المشرق ، الأمر الذى يوحى بنجاح أكيد لحركتهم المقدسة .

وما يعنينا من ذلك كله أن إمارة شيزر لم تزل على عهدها بالنسبة لفكرة الجهاد ولم تزل متشبثة بأهدابها فى الوقت الذى انصرفت معظم القوى الإسلامية عنها بل وأضمرت العداء لجيوش السلطان ، وشارك أمير شيزر فى هذا الاتجاه أمير حمص خيرخان بن قراجا مع اختلاف الهدف إذ كان الأمير يأمل فى الاستيلاء على حماه التابعة لطغتكين والتى بفضلها كان طغتكين يطوق إمارته (١) وخاصة وقد ساءت علاقة طغتكين بالسلطنة بسبب إغتيال مودود فى دمشق سنة ١١١٣ م (٥٠٧ هـ) وبسبب ميله إلى صف إيلغازى الأرتقى الذى شق عصا الطاعة على السلطان وحارب جيوشه سنة ١١١٤ م .

وكان أن وصل برسق بن برسق إلى حلب سنة ١١١٥م (٥٠٩هـ) آملا

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 498

أن يتخذ منها قاعدة يشن منها هجومه على الصليبيين ويؤدب أيضا الإمارات الإسلامية المخالفة المنشقة على طاعة السلاجقة . لكن المتصرف فى شئون حلب حينئذ وهو لؤلؤ الخادم ومقدم عسكره شمس الخواص أظهرا عـــداء له بل وأسرعا بالكتابة إلى طغتكين وإيلغازى ، فلم يتردد هـذان الأميران فى التحالف مع الفرنج للتصدى لجيش برسق وجرى تخطيط بين الجانبين فعـلا لذلك (١) .

لهذا رحل برسق إلى حلفائه أمراء شيزر ، فخرج بنومنقذ للقائه وأظهروا الحفاوة به فى الوقت الذى تجمعت القوات الصليبية من أنطاكية وبيت المقدس وطرابلس ، والتحقت بالقوات الإسلامية الحليفة تحت زعامة طغتكين وإيلغازى بن أرتق عند أفامية (٢) . ولما رآه برسق من اتحاد كلمة المسلمين والصليبيين لمواجهته آثر التظاهر بالانسحاب بجنوده تجاه الجزيرة ومعـه جيش شيزر وعندئذ تفرقت القوات الصليبية الإسلامية المتحالفة، لكن برسق عاد فانقض مسرعا على كفر طاب التابعة لأنطاكية الصليبية واشترك معه فى هذا الهجوم بنو منقذ على رأس قواتهم كما يصف أسامه الذى شهد هذه الحـرب ، فقاتلوا حاميتها الصليبية وأخذوا ينقبون أسوارها «والإفرنج قد أيقنوا بالهلاك» (٣) وكان المسلمون قد أعدوا العدة لذلك إذ يقول أسامة : « وقد لبسنا وزحفنا

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص٢٦٩ (سنة ٥٠٨ هـ)

ابن العديم : زبدة ج٢ ص ١٧٤ ، أسامة : الاعتبار ص ٩٠ — ٩١

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 278, 503

(٣) أسامة : كتاب الاعتبار ص ٧٣

إلى الخندق لنهجم على الحصن إذا وقع البرج » وانتهى الأمر بالاستيلاء على هذا الحصن وسلمه برسق لحلفائه بنى منقذ فى سبتمبر سنة ١١١٥م (جمادى الأولى سنة ٥٠٩ هـ) (١) .

اتجه برسق بعد ذلك إلى أفامية لكنه تحول منها إلى المعرة ثم سار شمالا إلى دانيث حيث عسكر عندها ، وقد صاحبه جزء من جيش شيزر تحت قيادة الأمير مرشد بن منقذ — والد أسامة — غير أن برسق تعرض لمؤامرة رخيصة لعب فيها لؤلؤ الخادم وشمس الخواص دورا حقيرا إذ كانا على صلة بروجر الأنطاكي يكشفان له أخبار الجيش الإسلامى أولا بأول بعد أن احتالا فى فى تفريق قوات برسق وعند تل دانيث تسلل الصليبيون بقيادة روجر تحت جنح الظلام وفاجأوا قوات برسق فى صباح يوم ١٤ سبتمبر سنة ١١١٥ م وهى فى غير نظام أو احتراس فأنزلوا بها مذبحة رهيبة وفر برسق نفسه وقليل من رجاله فى حين وقع القتل والأسر فى أغلب قواته (٢) . وعاد من سلم من قوات شيزر مع الأمير مرشد بن منقذ إلى كفر طاب ، فى حين كان أسامة ابن منقذ وبعض رجال شيزر ماضين فى تعمير كفر طاب معتقدين أنها غدت حصيلة مشاركتهم فى تلك الحرب وأنها أضحت فى ظـــل تفوق القوات الإسلامية فى مأمن من الفرنج ، فلما انهزم برسق وتشعث جيشه وانفلت قوته لم يجد بنو منقذ بدا من إخلاء كفر طاب « فتركناها وعدنا إلى شيزر

---

(١) نفسه ص ٧٤ — ٧٦

(٢) ابن العديم : زبدة ج٢ ص ١٧٥ — ١٧٦

ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٢٦٩ (سنه ٥٠٩ هـ)

مع الوالد ، وقد أخذ كل ما كان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتحمل ... وعاد الفرنج لعنهم الله إلى كفر طاب عمروها وسكنوها »[1] .
وعلى هذه الصورة انتهت تلك النوبة من الجهاد ضد الصليبيين وضح من أحداثها استمرار تعلق شيزر بهذه الحركة واستمرار مشاركتها فيها بكل ما تستطيع بل إنها كانت إحدى إمارتين إسلاميتين وحيدتين بقيتا على ولائهما للسلاجقة وجيوش السلطان المنفذة للجهاد في بلاد الشام .

كانت حملة برسق سنة ١١١٥م (٥٠٩هـ) آخر حملة أنفذها السلطان محمد بن ملكشاه لحرب الفرنج ، وآخر محاولة قام بها هذا السلطان للجهاد ضد الصليبيين اقتنع بعدها بعبث تلك المحاولات طالما أفتقر أمراء الشام أنفسهم لعزم صادق وحقيقي لحركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين وجدية السلطنة في محاولة طرد أولئك الغزاة وطالما ناصبوا جيوش السلطنة العداء وحالفوا الفرنج .
وبوفاة السلطان محمد سنة ١١١٨م (٥١٢هـ) انتهت مرحلة هامة في حركة الجهاد المقدس بينما ظلت إمارة شيزر متحفزة للمساهمة في تلك الحركة مع من يرفع اللواء من جديد ضد الصليبيين .

تزعم حركة الجهاد بعد وفاة السلطان محمد — الأراتقة التركمان بقيادة إيلغازى بن أرتق الذى استطاع ضم ميافارقين إلى إمارته فى ماردين وقوى من سلطته في شمال العراق ثم ما لبث أن ضم إليه حلب سنة ١١١٨م ، فربط بذلك شمال العراق بشمال الشام ووضع أسس الجبهة المتحدة التى تمت على عهد زنكى بعدئذ وابنه نور الدين محمود .

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٧٦

شن ايلغازى حربا ضارية ضد صليبي أنطاكية واستطاع أن ينزل بجيش روجر الأنطاكى هزيمة ساحقة — كما سبقت الإشارة — في إبادة شبه تامة في موقعة البلاط سنة ١١١٩م (٥١٣هـ) حتى اشتهرت تلك الموقعة عند الصليبيين بساحة الدم لكثرة من صرع فيها منهم حتى لقى روجر الأنطاكى نفسه حتفه مع كثير من رجالات أنطاكية البرزين فضلا عمن حمل منهم أسرى إلى حلب[1].

ويحدثنا أسامة بن منقذ أن إمارة شيزر ساهمت في هذه النوبة من الجهاد أيضا على الرغم من أن أميرها سلطان كان قد توصل إلى نوع من المهادنة مع روجر الأنطاكى بعد هزيمة برسق ، وعلى أثر تلك المهادنة تحسنت العلاقات بين شيزر وأنطاكية[2]، لكن حينما أحس سلطان باحتشاد جيش إيلغازى لحرب أنطاكية لم ير بدا من الاشتراك مع ذلك الموكب المقدس ، ولم يستطع أن يغض الطرف عما يجرى في الشمال فضرب عرض الحائط بالهدنة مع أنطاكية وسار بجيشه للالتحاق بالقوات الإسلامية بينما خلف بشيزر أخاه مرشد .

ويفهم من كلام أسامه أن عمه قد وصل إلى إيلغازى بعد انتهاء موقعة البلاط

---

(١) Guillaume de Try, p. 523
Grousset : op. cit. I. p. 551
Runciman : op. cit. II. p. 149
Smail : Crusading warfare p. 57
Lane-poole : Saladin. pp. 47-8
ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٨٤ (سنة ٥١٢ هـ)
ابن القلانسي : ذيل ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، ابن العديم : زبدة ج٢ ص ١٨٨-١٨٩

(٢) أسامة كتاب الاعتبار ص ٨٧

مع الصليبين ، لكنه — مع ذلك — لم يبادر بالعودة إلى شيزر بل شارك إيلغازى وطغتكين بعدئذ جهودهما فى الشمال ، وكان سلطان قد حرص قبل مسيره من شيزر أن يوصي أخاه مرشد بتسيير أسامه للاغارة على أفامية التابعة للفرنج للاستفادة من الارتباك الذى أصاب الصليبيين فى الشمال من ناحية ولتوقع خلو أفامية من حاميتها حينئذ بسبب احتشاد الجيش الصليبى كله فى البلاط من ناحية أخرى ، وقد قام أسامة فعلا بالمهمة وسرت فى نفر قليل ما يلحق عشرين فارسا ونحن على يقين أن أفامية ما فيها خيالة ، ومعى خلق عظيم من النهابة والبادية ، ولكن ما كاد أسامة يغير على أفامية حتى خرج إليهم جمع كبير من الفرسان ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون راجلا ، ودارت الحرب ضارية أبلى فيها أسامة بلاء حسنا واستطاع أن يهزم الفرنج والعودة بجموعه إلى شيزر (١) بينما كان إيلغازى وحلفاؤه يقومون باسترداد بعض توابع أنطاكية من قلاع وحصون قريبة .

وعلى الرغم من أننا نجهل الدور الذى قام به جيش شيزر بقيادة الأمير سلطان إلى جانب إيلغازى وطغتكين إلا أنه من المرجح أنه اشترك معهما فى الاغارة على أرتاح والأثارب وزردنا من توابع أنطاكية ، كما أفاد من هذه الأحداث بالاستيلاء على حصن زور غربى البارة ثمنا لهذه المشاركة (٢) ، بل أن سلطان تشجع بعد موقعة البلاط فقطع الجزية التى كان يقدمها لأنطاكية . فلما هدأت

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٤٠ — ٤١

(٢) ابن العديم : زبدة ج٢ ص ١٩٢ — ١٩٣

الأحوال فى الشمال فى سنة ١١٢٠ م (٥١٤هـ) ورجع إيلغازى إلى شمال العراق، عاد فرنج أنطاكية لمهاجمة أملاك شيزر مطالبين باستئناف حمل ما كان مقررا عليها من المال ، فلم يجد سلطان بدا من المودة لمصالحتهم « فجعل لهم مالا حمله وصالحهم إلى آخر السنة » (١) .

تزعم بلك بن بهرام الأرتقى حركة الجهاد الدينى ضد الصليبيين بعد وفاة إيلغازى واستطاع هذا المجاهد أن يأسر جوسلين أمير الرها سنة ١١٢٢ م — (٥١٦هـ) — كما سبقت الإشارة — ويأسر الملك بلدوين أيضا سنة ١١٢٣م ، وقد ظلت إمارة شيزر العربية تتابع جهود بلك مترقبة متحفزة دون استطاعتها المشاركة فيها بسبب انصراف بلك لحرب الصليبيين فى أطراف العراق وعدم تكريس جهوده ضدهم فى بلاد الشام (٢) لكن ضغط بلك على القوى الصليبية فى الشمال أفاد — دون شك — شيزر كثيرا لأنه كبح جماح الفرنج فى أنطاكية بصفة خاصة ، وأعطى فترة هدوء نسبى فى وسط بلاد الشام ، لبزوغ مرحلة جديدة فى العلاقات بين شيزر وصليبى أنطاكية ، حتى قام أبو العساكر سلطان بالوساطة لدى الأراتقة فى حلب لفك أسر الملك بلدوين كما سبقت الإشارة .

لكن ترتب على مقتل بلك بن بهرام سنة ١١٢٤ م (٥١٨هـ) وتنازع الأراتقة بعده وضعف سلطانهم أن تعرضت حلب لهجوم الفرنج بالاشتراك مع الأمير

---

(١) نفس المرجع ج٢ ص ١٩٧

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣١٣ ، ابن القلانسى : ذيل ص ٢٠٩

Cahen: Encyc. Isl. art «Artukids»

Grousset : cp. cit. I. P. 587

العربي دبيس صدقة بن مزيد[1] الذى طمع فيها وأغرى الفرنج بالاشتراك معه فى الهجوم عليها ، مما أدى إلى قدوم البرسقى أمير الموصل سنة ١١٢٥ م (٥١٩ هـ) لانقاذها من ناحية واستئناف حركة الجهاد من ناحية أخرى ، وقد وفق البرسقى فعلا فى طرد الغزاة عنها ، بل راح ينظم شئون الجبهة الاسلامية فى بلاد الشام استعداداً للقتال ضد الصليبيين

أخذ البرسقى حينئذ يعبىء قوات الإمارات الإسلامية فى الشام فنزل تل السلطان حيث استقبل خير خان بن قراجا أمير حمص ثم عرج على شيزر فخرج إليه أميرها سلطان بن منقذ للقائه والحفاوة به ، بل إنه سارع بتسليمه رهائن الفرنج المحتجزين بشيزر منذ إطلاق سراح بلدوين (٢) ، ثم سار البرسقى بعدئذ إلى حماه حيث استقبل بها الأتابك طغتكين على رأس قواته .

وليس من شك فى أن قوات شيزر قد شاركت البرسقى الحرب التى دارت بعدئذ بينه وبين قوات الفرنج بقيادة الملك بلدوين الثانى سنة ١١٢٥ م عند إعزاز وتعرضت هى الأخرى للهزيمة التى تجرعتها القوات الإسلامية فى تلك الموقعة وهى التى جمدت الأوضاع فى أواسط بلاد الشام وحوض نهر العاصى من جديد ، وجعلت شيزر تلتزم سياسة الدفاع من جديد ، وخاصة وقد آلت

---

(١) ابن العديم : زبدة ص ٢٢٣ ،

ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٢٣٣ ، ص ٢٤٣

Smail : op cit. p. 30

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٢٢

أنطاكيه سنة ١١٢٦ م إلى بوهيموند الثاني الوافد من الغرب الأوربي بحماسته البالغة واندفاعه الأهوج ، والذي وصفه أسامه من أجل ذلك بأنه كان بلية عظيمة على المسلمين . كل ذلك قبل أن يبزغ عهد جديد في تاريخ بلاد الشام حين يستولى الأتابك عماد الدين زنكي على حلب ويضمها إلى الموصل ويرسي دعائم الجبهه الإسلاميه في الشمال ابتداء من سنه ١١٢٧ م (٥٢١ هـ) ويفتح فصلا جديدا في قصه الجهاد المقدس ويتحمل عبء الحرب ضد الصليبيين نيابة عن الإمارات الصغيرة في بلاد الشام ، إلى أن ينجح في إسقاط الرها الصليبيه سنه ١١٤٤ م (٥٣٩ هـ) كما هو معروف .

سلطان ومؤامرة الباطنية ضد شيزر :

أضحت بلاد الشام في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) مرتعا خصبا لأتباع المذاهب الشيعية المتطرفة ، وغلاة التشيع أمثال الدروز والرافضة والنصيرية والباطنية وغيرهم من الفرق الإسلامية المتطرفة . وليس من شك في أن هذه الجماعات كانت تطمع في فرض وجودها في بقاع الشام متخذة من أسلوب القهر والاغتيال والمغامرة سبيلا إلي ذلك .

وقد شهد حوض نهر العاصي والجهات الساحلية الوسطى من بلاد الشام نشاط كثير من هذه الفئات أشرنا فيما سبق إلى بعض أخبارهم (١) ، غير أن مايهمنا الآن ماحدث من تدبير جماعة الباطنية لمؤامرة كبيرة للاستيلاء على شيزر في عهد سلطان ، إذ يبدو أن موقع شيزر وحصانتها وملاءمتها لإيواء أتباع

---

(١) الأنصاري الدمشقي : نخبة الدهر ص ٢٠٠ ، ص ٢٠٣ ، ص ٢١١ ، ص ٢٣٣

مثل هذا المذهب المتطرف قد أغـــرى الباطنية بالاستيلاء عليها وتحويلها الى مركز للدعاية الاسماعيلية فى المنطقة . والمعروف أنهم لجأوا القلاع وحصون قوية منيعة اتخـذوها مأوى ومـلاذا وجعلوها ركائز لدعايتهم مثل حصون مصياف وبانياس والمرقب والقدموس والخوابى وغيرها من الحصون الشهيرة بموقعها وملاءمتها لأغراض هذه الفئة .

وعلى الرغم من أن مؤامرة الباطنية ضد شيزر قد لقيت اهتماما بالغا من قدامى المؤرخين أمثال ابن القلانسى وابن الاثير وسبط بن الجوزى وابن الوردى فضلا عن أسامة بن منقذ إلا أن روايات أولئك المؤرخين اختلفت فيما يختص بهذه الحادثة .

أما أسامة فقد أشار اليها فى كتاب الاعتبار ثلاث مرات إشارات مقتضبة لاسبيل إلى الاعتماد عليها فى تناول هذه الحادثة أو التاريخ لها ، فضلا عن أنه لم يعـــين لنا تاريخها ولم يحدد وقت وقوعها على عادته فى كتاب الاعتبار (١) .

وتشير روايات المؤرخين القدامى ـ غير أسامة ـ إلى أن الباطنية سلكوا فى ذلك طريق الخـداع والدهاء ، واعتمدوا فى الاستيلاء على شـيزر على حزب لهم فى المدينة ورجال من أتباعهم من أهل شيزر ذاتها عاونوهم فى تلك المهمة وساعدوهم فى تنفيذها فانتهزوا فرصـــة نزول بنى منقذ من شيزر لمشاهدة عيد الفصح عند النصارى ، فوثب نحو مائة رجل من أهل أفامية

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٧٧ ، ١١٦ - ١١٧ ، ص ١٦٢

ومعرة النعمان ومعرة مصرين والتأموا إلى أتباعهم فى الحصن فملكوه « على حين غفـلة من أهله » وسارعوا بإغلاق الأبواب والتحكم فى مداخـل شيزر ومنع أحد من الدخول إليها ، ففدت المدينة تحت رحمتهم ، وكادت خطتهم تكلل بالنجاح .

وحينما تنبه بنو منقذ إلى ماحدث وعادوا إلى شيزر وجدوا أبوابها قد أغلقت والباطنية قد تحكموا فى مداخلها ، لكنهم مع ذلك لم ييأسوا وقامت نساؤهم بـــدور كبير حينئذ وعاونوهم فى تسلق الأسوار بأن « أدلوا لهم الحبـال من الطاقات » فنجح بنو منقذ ورجالهم فى دخول المدينـة وسرعان ما اشتبكوا فى قتـال مرير مع الباطنية فى شوارع شيزر وبيوتها وحاراتها وحاصروهم فى كل مكان « وكبروا عليهم وقاتلوهم فانخذل الباطنية وأخذهم السيف من كل جانب فـلم يفلت منهم أحد » برغم ما أبـدوه من شجاعة وفدائية وما اتصفوا به من جرأة وحماسة ، وانتهت هذه المؤامرة الباطنية في مهدها وعادت شيزر إلى أصحابها بنى منقذ .

وبعد تطهير شيزر من البـاطنية التفت بنو منقـذ إلى أعوانهم من أهل المدينة وإلى الحزب الذى عاضدهم وساعدهم فى تلك المؤامرة ومن يميل إلى آرائهم فقتلوهم أيضا واستصفوهم « وقتلوا كل من كان على رأيهم فى البلد من الباطنية » وبذلك قضوا على الفتنة واستعادوا المدينة . ومنذئذ احترس بنو منقذ كثيرا ولم يغامروا بعدئذ بالخروج جميعا لأى سبب « فما كان يغيب واحـد إلا ويحضر آخر » خوفا من أن يثب البـاطنية من جديد

على شيزر (١) .

تلك هى رواية أغلب المؤرخين عن هذه الحادثة ، أما تاريخها فقد اختلفوا فيه ، فابن الأثير يذكر أنها حدثت سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) وجاراه فى ذلك المؤرخ ابن الوردى ، لكن ابن القلانسى وسبط بن الجوزى جعلاها فى سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ — ١١١٤ م) وعلى الرغم من صعوبة ترجيح أحد الاتجاهين على الآخر ، إلا أن التاريخ الذى حدده كل من ابن القلانسى وسبط بن الجوزى يكاد يقرب من الحقيقة . ففضلا عن أننا نجد فى حديثهما عن هذه المؤامرة بالذات إفاضات لانجدها عند ابن الأثير وغيره مما يؤكد أنهما استقيا مادتها من مصادر أكثر وأوفر وأخصب وربما أوثق ، فإن أحداث بلاد الشام تؤكد أن سنة ٥٠٧ هـ والسنوات القليلة السابقة شهدت نشاطا جما للجماعات الباطنية بعد أن استفحل خطرهم فى حلب على عهد رضوان بن تتش الذى كان يشجعهم ويميل إلى مذهبهم (٢) فنجحوا فى اغتيال جناح الدولة الحسين فى حمص سنة ١١٠٣ م (٤٩٧ هـ) وخلف بن ملاعب في أفامية سنة ١١٠٦ م (٥٠٠ هـ) وكذلك استفحل خطرهم فى الجنوب حيث نجحوا فى اغتيال شرف الدين مودود سنة ١١١٣م (٥٠٧هـ) ، ولابد وأنهم أحسوا أنهم غدوا مكروهين فى حلب بعد وفاة رضوان سنة

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٥٧ ، ابن القلانسى : ذيل ص١٩٠ — ١٩١
سبط بن الجوزى : مرآة ج١٠ ورقة ٣١٥ ، ابن الوردى : تاريخه جـ ٢ ص ١٩

(٢) Runciman : op. cit. II. P. 121
ابن العديم : زبدة : جـ٢ ص ١٥١ ، ابن القلانسى : ذيل ص ١٨٩

١١١٣م وأن موقفهم صار حرجا فدفعهم ذلك لمحاولة الاستيلاء على شيزر (١) فلا بد وأن حادثة شيزر كانت سنة ٥٠٧ ﻫ لأنها تنطوى على مغامرة أكبر من اغتيال حاكم أو أمير أو قائد لترقى إلى الاستيلاء على إمارة برمتها وحصن منيع ومعقل إسلامى كبير . وهذا لاينفى أن تكون شيزر قد تعرضت لمؤامرة أخرى من قبل الباطنية أيضا سنة ٥٠٢ ﻫ ، قضى عليها هى الأخرى وانتهت فى مهدها . مايهمنا من ذلك كله نجاح سلطان فى التغلب على تلك العقبة والقضاء على تلك الفتنة .

على أن أسامة قد أسهب فى وصف بطولات قومه ورجالهم إبان تلك الحادثة ، حتى لقد اقتصر حديثه عنها على بطولات الرجال ونماذج من شجاعتهم (٢) وساعده على ذلك أنه اشترك بنفسه فى القتال الذى دار من بيت إلى بيت على حد قوله ... وقضى على نفر من الباطنية بعد قتال مرير أثبت فيه أولئك الباطنية قوة مراس وشدة تعصب وتفان فى بذل النفس فى الحرب (٣) .

ولم تصف الجيوب الباطنية فى شيزر نهائيا إلا بعد أن قدم بنو منقذ ورجالهم صورا حية من الشجاعة والفروسية قابلوا بها استماتة أولئك المتطرفين لتعود شيزر مرة أخرى إلى أصحابها ويطرد بها حكم سلطان وتزيد هيبته .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٥٥٥

(٢) أسامة : الاعتبار ص ١١٦ ، ص١٦٢

Browne : op. cit.p. (65-8

(٣) الراوندى : راحة الصدور ص ٢٣٥ ،

Camb. Med. Hist. Vol. 4.p. 311

بنو منقذ والبيزنطيون

سبقت الإشارة من قبل إلى أن شيزر كانت تابعة للامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين سنة ١٠٨١م بمقتضى اتفاقية عقدت بينه وبين أسقف البارة الذى اتخذ شيزر مقرا له (١) فلما وفق سديد الملك بن منقذ فى الاستيلاء على شيزر بما بذله من أموال للأسقف سمح للحامية البيزنطية بالرحيل عنها بسلام، ولم تبد الامبراطورية حينئذ اهتماما بأمر شيزر ، ولم تحاول العمل على استردادها ، مما أتاح لبنى منقذ فرصة الاستمرار فى الاستقلال بها دون مضايقة من قبل الإمبراطورية ، وساعد على ذلك ماحدث من غزو الصليبيين للمنطقة بعد ذلك بسنوات قليلة من ناحية ، وما أمست فيه الإمبراطورية ذاتها من مشاغل من ناحية أخرى ، فضلا عن أن قيام إمارة أنطاكية الصليبية إلى الشمال من شيزر كان بمثابة حاجز بين شيزر فى حوض نهر العاصى الاوسط ومجال النفوذ البيزنطى .

لكن الأمور تطورت فى بلاد الشام فى سنة ١١٣٧ — ١١٣٨ تطورا وضع القوى الإسلامية — ومن بينها شيزر — أمام عداء بيزنطى قدر له أن ينضاف إلى العداء الصليبي اللاتينى التقليدى ، رغم ما كان بينهما من قبل من التباين والخلاف ، الذى اختفى وحل محله تحالف ووئام وجه ضد القوى الإسلامية فى بلاد الشام وشيزر بصفة خاصة .

---

(١) Honingmann : Encyc. Isl. art. «Shaizar»

ذلك أن إمبراطور الدولة البيزنطية حنا كومنين (١١١٨ — ١١٤٣ م) كان أكثر طموحا من والده ألكسيوس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨) ، إذ كان حنا قائدا حربيا ماهرا ، لم يقنع كوالده بما اختلسته الامبراطورية من نفوذ في آسيا الصغرى على أثر تقدم الصليبيين ، ولكن همته ارتقت إلى استعادة مجد الامبراطورية ونفوذها فيما كان خاضعا لها من قبل من البلاد في المنطقة، وقد نجح حنا كومنين فعلا في استرداد كثير من إملاك الإمبراطورية في آسيا الصغري على حساب سلاجقة الروم وبيت الدانشمند ، وكذلك على حساب الأرمن في قيليقيا (١) ، ولكنه مع ذلك كان دائم التطلع إلى أنطاكية باعتبارها كانت درة في عقد أملاك الإمبراطورية البيزنطية في الشرق (٢) .

وإذ فشل حنا كومنين في ربط إمارة أنطاكية بالتبعية للامبراطورية عن طريق عقد مصاهرة سياسية بين أحد أمراء أسرته وابنة روجر الأنطاكي في عام ١١١٩م (٥١٣هـ) على أمل أن يؤدى هذا الحل ولو مع مضى الزمن إلى عودة أنطاكية إلى حظيرة الإمبراطورية (٣) ، ثم كان زواج كونستانس الوريثة الشرعية لإمارة أنطاكية من ريموند دى بواتيه سنة ١١٣٦م فيه ضياع

---

(١) أسد رستم : الروم والعرب ج٢ ص١٤١

(٢)
Chalandon : Les Commenes, II p. 107-8
Diehl : op. cit. p. 112
Camb. Med. Hist. 4. P. 358
Ostrogorsky : op. cit. p. 336

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٨٢

لآخر أمل للامبراطورية فى استعادة هذه الإمارة سلميا ، لذا قرر حنا كومنين قيادة جيشه فى يوليو سنة ١١٣٧ (٥٣٢هـ) والزحف إلى أنطاكيـة لتحقيق هدفه بالقوة (١) .

فرض حنـا كومنين الحصار على أنطاكية فى أواخر أغسطس سـنة ١١٣٧م ، وأصبـح موقف أميرها ريموند دى بواتيه حرجا ، ومع هـذا أحس الإمبراطور بقوة تحصينات المدينة وحسن الدفاع عنها ، فضلا عن أنه خشى أن يؤدى تقويض دعائم الحكم الصليبى بها إلى استفادة المسلمين من ذلك لاسيما زنكى الذى كان يعمل حينئذ على توحيد الجبهة الإسلامية فى بلاد الشام وشمال العراق ، فمال الإمبراطور إلى عدم اقتحامها بالقوة . هذا فى الوقت الذى لم يكن ريموند يأمل فى نجدة صليبية من المملكة فى الجنوب بسبب الظروف التى تعرض لها الملك فولك الأنجوى أثناء حربه مـع زنكى عند بعرين (٢) ، ولأن الملك كان يؤمن بأن أنطاكيـة كانت فعلا من أملاك البيزنطيين ، فإنه

---

(١) Grousset : cp. cit. II. pp. 90-19

(٢) استطاع زنكي أن يهزم القوات الصليبية بقيادة الملك فولك وريموند الثانى أمير طرابلس عند حصن بعرين قرب حماه فى نهاية يونيو سنة ١١٣٧ حيث وقـع أمير طرابلس فى الأسر بينما فر الملك فولك إلى بعرين للتحصن بها فحاصره زنكى حتى أجبره على التخلى عن الحصن وحصل منه على فدية كبيرة تقدر بخمسين ألف دينار نظير إطلاق سراحه

Guillaume de Try. pp. 643-5

Grousset : cp. cit. II. P. 57

Smail : cp. cit. p. 33

لم يتحمس للدخول فى صراع معهم (١) ، وليس من شك فى أن الإمبراطور قد اقتنع أنه بفرض استيلائه على أنطاكية وإخراج الصليبيين منها لا يضمن استمرار الدفاع عنها لبعدها عن مراكز قوته مع تحفز الخطر الإسلامى فى المنطقة، كل هذه الأسباب عجلت بالتقاء وجهات النظر بين الإمبراطور وأمير أنطاكية الصليبى وأصبحا أكثر رغبة فى عقد الصلح وإقرار السلام بينهما .

استقر رأى الإمبراطور فى النهاية على إقامة تحالف مع الصليبيين ، وعلى تنسيق الجهود معهم فى بلاد الشام ، والقيام بحملة صليبية مشتركة لانتزاع بعض المراكز الاسلامية الكبرى ، وتكوين إمارة جديدة ، يعهد بها لريموند دى بواتيه ، لتكون من ناحية حماية لظهر أنطاكية من جهة المسلمين ، ومن ناحية أخرى تعويضا لريموند عن أنطاكية التى ستدخل فى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية .

أما المراكز التى رؤى انتزاعها من يد المسلمين فهى : حلب وكانت تابعة حينئذ لعماد الدين زنكى ، وشيزر إمارة بنى منقذ المستقلة ، وحمص التابعة لأمير دمشق ، وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يدخل أمير أنطاكية فى نطاق التبعية للامبراطورية ، ويعترف بسيادة الإمبراطور ويقسم له يمين الطاعة والولاء ، ويسلم المدينة نهائيا الامبراطور بعد نجاح الطرفين معا فى انتزاع المدن المشار إليها وتكوين إمارة واحدة منها تمنح لريموند، وتم الصلح فعلا وعقدت اتفاقية بهذا المضمون ورفع علم الإمبراطورية على قلعة المدينة على أثر ذلك (٢) .

---

(١) Runciman : op cit. I. P. 2(5

Michaud : op. cit. I. p. 312-3

(٢) = Camb. Med. Hist. Vol. 4 p. 359

حرص الإمبراطور بعدئذ على تكتم أخبار الحملة المزمع القيام بها ضد المسلمين للاستيلاء على حلب وشيزر وحمص ، وأصدر أوامره إلى سلطات أنطاكية أن تقبض على كافة التجار والرعايا المسلمين الوافدين من حلب والمدن المجاورة حتى لا ينقلوا إلى زنكى وبنى منقذ أخبار الاستعدادات الحربية التى تجرى على قدم وساق «فقبضوا على التجار بأنطاكية والسفار من أهل حلب»(١)، وذلك فى فبراير سنة ١١٣٨ (جمادى الأولى سنة ٥٣٢ ﻫ). ووصل الإمبراطور البيزنطى إلى أنطاكية فى الشهر التالى واجتمعت لديه قوات الرها تحت قيادة جوسلين وقوات أنطاكية تحت قيادة ريموند دى بواتيه وتقرر الزحف تجاه حلب (٢) .

وفى طريقه استولى الإمبراطور وحلفاؤه على بزاعا فى منتصف ابريل سنة ١١٣٨ (أواخر رجب سنة ٥٣٢ﻫ) ومنحت لجوسلين أمير الرها، ثم فرضوا الحصار على حلب ولكنها صمدت للحصار ، فأقاموا عليها ثلاثة أيام فلم يظفروا بطائل ، فقرروا الانصراف عنها (٣) ، واتجهوا نحو الأثارب التى فارقها أهلها

Michaud's hist. of the Crusades. I: p. 312
Brehier : vie et mort de Byzance. p. 324
Vasiliev : op. cit II. p. 55
Grousset : L'Empire du Levant. p. 222-3

(١) ابن العديم : زبدة ج٢ ص٢٦٤ ، ابن القلانسى : ذيل ص ٢٦٤

(٢) Smail : op. cit. p. 33

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص٣٥٩ — ٣٦٠ (سنة ٥٣٢ ﻫ)

ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٧٨— ٧٩

ابو شامة : الروضتين ج١ ق ١ ص٨١ (تحقيق محمد حلمى أحمد)

فاستولوا عليها بسهولة ثم على معرة النعمان فى ٢٥ أبريل سنة ١١٣٨ (١٣ شعبان سنة ٥٣٢ هـ) ثم على كفر طاب بعد ذلك بيومين ثم تابعوا سيرهم ناحية شيزر (١) .

ولقد نظر الإمبراطور عندئذ إلى مسألة إسقاط شيزر بالذات نظرة جادة لما أصاب جهوده عند حلب من فشل ، فشيزر هى المدينة الثالثة التى خطط لضمها إلى الإمارة اللاتينية المزمع إقامتها ، بل إنها تتوسط المدينتين الأخرتين - حلب وحمص — وتمثل أهم المدن فى حوض نهر العاصى الأوسط كما أنها كانت إمارة مستقلة تحت حكم أبى العساكر — ليست من أملاك زنكى وليست من أملاك دمشق ، فلأنها لم تكن لزنكى فلن يكون له فى حفظها اهتمام ، وإذا كانت حلب قد صمدت لهجوم الإمبراطور واضطرته للرحيل عنها ، فإنه لا شك تأكد أن حمص التى تلقى عناية خاصة من زنكى ودأبا متواصلا للفوز بها لن تستطيع هى الأخرى أن تسهم فى إقامة الإمارة اللاتينية المرتقبة ، لذن لم تبق سوى شيزر المتمتعة بموقع فريد يمكن أن يكون نواة لأى إمارة يرجى تكوينها فى هذه المنطقة ، كما أنه لم يرد — كما يبدو — أن تتمخض حملته الكبيرة بما لقيته من مؤازرة صليبية عن مجرد الاستيلاء على بعض القلاع والحصون الصغيرة دون المدن والإمارات الكبيرة .

لهذه الأسباب كلها نشط الإمبراطور للاستيلاء على شيزر وألقى الحصار عليها فى ٢٩ أبريل سنة ١١٣٨م (٢) بقوات كبيرة وآلات حرب هائلة

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧

(٢) Camb. Med. Hist. 4. q. 359

ومجانيق ثقيلة حتى ليذهب المؤرخ ابن العديم أن الإمبراطور هاجمها . في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل ومعهم من الكراع والسلاح ما لا يحصيه إلا الله ، [1] ، ويقول المؤرخ ابن القلانسي — المعاصر لهذه الأحداث — أن الإمبراطور هاجمها في عنف بالغ ، ونصب عليها عدة من المناجيق ، [2] ويصف أسامة — شاهد العيان لهذه الحرب — ضخامة تلك المنجانيق وقوتها وفداحة ما أحدثته من خسائر بقوله : « ترمى الثقل وتبلغ حجرها مالا تبلغه النشابة ، ترمى الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا حتى لقد رموا مرة دار صاحب لى ... فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد ، [3] .

اشتدالإمبراطور فى الهجوم على شيزروقتال أهلها فى عنف بالغ ، فاضطر أميرها أبو العساكر سلطان للاستنجاد بعمادالدين زنكى ، ولم يكدهذا يتلقى الطلب حتى سارع بإيقاف كل مشروعاته فى بلاد الشام وجهوده فى توحيد الجبهة الإسلامية ، وبادر بالرحيل إلى شيزرونصب خيمه على ضفة نهر العاصى بينها وبين حماة [4] .

وفى نفس الوقت جرى الدفاع عن شيزر ، وأظهر أهلهاصبرا وجلداوقوة مراس ، وكانوا يخرجون للاشتباك مع الروم عند أسوار المدينة معرضين

---

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٦٧

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٦٤

(٣) أسامة : الاعتبار ص ١١٣

(٤) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٣٦٠ (سنة ٥٣٥ هـ)

ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ٧٨ — ٧٩

أنفسهم للقتل والأسر « وخرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال ، فاقتلهم الروم فقتلوا بعضا وأسروا بعضا » (١) . واستمات أهل شيزر في الدفاع عنها ، وبذلوا كل ما في وسعهم لمنع سقوطها في أيدي الغزاة ، على الرغم مما أحدثته المجانيق في استحكاماتها وأبنيتها من خراب ودمار وما أسفرت عنه من خسائر في الأنفس . إذ يحكى أسامه عن مملوك لوالده أن رجلا جاءهم حينئذ مستصرخا مستغيثا قائلا : الروم قد دخلوا إلى شيزر « فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم (الروم) قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق ، فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم وعدنا » وبينما هذا المتحدث يقف مع الشيخ الذي استصرخهم «فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرته وألصقته بالحائط ومخه قد سال على الحائط فحملته وصلينا عليه ودفناه » ، كل ذلك وأبو العساكر سلطان يشرف بنفسه على القتال وينظم أمر الدفاع عن شيزر « وضربت حجر المنجنيق رجلا من أصحابنا كسرت رجله فحملوه بين يدي عمي ، فقال : هاتوا المجبر ، فحضر وجلس يجبر رجله ، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته فدخل المجبر إلى الدهليز فقال عمي ما أسرع ما جبرته قال : يا مولاي جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير » (٢)

وعلى هذه الصورة جرى الدفاع عن شيزر أربعة وعشرين يوما تحمل بنو منقذ خلالها كثيرا من المتاعب وتعرضوا لخسائر فادحة في الأنفس والعتاد ، ولم

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٩٢

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١١٣ – ١١٤

تكف المجانيق عن ضربهم ليلا أو نهارا طوال تلك المدة ، إذ دام القتال بعنف بالغ نحو عشرة أيام ثم اقتصر الأمر بعد ذلك على ضرب المجانيق . لكن أهل شيزر وفقوا فى الدفاع عنها وحمايتها من السقوط . ومما ساعدهم على ذلك ورفع من روحهم المعنوية ما قام به عماد الدين زنكى حينئذ من حشد جيشه ونزوله بقربهم وتأهبه للقتال (١)

وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى لم تكن له بالبيزنطيين وحلفائهم قوة ، ولم يستطع الدخول معهم فى حرب فاصلة حينئذ إلا أنه أسهم كثيرا فى إجلاء الإمبراطور عن شيزر وكان له ضلع فى النهاية الفاشلة التى انتهت إليها الحملة الرومية الصليبية المشتركة ، فلقد سلك زنكى طرقا مختلفة لارهاب الإمبراطور وبث الرعب فى نفوس جنده بينما أرسل يستنجد بالسلطان السلجوقى مسعود ، كما أخذ يوقع بين البيزنطيين وحلفائهم من الصليبيين ، فبعث إلى الإمبراطور يوهمه بخوف الفرنج منه وعزمهم على التخلى عنه ، وفى نفس الوقت أرسل إلى الفرنج يخوفهم أطماع الإمبراطور وأنه إذا ملك حصنا بالشام فلن يكون لهم مقام معه فى تلك البلاد ونجح زنكى فعلا فى بث الفرقة وبذر الشقاق بين الجانبين (٢) .

وفى نفس الوقت كانت الرغبة كامنة لدى ريموند أمير أنطاكية فى التخلى

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ص ٤٦٧–٤٦٨

أبو شامة : الروضتين ج ١ ق ص ٨١

Brehier : vie et mort de Byzace. p. 324

Chalandon : op. cit. II, p. 151

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٦٠ (٥٣٢ هـ)

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٨١ – ٨٢

عن هذه الحملة وكان يأمل ألا تسقط شـــيزر في يد الإمبراطور خشية أن يتمسك هذا بشروط الاتفاقية ويقيمه أميراً عليها ويحرمه من أنطـاكية مع الفارق بين الامارتين في كل شيء حتى في الموقع ومدى التعرض للخطـــر الإسلامي . هذا فضلا عن أن جوسلين الثاني أمير الرها مع سوء العلاقة بينه وبين ريموند لم ينظر بعين الرضا إلى أي تغيير قد يؤدي إلى تنصيب غـريمه في شيزر وحلب قريباً منه (١) . لهذا كله أصبح اشتراك هذين الأمـيرين مع الإمبراطور عديم الفائدة وغدا عبئا عليه أكثر مما كان عوناً له ، وإذا أضفنـا إلى ذلك شجاعة حامية شيزر واستماتة رجالهـا في الدفاع عنها ، تأكدنا أن فشل الحملة الرومية الفرنجية أصبح وشيك الحدوث .

وفي الوقت نفسه تواترت الأنباء بما حدث من رد فعل لدى المسلمين على أثر التقدم البيزنطي الفرنجي في بلاد الشام ، فاستعد السلطان مسعود لإرسال نجـدة كبيرة لزنكي وتأهب داود بن أرتق للزحف في طوائف التركمان ، وكذلك تناهي إلى الإمبراطور أن زنكي بعث إلى بني دانشمند بآسيا الصغرى ليهـاجموا أملاك الإمبراطورية هناك حتى يضطر الإمبراطور إلى الارتداد للدفاع عما بيده بتلك المنطقة ، وكذلك ذاع أن عسـكر دمشق يوشك أن يصل لمساعدة زنكي عند شيزر ومقاومة البيزنطيين والفرنج (٢) .

لهذه الأسباب كلها أصبح الإمبراطور البيزنطي أكثر ميلا لعقد الصلح

---

(١) Grousset : Hist. des Crois. II. P. 109

(٢) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٢٦٨

ابن القلانسي : ذيل ص ٢٦٦

مع أمير شيزر أبى العساكر سلطان ليخرج من هذا المأزق ، فلم يكد سلطان يتقدم بطلب الصلح عارضاً دفع مبالغ من المال وجزية سنوية للامبراطور مع بعض الهدايا الثمينة حتى بادر الامبراطور بالموافقة على الصلح ، وأخذ فى سحب جيوشه من أمام شيزر عائداً إلى أنطاكية وذلك فى مايو سنة ١١٣٨ م. وعلى هذه الصورة انتهت حملته بالفشل الذريع ولم تحقق أيا من أهدافها (١) . فى الوقت الذى نجا فيه سلطان من أكبر خطر هدد أمنه واستقلاله ونجت شيزر من أكبر خطر واجهها على امتداد عهد بنى منقذ . وما أن أخذ زنكى يمحو آثار العدوان البيزنطي الفرنجى باسترداد كفر طاب وبزاعا والأثارب حتى أخذت الحياة تسود رتيبة هادئة فى شيزر وضواحيها وبطارد حكم أبى العساكر سلطان بها وتصفوا له مشاربها نحو ستة عشر عاما أخرى حتى سنة ١١٥٤ م حين تؤول إلى آخر أمير من بنى منقذ قبل أن يلحقها الخراب والدمار فى سنة ١١٥٧ كما سيلى .

(١) Archer : The Crusades. p. 192

(هـ) نهاية بنى منقذ

سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ)

ظل أبو العساكر سلطان أميراً على شيزر مدة طويلة أكثر من نصف قرن من الزمان حتى توفى سنة ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ) بعد عمر مديد وعهد حافل وعلى الرغم من ضآلة المعلومات التى وصلتنا عن الفترة الأخيرة من حكم سلطان إلا أن ثمة دلائل تشير إلى أنه لم يلق أية مصاعب فى شيزر من قبل جيرانه من الصليبيين خاصة بعد أن ولى حلب نور الدين محمود بن زنكى ابتداء من سنة ١١٤٦ م (٥٤١ هـ) بعد مقتل عماد الدين زنكى ، فقد تكفل نور الدين بتقليم أظفار الفرنج الذين بدا أنهم أخذوا فى الترنح بعد وفاة فوالك الأنجوى سنة ١١٤٣ (٥٣٨ هـ) وهدم إمارة الرها اللاتينية سنة ١١٤٤ م (٥٣٩ هـ) وبروز الجيل الثانى من الفرنج فى بلاد الشام على حد ماذهب اليه المؤرخون المحدثون فى الغرب ، إذ تتحدث المراجع عن نشاط جم لنور الدين ضد الصليبيين وتحفزه الدائم لاسترداد كل مايستطيع من قلاع وحصون ، ولعل مايهمنا من ذلك اهتمامه بتأمين حوض نهر العاصى وحرمان الفرنج من بعض القلاع الخطرة بالنسبة للمراكز الإسلامية فى تلك البقاع خاصة حصن أفامية الذى فشلت قوات شيزر أكثر من مرة فى الاستيلاء عليه ، فقد قام نور الدين سنة ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) بحصاره والاستيلاء عليه بسرعة قبل أن يتلقى نجدة من الفرنج ، فأمنت شيزر بذلك من جهة أفامية ، وخاصة وأن هذا الحصن كان قد أقيم « على تل عال من أحصن القلاع وأمنعها »(١) ، فلما وقع فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٣٠

يد نور الدين اطمأنت شيزر من هذه الناحية وسارت الأمور فى أخريات أيام سلطان فى شىء كثير من الهدوء .

وكان أبو العساكر سلطان فى أول عهده حفياً بأخيه مرشد وبنيه وكان يخص أسامة بالذات بحبه وعطفه ورعايته ، وذلك كله قبل أن ينجب ذكوراً ، فلما أنجب تبدلت معاملته لبنى أخيه وتغير عليهم حتى أن أسامة اضطر لترك شيزر مؤقتاً سنة ١١٢٩ م (٥٢٤ هـ) ونهائياً بعد وفاة والده سنة ١١٣٧ م (٥٣٢ هـ) فى الوقت الذى أخذ سلطان يمهد السبيل لابنه ليخلفه فى حكم شيزر ، وجاء خروج أسامة وإخوته وتفرقهم فى بلاد الشام عاملا مشجعاً لسلطان ليذلل الحكم لابنه من بعده فلما توفى سلطان سنة ١١٥٤ م خلفه ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد آخر أمراء بنى منقذ وأسوأهم طالعا .

والواقع أن حظ هذا الأمير الجديد كان تعساً للغاية لأنه لم يهنأ بالحكم طويلا ولم يسعد بالإمارة كثيراً ، فقد أودت به وبأسرته وإمارته أفظع مأساة شهدتها بلاد الشام وأشد كارثة حلت بتلك المنطقة منذ زمن طويل ، جعلت من شيزر وكثير من توابعها وضواحيها أثراً بعد عين ، ووضعت نهاية تعسة لأسرة بنى منقذ وخاتمة مروعة لإمارتهم فى حوض نهر العاصى الأوسط .

فبعد أقل من ثلاث سنوات من عهد هذا الأمير الجديد حدث زلزال كبير فى بلاد الشام سنة ١١٥٧ (رجب سنة ٥٥٢ هـ) أودى بكثير من المدن والقلاع والحصون وكشف كثيرا من المراكز الهامة سواء فى الجانب الإسلامى أو الجانب الصليبى . فقد لحقت أضرار بالغة بكل من : حماه

وشيزر وكفر طاب وأفامية ومعرة النعمان وحمص وحصن الشمس عند سلمية [١] وأنطاكية وطرابلس ودمشق وجميع العواصم [٢] ، وهلك فيها مالا يحصى كثرة . وكانت نكبة بعض المدن والقلاع أكثر من غيرها فقد : « خربت بالمرة حماه وشيزر وكفر طاب والمعرة وأفامية وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وأنطاكية وتهدمت أسوار البلاد والقلاع » [٣] .

اما بالنسبة لبنى منقذ فمن سوء حظهم أن هذا الحدث المروع صادف وليمة أقامها أميرهم تاج الدولة محمد بمناسبة اختتان ولد له جمع من أجلها كل بنى منقذ وحشدهم بقصره ليشاركوه الاحتفال بتلك المناسبة ، وكأن القدر كان يرسم نهاية هذه الأسرة ويخط نهاية حكمها لشيزر ؛ إذ حدث الزلزال وهم جميعا فى دار الأمير لاهين سعداء يشاركون أميرهم أفراحه ، وتبلغ المأساة ذروتها وعنفها بما يؤكد أنها رسمت فعلا نهاية تلك الأسرة الحاكمة إذ يقال أنه كان لأميرهم حصان نجيب يدلله ويقربه ، ولا يكاد يفارقه وإذا كان بمجلس أقيم ذلك الفرس على بابه ، ، وفى ذلك اليوم وضع الحصان كالعادة على الباب ، فلما حدثت الهزة الأولى انزعج الحاضرون وتدافعوا إلى الباب طلبا للنجاة وخرج واحـــد منهم فعلا : « فرمحه ذلك الفرس فقتله ، فأحجم الناس عن الخروج وحوصروا فى الداخل ، لكن القصر أخذ يهتز بعد ذلك بعنف ، ثم

---

(١) ابن العـــديم : زبدة ج ٢ ص ٣٠٦

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٥٤٢

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ ص ١٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٣

مالبث أن تهاوى عليهم فأهلكهم جميعا ودفنوا تحت الأنقاض [١] . وهلك الأمير تاج الدولة نفسه وكل أولاده وبقية أسرته « ولم يسلم منهم إلا الخاتون أخت شمس الملوك زوجة تاج الدولة بن منقذ » التى « نبشت من تحت الردم سالمة » .

وعلى هـــذه الصورة هلكت أسرة بنى منقذ كلها تقريبا وتهدمت قلعتهم وتشعثت إمارتهم ، ولم تسلم توابعها من الخراب والدمار فقد تتابعت الهزات الأرضية بعدئذ لتعصف بكثير من ضواحى شيزر وتؤكد مضيها فى تقويض بقية معالم الإمارة المندثرة ، فقد وصف المؤرخ ابن القلانسى — المعاصر لهذه الأحداث — تلك الكارثة المروعة وذيولها وصفا ينم عن أسى وحزن ويجسم أبعاد النكبة وحدود المأساة التى ألمت بالمنطقة والتى راح آل منقذ ضحيتها [٢] وأشار أيضا إلى ماترتب عليها من نشاط الفرنج للاستفادة من الأوضاع الجديدة .

غير أن نور الدين محمود أسرع بالتصدى لمحاولات الصليبيين ، ووصل إلى شيزر بعد ذلك بقليل فتسلم القلعة وأسرع بتعميرها وإصلاح ماتخرب منها « وعمر أسوارها ودورها » ويبدو أن ذلك قد كلفه أموالا طائلة لأنه جدفى البحث عن أموال وكنوز بنى منقـذ فسأل امرأة تاج الدولة التى نجت من الكارثة عن أمـوال قـومها وهددها ولكنها أجابت بأن « الدار سقت عليها

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ ، ابن الاثير : نفسه ٩ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٣٤٤

وعليهم ونبشت هي دونهم ولا نعلم بشيء وإن كان لهم شيء فهو تحت الردم»(١).
فلم يمنع ذلك نور الدين من المضي في تعمير شيزر وتحصين القلاع في المنطقة
وترتيب الدفاع عنها ضد الفرنج .

ويبدو أن الحياة عادت سريعة إلى شيزر بعد أن عمرها نور الدين وآوى
إليها الناجين من المأساة ، فقد تحدث ابن القلانسي عن قيام نور الدين في أواخر
عام الكارثة (٥٥٢ هـ) بالتصدي لجيش أنطاكية الصليبي الذي خرج يبغي
الإغارة على الجهات المجاورة ، فجمع نور الدين جيشه وضم إليه « من سلم من
أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها » واستطاع أن يجبر الفرنج
على العودة إلى أنطاكية دون أن يحققوا أهدافهم بل ويجبرهم على التحصن
بها خوفاً من لقائه .

وهكذا غدت شيزر تابعة لنور الدين محمود ومثلت جزءاً من ممتلكاته ،
وانتهى عهد بني منقذ الزاهر فيها ، وطويت تلك الصفحة المشرقة في تاريخها،
فلم تعد مقر إمارة مستقلة ولم تعد مركز الثقل في حوض نهر العاصي الأوسط
كما كانت من قبل — بعد فترة عز ورفاهية ومجد وإشراق عاشتها على مدى
ثلاثة أرباع قرن من الزمان(٢) . وعلى هذه الصورة انتهت شيزر كإمارة مستقلة

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص ٣٠٧

(٢) Derenbourg : vie du Ousama. p. 571

ولا شك أن كل هـذه المعاني قد تدافعت إلى ذهن أمير من أمرائها الناجين يدعى
اسمعيل — وهو أخ لأميرها المنكوب ، وكان خارجها وقت الكارثة — فلما عاد وأبصر
أطلال شيزر وشاهد أنقاضها قال: =

بعد أن أعطاها بنو منقذ شهرة ذائعة لم تصبها طوال العهد الإسلامي كله من قبل أو من بعد ، وانتهت الامارة العربية الثالثة في بلاد الشام قرب منتصف القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) ، لنفتقد بعدئذ هذا النوع من الدويلات المستقلة الضاربة بنسبها إلى الأصول العربية الخالصة ، والأرومة العربية الأصيلة ، ليعم النفوذ التركي والتركماني المنطقة وتندثر ملامح السلطة العربية وتضيع وسط ضجيج الأحداث ، وتعود بعض فلولها إلي مضارب القبائل الباقية في بادية الشام والسماوة وعلى تخوم العراق وفلسطين قبل أن تذوب تلك الفلول في المجتمع الجديد الذي بدأ يأخذ سمته إلى فصل جديد في تاريخه في العصور الوسطى .

٭ ٭ ٭

وعلى الرغم من انهيار الامارات العربية الثلاث في حلب وطرابلس وشيزر وقصر عهودها في تلك البلاد ، إلا أنها ـ مع ذلك ـ كانت نموذجا رائعا لمشاركة القبائل العربية النازحة في صنع تاريخ بلاد الشام ، وكانت مثلا

= ليس الصباح من المساء بأمثل ... فأقول لليل الطويل ألا انجل

يا « تاج دوله هاشم » بل يا أبا ... التيجان بل ياقصد كل مؤمل

لو عاينت عيناك « قلعة شيزر » ... والستر دون نسائها لم يسبل

لرأيت حصنا هائل المرأى غدا ... متهللا مثل النقا المتهيل

لايهتدى فيه السعاة لمسالك ... فكأنما تسرى بقاع مهول

٭٭

نزلت على رغم الزمان ولو حوت ... يمناك قائم سيفها لم ينزل

فتبدلت عن كبرها بتواضع ... وتقوضت عن عزها بتذلل

حيا لنجاح القبائل فى الاضطلاع بدورها الجديد فى وطنها الجديد ، كما جاءت دليلا على ما أصاب تلك القبائل من تغير، وما شهدته من تحول ، فقد نجحت القبائل العربية فى الأخذ بأسباب التحول الجديد فعلا ، والاستجابة لعناصر التغيير المستحدثة ، فأثبتت قدرتها على إدارة شئون الحكم والقيام بأعباء السلطة وفرض الاستقلال وحمايته وأسباغ الطابع العربى على مظاهر الحياة فى الإمارات المستقلة . لهذا حملت إماراتهم الثلاث عبير الأيام المنصرمة وريح الماضي البعيد وظل أيام الخلافتين العربيتين بعهديهما الزاهرين وأيامها المجيدة فى دمشق وبغداد .

ولئن لم ينجح الأمراء العرب فى احتواء أراض شاسعة أو ضم أقاليم كثيرة أو التطلع إلى ميراث الخلافتين ، فإن إماراتهم كانت بمثابة قطاعات مصغرة من الدولتين الزائلتين ، وكانت نماذج حية لعهودهما الزاهرة ، على الرغم من أن تلك الإمارات كانت أشبه ببقع صغيرة وسط خضم كبير من النفوذ الأعجمى، وأشبه بجزر طافية وسط بحار من النفوذ غير العربى ، ولهذا جاء نجاحهم فى الاحتفاظ بتلك الأمارات مددا متفاوتة ، أمرا غريبا فعلا وشيئا فريدا حقا ، أكد مقدرة فائقة على المرونة والكياسة واللباقة التى يتمتع بهاأولئك الأمراء العرب ونم عن مقدرتهم العظيمة فى صنع الاستقلال وتأكيده ونيل الحرية وتقديسها والعمل على حمايتها فى ظروف بالغة الصعوبة . ولا شك أن ذلك يعد أبرز سمات الخلق العربى الأصيل وأبرز ملامح المجتمع العربى على امتداد تاريخه الطويل .

فلم تكن الإمارات العربيه الثلاث فى حلب وطرابلس وشيزر سوى محاولة

للتشبث بأهداف الماضى برغم تكاثر الصعاب وتضافر المخاطر ، ولم تزد عن كونها محاولة لرفض الاستسلام للقيادات الغريبة والدخيلة فى تلك البلاد ، بل إنها لم تكن أكثر من حشرجات الموت لجسد آخذ فى الاحتضار ، احتضار النفوذ العربى الأصيل على أثر تقدم موجات الترك وأشباه الترك ، بل وتقدم جحافل الصليبيين فى أطراف العراق وفى بلاد الشام ، فضلا عن إفاقات بيزنطة ، المتقطعة أحيانا المتصلة أحيانا أخرى .

* * *

المظاهر الحضارية للامارات العربية

(أ) اتجاهات الحكم فى الإمارات العربية :

— مدى الحفاظ على المقومات القبلية .

— الاتجاه نحو الاستقلال الذاتى والتكيف أحيانا طبقا لاتجاهات القوى.

— مدى العناية بالسكان فى النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

(ب) النواحى الحضارية والعمرانية :

— بعض مظاهر الترف فى حياة الأمراء العرب .

— العناية بالفنون والآداب .

— أهم المنشآت فى تلك الإمارات .

(ح) الأحوال الداخلية فى الإمارات العربية :

— طوائف السكان والفرق المختلفة من أتراك وتركمان وأكراد وغيرهم .

— والأقليات الأخرى من أتباع المذاهب المتطرفة فى بلاد الشام .

(أ) اتجاهات الحكم فى الامارات العربية

ليس من شك فى أن نجاح القبائل العربية فى بـــلاد الشام فى تكوين أمارات حاكمة مستقلة جاء نقلة كبيرة فى حياة تلك القبائل وتجـربة فريدة فى تاريخها . فلقد حاولت القبائل العربية طوال القرون المنصرمة من قبل الحفاظ على كيانها وطابعها ومقوماتها وراحت تمرح فى المنطقة فى حرية كبيرة متخذة من عـلاقاتها ببعضها ونظمها القديمة وعصبياتها أسسا لعناصر حياتها الجديدة وعلاقاتها فيما بينها من ناحية ، وفيما بينها وبين سلطات الحكم من ناحية أخرى، سواء كان مركز تلك السلطات دمشق أو بغداد أو الموصل أو حلب .

وقد سببت تلك القبائل النازحة إلى أطراف العراق وبلاد الشام كثيرا من القلق للسلطات الحاكمة ـ كما رأينا ـ ولم يكن من السهل كبح جماحها خاصة إذا حنت لنوبات جاهليتها ونشاطها القبلى القديم . على أن طول الجوار فى مسرح الأحداث الجديدة والاحتكاك الدائم بالسكان وفرص التحول من حياة الانطلاق والبداوة إلى حياة الاستقرار جذب كثيرا من بطون تلك القبائل وعشائرها وأغراها بالميـل إلى حياة الاستقرار فى الوقت الذى حافظت فيه بطون أخرى على مقوماتها وخصائصها وطابعها .

والتحول الذى نتحدث عنه والذى أخذ طابع التدرج والبطء ، ولم يأخذ شكل الطفرة جرى على امتداد الفترة التى عاشتها تلك القبائل فى وطنها الجديد، وزادت سرعته نسبيا فى الفترة التى عاشتها الإمارات العـربية ، موضوع هذا البحث ، والتى نجحت القبائل فى إقامتها فى بلاد الشام .

أما طبيعة التحول الذى نتحدث عنه فيكمن فى نبذ حياة البداوة إلى حياة الحضر

والاستقرار والعمل بالزراعة وغيرها من أعمال المدن ، والسكن فى القرى والمدن وإقامة العلاقات الاجتماعية فى الحياة الجديدة .

ويبلغ هذا التحول مداه ويصل إلى ذروته ، بالوثوب إلى مراكز السلطة، وإقامة الحكم والظهور بمظاهر الأبهة والعظمة ، واتخاذ الحاشية وتعيين الوزراء والحجاب والكتاب والإقامة فى القصور وتنظيم الجيوش والدواوين وحضور الاحتفالات الرسمية وتقريب الشعراء وعقد المجالس والفصل فى القضايا إلى غير ذلك .

فالى أى حد حدث التحول فى حياة القبائل التى تعنينا وإلى أى مدى — فى نفس الوقت — حافظت على مقوماتها مع مجاراة التحول الجديد ، وكيف نظر كل من بنى كلاب وبنى عمار وبنى منقذ إلى عناصر هذا التحول وجاروا الاتجاه الجديد فى موطنهم ومقر إماراتهم ومضارب قبائلهم ؟

أما بالنسبة لبنى كلاب ، فإنهم لاشك استجابوا لعناصر التحول الجديد مع الحفاظ أيضا على أهم مقوماتهم كقبيلة كبيرة من أشهر قبائل العرب ، ومن أبرز الفروع القيسية فى شمال الشام وأطراف العراق .

وقد بدأ نشاطهم يطرد فى المنطقة منذ هجرتهم شبه الجماعية فى أوائل القرن الرابع الهجرى كقبيلة واحدة بكل ماتحمله من مظاهر العالم القبلى ، على الرغم من انفصال بعض عشائرها وجنوحها إلى أماكن أخرى غير أماكن التجمع الكلى للقبيلة [1] لكن اشتراك بنى كلاب فى الأحداث على عهد

---

(١) Canard : cp. cit. p. 610

الدولة الحمدانية كان كقبيلة واحـــدة وإن أظهرت بعض بطونها نشاطاً جما أكثر من غيرها .

غير أن فرسان بنى كلاب ظلوا يحملون طابع المقاتلين العرب القـــدماء ، ويجيدون الكر والفـــر ويجوسون خلال الديار ، ويعودون إلى مضارب قبيلتهم أو يتغيبون عنها إذا عرضوا خدماتهم على هذا أو ذاك أو اضطـروا للمشاركة فى الحـروب الطويلة أو انخرطوا فى سلك الجندية لدى أمراء المنطقة .

وأخذ التحول يأخذ مجراه فى جوف هذه القبلية الكبيرة بعدئذ ، فمالت بعض عشائرها إلى الاستقرار ، وسكن القرى والمدن والاشتغـال بالزراعة ولدينا أمثلة متوفرة ومتعددة على ذلك (١) . ثم أخذ التحول ابتداء من أول القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) يأخذ صفة الإسراع شيئا ما ويميل جهـــة التعمق أكثر من ذى قبل ، فأصبح بنو كلاب معنيون بأمر حلب وأمراء حلب أكثر من عنايتهم بمضارب القبيلة ، فمالوا إلى تتبع أخبار حلب والتدخل فى شئونها وحرصوا على الفوز بأعطيـاتها وإقطاعاتها ، بل طمحت هممهم لمشاركة أمرائها أملاكهم وضياعهم والأمثلة على ذلك متوفرة أيضا فى تاريخ تلك الحقبة من نشاط بنى كلاب (٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ٢٦٠

(٢) ابن العديم : زبدة جـ١ ص ١٩٩

سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٨ ص ٧٨

Lane-pcole : op, cit. p. 114

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١١ (طبعة بيروت)

وعلى الرغـــم من أن هذه المظاهر الجديدة قد بدأت تتغلغل فى كيان القبيلة الكلابية إلا أنها — مع ذلك — دخلت الحلف القبلى الكبير ، الذى ضم إلى جانبها كل من بنى كلب وبنى طىء كقبيلة واحدة ، وكعنصر وحلف بمقوماتها واتجاهاتها وأطماعها فى اقتسام المنطقة مع القبائل الأخرى ، وهو الحلف الذى قام فى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) والذى أسفر عن تغيير وجه الشام بأسره لمدة طويلة وتمخض من ظهور الإمارة الكلابية فى حلب وإمارة بنى الجراح الطائيين فى فلسطين (١) . وحينما جلس صالح بن مرداس زعيم بنى كلاب إلى جانب حسان بن المفرج بن الجراح زعيم بنى طىء ، وسنان بن عليان زعيم بنى كلب ، إنما كان يمثل حينئذ شيخ العرب الكبير ورأس القبيلة الطموح ويحمل على كاهله آمال قبيلة فى الاستقرار وأطماعها فى البقاء والاستقرار بعد طول الترحال . أى أنه كان يجسم مظاهر القـــديم والحديث فى وقت واحد ، وتتمثل فيه الرغبة فى الحفاظ على كيان القبيلة ككل ، والطمع فى التحول إلى حياة جديده ومظاهر عهـــد حديث فى تاريخها .

وحدث التحول فى حياة شيخ القبيلة نفسه وحياة قبيلته فى أغلبها بنجاحه فى إقامة إمارة مستقلة فى حلب ، فغدا صالح بن مرداس أميراً على حلب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦١ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٢٣
ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٢ ،

Lammens : La Syrie. I. P. 153
Wiet : L' Egypte Arabe P. 216

واتخذ مظاهر الأبهة والعظمة وسكن القصور وعمر الأبنية ، وقاد الجيوش وعين الوزراء والقضاة وباشر الحكم على امتداد إمارته وأخذ يتنقل بين حلب في الداخل وصيدا على ساحل البحر المتوسط (٢) .

ولكن هل يعنى ذلك انتهاء دور القبيلة الكلابية كإحدى القبائل العربية في بلاد الشام وعزوفها عن دورها التقليدى ، وممارستها حياتها السالفة ؟

الواقع أن الدلائل كلها تشير إلى أنه يمكن تمييز شقين واضحين لهذه القبيلة الكلابية إبان الفترة التى عاشتها الإماره المرداسية فى حلب . فبينما ظلت بطون منها وعشائر مرابطة فى أماكنها فى شمال الشام وحول حلب وفى مرج دابق وفى حللهم على مشارف البادية ، نجد أن جانباً آخر انخرط فى جيش صالح بن مرداس النظامى وفاز كثير منهم — خاصة من أقارب صالح — ببعض الإقطاعات والأعطيات فى جهات متفرقة فى حمص ومعرة النعمان وكفر طاب وغير ذلك من توابع حلب ، فهذا مقلد بن كامل بن مرداس يظهر فى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) وقد أمر على كفر طاب ومعرة النعمان وضواحيها ، ونجده فى ذلك العام يأمر واليه على المعرة ويدعى أبو الجيهان بأن « يخرب سور المعرة ويهدمه كله إلا برج وحيدة وبرج بنى الحجال ومواضع قليلة لغاية وقعت بها » . وبطبيعة الحال لم يكن يتزل مثل هذا الوالى الكلابى دون عشيرته ورجاله من بنى كلاب ، وكذلك نجد عطية بن صالح يستولى على الرحبة ويسكنها وماحولها لرجاله ومعاونيه من بنى

---

(٢) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٣٣

كلاب ، وهذه ليست سوى أمثلة لما كان يحدث من جذب لبعض العشائر والرجال والفرسان للحياة الجديدة على حساب التمركز القبلى القديم حتى نجد الاتجاه الجديد وقد طغى على النظم القديمة بمرور الوقت ، والجماعات الكلابية وقد هرعت إلى مواكبة الأكثرية المنجذبة إلى مظاهر التحول الجديد في حياة القبيلة .

ولكن بجانب هذه الأمثلة لازالت تطالعنا الأخبار على امتداد الحقبة المرداسية بتحركات الجموع الكلابية الأخرى المنسابة من مضاربها وحللها والتى كانت تلقى بثقلها فى المعارك إلى جانب أمير كلابى ضد أمير آخر ، تحركها أحيانا النوازع البشرية والأطماع الاقتصادية والأعطيات والهبات ، وأحيانا أخرى العلاقات الإنسانية والقرابة المباشرة والانتساب إلى غير ذلك مما يحمل فى طياته صفة القدم ، فهذه جموع بنى كلاب تزحف بالأمير محمود بن نصر ابن صالح لينازع عمه عطية على حلب أكثر من مرة لعدالة قضيته ، ولم يهدأ لتلك الجموع روع ولم يسكن لها خاطر حتى أقامته أميراً على حلب سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (١) . وهذه جموع بنى كلاب أيضا تزحف بوثاب بن محمود سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) لتقيمه أميراً على حلب وتخلع أخاه سابقاً — آخر أمراء بنى مرداس — مع تدعيم هذه الثورة بالافساد فى أعمال حلب

---

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٩٣ ،ص ٢٢٣ ،ص ، ٢٩٧

ابن القلانسى : ذيل ص ٩٠ ،ص ٩٢ ،ص ٩٣

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢

Camb . Med · Hist : 5 · P , 259

وشق عصا الطاعة على أميرها ومن والاه من الترك (١) وكلها أمثلة أيضا ونماذج لما كان يحدث من مظاهر التجمع القديم وسط معترك الحياة الحديثة ومظاهر التحول .

على أن الحفاظ على مقومات الحياة القبيلة لدى شق لا يستهان به من القبيلة الكلابية قد حفظ على تلك القبيلة كيانها وجعل وجودها فى البلاد أطول عمراً كقبيلة لها اسمها ، وذلك بسبب ضياع إمارتهم فى زحمة أحداث العصر ، وذوبان العناصر المتحولة وسط محيط السكان فى المنطقة مما أعطى التجمعات الكلابية الباقية حق الحفاظ على التراث الكلابى والمقومات القبلية برغم ماشابها من تأثر لطول المقام وكثرة الاحتكاك والانفتاح على التيـارات الجديدة والتأثر بالاتجاهات الحديثة إلى حد بعيد .

إذن فنحن أمام شقين من بنى كلاب شق تأمر وترأس واتخذ مظاهر العهد الجديد وجذب إليه الكثير من البطون والعشائر الكلابية ، وانخرط فى سلك الجيش وفاز بالاقطاعات والضياع والهبات ومنح هذه الحيــاة كل جهده ونشاطه وشق ظل يحافظ على مقومات الحياة القديمة ويتجمع فى مضارب وحلل ويسكن أطراف البادية ويلقى بثقله فى المعارك كلما دعت الظروف إلى ذلك فى ظل الفهم القديم للعلاقات بين الناس والفهم القديم للعدالة والجور والاستجابة لغير ذلك من النزعات القبلية والأطماع البشرية .

---

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٥٤ .

Sobernheim : Encye . ISL · art " Halab "

على أن الشق الذى خلع مظاهر القدم وانجذب إلى التيار الجديد لم ينفض يده كلية من مظاهر الحياة المنصرمة ، بل ظل يحفظ كثيرا من طابعها ومظهرها ويحاول التشبث بأبرز مقوماتها . فلازال أمراء بنى مرداس فرسانا لا يشق لهم غبار محار بين يجيدون الكر والفر ، تتحكم فى معاركهم الشجاعة والاندفاع والحماسة البدوية (١) ويميز سلمهم الاستمساك بالكرم والحلم والشهامة (٢) يميلون إلى مجالس الشعر ويستمتعون بمدح الشعراء ويزهون تيها وفخرا بمنح الهبات والأعطيات (٣). بل أنهم ظلوا يتخذون من جموعهم فى المضارب والحلل ركيزة لأطماعهم فى حلب وللتحكم فيها أو الفوز بها ، فهذا محمود ابن نصر يستنجد بحسام الدولة منيع بن مقلد ليعاضده ضد عمه ثمال بن صالح الذى نجح فى طرده من حلب ، فاستمهله منيع ورحل من عنده إلى ثمال وأمر أحد رجاله يقول لمحمود : « عمك هو الشيخ الكبير ، والعرب تأنف من معاضدة الولد على الوالد » (٤) . وهذا سابق ابن محمود يبعث إلى جموع بنى كلاب وهو يناضل ضد تاج الدولة تتش السلجوقى يقول : « إنى إنما أذب وأحامى عن

---

(١) ابن خلكان : وفيات ج ٢ وفيات ١٨٠ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، دور التيجان ورقة ٣٠٧ (مخطوط) ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٤

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٢٢٧

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٦٢

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٥٥ ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٧٠ ، ج٢ ص ١٤ — ١٥

أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٢ ، ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٦٤

(٤) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٤

بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد إلى تتش لزال ملك العرب وذلوا ، (١) .
على هذا الاساس وطبقا لمثل هذه المبادىء جرى إشراك بنى كلاب فى المنازعات بين أمراء بنى مرداس ، فكأنما كانت الجموع الأخرى هى الملجأ والملاذ أمام الأمراء الجدد من بنى مرداس ولم تنقطع الصلة بين الشقين بل إنها لم تتأثر وظل الشقان يمارسان نشاطها فى ظل تسمية عريضة تندرج تحتها كل الشعاب ألا وهى قبيلة بنى كلاب .

والشىء الذى يمكن ملاحظته بسهولة فى تاريخ تلك القبيلة المتأخر، أن الشق الذى ظل يحافظ على بعض مقوماتها ويحفظ عليها طابعها وسماتها ، استمر يمارس نشاطه بعد اندثار الإمارة المرداسية بزمن ليس قصير ، فنسمع عن عشائر بنى كلاب فى صف الجيوش المتنازعة فى الفترة المضطربة التى صاحبت الغزو السلجوقى ، بل إن زعماء البقية الباقية من بنى كلاب لم يجدوا غضاضة فى الاشتراك فى القتال إلى جانب السلاجقة ، فاشترك شبل بن مبارك الكلابى، وحامد بن زغيب ، ومعهم وثاب بن محمود فى صف تاج الدولة تتش(٢)،وبعد انتهاء حكم سابق واندثار الإمارة تفرقت الجموع الكلابية فى بلاد الشام ، ولم يعد لهم هدف واحد يجتمعون عليه خاصة بعد أن قسى شرف الدولة مسلم العقيلى فى معاملتهم وضيق عليهم ، ولهذا عرضوا خدماتهم على سليمان بن قتلمش بعد أن نجح فى فتح أنطاكية وساءت علاقته بشرف الدولة مسلم وذلك

---

(١) نفس المرجع : ص ٥٨

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٢

في سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٥م) (١). وفي سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠م) جمع مبارك بن شبل الكلابي الجموع الباقية من بني كلاب ونزلوا بقرب حلب وحالفوا الملك رضوان « ورعـــوا زرع المعرة وكفرطـاب وحماه وشيزر والجسر وغير ذلك » .

وهكذا أصبح بنو كلاب دون هدف يجتمعون عليه ، وعرضوا خدماتهم على أمراء الشام وراحت جموع كثيرة منهم تذوب وسط السكان وتختفي في زحمة أحداث العصر حتى وقـع الغلاء في ضواحي حلب بعد ذلك بقليل وانتشر الوباء في المنطقة فأودى بكثير من جموعهم وساهم في إلحـاق ضربة شبه قاضية بهم ، ولقد سجل هذا الحـدث المؤرخ ابن العديم الذي قال « ووقع الغلاء في بلد حلب ولم يزرع شيء من بلـدها وسلط الله الوباء على العرب فمـات شبل ومبارك وولده واضمحلت دولة العرب » (٢) .

وربما كانت هذه آخر الضربات الكبيرة التي نزلت بالجموع الكلابية على الرغم من بقاء بعض العشائر متشبثة بأهداب الماضي والنشاط القديم برغم تغير الظروف وتبدل المسرح والأحداث ،وبرغم ما كانت تعانيه من القلة والنقص، ويبدو أن تلك العشائر الكلابية الباقية كانت قد لجأت إلى الانزواء في مضارب قريبة من مضاربهم القديمة وحاولت أحيانا ممارسة نشاطها القديم ، إذ تتحدث المراجـع أيضا في سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨م) أي بعد ضياع إمارتهم بنحو قرن

---

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٨٨ — ٨٩

(٢) نفس المرجع : ج ٢ ص ٤٤٣

من الزمان ، عن قيام بنى كلاب بنصيب كمين لشهاب الدين مالك بن على بن مالك صاحب قلعة جعبر الذى نزل من قلعته يتصيد فقبض عليه بنو كلاب وحملوه إلى غريمه نور الدين محمود بن زنكى الذى أودعه السجن . (١)

وهكذا ظل اسم الكلابيين يخبو شيئا فشيئا حتى يندثر تماما ويذوب وسط الأحداث لينتهى دور تلك القبيلة الكبيرة فى بلاد الشام وتمثل بقاياها جزءا من السكان الحضريين للبلاد ، فلم نعد نسمع عن إغارات بنى كلاب أو انسياب جماعاتهم فى طوفان يرعى ويعيث ويدمر أو يشارك فى حرب كعنصر فعال بفرسان شجعان ومقاتلين متحمسين، أو نسمع عن ثمة عادات جافية وعصبيات قبلية ، إذ غدت كل هذه المظاهر من مخلفات الماضى ومن بقايا الذكريات .

أما بالنسبة لبنى عمار فالأمر قد اختلف عن ذلك كثيرا ولا نستطيع تمييز تلك المراحل وتدرجها أو وضع أيدينا على عناصر التحول فى حياة أولئك العرب الذين حكموا طرابلس نحو أربعين عاما ويبدو أن ذلك يرجع فى غالبه إلى الظروف التى احاطت بظهورهم فى بلاد الشام والتى اختلفت الأراء بصددها والقطع فيها برأى، فبينما ثارت الشكوك فى كونهم من العرب المغاربة، نجد بعض الدلائل تشير إلى انتسابهم إلى بعض البطون النازحة من الجنوب من نجد أو من بلاد اليمن الجنوبية والتى استقرت فى سورية منذ وقت غير معروف .

فاذا سلمنا بالاتجاه الأول من أنهم عرب مغاربة عادوا من جديد إلى الشرق فإنهم يكونون بذلك قد تعدوا المراحل المشار إليها وظهروا كأسرة متحضرة

---

(١) نفس المرجع : ج ٢ ص ٣٢٥

متمدينة استفادت من قربها من الفاطميين ، واستجابت لعوامل التغير فى الحياة العربية قبل نزوحها إلى الشرق بزمن، واختصرت من عمرها فترة هامة، أظهرتها فى مصر ثم فى بلاد الشام كإحدى الأسر العربية العريقة التى تبوأ أفرادها مناصب هامة فى الدولة وفى القضاء وأبانوا عن همة ونشاط وشاركوا فى الأحداث

وإذا سلمنا بالاتجاه الآخر من أنهم بطون عربية نازحة من الجنوب إلى سورية ، فلابد وأن ذلك حدث منذ زمن بعيد ومضى على نزوحهم إلى تلك الجهات وقت طويل، كان له ضلع فى إذابتهم كبطون بدوية وعشائر عربية جافية، وحولتهم إلى أسرة حضرية أخذت بأسباب الرقى والتمدين وتمدنت وتثقفت وزادت بعدا عن ماضيها ومقوماتها السابقة .

وعلى الرغم من أن المصادر تردد كثيرا اسم بنى عمار كأسرة وكقوة بشرية قامت على أكتافها إمارتهم فى طرابلس ماديا وفكريا مما يفيد بقايا فهم قديم للعصبية والأنساب والتجمع والاجتماع ، على الرغم من ذلك فليس بين أيدينا نصا واحداً يوحى بأنهم اتخذوا من العصبية والتشبث بالأنساب ركيزة لنشاطهم فى المنطقة سواء قبل إقامة إمارتهم أو بعده . وهذا كله يؤكد حقيقة واحدة هى أن بنى عمار كانوا قد تعدوا ذلك الطور فى حياة العرب وتخطوا تلك المرحلة المتقدمة فى تاريخ الأسرات العربية القديمة والفروع المختلفة والشعاب القبلية المنصرمة .

لكن سمات خاصة ظلت تميز طابع أسرة بنى عمار وتدمغ كل شك فى انتسابهم إلى الأرومة العربية الأصيلة — ذلك أنهم ظلوا فرسانا ومقاتلين

لا تلين لهم قناة وعربا تواقين لمجالس الشعر والأدب ، يتقرب منهم الشعراء يمدحونهم أحياناً ويهجونهم أحيانا أخرى (١) ، يرنون العلوم والفنون والآداب ويقيمون مكتبة كبيرة من أجل ذلك (٢) ، يحترمون الكلمة ويحافظون على العهد ويتمسكون بأبرز سمات الخلق العربي هؤلاء هم بنو عمار أصحاب الإمارة الثانية فى بلاد الشام، مع حفظهم لكل مميزات المجتمعات العربية فإنهم قد قطعوا شوطاً لا يستهان به فى التمدين والتحضر وحصلوا على قسط وافر من الرقى المادى والفكرى حتى لتبدو مضارب القبائل وحللها وعصبية النسب والأنساب وطوائف الفرسان والرجالة ونوبات الحنين للجاهلية والإغارات المفاجئة أشياء أبعد ما تكون عن تفكير تلك الأسرة وأكثر ما تكون تعارضاً مع ما بلغته من رقى وتحضر .

أما فيما يختص ببنى منقذ فإننا نستطيع القول بأنهم كانوا فى درجة وسط بين ما كان فيه بنو كلاب وما بلغه بنو عمار ، فلا كانوا عربا قبليين بما يحمله ذلك من معنى دقيق ولم يبلغوا فى نفس الوقت الدرجة التى بلغها بنو عمار وإن قاربوا منها بحكم احتكاكهم الطويل والمستمر بالعناصر الحضرية فى بلاد الشام .

ويبدو أن ذلك يرجع فى أغلبه إلى أنهم كانوا ينتسبون إلى بنى كنانة الكلبيين الذين نعلم جيدا أنهم نزحوا إلى بلاد الشام قبل الإسلام بوقت غير

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآه ج ١٠ ورقة ٢٥٠

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ١٩٠ — ١٩١

قصير(١)ولعبوا دورا هاماً فى تاريخ المنطقة على مدى قرون طويلة قبل قيام إمارتهم فى شيزر واتجهوا إلى السيطرة على طرق القوافل والتجارة عبر هذه البلاد (٢) .

مضى على بنى كلب إذن وقت طويل فى بلاد الشام قبل أن يتمكن بنو منقذ من إقامة إمارتهم فى شيزر : ولاشك أن تلك المدة الطويلة قد ساهمت فى تطوير البطون الكلبية إلى حد كبير ، وغيرت كثيرا من نظمها ومقوماتها بعكس بنى كلاب الذين ثبت أن هجرتهم إلى بلاد الشام حدثت فى الثلث الأول من القرن الرابع الهجرى ، ولم يمض على نزوحهم أكثر من مائة عام حين استطاعوا إقامة إمارتهم فى حلب وهى مدة لاتقارن فعلا بالمدة التى قضاها بنو كلب هناك .

ولقد حصل بنو منقذ أحد فروع بنى كلب على اقطاع بالقرب من شيزر من لدى صالح بن مرداس ، فغدا استقرارهم فى حوض نهر العاصى أمرا واقعا (٣) ، وعد بداية مرحلة هامة فى تاريخهم وخطوة إلى الامام بالنسبة لتحضرهم وتمدينهم ، فقد ترددوا على حماة وحلب وكفر طاب وأحاطوا أنفسهم بمظاهر التمدين والتحضر (٤) .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧٢ (تحقيق المنجد ١٩٥٣)

(٢) Lammens : Ency. ISL art "Kalb"

Kay : notes on the Hits. of the Banu Okyal P. 5C3 J. R.A. S.

(٣) ابو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٣١

(٤) ابن خلكان : وفيات ج ٤ ص ٣٥٧

وليس هناك شك فى أن بعض سمات المجتمع القبلى كانت لا تزال تميز أولئك الكنانيين من كلب قبل أن يحصلوا على إقطاعهم من لدن بنى مـــرداس ؛ إذ لازالت بطون كلبية أخرى ، فضلا عن بنى طىء من كهلان ، تمرح فى وسط الشام وفى جنوبه متخذة الأساليب القديمة ركيزة لنشاطها فى المنطقة . فاذا كان هذا الفرع الكلبى من كنانة قد حصل على إقطاع دائم وفرصـة مواتية للاستقرار فى حوض نهر العاصى نذفإن ذلك لاشك قد ساعده على تخطى مرحلة القبلية والدلف إلى أعتاب مرحلة الاستقرار والتحضر ونبذ الأسلوب القديم .

وهذه المرحلة الجديدة لم تبزغ فى حياة القبيلة فجأة ـ بطبيعة الحال ـ بل سبقها تحول تدريجى ربما استغرق سنوات طويلة بحكم الاحتكاك المستمر بالعناصر الأخرى ، بل إن الحصول على ذلك الأقطاع والفوز بتلك الفرصة السانحة ـ قد احتاج لجهـــود دائبة ونشـاط جم قبل أن تصبح الأمور مهيـأة لهذا الكسب الهام .

ولقد استقر بنو منقذ بقرب شيزر أكثر من أربعين عاما قبل أن يؤسسوا إمارتهم فى شيزر ظهروا خـــلالها كأسرة كبيرة بدأت تأخذ بأسباب الرقى المادى والفكرى وتستجيب للنقلة الكبيرة فى حياتهـا ، وفى الخطـاب الذى بعث به سديد الملك ابن منقذ إلى بغداد بصدد استيلائه على شيزر أشار إلى أنه نقل إلى شيزر نحو سبعمائه رجل من أسرته وبنو عمومته [1] ، فضلا عن بقية رجاله وأقاربه وأفراد عشيرته ، وعلى هذا فيمكن القول أن ثمة تغير هام

---

(١) سبط بن الجوزى : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٩ ، ابن الوردى : تاريخه ج ٢ ص ٧٥

قد حدث في حياة بني منقذ الكلبيين حين استقروا في حوض نهر العاصي وحصلوا على إقطاع فيه، سبقه دون شك تحول تدريجي وميل نحو الحياة الجديدة وتباعد عن مظاهر العالم القبلي القديم .

على أن سمات الخلق العربي الأصيل ومميزات المجتمع العربي كلها تتجلى في تلك الأسرة التي كان معظم أمرائها ورجالها فرسانا كبارا ومحاربين من الدرجة الأولى ملأت أخبارهم ومظاهر شجاعتهم صفحات المصنفات المعاصرة واللاحقة (١) ، كما كان معظمهم من فحول الشعراء والناظمين والنحويين واللغويين (٢) . ولعل في أخبار الفارس والشاعر والأديب وصاحب النوادر والطرائف الذائع الصيت أسامه بن منقذ أكبر دليل على ما كان يتمتع به بنو منقذ من صفات عربية أصيلة .

هذا ورغم ما أصابه بنو منقذ من مظاهر التحول والتقدم في شيزر إلا أنهم ظلوا يمارسون حياة هي في الحقيقة مزيج من الحياة القديمة ومظاهر الحياة

---

(١) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ج ١ ص ٥٤٨

ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ١٧٥ ، ج ٣ ص ٨٦ ،

Schlumberger: Recits de Byzance et des Crois. P. 100 - 1

Cl. Huart ; Ousama ibn Mounkidh, P 504 .J.R.A.S.

أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٥٢ ـ ٥٣ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، ص ١١٦

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٤ ، العماد : الخريدة ج ١ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ — درر التيجان ورقة ٢٣٩ ، ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢١٥ ـ ٢٢٠

Derenbourg : Vie du Ousanma p. 516

الجديدة فلقد سكن بعضهم المدينة وهو القسم الواقع على النهر قرب الجسر وسكن آخرون البلد وهو القسم من شيزر الواقع ضمن القلعة ، وانتشر الآخرون قرب المنطقة يزرعون ويرعون ويتصيدون بل ظل بعضهم يقتنى قطعانا تمرح فى المنطقة المهجورة ، وتهرع إلى الاحتماء بالأسوار عندما تتعرض للخطر تلك كانت حياة بنى منقذ مارسوها بين الحرب والسلام فزرعوا ورعوا وتصيدوا وسكن أمراؤهم القصور والدور النفسية وعقدوا مجالس الأدب والشعر وتثقف الكثير منهم وقرض الشعر ونسخ القرآن ، وأظهروا حفاوة بالغة برجالات العلم والشعراء وهرع إليهم المادحون وطالبي الأعطيات وانخرط فرسانهم فى جيوش أمراء المنطقة وخدموا لدى رجالات الشام والعراق فظهر بعضهم فى صف زنكى والآخرون إلى جوار ابنه نور الدين محمود (١) ، وقدم الآخرون إلى مصر وخدموا الدولة الأيوبية (٢) ، بل ظهر بعض أمرائهم فى اليمن وذلك بعد ضياع إمارتهم بوقت طويل (٣).

ويعنينا من ذلك كله أن بنى منقذ وإن كانوا قد أصابوا تحولا هاما وتغييرا كبيرا فى حياتهم حين أسسوا إمارتهم فى شيزر فإن ثمة سمات ظلت تميز حياتهم وتربطهم إلى ماضيهم وتشدهم إلى أصولهم وإن لم تكن ذات أهمية كبيره بجانب تغلغل مظاهر العهد الجديد وطغيان الاتجاهات الحديثة فى حياتهم فى شيزر وضواحيها .

---

(١) Derenbourg : Vie du Ousama. P. 571

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٤٣ .

(٣) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ج ١ ص ١٦٥ .

الاتجاه نحو الاستقلال الذاتي في الحكم والتكيف احيانا طبقا لاتجاهات القوى الكبرى في المنطقة :

من الأمور المشتركة في تاريخ الإمارات العربية الثلاث ما أبدته تلك الإمارات من حرص على حفظ استقلالها وتجنب لأى تدخل في شئونها أو فرض نوع من الوصاية عليها . وكأن الأمراء العرب كانوا يضنون باستقلالهم الذى بذلوا في سبيله جهودا دائبة وتحملوا من أجله مصاعب جمة ، فقدر لتلك الإمارات أن تمثل نموذجا فريدا من أنواع الحكم في بلاد الشام في وقت تكالبت فيه القوى الكبرى على المنطقة وتشاحنت في سبيل ذلك وحاولت فرض سيطرتها عليها والوصايه على شئونها .

وتتمثل القوى الكبرى في المنطقة زمن تلك الامارات في أربعة قوى :

١ — الخلافة الفاطمية التى فرضت وجودها في معظم أرجاء الشام وحاولت التشبث بمواقعها ٢ — دولة السلاجقة زمن ألب أرسلان وابنه ملكشاه ، وعلى أيام تتش وولديه رضوان ودقاق . ٣ — الإمبراطورية البيزنطية التى ظلت تتشبث بأنطاكية مدة طويلة قبل أن تفقدها وتفقد بالتالى نفوذها في الشرق حتى قيام آل كومنين بمحاولة باهتة لاستعادة شيء من هيبة الإمبراطورية هناك ٤ — ثم أخيرا القوى الصليبية التى غزت المنطقة منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) وأسفر غزوهم عن ظهور الإمارات اللاتينية الأربع في بلاد الشام وأطراف العراق .

ولقد قدر للامارات العربية الثلاث أن تصمد لمحاولات تلك القوى وتنجو من مخططاتها مددا متفاوتة قبل أن تضعف وتهن وتنوء بحملها وثقلها . وتفقد بالتالى استقلالها .

فقد حرص بنو مرداس طوال عهدهم على تجنب الدخول ضمن مناطق نفوذ الخلافة الفاطمية التي نشطت كثيرا لاستعادة حلب وإعادتها إلى حظيرتها فخاض بنو مرداس حروبا ضارية ضد الخلافة وتساقط بعض أمرائهم صرعى في تلك الحروب ، فقتل صالح بن مرداس نفسه وأحد أبنائه في الحرب ضد الفاطميين (١) ثم دفع ابنه وخليفته نصر بن صالح حياته ثمن استقلال إمارته في الحرب ضد الفاطميين أيضا (٢) ، وكبد آخرون من خلفاء صالح جيوش هذه الخلافة كثيرا من الخسائر وردوها على أعقابها أكثر من مرة ماضين في حكمهم مدعمين استقلالهم عازفين عن الرغبات الفاطمية الملحة لطردهم من حلب (٣) .

ولكن بني مرداس اضطروا أحيانا لشراء رضاء الخلافة الفاطمية ومحاولة كسب ودها وتجنب عدائها كلما دعت الظروف إلى ذلك ، ولاشك أن ذلك يدخل ضمن محاولة التكيف السياسي مع اتجاهات القوى الأكبر ، تجنباً للصراع وحسما للخلاف فحاول بنو مرداس أحيانا استمالة الخلفاء الفاطميين والتقرب إليهم فبعثوا بالهدايا والأموال إلى مصر والتمسوا الخلع والتشريف.

---

(١) ابن القلانسي : ذيل ص ٧٣ — ٧٤ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٢
درر التيجان ورقة ٣٠٧ (مخطوط)
Lane-poole : Moh, p. 114

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢٧١
Wiet ; L'Egypte Arabe. P. 223

(٣) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٦٤ ، ابن ميسر : أخبار مصر ج ٢ ص ٣ ، ص ٥

والتوقيعات بملك حلب وسائر أعمالها (١) وكانت الخلافة الفاطمية تقنع أحيانا بتلك المظاهر الودية وترضي برسوم السلطة الشكلية والنفوذ الإسمي في حلب بينما مضى المرداسيون في تدعيم سلطانهم والحفاظ على استقلالهم .

وفى نفس هذا الاتجاه سار بنو مرداس تجاه السلاجقة فمالوا إلى مسايرة الركب الجديد وتظاهروا بموالاة القوة الجديدة ، فالتمس محمود المرداسي الحماية من ألب أرسلان سنة ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) وأقام الخطبة للخليفة العباسي (٢) ورغم ذلك لم يسمح محمود لألب أرسلان بدخول حلب حين وصل هذا فجأة فى العام التالى ، بل إنه لم ينثن أمام فرض الحصار على حلب ، ولم يرضخ أو يفرط فى استقلاله ، وكل ما قام به هو خروجه إلى ألب أرسلان بمعسكره بظاهر المدينة حيث قدم له طاعة زائفة وولاء ظاهرا وحصل منه على توقيع بملك حلب وأعمالها فرضي ألب أرسلان وانصرف من توه لمحاربة البيزنطيين (٣) .

وعلى نفس الخطة سار بنو مرداس تجاه البيزنطيين فبينما خاضوا الحروب الضارية مطامع الإمبراطورية فى الشرق، حفظا لاستقلالهم وضنا بإمارتهم (٤)

---

(١) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ ، ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ ، ابن ميسر نفسه ج ٢ ص ٥ ، المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى : السيرة ص ١٠١ ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨

(٢) ابن القلانسي : ذيل ص ٩٨ ، ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٧ ــ ١٨

Can b. Med. Hist. 5. p.261

(٣) Grcusset ; Hist. ces Crois. I.p. xxxII

(٤) يحي بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٤٩ ، ج ٨ ص ١٠٧

Can.b · Med · Hist · 5 ‘ p · 256

Schlumberger ; L‘ Epopee ·III b 79

تجددهم يحاولون دوما تجنب عداء الأباطرة البيزنطيين وكسب ودهم ، والتكيف مع سياستهم ، بل ودفع نوع من الجزية لهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك (١).

وهكذا نجد أن بنى مرداس مــــع حرصهم على ضمان استقلالهم وحفظ إمارتهم بعيدا عن مناطق نفوذ القوى الكبرى ، فإنهم اضطروا أحيانا للتظاهر بالتبعية الإسمية والتسليم بشيء من السلطة الشكلية لبعض تلك القوى ، ولقد نجح المرداسيون فى ذلك إلى حد بعيد ، لكن التوتر الذى صاحب كل ذلك ، والقلق الذى عاشته الإمارة من جراء تحفز القوى الكبيرة ضدها ، انعكس بعد فــــترة على قدرتها وصمودها فتهالكت تحت أعباء العصر ، وانهدمت دفعة واحدة والتهمتها قوة أخرى كانت مترقبة لترث أملاك أول إمارة عربيــة فى حلب فى القرن الخامس الهجرى .

أما بنو عمار فلقد انتهجوا نفس هــــذا النهج ، وساروا فى نفس الخطة فحرصوا على ضمان استقلالهم أولا ، وسارعوا بملائمة سياستهم وموائمتها مع القوى الأخرى كلما احتاج الأمر إلى ذلــك . فعلى الرغم من أنهم استقـلوا بطرابلس واقتطعوا هذه المدينة من أملاك الخلافة الفاطمية إلا أنهم حرصوا على عدم إثارة تلك الخلافة وإعلان العداء لها أو معارضة سياستها(٢) ، وأردفوا ذلك بالتزام خـط حيادى بينها وبين السلاجقـة بل إنهم أعـرضوا عن محمود

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريـخ ص ٢٥٧ ، ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ ، ص ٢٦٨ . ٢٧٠ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ١١٢

المردامى الذى بدا دائرا فى فلك السلاجقة منذ سنة ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) كما ظهر لهم حينئذ (١) ، وهكذا أثبت بنو عمار أن هدفهم الأساسى هـو حفظ استقلال إمارتهم والاتجاه وجهة حيادية بين المعسكرات المتنازعة بل وتجنب كل من تثور الشكوك فى انحيازه وعدم حيدته .

على أن الأسلوب الذى أتبعه بنو عمار تجاه الصليبيين منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قد أكد حرص هذه الأسرة على التكيف السريع مع الاتجاهات المستحدثة فى المنطقة والاستجابة السريعة لمتطلبات الأمن ، فقد حرصوا بادىء ذى بدء على تجنب الصدام مع الجيش الصليبي العابر ناحية الجنوب فى طريقه إلى بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) وأبدوا استعدادهم لدفـع نوع من الجزية وتسهيل عبور الصليبيين بل ووافقوا على رفع الأعلام الصليبية فوق طرابلس إشارة إلى الولاء والصداقة (٢) . وكلها ترجمـة صادقة لرغبات صادقة ملحة فى حفظ كيان إماراتهم بأية وسيلة وعلى أية صـورة وملاءمـة أنفسهم مع ما يستجد من ظروف طارئة قد تعرض أمنهم للخطر .

ولقـد ظل بنو عمار فى حيادهم يرفضون الارتمـاء فى أحضان القـوى الإسلامية الكبرى على الرغم من تعرضهم للخطر الصليبي المتزايد ، إلى أن غدا دفع الفرنج من طرابلس أمـرا خارجا عن قـدرتهم فالوا حينئذ للاستنجاد

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٦٢

(٢) Gesta Franccrum , p , 80 , 83

Grousset ; Hist . ces Crois . I ' 132 ·

بالقوى الإسلامية الكبرى بل والتسليم لها بشيء من النفوذ الاسمى والاعتراف لها بنوع من التبعية الشكلية ، وفى هذا ظل هذا الفهم طلب فخر الملك بن عمار العون من السلطنة السلجوقية سنة ١١٠٨ (٥٠١ هـ) وفى ظل هذا الفهم أيضا هرع هذا الأخير إلى بغداد يستجدى النجدة ، ولكن مع ذلك لم يفته أن ينوه باستعداده بأن يقوم بتمويل الحملة المزمع إنفاذها لنجدته وعلى نفقتـه ومن أموال إمارته إشارة خفية إلى استقلاله الذاتى فى الامارة (١) . وهكذا حافظ بنو عمار على استقلالهم وبهذا الأسلوب المرن استطاعوا حمايـة كيانهم وقيادة سفينتهم وسط أنواء الشام وعواصفه ، وبين رغبات القوى المتحفزة لالتهام إمارتهم المستقلة .

أما فيما يختص ببنى منقذ فلعل تاريخ تلك الأسرة العربية يؤكـد بحق حرصها الدائم على اتباع ذلك الأسلوب المرن وانتهاج تلك السياسة اللبقة والظهور بمظهر السائر فى ركاب كل القوى الكبرى ما دام ذلك يحفظ عليها استقلالها ويصون أمنها (٢) .

فبينما حرص بنو منقذ على تجنب تدخل بنى مرداس وبنى عمار فى شئونهم وذلك قبل أن تنهـــدم الإمارتين ، نجد أن مؤسس الإمارة المنقذية اشترى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٦١ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٥٠
سبط ابن الجوزى : رآه جـ ١٠ ورقة ٢٧٨ .

(٢) عبر عن ذلك المؤرخ المحدث رنسيمان (cp , cit , 11 , p . 173) بقوله أنهـم :
«..always anxious to be the friend of every cne of in pcr-tanance.. »

ود تاج الدولة تتش السلجوقى حينما بدأ هذا نشاطه فى غزو الجهات الوسطى والساحلية فى بلاد الشام (١) . فلما ظهر بعدئذ شرف الدولة مسلم العقيلى كقوة كبيرة فى بلاد الشام سارع ابن المنقذ إلى السير فى ركابه بل وعاونه على فتح حلب (٢). وحينما راح كل من مسلم وسليمان ابن قتلمش ضحية نشابك الصراع والمصالح فى بلاد الشام بين السلاجقة والعرب وبين السلاجقة أنفسهم، وقدم ملكشاه إلى المنطقة ليضع حدا لأطماع تتش سارع نصر بن منقذ إلى إعلان طاعته للسلطان (٣)، وسلك بنو منقذ نفس هذه السياسة على عهد سلاجقة الشام من أبناء تتش حتى انتقلت دمشق إلى طغتكين والبوريين .

وحاول إسماعيل بن بورى سنه ١١٣٢ م (٥٢٧ هـ) الاستيلاء على شيزر لولا أن سارع أبو العساكر سلطان بكسب وده وتقديم مبلغ من المال له ، فاشترى بذلك إمارته وحمى استقلالها (٤) .

وحينما طرق الصليبيون أبواب الإمارة متجهين ناحية الجنوب ، حرص

(١) ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ٥٦ ، ص ٦٦

(٢) ابن العديم : نفسه جـ٢ ص ٦٩ ، Derenbourg : vie du ousama p. 592

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٦١ ، سبط بن الجوزى : مرآة جـ ١٠ ورقة ١٠٠ أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ١٩٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ (سنة ٥٢٧ هـ)

مختارات من بغية الطالب لابن العديم فى المجموعة

Rec. Or. Hist. 111 . p . 695

أبو العساكر سلطان بن منقذ على تجنب الصدام معهم وأبدى استعدادة لتقديم المعونة لهم وإرسال أدلاء لإرشادهم لعبور النهر عبر المخاضة ، وتقديم كافة الإرشادات لهم نظير عدم تعرضهم لإمارته بسوء (١) .

وبعد استقرار الصليبيين فى المنطقة ورسوخ أقدامهم فى بلاد الشام لاسيما فى أنطاكية وطرابلس وإلى الشمال وإلى الجنوب من شيزر ، اضطر بنو منقذ إلى ملائمة أنفسهم ورسم سياستهم بما يتمشى مع الأوضاع الجديدة ، فتلافوا الصدام مع الصليبيين بقدر الإمكان ، ودافعوا عن إمارتهم ماوسعهم الجهد ، وفى نفس الوقت لم يرفضوا دفع نوع من الجزية للصليبيين ، وأظهار شىء من الولاء لهم حفظاً لأمنهم واستقلالهم (٢) ، بل ذهب بهم حماسهم لكسب ود كافة القوى المجاورة ومن بينها القوى الصليبية حد التوسط لدى الإرانقة فى حلب لفك أسر الملك بلدوين الثانى (٣) .

ولم يمنعهم ذلك من القيام بدورهم كإمارة عربية يرجى مشاركتها فى حركة الجهاد المقدس ضد القوى الصليبية ، وإن أعطاها فرصة مواتية لتكييف سياستها حسب متطلبات الظروف . ولقد أثبت بنو منقذ حساسيتهم الفائقة تجاه الأحداث الجارية فى بلاد الشام خلال نوبات الجهاد المقدس التى أعلنها السلاجقة ، فهرعوا إلى مراكبة الركب كلما وصل قائد كبير على رأس قوات

---

(١) Gesta Francorm p . 78

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٧٠ ــ ٧١ ، ص ٦٦ ــ ٦٧ ، ص ١٢٠ ــ ١٢١ ، ص ٥٠ .

(٣) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٢٢٢

السلطنة السلجوقية للقتال ضـــد الفرنج . (١) ثم على أيام الأراتقة التركمان أصحاب حلب وميارفارقين من ديار بكر ، وهم الذين حمـــلوا راية الجهاد ضد الصليبيين ابتداء من سنة ١١٢٤ م على عهد إيلغازى وابن أخيه بلك بن بهرام الأرتقى(٢) ، ثم على عهد آخر قائد سلجوقى من قبل السلطان محمد وهو آقسنقر البرسقى سنة ١١٢٦ حتى تكفل عماد الدين زنكي بأمر الصليبيين ابتداء من سنة ١١٢٧ م .

وحين غزا البيزنطيون شيزر سنة ١١٣٨م (٥٣٢ هـ) دافـع بنو منقذ عن استقلالهم بـكل ما استطـاعوا ولم يمنعهم ذلك من التسليم بشيء من التبعية الإسمية للامبراطور يوحنا كومنين ، ودفع مبلغ من المال وتقـديم شيء من الهدايا له ما دام ذلك يصرفه عنهم ويحفظ عليهم استقلالهم (٣) .

وطبقا لهذا فيمكن القول أن بنى منقذ أثبتوا دوماً أنهم كانوا حريصين على ضمان استقلال إمارتهم مـــع الاستعداد لعمل كل ما يضمن عليهم ذلك

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٦٨ ــ ٦٩ ، ص ٧٣ ــ ٧٤ ،

Grousset ; Op . Cit . 1 . p . 278 , 503

ابن القلانسى : ذيل ص ١٧٧ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٦٣ (٥٠٥ هـ)

(٢) Cahen : Encyc .Isl art . " Artukids "

(٣) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٩٢ ، ص ١٣ ــ ١١٤

Camb.Med. Hist.4.p. 359

Brehier ; vie et mort de Byzance p. 324

Grousset ; L' Empire du Levant . p. 222 - 3

vasiliev ; op . cit. II. p. 55

الاستقلال ، ولو أدى الأمر إلى مسايرة كل ركب والتسليم بشيء من الولاء الإسمى لكل قوة يخشى بأسهـا . ولقد عبر عن ذلك أحد المؤرخين المحدثين بقوله عنهم « أنهم كانوا مثلا للمسالمة والأخوة وأمثال هـذه الصفات ، فلم يكونوا رغم كثرتهم فى شيء من الشر وإن هان فتراهم يجزون عن ظلم الصليبيين مغفرة وعن إساءتهم إحساناً » (١)

وبهذه السياسة وبإيثارهم العافية مع القوى المختلفة نجح بنو منقذ فى حفظ استقلال إمارتهم أكثر من ثلاث أرباع القرن ما كان يتأنى لإمارة فى صغرها وقلة مواردها البشرية والمادية بالنسبة لغيرها ، أن تعيش فى ظل جو سيطرت عليه المطامع البشرية وتكالبت فيه الأطماع ، أو تمضى فى استقلالها عازفة عن كل القوى الأخرى غير منحازة لأى منها انحيازا يؤثر فى حريتها أو استقلالها .

مدى العناية بالسكان فى النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية :

على الرغم من أن الاهتمام بمصالح الأغلبية السكانية فى النواحى المختلفة لاسيما الناحية السياسية والاجتماعية ، لم تكن شيئـا عاديا فى سياسية الدول والإمارات فى تلك العصور أو خطـا بارزاً يلتزم به حكام تلك الإمارات ، فإننا نلمس ثمة اهتمام بتلك المصالح فى سياسة أغلب الأمراء العرب الذين تعاقبوا على الحكم فى الإمارات العربية الثلاث خاصة النواحى الاقتصادية، حتى لنجد المصادر المعاصرة واللاحقة لاتخلو من الإشارة إلى تفاوت العناية بالسكان فى هذه الناحية ، وإلى مدى ما بلغته الإمارة من رخاء وازدهار ومن خلال ذلك

---

(١) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١١

يجرى تقييم عهد الأمير العربي وما أصاب الإمارة في عهده من رخاء وتقدم .

وعلى الرغم من أنه ليس بين أيدينا ما ينبيء عن الأحوال الدقيقة لحياة الفلاحين والمزارعين والسواد الأعظم من سكان القرى المجاورة والضياع والبساتين والحدائق والرساتيق أوما يعطى فكرة واضحة عن النظم الاقتصادية والاستغلالية للاراضى في الإمارة ، فان ثمة دلائل تشير إلى شيوع نوع من الاقطاع الزراعى زمن المرادسيين جرى بمقتضاه منح كثير من الضياع والأراضى لبعض زعماء العشائر والبطون الكلابية و بعض امراء الدولة وذوي الحظوة فيها [1] .

ورغم شيوع هذا النظام إلى حد ما فإن وضع الفلاح في ظله لم يكن سيئا وربما قاسى الفلاحون وأصحاب الأراضى الصغيرة من الإغارات ، والعبث بالأمن أكثر مما قاسوا من جور المقطعين أو أصحاب الضياع الكبيرة الذين لا شك انصرفوا إلى القتال والمشاركة والمساهمة فى الحروب أكثر مما توفروا على ملاحقة الفلاحين أو إيقاع الضرر بهم أو التعسف معهم [2] .

وتشير كثير من الدلائل إلى تمتع أهالي الإمارات من فلاحين وأصحاب الأراضي الصغيرة وغيرهم بكثير من حقوقهم خاصة فيما يتعلق باختيار الولاة وأمراء النواحي والمشرفين على الأمن إلى غير ذلك نظير قيامهم بدفع ما عليهم

---

(١) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ٩ — ١٠ ؛ ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٤ ابن الوردى : تاريخه ج ١ ص ٣٥١ .

(٢) يحى بن سعيد : التاريخ ص ٢١١ ؛ ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٠١

من ضرائب صغيرة لا تكبر إلا وقت الأزمات وعند تعرض الوطن للخطر ، ولهذا لقد عم الرخاء أنحاء الإمارة وكثرت الأرزاق ، واتسعت الثروات وتردد كثيرا في المراجع أخبارا كانت تمرح فيه حلب من مظاهر الغنى والثروة وما كان يتجلى في أعيادها من أمارات الغنى ومظاهر النعمة (١) .

على أننا نسمع كثيرا أن أمراء حلب عمدوا في كثير من الأحيان إلى إعفاء السكان مما عليهم من ضرائب أو تخفيضها تقربا اليهم وتوددا ، وخاصة في بداية عهودهم وكلما احتاج الأمر إلى مداراتهم وكسب ودهم ، ولهذا فقد أعطيت الإمارة فترات حرة من الضرائب كان لها أثرها فعلا في التيسير على السكان وإطلاق أيديهم والتخفيف من أعبائهم .

ولعل العناية بالسكان في النواحي الاقتصادية كانت تشغل حيزا معقولا من تفكير القائمين على الحكم في الإمارات العربية ، موضوع الحديث ، بل إنها كانت خطا بارزا في سياسة أغلبهم ، إذ أتخذوا من الوزراء ذوي الحكمة وذوي الخبرة بالشئون الاقتصادية والإدارية فضبطوا لهم حسابات الدولة وضاعفوا من مواردها . فاتخذ نصر بن صالح أبا الفرج ابن المؤمل النصراني لأنه كان « حسن التدبير محبا لفعل الخير » وأستوزر ثمال بن صالح وزراء ممتازين منهم ابن جهير حيث : « فوض أموره جميعها إليه فاستقامت وتضاعف ارتفاعه وضبط أمواله » . وكانت نتيجة سياسة ثمال أن — « استغنى أهل حلب في أيامه » وكذلك « درت الأرزاق في أيامه على الناس وأحسن السيرة

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ ١ ص ٢٥٧ — ٢٥٨

فيهم وجاه بالعطاء » واهتم محمود بن نصر باختيار معاونيه وولاته في القلاع والحصون التابعة لحلب فازدهرت الامارة في عهده وأحصي ما وجد بخزائنه « فكانت قيمته من العين والمتاع والآلات والثياب والمراكب ألف ألف وخمسمائة الف دينار (١½ مليون) . . . »(١) .

وهكذا تمتعت حلب وما حولها بعهد زاهر زمن المرداسيين وبلغت شأوا بعيدا في الازدهار الاقتصادي ، نتيجة حرص أمرائها على القيام بشيء من واجبهم والاضطلاع بمسئولياتهم وإذا أضفنا إلى ذلك النشاط التجاري الذي مارسته حلب حينئذ والذي تحدثت عنه المراجع بحكم موقع حلب في شمال الشام وكملتقى لكثير من الطرق بين بلاد العراق وسوريه (٢) ، استطعنا أن نقيم حالتها الاقتصاديه ، إذ يصف ابن بطلان المتطبب المعاصر لبني مرداس رخاء حلب حينئذ وازدهار وحركة التجارة فيها فيقول أن « في قيسارية البزازين كانا يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة » (٣) هذا فضلا عما كان يمر بها من تجارة وما يجبيه أمراؤها من ضرائب ومكوس ، وما تحدثه تلك الحركة التجارية من رخاء بين سكان المدينه وضواحيها وعلى امتداد طرقها .

---

(١) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٨ ، ج ٢ ص ٣٦

ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٥

Amedroz ; The Hist. of the city of Mayyafariqin P. 326 – 7 (J. R. A. S. 1292)

(٢) Canard : op cit. P. 234-5

(٣) الحلبي : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ١ ص ٣٣٤

واهتم بنو عمار أيضا بالسكان فى إماراتهم من الناحية الاقتصادية اهتماما بالغا حتى بلغت طرابلس الذروة فى الازدهار الاقتصادى فى عهدهم(١)، ولعل أبلغ دليل على ثراء طرابلس وترف أهلها وغنى سكانها ماشاهده المبعوثون الصليبيون حين وطئت أقدامهم أرضها عندما وفدوا لمفاوضة أميرها ابن عمار فى أمر الصلح ، فانبهروا أمام عظمتها ومبلغ ثرائها ونقلوا إلى الكونت ريموند مشاعرهم فاستبد به الطمع وأعاد النظر فى أمر الصلح قبل أن يحصل على تنازلات أخرى ومزيد من المال من آل عمار (٢) .

على أن ملائمة الظروف الطبيعية من جريان النهر الكبير وخصب التربة فى طرابلس وضواحيها فضلا عن حرص آل عمار على توفير الحماية والأمن ورعاية السكان وتخفيف العبء عنهم كل ذلك ساهم فى الازدهار الاقتصادى الذى عاشته الامارة، إذ كثرت بساتينها ومزارعها وحدائقها ، وازدادت ثروتها الزراعية والتجارية وتنوعت،وذلك برواية الرحالة المعاصرين ومن جاءوا بعدهم بقليل(٣). وأعطى هذا التنوع الزراعى وكثرته فرصة قيام كثير من الصناعات القائمة على الحاصلات

---

(١) ابن الفرات : تاريخه جـ ٨ ص ٧٧ ،

Grousset : Hist. des Crois. I. P. 132

حتى : لبنان فى التاريخ ص ٣٥٣

(٢) Archer: The Crusades. p. 81-82

Runciman: op. cit. 1. p. 270

(٣) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١٣ ، ياقوت : معجم جـ ٣ ص ٥٢١

الادريسى : وصف الشام من نزهة المشتاق ص ١٣

الزراعية والحيوانية ، لاسيما الحرير والصوف والورق وقصب السكـر والزيتون والكروم وغير ذلك . ويقـال أن طرابلس كانت تحوى وقت الهجوم الصليبي عليها في مطلع القرن الثاني عشر نحو أربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف (١) ، فضلا عن مصانع الورق التي عدت إحـدى الصناعات الهامة في ذلك الوقت .

ولقد مكن موقع طرابلس كمرفأ هام وكمركز لتجمع كثير من الصادرات من قيام نشاط تجاري في المدينة ، فأقيمت الأسواق المحلية وفرضت المكوس على السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغـرب ، ووجدت حركة تجارية ساهمت في زيادة الرخاء بالمدينة واستفاد السكان دون شك من كل ذلك وأثروا . ويذكر الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أن ثراء طرابلس وغنى سكانها قد مكنها وقت تعرضها للحصار الصليبي من شراء المؤن بأثمان باهظة من جهات متعددة من جزيرة قبرص وجزائر البنادقة بل ومن أنطاكية الصليبية ذاتها (٣) .

أما بنو منقذ في شيزر فلقد اهتموا كثيراً بالشئون الاقتصادية في إمارتهم وتشير كثير من الدلائل إلى نجاح بعض أمرائهم في منح الإمارة عهوداً من الاستقرار الاقتصادي والرخاء المادي الذي كان يسترعي انتباه المارين بها أو

---

(١) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ٢ ص ٢١٤

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ٣٦٣

القادمين إليها ، لاسيما من الصليبيين وقد روى أسامة بن منقذ جانبا من الروايات في ذلك كلها تؤكد عظم ثراء الإماره ومبلغ ازدهارها (١) .

وعلى الرغم من أن بنى منقذ كانوا يمثلون الأغلبية المالكة لأراضى الإمارة نظا لصغر مساحتها نسبيا وقلة توابعها ولكبر أسرة بنى منقذ ذاتها ، فإننا نعلم أن كثيرا من رعاياهم تمتعوا بامتلاك الأراضى وممارسة الحياة العادية فى ظل حماية بنى منقذ (٢) ، بل إننا لا نلمس فى كتابة أسامة عن فلاحى الإمارة نغمة تدل على ممارسة آل منقذ أى نوع من التعسف الاقطاعى ضد الفلاحين أو نحوذلك ، بل على عكس ذلك نجد أن فلاحى الإمارة خارج شيزر وفى ضواحيها كانوا يهرعون إلى شيزر لإحاطة آل منقذ بأية بوادر للهجوم أو الغزو ، فيجدون لديهم كل الاستجابة ، والأمثلة على ذلك متوفرة فى كتابات أسامه (٣) ، وأيضا اهتم بنو منقذ بتوفير الحماية لأرباب الاقطاعات الصغيرة من بنى منقذ أنفسهم إذ يحكي أسامه أن فرنج أنطاكيـة نزلوا بقرب شيزر مرة استعدادا لمهاجمتها ، وكان لابن عمى ليث الدولة يحى غلة قد نجزت وهى بالقرب من الافرنج ، فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة يحملهـا ، فسرنا معه فى عشرين فارسا معدين ووقفنا بينه وبين الفرنج إلى أن حمل الغلة ومضى(٤) .

أى أن بنى منقذ حرصوا على توفير الحماية والأمن للرعايا فى خـارج

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٨٧

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٠

(٣) نفسة ص ٥٠ ــ ٥١

(٤) نفسه ص ٤٣

وداخل شيزر سواء أكانوا من الفلاحين البسطاء أو أصحاب الاقطاعات من بنى منقذ أنفسهم ولعل ذلك يفسر الازدهار والرخاء الذى تمتعت به الإمارة والاستقرار الاقتصادى الذى ميزعهد آل منقذ ، فضلا عن أن بنى منقذ اتخذوا الوزراء والكتاب والموظفين من ذوى الخبرة والميل إلى فعل الخير والاهتمام بالرعايا فى كافة النواحى البشرية .

على أن الهدايا والأموال التى درج بنو منقذ على تقديمها لرحلات العصر تجنبا لعدائهم وضررهم تشير إلى رخاء مادى وثراء اقتصادى تمتعت به عهدهم[1] وحين تهدمت شيزر وهلك بنو منقذ ونجت زوجة آخر أمرائها اهتم نورالدين محمود بن زنكى بسؤالها عن أموال وكنوز قومها ، لكنها لم تعط إجابة شافية فاشتد فى معاملتها حتى تعترف ثقة منه فى مبلغ ثراء الأسرة الراحلة[2] وعلى هذا فيمكن القول أن بنى منقذ اهتموا كثـــيرا بالنواحى الإقتصادية فى إماراتهم ونشطوا فى منحها عهدا مزدهرا وفترة مستقرة لا سيما وأنها كانت مطمعا للقوى الصليبية ومحط أنظار الأمراء المجاورين من العرب والتركمان والسلاجقة حتى من قبل جماعات الباطنية فى الجهات المجاورة .

ورغم هذه العناية بالسكان فى النواحى الاقتصادية ، فقد احتــاج الأمر أحيانا إلى مصادرة أموال بعض الأثرياء لتغطية نفقــات الجيوش ومتطلبات الأمن خاصة فى أوقات الحصار وأثناء تعرض إماراتهم للخطر ، فالتجأ بعض

---

(١) Gesta Fyancorum. P. 78

(٢) ابن العديم : زبدة ج٢ ص ٣٠٧

أولئك المصادرين إلى المعسكرات المناهضة (١) . ولـــكن هذه الأمثلة كانت قليلة ونادرة فضلا عن أنها لا تمس طبقة كبيرة بعينها أو غالبية من السكان فى الإمارات بل اقتصرت على بعض الأثرياء الموسرين خاصة إذا أظهروا شيئا من الجشع أو نوعا من البخل أو لم يتعاونوا مع السلطات الحاكمة أثناء الأزمات السياسية والإقتصادية .

لكن دون ذلك لم يقع جـــور أو أجحاف بالرعايا ، بل على عكس ذلك حرص الأمراء العـرب على رعاية شعوبهم وتوفير الأمن والحمـاية لهم ضـد الجيوش الغازية والفرق الطامعة وبذلوا فى سبيل ذلك كل جهد .

غير أن العناية بالسكان فى النواحى السياسية والاجتماعية لم تكن فى درجة غيرها من النواحى المختلفة ، فليس ثمة ما يشير إلى وجود نـوع من التنظيمات السياسية والاجتماعية يمكن أن نستشف منها مدى اهتمام الأمراء العرب بشعوبهم فى هذه النواحى ، ويبدو أن ذلك يرجع فى أغلبه إلى صغر رقعـة الإمارات وضآلة عـــدد سكانها بالنسبة لغيرها بما يتيح للقائمين على أمرها التجاوب السريع مع الاتجاهات المختلفة البادية فى مجتمعاتهم والإحساس السريع بتيارات الرأى العام دون الحاجة إلى تنظيمات تكفل هذه المسائل ، وعلى هذا فيمكن اتخـاذ المواقف التى تتمشى مـع رغبـات السكان دون حاجـة إلى وساطة فى ذلك .

وإن كنا قد أفتقدنا أشكالا حزبية وسياسية فى الإمارات المعنية ، إلا أن

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج٨ ص ٢٣٥

نوعا من الأحزاب المناوئة والمعارضة وجد أحيانا وإن لم يعرف بهذا الإسم وإن لم يتخذ شكل التنظيم بل برز خلال الأحداث مؤكدا وجوده ودوره في الحياة السياسية ، فهذا سالم بن مستفاد زعيم الجماعة التي عرفت بالحمدانية نسبة إلى بني حمدان ، يلقي ظله على مجريات الأمور في حلب بعد عهد صالح بن مرداس أحياءاً لدوره ونشاطه أيام الإمارة الحمدانية، لكن الخلاف سرعان ما استفحل بينه وبين نصر المرادسي فاندلعت الحرب بينهما ولقي ابن مستفاد حتفه فيها فتفرقت جماعته أو بمعنى أدق تشعث حزبه (١) ، وهذا الأمير أبو الفتح وأبنه ذو المناقب من بني عمار يتزعمان حزبا خفيا منظما في طرابلس ويحاولان الوثوب إلى الحكم أكثر من مرة ، يؤيدهم بعض اللاجئين السياسيين (٢) ولكن حركتهم تفشل هي الأخرى ويتفرق جمعهم ويتشعث حزبهم . وهكذا نجد ثمة تنظيمات سياسية مناوئة وإن لم تتخذ أشكالا علنية ثابتة أو تعرف بتنظيمات حزبية عاملة إلا أنها كانت موجودة فعلا متحفزة تحاول أن تلعب دورها كأحزاب معارضة أو كأداة تعبير مناوئة معبرة عن رأي شق من السكان أو جماعة بعينها من الأهالي .

لكن الرعاية الصحية للسكان كانت سمة بارزة في تاريخ الإمارات الثلاث إذ يتكرر كثيرا قيام الأمراء الجدد أحيانا بإطلاق سراح بعض المسجونين السياسيين تقربا إلى الأهالي واستجابة لرغباتهم ، وانفتاحا على عهد جديد قوامه

---

(١) ابن العديم : زبدة ج١ ص ٢٢٩

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٩ ورقة ٤٠٣ ـ ٤٠٤

ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢٥٠

التعاون والتآزر (١) ، وكذلك قيام بعض الأمراء العرب بافتداء من وقع فى أسر الروم من رعاياهم وعشائرهم تمشيا مع رغبات وآمال شعوبهم (٢) هذا فضلا عن أن اهتمام الأمراء العرب بإقامة العدل فى ربوع أملاكهم كان أمراً ملحوظا ، ولقد نوه أحد الشعراء بعدل ثمال بن مرداس أكثر من مرة (٣) مما يدل دلالة قاطعة على فهم طيب من قبل أولئك الأمراء تجاه بعض النواحى الأجتماعية فى حياة شعوبهم . . بل اهتم بعض الأمراء العرب بالشئون الصحيه لرعاياهم وحرصوا على إقامة المستشفيات والبيمارستانات إلى غير ذلك من الخدمات العامة للجماهير .

وتشير بعض المصادر إلى قيام ابن بطلان المتطبب المعاصر للمرادسيين والمتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) بوضع أسس العمل فى بيمارستان أقيم لخدمة أهل حلب واطلع أحدهم على صك وقف إحدى المستشفيات فيها فقال : « إن كل مجنون يخص به خادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحميانه بالماء البارد، ثم يلبسانه ثيابا نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قرآة القرآن يقرأه قارىء حسن الصوت ثم يفسحانه فى الهواء الطلق ويسمع فى الاخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة » (٤) ، وليس هناك شك فى أن ثمة

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص٥٤

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٩٣

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص٢٢٧ وقال الشاعر فى ذلك :

وسن العدل فى حلب فأضحت   بحسن العدل بقعته البقاعا

(٤) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ١٦٦ - ١٦٦

خدمات اجتماعية مماثلة أقيمت فى حلب وطرابلس وشيزر لخدمة السكان والعناية بهم .

على أن رعاية السكان فى النواحي الثقافية والعلمية والتى سنفرد لها صفحات خاصة تؤكد حرص الأمراء العرب فى حلب وطرابلس وشيزر على أداء واجبهم تجاه رعاياهم وتقديم كافة الخدمات لأكبر قطاع من السكان وكلها تأكيدات جديدة لما ميز عهود الإمارات من رخاء مادى وفكرى وما كان يضطلع به الأمراء العرب تجاه شعوبهم من مسئوليات .

ب - النواحى الحضارية والعمرانية

بعض مظاهر الترف فى حياة الأمراء العرب

ليس هناك شك فى أن فترات حكم الإمارات العربية المشار اليها ، كانت بمثابة ومضة ضوء فى تاريخ المنطقة ولمحة ازدهار فى واقعها لم تتأت لها فى ظل بعض الأوضاع السابقة واللاحقة، ولم تشهد مثلها إبان فترات مختلفة ، ولهذا فقد جاءت عهود الإمارات الثلاث حاملة لعبير الماضى وظل الأيام المنصرمة فعلا ، إذا جاز لنا القول أن عصرى الخلافتين العربيتين كان مثلا تحتذيه مثل تلك الإمارات العربية .

ولقد أدرك الأمراء العرب سواء جفت طباعهم لقرب عهدهم بالبداوة أو لانت بسبب رسوخ أقدامهم فى الحضارة أن ثمة أمور تحتم عليهم مجاراة الواقع الجديد وتضطرهم لمسايرة الركب ، وتكسبهم وضعا خاصا بين جيرانهم ، فلم يعد فى مقدورهم تصور إمارة بغير مظاهر الأبهة والعظمة واتخاذ الحاشية وعقد مجالس الشعر والأدب بل وقرض الشعر أحيانا ومنح الهبات والأعطيات والخروج للصيد وشغل الوقت واتخاذ الموالى والمماليك والغلمان إلى غير ذلك من أوجه الرئاسة ومظاهر ممارسة السلطة وجلال الحكم .

ولقد غالى بعض الأمراء العرب فى ذلك فأعادوا إلى الأذهان قطعا حية من تاريخ الإمارة الحمدانية ، بل ربما من عصور الخلافتين فى دمشق وبغداد بكل ماشابها من مظاهر العظمة وما ماج فيهما من تيارات وما حفلت به من أمور طيبة أحيانا وغير طيبة أحيانا أخرى والواقع أن قصور أمـــراء حلب

وطرابلس وشيزر لم تخل أحيانا من تلك المظاهر والتيارات بـل إنها كانت مسرحا لكثير من الأمور التي لم تجر إلا قليلا ونادرا في قصور وحياة بعض الخلفاء والأمراء على امتداد الحقب الإسلامية الطويلة وفي العواصم الكبيرة .

فهذا محمود بن نصر المرداسي وقد جلس في قصره وأمر بإحضار الشراب « فشرب أقداحا ثم قال : أرفعوا الخمر فإن ابن حيوس يحضرني ممتدحا وفي نفسي أن أهبه جائزة سخية فإن كان الشراب في مجلسي قيل وهبه وهو سكران »، ولما حضر ابن حيوس وأنشده مدائحه وهبه محمود « ألف دينار ذهبا في صينية فضة وجعلها له رسما عليه في كل سنة » (١)

ولما توفي محمود وخلفه ابنه نصر دخل عليه ابن حيوس وامتدحه بإحدى قصائده عبر فيها عن أمله في أن يصل نصر ما كان أبوه يجـريه عليه من هبة الألف دينار حيث قال :

فجاء ابن نصر لي بألف تصرمت   وإني لأرجو أن سيخلفها نصر

فأطلق له نصر ألـــف دينار وقال : « وحيـاتي لو قال سيضعفها نصر لضعفتها » (٢) وامتدح الشاعر ابن أبي حصينة معز الدولة ثمـال بن صالح بقصيدة شكا فيها من كثرة أولاده وضيق يده « فأمر معز الدولة ثمال بإحضار شهود أشهدهم بتمليكه ضيعتين من أعمال حلب ومنبج منضافتين إلى ما كان له

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٤٠ ـ ٤١ ، الحلبي : اعلام النبلاء جـ١ ص ٣٤٠ـ٣٤١

(٢) ابن العديم : زبدة جـ ٢ ص ٤٥ ـ ٤٦ ، ابن خلكان : وفيات جـ٤ ص ٦٤ـ٦٥

من الاقطاع فأثرى وحسنت حاله » (١) ، وقرب ثمال أيضا إليه لفيفا من من الشعراء منهم عبد الواحد بن المفرج الذى مدحه بقصيدة فأعطاه ثمال من أجلها جائزة سنية (٢) .

وتمادى نصر بن محمود فى الجلوس إلى الخمر ومجالس الخمر حتى « حمله الخمر على الخروج إلى الأتراك ، ليحاربهم « فرماه تركى بسهم فى حلقه فقتله » (٣) ، وهكذا شغف أمراء حلب بالشعر وندوات الشعر ، وعاقر بعضهم الخمر وعقدوا مجالسها وأسرفوا فى ذلك أحيانا بل دفع أحدهم حياته ثمنا لإسرافه فى ذلك .

وفى طرابلس مدح ابن الخياط التغلبى الدمشقى آل عمار بقصائد نال من أجلها الهبات والجوائز (٤) وعقدت ندوات الشعر ومجالسه كثيرا فى قصور الأمراء فى المدينة وفى غيرها من البيوت والدور بل وفى الحدائق وعلى ضفاف الأنهار ، لكن يبدو أن يد بنى عمار لم تكن فى سخاء يد بنى مرداس ، فلقد تعرض بنو عمار أحيانا للهجاء من قبل بعض الشعراء (٥) لكن الشىء المشترك الذى يمكن ملاحظته بسهولة هو عنايتهم بالشعر ومجالس الشعر بل

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ١ ص ٢٧١ — ٢٧٢
(٢) سبط بن الجوزى : مرآة جـ١٠ ص ١٠٨ — ١٠٩
(٣) ابن العديم : زبدة جـ٢ ص ٤٩
(٤) سبط بن الجوزى : مرآة جـ١٠ ورقة ٤١١
(٥) نفسه جـ١٠ ورقة ٢٥

وقرض الشعر أحيانا وكلها سمات حياة ترف وبذخ وإحساس بالانطلاق وعود إلي صفحات من الماضى فى حياة الخلافة والسلطان .

وفى شيزر كان بنو منقذ ممدحين أيضا انقطع إليهم شعراء كبار أمثال ابن الخياط الخفاجى (١) والحصكفى وهو من شعراء ديار بكر له قصائد طويلة فى مدح بنى منقذ (٢) ، ولعل بنى منقذ كانوا أقرب الأسر العربية قرباو تعلقا بتلك المظاهر وأكثرهم شفافية واستجابة لمثل هذه الأمور بل إن أمرائهم كانو جميعا وبغير استثناء من محبي الشعر ومن قارضيه .

ويتردد كثيرا في المراجع المعاصرة واللاحقة أخبار القصائد المرتجلة وغير المرتجلة لبنى منقذ وعنايتهم بفريق من فحول الشعراء فى بلاد الشام حتى ليبدو ثمة تخصص فى مدح تلك الأسرة العربية نبغ فيه نخبة من شعراء الشام حينئذ فبدا وكأنه عادة أو سنة متبعة مثلما كان أبي الطيب المتنبي منقطعا إلى الدولة الحمدانية من قبل (٣) .

ولقد عدد العماد الأصفهاني في خريدة القصر كثيرا من أمراء بنى منقذ كشعراء فحول وناظمين مجيدين بل وكثيرا من أفراد الاسرة المنقذية أيضا ، فهذا سديد الملك بن منقذ مؤسس الإمارة نفسه وابنه وخليفته نصر بن على

---

(١) ابن خلكان : وفيات جـ ٣ ص ٨٦

(٢) العماد الاصفهاني : الخريدة جـ١ ص ٥٦١ — ٥٦٢

(٣) محمد أسعد أطلس : ديوان أبى حصينة · المقدمة ص ٤

وأخوه مرشد ابن علي وأبناء أخيه سلطان بن علي وغيرهم من أمراء الأسرة المنقذية لهم قصائد طويلة وهامة حفلت بها المصادر العربية الأدبية (١) .

وليس لدينا شك في أن ذلك كله كان نتاج حياة ناعمة هنيئة حافلة بألوان من الترف والبذخ والغنى غاصة بشتى ألوان المسرات في قصور متلألئة وليالي مشرقة وأيام حافلة .

وكان قضاء الوقت في التصيد خارج أسوار المدن وفي الأرباض والمرتفعات والمغارات القريبة والبحيرات وفي الغابات الصغيرة المبعثرة هنا وهناك قريبا من مراكز الإمارات كان يعد إحدى وسائل شغل الوقت من ناحية ومظهرا من مظاهر التنعم من ناحية أخرى ، فضلا عن أنه ترجمة واضحة لحياة الفروسية والشجاعة وسمة من سمات الخلق العربي الأصيل خاصة إذا اقتصر على صيد الاسود والفهود والحيوانات المفترسة ، لكن بجانب ذلك كان هناك صيد الأرانب في الجبال المجاورة وصيد طير الماء وصيد الغزلان بقرب الأنهار والبحيرات (٢) .

ويغص كتاب أسامة بن منقذ بكثير من النوادر والطرائف من صيد

---

(١) العماد الأصفهاني : الخريدة جـ١ ص ٥٥٢ — ٥٦٠ ، ص٥٦٨ — ٥٦٩ .

Derenbourg : Extraits du Livre de baton. P.516

ياقوت : معجم الأدباء جـ٥ ص ٢٢٠ — ٢٤٢

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار ص ١١٩

Schlumberger : Recitide Byzance et des Ctois. p. 101

الأسود بصفة خاصة ومقدرة آل منقذ لاسيما أسامة فى التصدى لهذه الحيوانات الشرسة وإظهار البراعة فى التعامل معها وفهم طباعها ([1]) ولقد بلغ من عناية آل منقذ بالصيد أن نظموا فى شيزر وضواحيها فرقا متكاملة متخصصة فى أنواع الصيد المختلفة وحرص الأمير مرشد بن على بن منقذ أن يحضر قوما من أهل الجبل القريب وطلب إليهم أن يقيموا فى مواضعهم مصائد البزاة ووهبهم وكساهم وبعد وقت جاءوا إليه وقالوا «يامولانا نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا فى خدمتك ، ونشتهى أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمنا نعرفه لانجاذب فيه » فكان لهم ما أرادوا حرصا منه على تنمية هذا الصيد خدمة لأنواع أخرى من الصيد .

وكانوا يخرجون من شيزر فى أيام معينة لصيد معين « فكيف طارت الحجل كان فى ذلك الجانب باز يرسل عليه ومعه مماليكه وأصحابه أربعون فارسا أخبر الناس بالصيد فلا يكاد يطير طير ولا يثور أرنب ولا غزال إلا اصطدناه، فاذا خرجوا فى يوم آخر لصيد آخر اختلفت الصورة «وإذا ركبنا إلى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرحتنا، وحتى الخنازير كانوا يهاجمونها «وفى الأزوار خنازير كثيرة تخرج فنركض عليها ونقتلها فيكون فرحنا بقتلها أكثر من فرحة الصيد » . وهكذا كان للصيد فرحة وللخروج إليه شغف حتى ليقول أسامة « وكان له ترتيب ، كأنه ترتيب الحرب والأمر المهم ، لايشغل بحديث مع صاحبه ولا لهم هم إلا التبحر فى الأرض لنظر الأرانب أو الطير

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ١٩٢ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧

في أوكارها » (١) .

ولقد جذب اهتمام بنى منقذ بالصيد وبراعتهم فيه أنظار فريق من الكتاب والمؤرخين فى الغرب فعالجوا هذه الناحية بتركيز دون غيرها من نواحى الحياة فى الإمارة المنقذية فى شيزر حتى لقد أورد كل من Huart , Schlumberger صفحات خاصة لدراسة هذه الناحيه عند بنى منقذ والإشادة بها فى حياة الإمارة العربية (٢) حتى ليذهب أولها أن بنى منقذ لم يشغلهم فى حياتهم سوى شيئين هما محاربة الفرنج والخروج للصيد ، ويقول الثانى أن أسامة بن منقذ بما كان يمثله من نموذج الفارس الشجاع هو فى الواقع تفاعل بين عادات جنسه العربى واخلاقيات عصره أى بين عروبته بسماتها الأصيلة وما ساد عصره من اتجاهات على أن الاثنين اتفقا على أن الاهتمام بالصيد اتخذ كملهاة للامراء العرب فى شيزر ووسيلة من وسائل الترويح عن النفس فيها (٣) .

وإلى جانب الصيد ومظاهر الترف البادية فى حياة الأمراء العرب نجد أن كثيراً من الإمراء لم يخلدوا للعيش فى حواضر إماراتهم وحدها بل راحوا يتنقلون بين قصباتها وحواضرها وأهم مراكزها ، ترويحا عن النفس وشغلا للوقت ، سواء قضوا فى تلك المراكز أياما معينة أو فصولا بعينها ، فهذا صالح بن مرداس

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) Schlumbereger : op. cit. pp. 99-101

Huart : Ousama b. Mounkid. J.R.A.S. 1890. p 304.

(٣) Ibid : p. 100.-p. 304

يتنقل بين حلب فى الداخل وصيدا على ساحل البحر ، ودرج بعض خلفائه على الانتقال بين حلب وحمص ومنبج، وهؤلاء بنو منقذ تنقلوا بين شيزر وكفر طاب وحماه وحلب وكان لهم فى كل، الدور النفيسة والقصور الشامخة والمجالس المؤنسة ، وكان بنو عمار يترددون أيضا بين طرابلس وجبلة وعرقة وغيرها من مراكز . وهكذا نعم الأمـــراء العرب بالرحلة والارتحال ولم يخلدوا للسكينة فى مقر واحد دائم بل حرصوا على التمتع بوقتهم والترويح عن أنفسهم (١) .

وثمة نواحى أخـرى فى حياة بعض الأمـراء العرب وهوايات مختلفة لم يترددوا فى ممارستها بجانب اللعب والفروسية والصيد ، فهذا الأمير مرشد بن على بن منقذ — والد أسامة — يحرص على القيام بنسخ القرآن الـكريم نسخا يزهو بها ويتيه فخرا بكتابتها ، وكان بعضها مذهبا قضى فى نسخها وقتا طويلا ولم يبخل عليها بوقت أو مال (٢) ، فإن تم ذلك عن نزعة دينيـة محمودة فإنه لاشك يعد مظهرا من مظاهر شغل الوقت بعمل نافع ومجالا لإظهار الترف وفرصة للترويح عن النفس بعمل يرجى من ورائه المثوبة ويبتغى به حسن الثواب .

على أن اتخاذ الموالى والمماليك والغلمان من الأقليات التركمانية والكردية والارمنية أحيانا يعد أيضا مظهرا من مظاهر الغنى والترف وإظهارا للقوة

---

(١) ابن العديم : زبدة ، جـ١ ص ٢٣٣ ، ابن خلكان : وفيات جـ٤ ص ٣٥٧

(٢) أسامة : الاعتبار ص ٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٦٠

والثروة ويتردد كثيرا في تاريخ الإمارات الثلاث اتخاذ أولئك الموالى الذين برعوا إلى جانب الأمراء في الحرب وفي السلم على حد سواء ومثلوا ركنا أساسيا في حياة الإمارات العربية كخدم للدولة ومنفذين لسياستها ومعاونين لأصحاب الشأن فيها (١) .

وعلى هذا فيمكن القول أن ثمة مظاهر تنم من ترف وثروة ودعة تميزت بها فترات حكم الإمارات الثلاث ، حتى يمكننا القول أن مغالاة بعض الأمراء العرب في ذلك كان له ضلع دون شك في الاضمحلال الذي سرى في كيان تلك الإمارات والانحلال الذي عجل بانهدامها وانضوائها إلى قوى أخرى بدت في ثـــورة حماسية أبعد ما تكون عن تلك المظاهر . لكن الشيء الذي يفرض نفسه في هذا المجال أن كثيرا من الأمراء العرب كانوا قد استسلموا لحياة الدعة والرفاهية ، وآثروا العافية حين كان يجب تحكيم السيف ، وكان لهذا أثره في الضعف الذي سرى في كيان تلك الإمارات وساهم في هدمها كلية لتصبح جزءا من أملاك القوى الأخرى في بلاد الشام بعد عهود من الاستقلال تمتعت به عشرات من السنين .

العناية بالاداب والفنون :

على الرغم من تشابك الاحداث وتداخلها إبان عهـود الإمارات العربيـة

---

(١) أسامة : الاعتبار ص ٤٩ ، ص٥٤ ، ص ٩٦ ص ١٢٢

Schlumbereget : op. cit. 109.

سبط بن الجوزي : مرآة جـ١٠ ورقة ٥٦

Derenbcurg : ... Livre du batcn par Ousama : p. 516.

المذكورة وبرغم الأعباء التي ألقيت على كاهل الأمراء في حفظ استقلال إماراتهم ومحاربة القوى الطامعة في احتواء تلك الامارات ، فقد كان هناك متسع من الوقت للعناية بجوانب حضارية هامة وألوان شتى من مظاهر التمدين والتحضر لاسيما العناية بالآداب والفنون .

ولا نشك أبدا أن انصراف الأمراء العرب إلى تشجيع هذه النواحي قد فاق أي نشاط آخر في ميدان الحضارة وجذب جانبا لا يستهان به من اهتمامهم حتى غدت حلب وطرابلس وشيزر بل والمعرة مراكز إشعاع حضاري وفكري وأصبحت تلك المدن محط رحال العلماء ومقصد محبي العلوم والفنون على اختلاف أهوائهم ومشاربهم .

واذا كان الاهتمام بالكتب بل وإنشاء المكتبات العامة التي اشتهرت في الخافقين وكذلك الاهتمام بتقريب العلماء والأدباء والمبرزين في فروع العلم المختلفة وتشجيعهم كلها أوجه تؤكد العناية بهذه النواحي الحضارية إلا أنها تعد من ناحية أخرى تأكيداً للدور الذي لعبته هذه الإمارات في تاريخ المنطقة والرقي بها مراتب محمودة حضاريا وفكريا ويكفي لتأكيد هذه القضية أن بلاد الشام كلها لم تعهد دار حكمة طوال العهد الإسلامي قبل القرن الخامس سوى تلك التي أقامها بنو عمار في طرابلس كأشهر مؤسسة علمية في بلاد الشام بأسرها (١) .

وليس بخاف علينا أن تلك النهضة العلمية والفكرية جاءت في وقت انفصمت

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج٦ ص ١٩٠–١٩١

فيه عرى الوحدة السياسية فى بلاد الشام وسيطرت على أهله نزعات انفصالية واتجاهات انعزالية داخل حواضره ومدنه ومراكزه ، كما جاءت فى وقت علت فيه آراء المتشككين والمتشائمين ومؤيدى الطائفية والخارجين على المذاهب الدينية والمنادين بانفساخ اجتماعى وحرية دينية بما يتعارض مع القيم والمثل العليا ، كل ذلك كان له دون شك ضلع فى تعميق مفاهيم تلك النهضة وإعطائها كثيرا من أبعادها فضلا عن أنه أعطاها عموما وشمولا نلمسه فى تدارس تفاصيل تلك الحركة العلمية والفكرية فى كثير من بقاع الشام .

وكان اهتمام الأمراء العرب بالحركة العلمية أمرا مشتركا فى الإمارات الثلاث من توفير الكتب وفتح المكتبات العامة وتشجيع رواد العلم والطلاب على ارتيادها إلى غير ذلك من مظاهر التشجيع ، فى حلب كانت بالشرقية خزانة كتب عامة فى جامع حلب زمن المرداسيين سميت بخزانة الصوفية وكان يلتقى فيها الأدباء والشعراء والدارسين لكنها تعرضت أحيانا للنهب خاصة إبان الفتن التى كانت تثور بين الشيعة والسنة من أهل حلب يوم عاشوراء ، ومع ذلك فقد كانت إحدى المعالم الهامة فى حياة حلب العلمية وظلت قائمة بحلب عدة قرون أخرى .

وليس هناك شك فى أنها كانت مكتبة عامة لمختلف الفئات والدارسين بعكس ما يثور حول خزانة الكتب التى أقامها سيف الدولة الحمدانى فى حلب من أنها كانت مكتبة خاصة بسيف الدولة ، لأنه كان مولعاً بالكتب معنياً بجمعها فضلا عن أن هذه الخزانة الحمدانية تعرضت للتخريب إبان هجمات الروم

على حلب وتخريبهم لقصر سيف الدولة الحمداني[1] ومن الثابت أيضاً أنه وجدت بكل من كفر طاب والمعرة خزانة كتب زمن المرداسيين فقد تردد عليها أبو العلاء المعري ونهل من معينها وأخذ منها ما فاته من خزانة الكتب في طرابلس [2].

وكان الاهتمام بالأدباء والشعراء والخطباء والبارزين في شتى العلوم أحد ميزات عهد بني مرداس في حلب فلم يجد بنو مرداس غضاضة أحياناً في تقريب وتشجيع بعض النصارى والأقليات الأخرى ومنحهم مكانة ممتازة في الدولة ما داموا من العلماء والأدباء والكتاب والمبرزين في فروع معينة من العلوم فهذا مبارك بن شرارة أبو الخير الطبيب الكاتب الحلبي النصراني وكانت له جرائد مشهورة في حلب يحفظونها « لاجل الخراج المستقر على الضياع إذا اختلف النواب في شيء منه رجعوا إليها كما كان له تاريخ عن حلب وتوفي سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧) » ، وممن نال حظوة عند المرداسيين أيضاً من الكتاب

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام جـ٦ ص ١٩١

وجاء ذكر خزانة الصوفية في قصيدة لابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٤م) بعث بها من القسطنطينية إلى أحد أصدقائه مداعباً وفيها يقول :

أبلغ أبا الحسن السلام وقل له ... هذا الجفاء عداوة الشيعية

فلأطرفن بما صنعت مكابرا ... وأبث ما لاقيت منك شكية

ولا جاسنك لقضية بيننا ... في يوم عاشوراء بالشرقية

حتى أثير عليك فيها فتنة ... تنسيك يوم «خزانة الصوفية»

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة

والخطباء : صاعد بن شمامة المسيحي الحلبي وأبو اليمن المسلم بن الحسن بن غياث الكاتب، وكان صاحب الديوان بحلب ، وتادرس بن الحسن النصراني وكان وزيرا لصالح بن مرداس وصاحب السيف والقلم ومن الشعراء الذين قربهم آل مرداس وأحسنوا إليهم الشاعر أبو الفتيان ابن حيوس الحلبي (١) « ومحمد بن سنان الخفاجي » (٢) وأبو مشكور الشاعر الحلبي وعلي بن منصور الحلبي الملقب دوخلة ويعرف با بن القارح وكان من شيوخ الأدب وراويا للاخبار وهو الذي كتب رسالته لأبي العلاء المعري فأجابه هذا عنها برسالة الغفران الذائعة الصيت . هذا فضلا عن كثير من المبرزين في شتى العلوم والفنون ممن لقوا حظوة وتشجيعا لدى بني مرداس والذين لم يقلوا أبدا حماسة لتشجيع العلم وحدباً على أهله عن أسلافهم من بني حمدان (٣).

ولقد كانت المعرة إبان العهد المرداسي إحدى المراكز العلمية الهامة ، ولا نغالي إذا قلنا أنها جذبت الأنظار وقتا ما أكثر مما فعلت حاضرتها حلب لاسيما على عهد فيلسوفها وشاعرها وأديبها الذائع الصيت ابي العلاء المعرى ٣٦٣ - ٤٤٩ هـ (٩٧٣ - ١٠٥٧ م) ، إذ كانت

---

(١) ابن خلكان : وفيات جـ٤ ص ٦٤ — ٦٥

(٢) ابن العديم : زبدة ، جـ٢ ص ٣٦

(٣) ديوان ابن ابي حصينة نشرة محمد أسعد أطلس : المقدمة ص ٨ — ٩

في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) تعج بأهل العلم والأدب ويهوى إليها الطلاب من البقاع المختلفة ، فضلا عن أنها كانت موطن أئمة ذاع صيتهم وأسر اشتهرت في بلاد الشام وخارج حدود الشام ومنهم بنو سليمان وبنو كوثر وبنو سبيكة وبنو المهذب وبنو أبي الحصينة وبنو رزيق وبنو جهير وأشهرهم دون شك بنو سليمان أسرة شيخها أبي العلاء [1] .

ومن دراسة لحياة وإنتاج أبي العلاء المعري يمكن إلقاء الضوء على الحياة العلمية والفكرية في معرة النعمان وحلب زمن المرداسيين . فأبو العلاء المعري هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي أشهر من أنجبتهم المعرة على الإطلاق ، وأبرز حكماء الشام وأدبائها وشعرائها وفلاسفتها وكان أبو عبد الله بن سليمان لغويا شاعرا وأخوه الأكبر محمد بن عبد الله وأخوه الثاني عبد الواحد بن عبد الله شاعرين مجيدين ، وقد ولد أبو العلاء في سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣م) في معرة النعمان ولم يكد يبلغ الرابعة من عمره حتى أصابه الجدري فأودى ببصره لكن حافظته القوية مكنته مع ذلك من دراسة فروع مختلفة من العلوم فدرس في حلب وطرابلس وأنطاكية وتلقى النحو على علماء عصره ومنهم أبو بكر بن مسعود ومحمد بن عبد الله بن سعد ودرس اللغة والأدب ونطق بالشعر وعمره إحدى عشرة سنة وتردد على خزانات الكتب في كفرطاب والمعرة وطرابلس وزار بغداد مرتين ومكث بها نحو سنة وسبعة أشهر واضطر لقطع إقامته فيها والعودة

---

(٢) ديوان ابن أبي حصينة : المقدمة ٧ ص ٩ — ١٠

إلى مسقط رأسه سنة ١٠١٠ م بسبب مرض ألم بوالدته لكنه مع ذلك وصل إلى المعرة بعد وفاتها ومنذئذ لزم منزله وحبس نفسه به وسمى نفسه من أجل ذلك رهين المحبسين (المنزل والعمى) (١)

ولقد اتصل أبو العلاء وهو فى بغداد بجماعة من المفكرين ومن شيوخ المعتزلة وبعض الفلاسفة المتأثرين بالمذاهب اليونانية والراجح أنه اتصل أيضا بمفكرين من الهنود تمكنوا من حمله على مذهبهم فى الاقتصار على الأطعمة النباتية إذ أنه بقى نحو خمس وأربعين سنة لا يأكل إلا ماتنبته الأرض ويلبس خشن الثياب ويظهر دوام الصوم ويحرم إيلام الحيوان ويعيش على دخل ضئيل يكسبه من تعليمه ، وكان قوته نصف من خبز الشعير لا يأكل غيره.(٢) ولا نستطيع أن نشك أيضا أنه استوعب فى بغداد كثيرا من الآراء والتأملات الخارجه على مذهب أهل السنة . (٣)

وقد اتهم أبو العلاء بالزندقة والإلحاد وغير ذلك وجرى تحليل أشعاره وكتاباته لإثبات ذلك وقيل أنه أظهر الكفر وأبطن الإسلام ، وقال ابن عقيل وهذا عكس قضايا المنافقين حيث تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر(٤).

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ١٨٤ ، سبط بن الجوزى : مرآة ج٩ ورقة ٨٦ — ٨٧ محمد كرد على : خطط الشام ج٤ ص ٣٧ — ٣٨

(٢) ناصر خسرو : سفرنامة ص ١١ — ١٢ ، حتى : تاريخ سورية ج٢ ص ٢١٤ — ٢١٥

(٣) Nicholson : Encyc. Isl. art « Abu Alea »

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ج٨ ص ١٨٥

والواقع أن شعر أبي العلاء المتأخـر ينم عن فلسفة التشاؤم والشك في الحياة وعن موقفه العقلي من مشاكلها وقد حشد في رسالة الغفران مشاهير المراطقة وأحرار المفكرين بجوار الجنة يرفهون عن أنفسهم ويخوضون في مناقشات نقدية وأدبية تتناول الشعر ، وهذه الرسالة في ظـن البعض هي التي حفزت دانتي على وضع رائعته المعروفة بالكوميديا الإلهية . (١)

غير أن أبا العلاء جلب على نفسه أكبر قدر من اللوم والاتهام حين وضع كتابه : الفصول والغايات الذي يقال أنه تناول فيه أفكاره وفلسفته وآراءه على هيئة كلمات مرموزة وأمثال غريبة بحيث لا يقف الناس إلا على قدر قليل منه « ولا يفهمه إلا من يقرؤه هو عليه » فاتهم من أجل ذلك بأنه ، وضـع هذا الكتاب معارضة للقرآن ، (٢) وقيل أنه قصد به تقليد القرآن ، ومهما يكن من أمر فإن أبا العلاء كانت قد تجسمت فيه فعلا روح العصر بكل ما عراه من فوضى سياسية وتفسخ اجتماعي وتشاؤم فكـري وتشكك ديني ، فانعكست كل هذه الزوايا على أفـكاره وآرائه وألقت ظلها على كتاباته كما يبدو أن نكبة إصابته بالجـدري وفقده البصر قد زادت في نقمته على الحياة وعكست كثيرا من آلامه وأحزانه فيما كتبه وفيما أبداه من آراء .

ولكن برغم ذلك فقد سما أبو العلاء في شعره وأدبه إلى مـرتبة لم يكن

---

(١) Miguel Asin : Islam and the Divine Comedy
tr. H. Sanderland. London 1926.

حق تاريخ سورية جـ٢ ص ٢١٥—٢١٦

(٢) ناصر خسرو : سفرنامة ص ١١—١٢

يدانيه فيها إلا القليل من أهل عصره، واشتملت لزومياته على قصائد من أشهر شعره جاء فيهـا بمعان كثيرة أحرز بها السبق على فحول الشعراء اللاحقين ومنهم عمر الخيام الشهير ويروى ناصر خسرو الذى زار المعرة فى حياة أبى العلاء أن مجلس هذا العالم الكبير كان يضم غالبا أكثر من مائتي رجل يحضرون من شتى البقاع يقرأون عليه الشـعر والأدب ويتعلمون منه ويأخـذون عنه ويتتلمذون على يديه، وهكذا أعطى أبو العلاء للمعرة مكانتها ودورها وأعطى للعهد المرداسي كله أبهج أوجهه وأسمى حسناته .

ولقد عرف أمراء بنى مرداس لأبى العلاء مكانته ومنزلته ، فأكرموه من أجل ذلك وبالغوا فى إكرامه ، فهذا صالح بن مرداس نفسه ينزل على رغبة أبى العلاء ويطلق سراح جماعة من أهل المعرة شفع فيهم أبو العلاء قائلا لصالح: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فقال صالح قد وهبتهم لك أيها الشيخ »(١) ولما وشى وزير محمود بن نصر بأبى العلاء وزين لمحمود القبض عليه بسبب اتهامه بالزندقة والالحاد لم يعر محمود وزيره كثيرا من الاهتمام ، وما أن بعث الوزير فى طلب أبى العلاء حتى فاجأته المنية ، فأرسل محمود سريعا إلى المعرة يأمر رسل الوزير بالعود قائلا : « لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير » (٢) وهكذا تمتع أبو العـــلاء بمنزلة سامية فى عصره ولم يجرؤ صاحب سلطة أوذو قوة وشأن أن ينال منه برغم خطورة القضايا التى أثارها وجرأة الأفـكار التى أذاعها على العالم التزمت فى ذلك الوقت ، وبلغ من شدة

---

(١) ابن الوردى : تاريخه ج ١ ص ٣٣٨ — ٣٣٩

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة ج٩ ص ٩٣ — ٩٤

إعجاب الأوساط الأدبية والشعراء بأبي العلاء أن رثاه على قبره سبعون من فحول الشعراء (١) قال أحدهم في رثائه :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة ... فلقد أرقت اليوم من جفني دما

وظل أبو العلاء يحتل منزلة سامية في عقول وأفئدة الناس أجيالا طويلة كأحد المعالم العلمية البارزة في تاريخ المعرة وفي عهد بني مرداس .

وإذا انتقلنا إلى طرابلس لنتحسس مدى العناية بهذه الجوانب الحضارية نجد أن بني عمار لم يقلوا عناية بالآداب والفنون والعلوم عن بني مرداس أن لم يبزوهم في ذلك ، ومرة أخرى نقول أن التيارات السياسية المختلفة والنزعات الدينية والتشيع إلى غير ذلك من النزعات ألقت ظلها على النواحي العلمية والفكرية ودفعتها قدما إلى الامام وأعطتها رحابة وعمقا ، فلقد كان أمين الدولة أبي طالب ابن عمار مؤسس الإمارة في طرابلس قاضيا شيعيا ومتفقها على المذهب الشيعي وكان أيضا كاتبا بارعا وهو الذي صنف كتاب ترويح الأرواح ومصباح السرور والأفراح ، ولذلك فقد اتخذ دارعلم في طرابلس وقف عليها مايزيد عن مائة ألف كتاب (٢) وذهب البعض إلى أنها حوت نحو مليون مجلد إذ كان يرسل المراسلات إلى الأقطار المختلفة يبذل الأثمان الباهظة ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة (٣)

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم جـ٨ ص ١٨٧ — ١٨٨

(٢) ابن الفرات : تاريخه جـ ٨ ص٧٧

(٣) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ص ٢١٥

وقد اهتم جلالة الملك بن عمار كثيرا بهـذه المكتبة كـلفه فجددها سنـة ٤٧٣ هـ (١٠٧٩م) ومن بعده قام فخـر الملك بتوفير كثير من الـكتب لهـا فصارت طرابلس فى عهده على حد قـول ابن الفرات دار علم كلها وكان فى تلك المكتبة نحو مائة وثمانون ناسخا ينسخون لها الكتب بالجراية والجامكية فضلا عما يشترى لها من الكتب المنتخبة من البلاد .

ومهما يكن فى هذه المقالات من مبالغات فما لا شك فيه أن بنى عمـار قـد أعطوا هذه الناحية اهتماما بالغا ومنحوها جهـدا وافرا ، حقيقة ثارت بعض الأحاديث عن وجود هذه الدار بطرابلس قبل عهد بنى عمار بدليل تردد أبى العلاء المعرى عليها قبل ذلك العهد إلا أنه من الثابت أن بنى عمار أوقفوا عليها أوقافا كبيرة واشتروا لها الكتب من شتى البقاع وعينوا لها النساخ الموظفين وحولوها إلى جامعة دينية لدراسة المذهب الشيعى بصفة خاصة واهتموا بتشجيع طلاب العلم على ارتيادها حتى عدت طرابلس فى عهدهم محط رحال العلماء والدارسين ومصدر إشعاع فكرى وثقافى لا ينكر فضله ومركز أول جامعة دينية إسلامية فى بلاد الشام قبل استيلاء الصليبيين عليها [1] .

ولقد جنى الصليبيون أكبر جناية حين أحرقوا هذه المكتبة وتركوا الآف الكتب ضحية للنيران ، ونفائس المجلدات نهبا للحريق ، فأكـدوا بربريتهم وأضافوا إلى قتلهم الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ صفحات سود تعدت قتلهم الأنفس إلى قتل نهضة العلم وثمرة الفكر على امتداد أجيال طـويلة ،

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام جـ٤ ص ٣٨

فقد أجمعت المصادر المعاصره على أن هذه المكتبة كانت تضم إلى جانب المؤلفات العربية كثيرا من كتب العجم واليونان فضلا عن النسخ الأخرى التي تابر على استنساخها مئات الرجال ، ويروى المؤرخ المعاصر ابن أبي طي أن عدد هذه الكتب بلغ نحو ثلاثة ملايين ضاعت كلها بطبيعة الحال في هذا الحريق ، ولقد أشار المؤرخ Michaud أن الصليبيين عمدوا بعد دخولهم طرابلس إلى جمع أعداد كبيرة من نسخ القرآن الكريم ثم أشعلوا فيها النار ثم ما لبثوا أن وضعوا النـار في المـكتبة بأسرها وظلوا يرقبون الحريق في شيء كبير من التشفي والنشوة [1] . ، ولقد أبدى بعض عقلاء المؤرخين والـكتاب المحـدثين في الغرب شيئا من الأسف لإحراق هذه الكنوز الغالية من الكتب والمؤلفات في مكتبة آل عمار بطرابلس [2] . وليس هناك شك في أن ضياع تلك الـثروة العلمية جاء خطأ فاحشا وجرما كبيرا من قبل أولئك الغزاة ولعل ذلك يفسر إحجام كثير من المؤرخين المحدثين في الغرب عن تناول هذا الموضوع وتلافي الاشارة اليه وتجنب الخوض فيه لأنه يحمل دون شك أكبر دليل على بربرية الصليبيين وتعصبهم وتأخرهم الفكرى والعلمي وليس بوسعنا نحن إلا أن نبدى بالغ الأسف على ضياع تلك الثروة العلمية الكبيرة ولا نجد في صفحات التاريخ ما يفوقها بشاعة سوى ما حدث في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) على يد المغول المتبربرين الذين أشعلوا النار في أثمن ما خلفته الحضارة الإسلامية وما أنجبته

---

(١) Michaud's hist, of the Grusades, I.p.288

(٢) Daussuc: Grande Enciclobedie.

محمد بهجت ورفيق التميمى . ولاية بيروت ، ص ٢١٥

الحركة العلمية على امتداد قــــرون طويلة ، وفي ظل المقارنة بين الغازين المدبرين يمكن وضع الصليبيين في مكانهم الصحيح من التاريخ .

هذا وبالإضافة إلى عناية بنى عمار بالمكتبة ودار العلم فإنهم فتحوا صدورهم للكثير من العلماء والفقهاء والشعراء ومنهم الكاتب والشاعر الشهير ابن الخياط التغلبى وشيخ المعتزلة عبد السلام بن يوسف وغيرهم من العلماء لاسيما من الشيعة باعتبار طرابلس كانت مركزا شيعيا فى عهدهم [1] ، فضــلا عن غــيرهم من المبرزين فى شتى العلوم فى اللغة والفقه والشعر والأدب ، وهو أمر يتمشى فعلا مع مركز طرابلس العلمى فى العصـر وكونها مقر أكبر دار حكمة عرفتهـا بلاد الشام حتى ذلك الوقت .

أما فى شيزر فالأمر لم يختلف كثيرا عن ذلك من رعاية للعلم وحــدبا على أهله إذ ماجت شيزر هى الأخرى بتيارات فكرية وأدبية وشهدت نهضة علمية كبيرة تدانى فى بعض جوانبها تلك التى شهدتهـا كل من طرابلس وحلب ، ويكفى للتدليل على ذلك ، الانتاج الأدبى والشعرى لفارسها وأمـيرها أسامة ابن منقذ .

ولقد أورد أسامه عن جده سديد الملك أبو الحسن على بن منقذ فى كتاب العصا أخبارا تؤكد اهتمام هذا الأمير الكبير برجال العلم وحرصا على نفائس ما يملكون من كتب لأنها فى الواقع ثروة علميــة لشيزر ذاتها وعاملا هاما فى

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ٢ ص٦٨

الرقي بها علميا وفكريا، من ذلك أن القاضي أبا يوسف القزويني تعرض أثناء عودته من مصر — بطريق البحر — لعاصفة هوجاء ألقت بمركبه في اللاذقية وهي تابعة حينئذ لبيزنطة ، فكتب هذا القاضي إلى الأمير سديد الملك بن منقذ يقول : « حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعي كتب الإسلام وقد وقعت لك رخيصا فهل أجدك حريصا » ولما وقف سديد الملك على هذا الكتاب بادر بإنفاذ ابنه نصر على رأس عدد كبير من غلمانه وجنده وخيله ، « فأتاه وحمله وما معه وأقام عند جدي رحمه الله مدة طويلة » [١] .

هذا فضلا عن أن شيزر غدت مقر طائفة من العلماء والفقهاء زمن بني منقذ وكذلك كفر طاب التابعة لها والتي حوت خزانة كتب سبق الإشارة إليها من قبل ، ولقد سكن شيزر وكفر طاب بعض أولئك العلماء والفقهاء ومنهم ابراهيم بن عبد الرحمن أبو السمح التنوخي الفقيه الحنفي والشاعر والأديب [٢] وأبو صالح بن المهذب وزرعة ابن موسى الطبراني النصراني ، وقد اتخذه بنو منقذ كاتبا لهم وأفاءوا عليه من نعمهم وكذلك الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن سلامة ، وكان شيخا ظريفا ، أديبا فاضلا حسن المحاضرة ، وكان أكثر زمانه مقيما بشيزر بين آل منقذ مكرما محترما [٣] . وسكن كفر طاب جماعة من العلماء والشعراء أيضا حضر أسامة على بعضهم

---

(١) Derenbourg : Livre du baton par Ousama, p 516

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ٢ ص ٢٢٤

(٣) ابن القلانسي : ذيل ص ٣٤٦

وأخذ عنهم ومنهم الأصلح المعلم الكفر طابى ويوسف بن المنيرة وغيرهم من المبرزين فى شتى فروع المعرفة (١) .

على أن ولع أسامة بن منقذ باقتناء الكتب ونفائس المجلدات كان أحد السمات البارزة فى حياة أمراء بنى منقذ ، وجاء دليلا على ما لقيته هذه النواحى من اهتمام بالغ ، على الرغم من أن أسامة تعرض لمصيبة فى خزائن كتبه هو الآخر وذلك حين أرسلها من دمياط إلى عكا بعد أن حصل على عهد من الصليبيين بسلامتها ولكنها — مع ذلك — تعرضت للنهب والضياع وكان عددها نحو أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ، كما نهب معها من أموال أسامة ثلاثون ألف دينار ، ولقد عبر أسامة عن هلعه وألمه وحزنه لضياع هذه الخزانة فقال إن ضياعها حزازة فى قلبه ما عاش .

وليس من شك فى أن الاهتمام باقتناء الكتب وحفظها والعناية بفروع العلم المختلفة وتقريب الشعراء والأدباء والفقهاء وغيرهم من المبرزين فى شتى الميادين كان خطا بارزا فى سياسة إمراء بنى منقذ ، وكان فى نفس الوقت دفعة قوية للحركة العلمية فى إمارتهم حتى غدت شيزر تدانى إلى حد كبير المنزلة التى بلغتها كل من حلب وطرابلس زمنى بنى مرداس وبنى عمار ، بل أصبحت شيزر تنافسها فى احتلال تلك المنزلة وتحاول أن تصيب ما حققتاه من شهرة فى هذه الميادين ، وساعد على ذلك أن أمراء بنى منقذ كانوا جميعا على درجة عالية من

---

(١) Derenbourg : vie du Ousama. P. 581-2

محمد كرد على : خطط الشام جـ٤ ص ٤٢

الثقافة وكان معظمهم من فحول الشعراء والكتاب وهـذه الميول والثقافات أوجدت لديهم اهتماما متزايداً بالعلوم والآداب فى عاصمتهم حفزتهم على العناية بهذه الجوانب الحضارية مثلما لقيت جوانب أخـرى فى حياة الإمارة كثيرا من اهتمامهم ورعايتهم .

أهم المنشآت فى الإمارات العربية :

مع أن عهود الإمارات العربية المذكورة لم تشتهر بأنها عهود تشييد وبنـاء واهتمام بإقامة المنشآت العمرانية كالقصور والمساجد والمـدارس والأضرحة والمشاهد والأسوار والأبراج إلى غير ذلك كما حدث إبان عهود الخلفاء الكبار من بنى أمية وبنى العباس وحتى من بنى حمدان وأيضا عهود الترك والأيوبيين والمماليك بعدئذ ، إلا أننا مع كل ذلك لا نعدم العثور على أمثـلة توحى بنوع من الاهتمام أبداه الأمراء العرب بهـذه النواحى فى كل من حلب وطرابلس وشيزر بقدر ما سمحت لهم الإمكانيات وبقدر ما اتسع لهم من وقت .

فلم يمض العهد المرداسى فى حلب دون أن يخلف بعض المبـانى والمنشآت الهامة ويترك بصماته على غيرها من المنشآت القائمة بالتعمير والتجديد والإضافة حتى لنجد صعوبة فى وصف آل مرداس بالتقصير فى هـذه النواحى فى ظل مقارنة واعية لعهدهم بالعهود السابقة واللاحقة من حيث الطول والامكانيات والأعباء المختلفة وفى ظل الفهم الدقيق لأحداث العصر وموقع بنى مرداس منه ، وليس من شك فى أن نتاج ذلك الاهتمام العمرانى الذى أبداه بنـو مرداس يتمشى فعلا مع حجم اهتمامهم بالنواحى الأخرى ويتناسب أيضا مع جهودهم فى بقية الميادين ولا يبدو أبداً أقل حجما أو أكثر قصوراً .

وتحدثنا المراجع المعاصرة والمتخصصة أن بنى مرداس أقاموا مسجداً جامعاً على أنقاض كنيسة كبيرة كانت أحد كنيستين فى قلعة حلب قيل أنها كانت تضم مذبح سيدنا إبراهيم الخليل وصخرته التى كان يجلس عليها ، ويذكر ابن بطلان المتطبب المعاصر لبنى مرداس أن تلك الكنيسة العتيقة كانت تحوى فعلا المذبح الذى قرب عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وأن بنى مرداس أقاموا مكانها مسجدهم الجامع [1] .

على أن أحداً من المؤرخين لم يحدد لنا الأمير المرداسى الذى بنى ذلك المسجد الجامع أو يعين لنا تاريخ بنائه ، لكن المؤرخ ابن العظيمى المعاصر لبنى مرداس أشار فى تاريخه إشارة عابرة إلى أن هذا المسجد كان موجوداً سنة ٤٣٥ هـ [2] (١٠٤٤ م) ؛ وهذا يعنى أن واحدا من ثلاثة من أمراء بنى مرداس كان له فضل اقامته . فإما صالح بن مرداس نفسه (٤١٥ — ٤٢٠ هـ) أو ابنه نصر بن صالح (٤٢٠ — ٤٢٩ هـ) أو ثمال بن صالح الذى بدأ حكمه يطرد فى حلب ابتداء من سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م) ، غير أن انشغال كل من صالح بن مرداس وابنه نصر بالنواحى الحربية وتأكيد سلطة بنى كلاب والحفاظ على استقلال الإمارة ، ربما يعزز الميل إلى أن ثمال هو مقيم هذا الجامع نظرا لما أبداه هذا الأمير المرداسى فى حياته من اهتمام زائد بشتى النواحى الحضارية والعمرانية فى حلب وخاصة وأنه هو الذى اهتم بأسوار حلب وقلعتها وصرف جانبا من نشاطه فى ترميمها وصيانتها كما أقام فيها أبراجا

---

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ٧٥—٧٦

(٢) نفس المرجع ص ٧٥—٧٦

كثيرة (١) أضاف بها إلى التحصينات التي سبق أن أقامها بنـــو حمدان في المدينة خاصة بعـد تعرضهـا للهجوم البيزنطي . على أية حال فسواء تم بناء المسجد الجامع بالقلعة على يد ثمال هذا أو يد سلفيه كل ذلك لا يؤثر في الموضوع كثيرا فهو أثر بارز من العهد المرداسي دون جـدال وأحد المعـالم العمرانية التي خلفها المرداسيون في حلب برواية المصادر المعاصرة .

ويبدو أن أحداث العصر وطمع القوى الأخرى في إمارة حلب قد دفـع بني مرداس إلى الاهتمام بالقلعة اهتماما بالغا حتى تكون صمام الامن في المدينة وملجأ لهم أمام أي خطر قد يتعرضون له ، وخاصة أن تجربة بني حـــدان وتعرضهم لخطر الغزو البيزنطي أوضحت أنه يمكن الاعتماد على القلعة إذ لاذ بها جماعة من مقاتلي المدينة ورجالها حين سقطت حلب في يد نقفور فوقاس سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) فحمتهم القلعة ، واستعصت على البيزنطيين برغم عدم حصانة أسوارها إذ ذاك ولهـذا عمد بنو مرداس إلى تجـــديد أسوارها وأقاموا بهـــا التحصينات اللازمة وبنـــو فيها الدور الكثيرة وسكنوها وباشروا منهـــا القتـال ووجهوا الحـرب (١) ويذكر المؤرخ ابن العديم أن معز الدولة ثمال بن صالح رسم خطة إصلاح عسكري بمجـــرد استقراره في حكم حلب سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م) رصد بموجبها نحـو خمسة وسبعين ألف دينار برسم عمارة القلعة ومساكنها ومصانعها ، ونحو ثلاثين ألف لإقامة العوض عما استنفذ من العدة وهلك من أصحاب الأسلحه باستعمالها

---

(١) الغزي : نهر الذهب ج ٢ ص ٤

(٢) ابن العديم : زبدة ، ج١ ص ٢٤٥ ، الغزي : نهر الذهب ج٢ ص ٢٥

والابتذال لها فى الحرب [١] وهكذا دلل تمال على اهتمام بالـــغ بالقلعة وتحصيناتها وأسلحتها ودورها وعمارتها .

ولم يقتصر اهتمام بنى مرداس على العمائر الحربية في القلعة والأسوار فقد خلفوا بعض المساجد والمشاهد والدور النفسية وأضافوا كثيرا من التجديدات على عمائر العهد الحمدانى ويذكر المؤرخ بن أبى طى أن سيف الدولة الحمدانى كان قد أقام فى سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) مشهدا بغـــربى حلب سمى بمشهد الدكة [٢] فقام بنو مرداس بتجديده وأضافوا إليه بعض الإضافات فى الجهة الشمالية منه [٣] ويرجع للعهد المرداسي أيضا المسجد المسمى مسجد السيدة بنت وثاب النميرى وكانت إحدى النساء الشهيرات فى العهد المرداسي وهى زوجة نصر بن صالح بن مرداس وأم ولده محمود بن نصر وقد دفنت بذلك المسجد [٤] ومن الدور النفسية التى خلفها العهد المرداسى أيضا دار الوزير على بن أبى الثريا وزير محمود بن نصر المرداسى وهى التى جعلها نور الدين ابن زنكى مدرسة عرفت بالمدرسة العصرونية [٥] وفى قلب حلب ينتسب المسجد

---

(١) ابن العديم : زبدة جـ١ ص ٢٦٣

(٢) يذكر ابن الشحنة (الدر المنتخب ص ٨٥) أنه سمى بهذا الاسم « لأن سيف الدولة كان له دكة على الجبل المطل على المشهد يجلس عليها لينظر إلى حلبة السباق فانها كانت تجرى بين يديه فى ذلك الوطأ » ولما وجـد فى هـذا المكان حجر مكتوب عليه « هذا الحسن بن الحسين بن على بن ابى طالب » أمر سيف الدولة ببناء المشهد على المكان .

(٣) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٨٦

(٤) ابن الشحنة ، الدر المنتخب ص ١٠٤

(٥) نفس المرجع ص ١١٠

الجامع فيها للعهد المرداسي أيضا فقد بناه القاضي ابن الخشاب زمن سابق بن محمود آخر المرداسيين ، فقد وجدت أسفل المنارة المربعة ذات الخمس طبقات التي أقامها هذا القاضي كتابة ذكر فيها اسم هذا القاضي ثم أضيف إليه إسم ملكشاه لأن هذه المنارة بنيت على الأرجح سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) أي بعد دخول حلب في حوزة السلاجقة (١) على أية حال لم يمض العهد المرداسي في حلب إلا وقد خلف مجموعة من الآثار وترك بصماته أيضا على كثير من آثارها ومعالمها السابقة بالاضافة والتجديد والتعمير والترميم وهو جانب حضاري يمكن إضافته إلى بقية الجوانب التي لقيت عناية من آل مرداس قبل اندثار دولتهم في حلب .

أما في طرابلس فقد اهتم بنو عمار أيضا بالنواحي العمرانية بالمدينة وبتجميلها ولقد تحدث الرحالة ناصر خسرو ومن جاءوا بعده عن جمال أبنيتها وارتفاع عمائرها وذكر ناصر خسرو أن البيوت فيها كانت ذات أربع طبقات وأحيانا ست طبقات مع أن كثرة الطبقات في الدور لم تعهد حينئذ في الشرق وذلك يدل قطعا على نهضة عمرانية تمتعت بها طرابلس في عهد بني عمار (٢) ويؤكد العمري هذه الرواية بقوله أن مياه النهر تصل إلى دور المدينة المرتفعة « التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العالية » (٣) وتشير الدلائل إلى أن بني عمار

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام جـ٦ ص ٤٨ ـ ٤٩

(٢) ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٣ ـ ١٤

(٣) العمري : مسالك الأبصار جـ٢ مجلد ٣ ورقة ٤٤٩ (مصور)

أقاموا مجموعة من القصور الفخمة أشاد بعظمتها ومبلغ ثرائها كل من زار طرابلس حتى من الفرنج .[1]

على أن تعرض طرابلس لخطر الهجوم من قبل السلاجقة والفاطميين والفرنج في عهد بنى عمار قد دفع هؤلاء إلى العناية بتحصينات المدينة وأسوارها وأبراجها وإقامة المنشآت الحربية فيها، وتوزيع المدافعين على تلك التحصينات[2]. ولعل قلة المعلومات التى وصلتنا عن عمائر طرابلس ومنشآتها ونشاط بني عمار في ذلك راجع دون شك إلى أن الاحتلال الصليبي لها منذ ١١٠٩م (٥٠٢هـ) قد طمس كثيرا من معالمها وأخفى عنا كثيرا من حقائق تلك النهضة العمرانية التى لاشك تعرض جانب كبير منها للتخريب إبان الهجوم على المدينة واقتحام الفرق الصليبية المتعصبة لها . وإشعال النار فى كثير من أوجه حسنها وجمالها وأبهج منشآتها ومراكز عمرانها .. هذا فضلا عن أن استرجاع طرابلس على أيدى المسلمين قرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) على يد السلطان قلاون كان له ضلع أيضا فى ضياع كثير من منشآت المدينة وآثارها وهدم قلعتها بصفة خاصة وقد أشار إلى ذلك المؤرخ المعاصر أبى الفدا — شاهد العيان لهذا الحدث — إذا قال : « وحصار طرابلس هو أيضا مما شاهدته وكنت حاضرا فيه مع والدى الملك الأفضل وابن عمى الملك المظفر صاحب حماه — ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم أمر السلطان فهدمت

(١) Grousset ; Hist. des Crois. I.P 132-3

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص ٢٥٠

(القلعة) ودكت إلى الأرض »[١] وهكذا قلت معلوماتنا عن نهضة طرابلس العمرانية فى عهد بنى عمار مع أننا لا نشك أبدا فيما أبداه هؤلاء من اهتمام بهذه الجوانب الحضارية مثلما لقيت الجوانب الأخرى اهتمامهم ورعايتهم .

أما فى شيزر فالظروف تشابهت كثيراً مع طرابلس من الوجهة العمرانية فلقد اهتم بنو منقذ أيضـا بإقامة العمائر والقصور الشامخة والدور النفيسة لافى شيزر وحدها بل وفى كفر طاب التابعة لها أيضا[٢] ونستطيع تلمس مسرح الأحداث التى رواها أسامة بن منقذ والطرائف والقصص داخل شيزر وفى القصور والدوروالعمائر والأسوار والأبراج [٣] فضلا عن كثير من الاشارات إلى مساجد شيزر التى لاشك أقامها بنو منقذ، ولقد جاء ذكر لمساجد جامعة فى شيزر فى بعض الـكتب المعاصرة [٤] وأكد تعرض شيزر لخطر الهجوم لاسيما من قبل البيزنطيين اهتمام بنى منقذ بالمنشآت الحربية والتحصينات العسـكرية خاصة فى أسوار شيزر وأبراجها ويدل صمود المدينة أمام الهجـوم البيزنطى على يد حنا كومنين سنة ١١٣٨ م (٥٣٢ ه) نحـو أربعة وعشرين يوما مع شدة ضربها بالمنجنيق وعنف القتال حولها ، أن بنى منقذ كانوا قد اهتمـــوا بدفاعات المدينة وأحسنوا تحصينها ممـــا يوحى بكثرة العمائر الحربية وقوة

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٢٤

Buhl : Encyc. ISL. art « Tarabulus »

(٢) ابن خلـكان : وفيات ج ٤ ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٣) أسامة : الاعتبار ص ١١٦ ، ص ٥٦ — ٥٧

(٤) ابن القلانسي : ذيل ص ١٧٧ — ١٧٨

الأسوار والأبراج. وكما حدث فى طرابلس أدت النكبة التى ختمت بها حياة بنى منقذ وتهدم شيزر إلى ضياع مظاهر العمران فيها وطمست هنا معالم تلك النهضة العمرانية ، وأخفت أبعادها الحقيقية ، لاكننا لانشك أيضا أن بنى منقذ لم يهملوا أبدا الناحية العمرانية فى عاصمة إمارتهم لأنها كانت مقصد المبرزين والأمراء والنابهين فى تاريخ العصر ، كما نلمس الإشادة بها وبثرائها وعظمتها فى كتابات المؤرخين المعاصرين .

جـ — الأحوال الداخلية فى الإمارات العربية :

على الرغم من أن الإمارات العربية الثلاث قامت استجابة لرغبة جامحة لدى فريق من الأسر العربية الأصيلة الظامئة إلى بعث جديد التواقة إلى إحياء عربى شامل بعد تعاقب موجات مشوبة بالأعجمية مليئة بتيارات مذهبية مستحدثة وربما منافية لما أسست عليه المدنية الإسلامية والدولة العربية الأولى على الرغم من ذلك فإن تلك الإمارات لم تستطع أن تتخلص من كل تلك الشوائب أو تصفى تلك التناقضات لأن تلك التناقضات كانت نتاج قرون عدة وحصاد أحداث كثيرة تتعدى إمكانيات تلك الإمارات وقدرتها .

وبعبارة أخرى فإن ماخرجت به الخلافة الأموية العربية على الأمة من خالص الاعتماد على العنصر العربى فى كل شىء فى المناصب الإدارية والعسكرية وشتى مظاهر الحياة فى أرجاء الخلافة الواسعة ، وما أعلنته الخلافة العباسية العربية فى بغداد من حرص على رعاية المذهب السنى ومناهضة شتى المذاهب والنحل الأخرى ، هذه المبادىء والأسس لم تستطع أن تلتزم بها الإمارات العربية فى بلاد الشام أو تضعها نصب أعينها لاسيما وأن روح العصر كانت أقوى منها وأكثر أثرا من حدود إمكانياتها وقدرتها .

إذن فرعايا الإمارات العربية المعنية تناقضوا عنصريا ومذهبيا فى الوقت الذى انصرفت فيه هذه الإمارات إلى مشاغلها الأخرى ولم تبذل جهدا كبيرا فى حل تلك التناقضات أو محاولة وضع حد لاستفحالها .

وربما كان التناقض المذهبي أشد قسوة وظهوراً من التناقض العنصرى الذى لانجد أمثلة كثيرة تؤكده وتنبىء عن احتدامه ، وباستثناء بعض الفتن التى أثارتها طوائف الترك فى حلب إبان العهد المرداسي لانجد تناقضا عرقيا يفرض نفسه على الأحداث أو يغير مجرى الأمور فى تلك الامارات بعكس ماحدث من احتدام الخلاف المذهبى وشدة الصراع الطائفى بين رعايا الإمارات العربية حينئذ .

وكلا التناقضين رغم تفاوت شدتها — لم يؤديا إلى نتائج حاسمة فى أوضاع الإمارات العربية لأن الأمراء العرب كانوا يمثلون الغالبية العظمى من رعاياهم سواء من الناحية العرقية أو المذهبية — فكانوا عربا وسط محيط شاسع من رعاياهم العرب . وكانوا فى حلب وطرابلس من الشيعة وسط محيـــط من السكان الشيعة وكانوا فى شيزر سنيين وسط أغلبية سنيه ، ولهذا لم تؤد هذه التناقضات إلى تغيير فى أوضاع تلك الامارات برغم تفاوت شدتها وإن أضافت بعض الأعباء على سلطة الأمراء .

فمن الناحية العنصرية تعددت الطوائف المختلفة وسط الرعايا العرب وتنوعت فكان هناك الترك والكرد والتركمان والديلم والفرس وغير ذلك من الطوائف التى طفت أحيانا فوق السطح وأكدت فى كثير من المناسبات حقيقة التناقض العرقى بين الرعايا .

على أن تعدد تلك الطوائف مع تبوء بعضها المناصب الهامة فى الجيش

والدولة والإدارة يؤكد دون شك تحلل الأمراء العرب مما استفته الخـلافة الأموية من نظم من قبل وينشيء أن مبدأ التعصب لكل ماهو عربي لم يعـد محل مناقشة في تلك الدويلات العربية أو أمر إلزام لساستها .

فيما يختص بالترك والتركمان فعلى الرغم من أننا نعتقد أن ثمة تسرب بطيء لجماعات قليلة منهم إلى بلاد الشام قد حدث قبل عهود الإمارات العربية ، خاصة وأن الخلافة العباسية كانت قد فتحت صدرها على عهد المعتصم بالله ٢١٨-٢٢٧هـ لتلك العناصر التي استفحل سلطانها في الدولة بعدئذ ، فضـــلا عن وجود شخصيات تركية وجماعات تركية في دوائر بني طولون والاخشيديين ممن كان لهم شأن في بلاد الشام حتى النصف الأول من القرن الرابع — على الرغم من ذلك فان المراجع العربية تتحدث عن التحركات الكبيرة لتلك الجماعات وهي التي حدثت في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى ، باعتبارها أول عهد هذه البلاد بالترك وأشباه الترك .

ويبدو أن أغلب الجماعات التركية التي انسابت إلى شمال الشام بصفة خاصة جاءت من الصحراء التي عرفت بصحراء التركمان الواقعة بين بحيرة آرال وبحر الخزر وكان أكثرهم من سكان الخيام[1] فضلا عمن جاء من تركستان وبلاد ماوراء النهر ومن دفعت به دولة السلاجقة من أفواج .

ويتحدث المؤرخون عن انسياب جماعات الترك إلى شمال الشام إبان الفترة

---

(١) محمد بهجت ورفيق التميمي : ولاية بيروت ٢ ص٢٥

الأخيرة من حكم آل مرداس واستقرار بعضهم فى خدمه تلك الإماره وقيامهم بدورهم فى الأحداث كإحدى طوائف الرعايا فى الإمارة . وأول من نزل من الأتراك فى بلاد الشام هو هارون بن خــان سنة ١٠٦٢ م وكان معه جماعات من الترك والأكراد والديالمة والكرج نحو ألف رجل ، فأقطعهم محمود بن نصر المرداسي معرة النعمان سنة ١٠٦٦ م (١) ويبدو أن هــذه الجماعات أتت إلى المنطقه وفى خطتها الاستقرار والقيام بدورها فى خدمة الأمراء كفرقة محاربة بعكس جماعات التركمان التي جاءت إلى شمال الشام بغرض العبث والإفساد والإغارة ثم الانسحاب كما حدث من إغارة لهم على حلب سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) (٢) لكن انسياب الجماعات الهــادفة إلى الاستقرار تتابع بعدئذ فى موجات متلاحقة لم تسلم البلاد أحيانا من عبثهم خاصة أملاك البيزنطيين فى أنطاكية ونواحيها ، فوصل بعض القادة الترك على رأس أعداد كبيرة من أتباعهم مثل القائد إفشين وصندق وأحمد شاه ومحمد بن دملاج وغيرهم ، فغدت طائفة الترك ومن صاحبهم من طوائف أخرى تمثل عنصرا هاما فى الأحداث فى شمال الشام ، وتخــدم كفرق محاربة استعان بها الأمراء المرداسيون ، وغدت هذه الفرق بمرور الوقت جزءا من الرعايا ، بل إن ازدياد نفوذهم فى الإمارة كان نذيرا بتقلص سلطة الأمــراء العرب ثم بانهدام إمارتهم فى نهاية الأمر .

---

(١) بن العديم : زبدة ج٢ ص ٩ — ١٠
ابن الوردى : تاريخه ج١ ص٣٧١
(٢) ابن ميسر أخبار مصر ص٧

وتتحدث المراجع عن فتن عارمة أثارتهـــا تلك الطوائف أحيـانا فى حلب مما مثل سابقـــة هامة وخطيرة فى التناقض العرقى فى تلك الإمارة زمن المرداسيين وأعطى انطباعا بأن الأغلبيـة العربية هناك عانت أحيانا من ثقل هذا التناقض . (١)

ولم تكن طائفة الترك والتركمان ومن صاحبهم من الديالمة والكرج وغيرهم هى الطوائف الوحيدة التى عرفها العصر المرداسى ، فلقد كان الأكراد يمثلون عنصرا هاما من رعايا الإمارة ويتردد فى الكتب المعـــاصرة أسماء رجال من الأكراد خدموا لدى أمراء من بنى مرداس ، وفى شيزر ، وفى طرابلس أيضا مما يوحى بأن انتشار هذه الفئة لم يكن قاصرا على إمارة بعينهـا أو بلداً بذاته كما يوحى بأن انسياب هذه الفئة كان عملا دائباً ومستمرا بسبب قرب موطنهم ومناطق تجمعهم فى كردستان وغربى إيران وأقصى شمـال العراق والأطراف الشرقية لهضبة الأناضول من الجهات التى انسابوا إليها فى بلاد الشام .

ويذكر المؤرخ ابن شداد أن شبـل الدولة نصر المرداسى أرسل فى سنة ٤٢٤ هـ (١٠٣٣م) فرقـة من الأكراد للدفاع عن قلعة تقـــع إلى الشرق من أنطرطوس على جبـل الخليل كانت تسمى قلعة الصفح (٢) ولذلك أضيف اسم لأولئك المدافعين فعرفت بعدئذ بحصن الأكراد،ويبدو أن استقرار تلك

---

(١) ابن العديم : زبدة ج٧ ص ٢٩٥ ، ج٢ ص١٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٢٦٢
ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٧٥ ،

(٢) Canard : op. cit. p. 206

الفئة من الأكراد في تلك القلعة هو الذى أعطـــاها اسمهم ، ويذكر المؤرخ سبط بن الجوزى أن جموع الأكراد من رعايا المرداسيين قاموا بالانضمام الى شرف الدولة مسلم العقيلي بعد انهدام إمارة آل مرداس وشـاركوه جهوده في الحروب في شمـال الشام[١]. ما يعنينا من ذلك كله أن ثمة فئة أو طـائفة من الأكراد خدمت في الإمارة المرداسية منذ بدايةعهدها ومثلث إحدى طوائف رعايا تلك الإمارة .

وفى شيزر نجد كثـيرا من الشخصيـات الكردية لعبت دورا كبيرا فى الأحداث وخدمت إلىجانب أمراء بنى منقذ ، ويتردد كثيرا فىحديث أسامة فى كتـاب الاعتبـار أسماء شخصيـات كردية ورجال أكراد كانوا ملىء السمع والبصر فىالدولة وشاركوا فىالحروب وخدموا فى البلاط وأسهموا فى الحضارة والعمران .[٢]

ولم يقتصر حديث أسامه عن أفراد أكراد أو أشخـاص منفردين منهم بل تعدى الأمر ذلك إلى الحديث عن أسر كردية بذاتها مما يوحى باستقرار طوائف منهم في شيزر وفي المناطق المحيطة بهـا ، وظهورهم كعنصر هام من عناصر رعايا الإمارة يضاف إلى بقية العناصر[٣].

---

(٣) سبط بن الجوزى : مرآة جـ١٠ ورقة ٥٦

(٤) أسامة : الاعتبار ص ٤٨ — ٤٩ ، ص ٦٦ — ٦٧ ، ص ٩٥ — ٩٦ ، ص ١١٦ ، ص ١٢٢

(١) أسامة : كتاب الاعتبار ص ١٤٩

وإلى جانب الترك والتركمان والكرج والديالمة والأكراد نجد الارمن كطائفة أخري لعبت دورها في العهد المرداسي ، ولقد ذاب كثير من الأرمن في الأوساط الإسلامية في بلاد الشام ، واعتنق كثير منهم الاسلام وخدموا لدى السلاطين والأمراء ولعب بعضهم دورا كبيرا في التاريخ الإسلامي . ويذكر سديد الملك بن منقذ — مؤسس الإمارة في شيزر — في خطابه الذي بعث به إلى بغداد أنه عندما استولى على شيزر وذاعت أخبار تسامحه وحسن معاملته لجيرانه رغبت كثير من القرى والحصون في التسليم إليه ، وسمع بذلك أهل برزية وعينتاب وحصون الروم فجاءتني رسلهم ورغب كلهم في التسليم إلى ،[1] ويشير أسامه ابن منقذ إلى أن العلاقات مع الأرمن من أصحاب المصيصة وأنطرسوس وأذنه والدروب كانت علاقات ود وصداقة سادها الصفاء والإخلاص وجرت بين آل منقذ وبينهم مكاتبات وتبادلوا خلالها الهدايا وغير ذلك[2] وليس من شك في أن كثيرا من الأرمن دخلوا في طاعة هذا الأمير المنقذى ومثلوا طائفة من طوائف رعاياه ، فقد ذكر أسامة أخبار كثير من جماعاتهم التي اشتهرت بالمهارة في الرماية والتي استعان بها آل منقذ في الصيد[3] وفي الحروب على حد سواء . ويتردد في حديث أسامة كثيرا من أخبار الأرمن في شيزر وضواحيها مما يؤكد أيضا أنهم كانوا إحدى طوائف الرعايا في الإمارة المنقذية .

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة ج ١٠ ورقة ٣٩

(٢) أسامة : الاعتبار ص ٢٠٢

(٣) نفس المرجع : ص ١٠٦

وفى طرابلس نجد أن توطن الموارنة فى الشمال كان له أثر فى اندماجهم مع السكان الأصليين من العرق الأرامى لكن نزوح العرب إلى هذه الجهات وتوطنهم فيها قد أبقى تلك الفئة أقلية فى المنطقة ، ثم كان تسرب فئات شيعية عربية أحيانا وفارسية أحيانا أخرى واتجاهها نحو المرتفعات والدروب طلبا للأمن والحماية أثره فى صبغ هذه المنطقة بصبغة خاصة لكنها ظلت تمثل أكثرية عربية بجانب تلك الأقليات (١)

ومجمل القول فى طوائف الرعايا فى الامارات العربية هو وجود أقليات تركية وتركمانية وكردية وأرمينية وفارسية وموارنة وسط أغلبية عربية لعبت أدواراً هامة فى تاريخ الإمارات الثلاث وتبوأ أفراد منها مناصب كبيرة فى الحكم وقاموا بنشاط جم واشترك أكثرهم فى الجيوش العربية كفرق محاربة وذاب آخرون فى محيط الأغلبيـة ، وبقى آخرون كأمر وادعة متحفظة آمنـة فى ضواحى الإمارات وبالقرب منها وثار آخرون ورفعـــوا راية العصيان ومثلوا عنصر قلاقل ومنبـع فتن ، وكأن الأمراء العرب لم يعودوا مسئولين فقط عن شعوبهم العربية وبنى عمومتهم بل أضحت إماراتهم تضم إلى جانب العرب أقليات من أجنـاس أخرى كان عليهم أن يعترفوا بها بـــل ويفسحوا لها مكانا فى دولهم فى بعض الأحيان ويخضعونهم ويقضون على فتنهم فى أحيان اخرى .

هذا فيما يختص بالتناقض العنصرى فى الإمارات الثلاث أما بالنسبة للتناقض

---

(٥) حتى : لبنان فى التاريخ ص ٣١٤

المذهبى والدينى فقد كان احتدامه شديدا وأثره أقوى فى مجريات الأمور فى كل من حلب وطرابلس وشيزر — وليس من شك فى أن العامل الدينى والصراع المذهبى قد أثر تأثيرا واضحا فى تاريخ الإمارات العربية نظراً لأن روح العصر بكل ما عراه من فوضى سياسية واتجاهات طائفية قد ألقت ظلها على الناحية الدينية فكان التناقض فيها شديدا والصراع قويا .

وتشير الدلائل إلى أن التشيع فى بلاد الشام وفى شمالها بوجه خاص كان قد وصل إلى درجة كبيرة من الاستفحال على عهد تلك الإمارات وكان أحد العوامل الرئيسية فى بزوغ بعضها وإظهارها إلى الوجود وإعطائها مبررا للاستمرار فترات متفاوتة كإمارات مستقلة .

ولقد ظهر التشيع بادىء ذى بدء فى بلاد الحجاز باعتبارها بلد المتشيع له ولكنه كان فى أول أدواره باهتا ضعيف الحول ، ثم استفحل أمره بعدئذ فى بلاد العراق زمن خلافة على بن أبى طالب . وتؤكد بعض الروايات أن التشيع انتقل إلى بلاد الشام على يد أبى ذر الغفارى أحد صحابة الرسول الكريم والمعروف بحبه لعلى بن أبى طالب وميله إليه خاصة أنه سكن بلاد الشام بعد السنة الخامسة للهجرة واستدعاه عثمان بن عفان لشكوى فيه من معاوية بن أبى سفيان لكنه عاد إلى بلاد الشام حيث استقر فى جبل عامل ونشر التشيع هناك وتوفى سنة ٣٢هـ (٦٥٢/٢م)[1] ولازال له مقام يزار فى قرية الصرفند بين صور وصيدا ومقام آخر فى قرية ميس فى جبل عامل ، ويبدو أن معاوية

---

(١) Robson: Encyc. ISL. art :« Abu Dharr «

كان قد ضيق على أبى ذر مما دفعه إلى الخروج إلى القرى ونشر التشيع فيها وخاصة المنطقة الواقعة بين أرض البقاع شرقا والبحر المتوسط غربا ومدينة بعلبك وأعمالها ومنها انتشر شمالا وشرقا فى أعمال حمص وحلب (١) .

وكان أهل حلب فى البداية سنيين على مذهب أبى حنيفة ثم أخذت تتغلل فيهم جيوب - شيعية بعدئذ وتشد إليها أنصارا جدد وفى سنة ١٤١ هـ (٧٥٨م) ظهر فى حلب جماعة من أتباع الراوندى زعموا أنهم بمنزلة الملائكة ولبسوا ثيابا من حرير فضفاض وأحدثوا فى حلب اهتماما بالغا ومناوئا فى نفس الوقت لأهل السنة . ولما استولى الحمدانيون على حلب سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٥ م) وكانوا من الشيعة غدا المذهب الشيعى هو المذهب الرسمى فى الإمارة بأسرها ، فكان حكم بنى حمدان فى حلب من جملة الأسباب الداعية إلى تأصل التشيع فى الشمال (٢) إلا أن استشراء المذهب الشيعى بين سكان حلب وأعمالها يرجع فى أغلبه لحركة أبو محمد الممدوح الذى ينتسب لأسرة على بن أبى طالب والذى قدم إلى حلب فى أواخر أيام سيف الدولة الحمدانى ونشط فى نشر المذهب الشيعى فلقيت جهوده استجابة بين السكان وتأييدا من الحكومة ، لكن برغم انتشار التشيع فى شمال الشام وحلب بصفة خاصة فإن الدلائل كلها تشير إلى أن المذهب السنى ظلت له مكانته بين السكان فضلا عن تأصله فى قطاعات كبيرة من الأهالى (٣) .

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ج٦ ص ٢٥٢ — ٢٥٣

(٢) محمد كرد على : خطط الشام ج٦ ص ٢٥٨

(٣) نهر الذهب فى تاريخ حلب ج١ ص ١٨٩ — ١٩٠

وفى طرابلس آلت السيادة فيها سنة ٣٦٠ ﻫ (٩٧١ م) إلى الدولة الفاطمية الشيعية وترتب على ذلك أن انتشر المذهب الشيعى فى المدينة وفى أغلب الجهات الساحلية وغالى الأهالى فى التشيع وانتظموا فى جماعات وفرق مغالية فى ذلك (١) ولما ورث بنو مرداس وبنو عمار الحكم فى حلب وطرابلس بعد الحمدانيين والفاطميين وكانت الغالبية العظمى من رعاياهم من الشيعة ولهذا ساروا هم فى نفس الاتجاه ورعوا المذهب الشيعى ، وحينما أراد محمود المرداسى أن يتحول إلى المذهب السنى ويقيم الخطبة للخليفة العباسى سنة ١٠٧٠ م (٤٦٢ ﻫ) احتاج الأمر إلى أن يكاشف رعاياه بذلك ، فوقف خطيبا فى حلب مفندا أسباب تحوله طالبا من رعاياه مساعدته على ذلك ولكن العامة أعلنوا غضبهم «وأخذت العامة الحصر التى فى الجامع وقالوا : هذه حصر على بن أبى طالب فليجىء أبو بكر بحصر حتى يصلى عليها الناس»(٢) وكان أهل طرابلس من الشيعة أيضا ، بل إن القاضى أبو طالب نفسه ـ مؤسس الإمارة ـ كان متشيعا ومتعمقا على المذهب الشيعى (٣) .

على أن دوران أمراء حلب من بنى مرداس منذ عهد ثمال فى فلك السياسة الفاطمية، كما أن التزام بنى عمار بسياسة تجميد العلاقات مع الخلافة الفاطمية وعدم الرغبة فى توسيع الهوة معها بعد الاستقلال هو الذى ساعد على استمرار

---

(١) الانصارى الدمشقى : نخبة الدهر ص ٢٠٠ ، ص ٢٠٣ ، ص ٢١١

ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٣

Buhl ; Encyc. ISL. art « Tarabulus »

(٢) ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٨

(٣) ابن الفرات : تاريخه جـ٨ ص ٧٧

الشيعية فى الشمال وانتشار التشيع هناك ، بعكس ما حدث فى شيزر إذ يبدو أن قيام الإمارة بعد ضياع معظم النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ، فضلا عن دأب السلاجقة على تقويض دعائم النفوذ السياسى والدينى الفاطمى فى أرجاء البلاد كان له أثره فى عدم انتشار التشيع بين رعايا الإمارة المنقذية أو التزام أمراء بنى منقذ بنصرة هذا المذهب ومعتنقيه ، ولهذا ظلت شيزر وضواحيها سنية فى أغلبها .

على أن الأمر لم يقف عند حـــد التشيع فى أوساط الإمارات العربية فى حلب وطرابلس بل إن مغالاة فريق من السكان فى التشيع كان سمة بارزة فى عهد تلك الإمارات بـل إنها أهم السمات التى أعطت للعصر طابعه ، وأكدت تجرده من كثير من مميزات القرون المنصرمة ، فظهرت الجماعات الحاكميـة والآمرية فضلا عن الدروز والنصيرية والرافضة والاسماعيلية وغيرها من النحل كان مظهرا من مظاهر الفوضى وتجسيما لروح العصر ذاته .

وكانت بلدة سلمية الخاملة الواقعة إلى الجنوب الشرقى من حماه قد غدت فى أواخر القرن التاسع (الثالث الهجرى) مقرا لزعيم الإسماعيلية محـمدا الحبيب قيل أنه ابن حفيد الإمام إسمـاعيل بن جعفر الصادق سليل على بن أبى طالب وفاطمة عن طريق الحسين فاتخذ محـمدا هذا بلدة سلمية مركزا لنشاطه وعمد إلى بث الدعاة سرا فى أنحاء العالم الإسلامى للدعوة لإعادة إسلام الشيعة إلى نصابه . . وانتهى الأمر بإقامة الدولة الفاطمية فى المغرب ثم انتقلت إلى مصر وبدأت عهدا هاما فى الدعاية الإسماعيلية . (١)

---

(١) الغزى : نهر الذهب جـ١ ص٢٠٩

ونظرا لأن الاسماعيلية اعتقدوا أن للعقيدة باطنا وظاهرا وفسروا كثيرا من الأحكام والشرائع طبقا لهذا الفهم وذهبوا إلى أن بوسع أي شخص الإفلات من العقاب إذا هو أدرك كنه الباطن ، فقد تمادوا فى تأويل أحكام الشريعة وأعطوا الكل نوع من العبادات ظاهرا وباطنا وبذلك عزلوا أنفسهم عن جمهرة المسلمين واتهموا بالكفر والإلحاد وسماهم الناس بالباطنية الملاحيد (١) فانجهوا إلى التخفى والانعزال واختيار الأماكن التى تمكنهم من ممارسة نشاطهم فى خفاء .

ولقد قدر للدعوة الإسماعيلية الكبرى أن تتطور على يد الخلفاء الفاطميين فى مصر وتلقى بعض النجاح فى كل من مصر والشام وفارس حيث بدأت موجه جديدة وتيار مذهبى جديد يدب فى أوصال العالم الإسلامى وفى جوف الخلافة العباسية راعية المذهب السنى (٢) والتى كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الانحلال والاضمحلال والضعف ، فقــــد حدثت طفرة كبيرة فى الدعــوة الإسماعيلية على عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) وغلو فى التشيع بلغ على عهد هذا الخليفة درجة كبيرة وربما منافية لمبادىء وأسس الدعوة ذاتها ، وذلك بظهور الجماعات المتطرفة من الحاكمية والآمرية وفـرق الدروز والنصيرية وغير ذلك من غلاة التشيع .

فلقــــد كان من دعاة الحـاكم رجلان باطنيان أحدهما محمد بن إسماعيـل

(١) الراوندى : راحة الصدور ص ٢٣٥ ، Camb. Med. Hist . 4. p. 311

(٢) الأنصارى الدمشقى : نخبة الدهر ص ٢٠٠ - ٢٠٣ ، ص ٢١١

الدرزى (والدرزى تعنى فى الفارسية الخياط) والآخر حمزة بن على بن أحمد وكان هذا الأخير صاحب الرسائل والمكاتبات لدى الحاكم ، وكان محمد بن إسماعيل الدرزى أول من جاهر بتقديس الخليفة الحاكم وبلوغه مرتبة الألوهية ، ولكن هذه الدعوة لقيت استياء كبيرا بين المصريين وحدثت مشاغبات ومظاهر نفور فى القاهرة مما جعل الدرزى يرحل إلى بلاد الشام حيث نزل وادى التيم عند سفح جبل الشيخ (فى لبنان) فلقيت دعوته هناك استجابة بين سكان ذلك الريف الذين عرفوا بالشجاعة وحب الحرية وكانت بعض الآراء الشيعية المتطرفة قد غشت أوساطهم من قبل ، ولكن الدرزى ما لبث أن لقى مصرعه بعد قليل فى غضون سنة ١٠١٩ م (٤١٠ هـ) فخلفه الداعى الآخر حمزة بن على الملقب بالهادى [١] .

وكان حمزة أيضا فارسيا نشط فى نشر تعليم المذهب ومحاولة كسب أنصار بين التنوخيين من سكان الجهات الساحلية التى عرفت فيما بعد بلبنان — ولما اختفى الحاكم بأمر الله أنكر حمزة وفاته وأشاع أنه تحول إلى « غيبة » مؤقتة وأنه من الواجب ترقب « رجعته » المظفرة ، ويبدو أن اختفاء الحاكم على تلك الصورة له ضلع فيما عمدت إليه جماعة الدروز بعدئذ فى محاولة ضمان بقائها وسلامتها ، فقد دبر دعاتهم مبدءا جديدا هو عدم السماح بإفشاء أى جانب من جوانب المذهب إبان « غيبة » الحاكم بأمره ومنذ ذلك الحين « قفل الباب »

---

(١) حتى : تاريخ سورية جـ٢ ص ٢١٧

محمد كرد على : خطط الشام ج ٦ ص ٢٦٩

وحظر على أى كائن الدخول إلى الملة أو الخروج منها (١) .

ولعل أخطر ما خرجت به جماعة الدرزية على جمهور المسلمين حينئذ ما نادى به حمزة نيابة عن الحاكم من إحلال بعض فرائض الإسلام الكبرى على أتباعه ومنها الصوم والحج واستبدالها بشرائع أخرى تستوجب العمل بالصدق فى القول والعون المتبادل بين أتباع الملة ونبذ بعض العقائد الباطلة إلى غير ذلك مما ذاع أنه نتاج الاعتقاد فى عناصر أفلاطونية جديدة « العقل الفعال » (٢) .

لكن مبدأ العون المتبادل بين أتباع هذه الملة جعل من الدروز فعلا جماعة شديدة التماسك مفرطة الانكماش ، حتى لتكاد تبدو أقرب إلى المنظمة الأخوية الدينية منها إلى الملة المذهبية (٣) وكان لذلك أثر كبير إبان نوبات عصيان هذه الفئة وخروجها فى وجه أرباب السلطة فى بلاد الشام .

ووجه الأهمية فى كل ما قيل عن جماعة الدرزية انها مثلت عنصر قلاقل بالنسبة لإمارة بنى مرداس فى حلب فى عهد نصر بن صالح « بن مرداس إذ يحدثنا المؤرخ ابن العديم أنهم آثاروا فتنة سنة ٤٢٣هـ (١٠٣٢) حين اجتمعوا بجبل السماق وجاهروا بمذهبهم وخربوا ما عندهم من المساجد وتفاقم أمرهم وتحصنوا فى مغاير شاهقة على العاصي وانضوى إليهم خلق من فلاحى حلب وطمعوا بالاستيلاء على البلاد » (٤) .

---

(١) حتى : تاريخ سورية ص ٢١٨

(٢) Demombynes ; Moslim institutions. p. 41

(٣) حتى : نفسه جـ٢ ص ٢١٩

(٤) ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩

ولقد نظر كل من نصر المرداسي وحاكم أنطاكية البيزنطى نقتاس إلى هذه الحركة نظرة شك وريبة واعتبرها كل منهما خطرة بالنسبة لأمن وسلامة رعاياه .

ولهـــذا اتفقا معا على مناهضتها فسارع نقتاس بمهاجمة الدروز « وحاصرهم فى المغائر ودخن عليهم » وكذلك خرج نصر وقام بمعاونته فى ذلك حتى استسلم معظم مثيرى هذه الفتنة فقبض على دعاتهم وجرى إعدامهم فى ربيع الاول سنة ٤٢٣ هـ (فبراير سنة ١٠٣٢ م) [١] .

وعلى الرغم مما أثارته هـذه الفئة من ضيق لأمير حلب المرداسى بما يؤكد أن جانبا منها مثل طائفة من طوائف رعايا الإمارة إلا أنه من الثابت أن مراكز تجمع الدروز كانت تتبـع إمارة بنى عمار فى طرابلس بسبب انتشار تعاليم الدرزى بين سكان تلك المنطقة الساحليـة أكثر من غيرهـا من جهـات الشام فالمعروف أن الدروز بدءوا من جنوب لبنان فى تثبيت أقدامهم وتوثيق أمرهم حتى أنهم اصطدموا بجماعة أخرى لا تقل عنهم تطرفا هى جماعة النصيرية التى لم يقو أتباعها على مناهضة الدروز فاندفعوا إلى شمال لبنان حيث اتخذوا لهم موطنا جديدا ، وما لبث الدروز بعد ذلـك أن أخـذوا فى الانتشار إلى منطقة الشوف شرقى مدينة بيروت حيث أصابهم الصليبيون فى تلك الجهات [٢] .

وعلى هـذا فيمكن القـول أن أغلب الدروز مثلوا جانبا من رعايا إمارة

(١) Schlumberger ; L'Epopee P. 91.

ابن العديم : زبدة ج ١ ص ٢٤٩

(٢) « بنيامين التودلى » Vol I p. 61

حتى : تاريخ سورية ولبنان ج٢ ص٢١٩

بنى عمار فى طرابلس ، لكننا مع ذلك لم نعثر على ثمة أخبار عن مصادمات بينهم وبين أمراء تلك الامارة أو أنباء عن فتن أثاروها ضدهم ولا بد وأن كياسة بنى عمار ولباقتهم فضلا عن أنهم وأغلب رعاياهم من الشيعه لم يجدوا مصلحة فى الاصطدام بتلك الفئة التى تنتمى أصلا للمذهب الشيعى برغم ما أصابها من التطرف ، ولهذا أغضوا الطرف عن الدروز وتركوا لهم الحرية فى التعامل مع جيرانهم من الشيعة أحيانا ومن السنة أحيانا أخرى ، هـذا فضلا عن أن الدروز أنفسهم كانوا قد بدأوا عهداً آخر فى دعوتهم واتجهوا نحو الانغلاق وعدم الانفتاح على المجتمع المحيط ولاذوا بمناطق أكثر انعزالا طلبا للامن والحماية وبعدا عن مراكز الاصطدام والتوتر .

أما النصيرية فهم فرع من الفروع الباطنية ممن يقولون بأن للنصوص الدينية معنى غير المعنى الظاهر أو الحرفى وممن يغالون فى التشيع أيضا أى أنهم إحدى طوائف المذهب الإسماعيلى لكن تطرفهم حاد بهم عن الأصول وغلوهم فى التشيع عزلهم عن بقية الشيعة مثل الدروز ، لكنهم أيضا نظروا إلى الائمة المنحدرين من صلب على بن أبى طالب نظرة خاصة تدل على غلو فى ذلك يصل بأولئك الائمة إلى مصاف التقديس [١] .

ويرجح أن النصيرية ينتسبون إلى رجل من أهل الكوفة يدعى محمد بن نصير كان أحد أتباع الامام العلوى الحادى عشر من أئمة العلويين وهـــو الحسن العسكرى المتوفى سنة ٧٨٤ م (٢٦١ هـ) [٢] وأول أنباء وردت عن هـذه

---

(١) Demombynes : op. cit. p. 41-42

(٢) العزى : نهر الذهب جـ١ ص ٢٠٤

الطائفة ذكرت فى كتابات حمزة بن على وغيره من دعاة الدرزية لكن آخر مؤسس لهذه الجماعة — على ما فى مدوناتهم — هو حسين بن حمدان الخصيبى (المتوفى حوالى ٩٥٧م) وكان قبلا مولى اسماعيليا من موالى الحمدانيين فى حلب[١].

ولقد أحس أتباع هذه النحلة أنهم أقلية صغيرة وسط أغلبية معادية ، لهذا آثروا العمل فى الخفاء مع اللجوء إلى الانزواء ، ولهذا ظلت تعاليمهم ومبادىء نحلتهم سرية فى أغلبها — ولم يعرف عن مدوناتهم المقدسة بمقدار ما عرف عن مدونات الدروز ويتمثل مذهبهم فى مجموعة من آراء شيعية متطرفة سرية الطابع كهنوتية النظام باطنية التعاليم مع تقديس كبير لعلى بن أبى طالب وغلو فى ذلك لدرجة ترقى به عن رتبة البشر[٢] ولهذا سمى النصيرية فى تاريخهم المتأخر بالعلويين واشتهروا بهذه التسمية عندما حول الفرنسيون المنطقة التى تكتنف اللاذقية إلى دولة منفصلة سموها « العلويين » ، وأطلق عليهم فى عهد الحروب الصليبية لقب Nazari [٣].

ويبدو أن هذه الطائفة لم تخلد للتمركز فى شمال لبنان بعد أن ألجأهم الدروز إلى ذلك بل انشعبت منها جماعات استوطنت — على عهد الإمارات العربية — فى وسط سورية وشمالها وبالقرب من حلب والسويدية وجبال القصير وجبل

(١) حتى : تاريخ سورية ولبنان ج٢ ص٢٢٠
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ص١٤٣-١٤٥
(٣) Conder ; Syrian Stone Lore. p. 423
حتى : نفس المرجع ج٢ ص ٢٢١

الأقرع ولهذا فلقد كان بعضهم من رعايا بني عمار وبني منقذ وكان أغلبهم من المزارعين الذين غلبت عليهم الفاقة والجهل (١).

فإذا كانت طائفة الاسماعيلية الباطنية أومن عرفت بالحشيشية قد انتقل نشاطها إلي بلاد الشام بشكل ثابت في بداية القرن الثاني عشر الميلادي أي بعد هدم كل من إمارة بني مرداس وبني عمار فإن أتباع المذاهب المتطرفة المتشعبة عن المذهب الاسماعيلي كالدروز والنصيرية قد لعبت دورا هاما في مدى القرن الحادي عشر كله ومثلت كل منها إحدى طوائف الرعايا في الإمارات العربية وأعطت للتناقض المذهبي في تلك الجهات مكانا ودورا وكانت سابقة هامة لما قام به الباطنية بعدئذ خاصة ضد إمارة شيزر العربية على عهد أبي العساكر سلطان بن منقذ .

وكانت الدعوة الباطنية — كما سبقت الإشارة — قد انتشرت في بلاد فارس منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وكان أول دعاتهم هناك هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذي خلفه الحسن بن الصباح ذائع الصيت ، وممن تدين له الدعوة بكثير من عوامل تفوقها وانتشارها وفاعليتها فلقد انتهز هذا الداعي فرصة الفوضى التي تعرضت لها السلطنة السلجوقية عقب وفاة ملكشاه واستشراء الحروب بين ولديه بركياروق ومحمد (٢) مع ضعف الخلافة العباسية واضمحلالها وقام بتنظيم الحركة الباطنية ودعم صفوفها بما استنه من نظم ومن

---

(١) الغزى : نهر الذهب ج١ ص ٢٠٤

(٢) Browne : Account of a rare manuscript, p. 605-6

ضمه اليها من رجال وشباب كما استطاع الاستيلاء على بعض القلاع الحصينة التي اتخذها مركزاً لنشاطه ومقراً لتوجيه دعوته فاستولى على قلعـــة ألموت في طبرستان قرب قزوين وبعض القلاع الأخرى قرب أصفهان ونجح في تخريج دفعات كثيرة من الفدائيين أو من عرفوا بالفـداوية وهم أهم مراتب التنظيم الاسماعيلي بوصفهم الإدارة العاملة التي قامت فعـــلا بتنفيذ سلسلة الاغتيالات الشهيرة في بلاد الشام خاصة في عصر الحروب الصليبية (١) .

انتقل نشاط الباطنية إذن إلى بلاد الشام مع بداية القرن الثاني عشر الميلادي وكان للعطف والتأييد الذي أبداه رضوان ملـــك حلب السلجوقي أثره في اشتداد عود هذه الطائفة فقد حصل كل من الحكيم المنجم وأبو طاهر الصائغ ـ أول زعماء الباطنية في بلاد الشام ـ على مكانة خـاصة لدى رضوان فاستغـل الباطنية ذلك وباشروا أعمـالهم الإجرامية واغتيـالاتهم لبعض أمراء المسلمين هناك فكان من ضحاياهم جناح الدولة الحسين سنة ١١٠٣ م وخلف بن ملاعب سنة ١١٠٦ والقائد شرف الدين مودود سنة ١١١٣ م (٢) .

ولقد تعرض الباطنية بعد وفاة رضوان في حلب سنة ١١١٣م للتنكيل من قبل خليفته ألب أرسلان المعروف بالأخرس ، فقتل أبو طاهر الصائغ وإسماعيل الداعي وأخو الحكيم المنجم وحبس الباقون واستصفيت أموالهم وشفـع في بعضهم فمنهم من أطلق ومنهم من رمى من أعلى القلعة وهرب جماعة أفلتوا إلى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ٥٥١ ـ ٥٥٢

(٢) نفس المرجع جـ١ ص ٥٥٥

الإفرنج وتفرقوا فى البلاد (١) .

وتشير كثير من الدلائل إلى أن أغلب أولئك الناجين قد اتجهوا ناحية أفامية ومعرة النعمان ومعرة مصرين الاستقرار وطلبا الأمان ، فأضحوا بذلك ضمن نطاق إمارة شيزر العربية (٢) ومن ثم وجد بنو منقذ أنفسهم أمام حزب قوى متطرف أصبح أتباعه ضمن رعاياهم ، وعندئذ مال بنو منقذ إلى تطبيق سياستهم اللبقة وكياستهم المعروفة فى التعامل مع هـــذه الفئة لتجنب خطرهم ويشير ابن الأثير إلى أن بنى منقذ أحسنوا إلى أولئك الباطنية كل الاحسان لكن هؤلاء جزوا إحسانهم بالإساءة فقد كان إحساس الباطنية بأنهم أضحوا مكروهين فى كل من حلب ودمشق بعد وفاة رضوان ومقتل كبار دعاتهم فى حلب وبعد اغتيالهم لمودود ، كل ذلك قد أغراهم بمحاولة الوثوب إلى شيزر وتملكها وطرد آل منقذ منها ، لكن محاولاتهم لم يكتب لها النجـــاح بل باءت بالفشل الذريع ـ كما سبقت الاشارة ـ واستصفى آل منقذ أتباعهم فى المدينة وتتبعوهم فى كل مكان ونجحوا فى القضاء على أكثرهم (٣) .

لكن مع ذلك ظل الباطنيون يمثلون عنصر قلاقل فى كل الجهات القريبة ويؤكدون صحة التناقض المذهبي بين رعايا الإمارة المنقذية واستطاعوا بعدئذ أن يقتطعوا من أملاكها حصن مصيـاف سنة ٥٣١ هـ (١١٣٨ م) منتهزين

---

(١) ابن القلانسى : ذيل ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ، ابن العديم : زبدة ج ٢ ص ١٦٤

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة جـ١٠ ورقة ٣١٥

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٧٧ ، ص ١١٦ ـ ١١٧ ، ص ١٦٢

فرصة انشغال بنى منقذ فى صد هجوم الصليبيين والبيزنطيين ، فاستولوا على ذلك الحصن وحولوه إلى قاعدة باطنية وإلى مركز من أهم مراكز تجمعهم في بلاد الشام (١) .

وظل الباطنية متخفرين فى الجهات القريبة من شيزر لكنهم لم يجرؤا على مهاجمتها من جديد . ثم أنهم اندفعوا بعد تهدم شيزر سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) للدفاع عن المنطقة بأسرها ضد مطامع الفرنج الذين نشطوا حينئذ فى الهجوم مستغلين ما أصاب الحصون والقلاع من التخريب بسبب الزلازل .

وظل الباطنية يتحملون عبء الدفاع عن المنطقة حتى قدم نور الدين محمود فعمر شيزر والحصون المجاورة وتكفل بالدفاع عنها وعن المنطقة كلها ضد الفرنج (٢).

وعلى هذا فيمكن القول أن ماأمست فيه بلاد الشام إبان القرن الحادى عشر الميلادى خاصة فيما يتعلق بالتناقض المذهبي وما قامت به جماعات الدروز والنصيرية خلال حكم بنى مرداس وبنى عمار فى كل من حلب وطرابلس قد مهد لدور كبير من جهة الاسماعيلية الباطنية أو من عرفوا بالحشيشية ابتداء من أوائل القرن الثانى عشر فى بلاد الشام وعلى عهد إمارة بنى منقذ ، فأعطوا للتناقض المذهبي وجودا ومكانا بين رعايا الإمارة وأثبتوا أن روح العصر ذاته بكل ماشابها من فوضى فى الشئون السياسية والدينية قد انعكست أيضا

---

(١) ياقوت : معجم جـ٤ ص ٣٥٨ ، جـ١ ص ٢٤٩ ، ص ١٠٣
أبو الفدا : المختصر جـ٣ ص ١٥ ، ابن الوردى ، تاريخه جـ٢ ص٤٤

(٢) ابن القلانسى : ذيل ص ٣٤٨ ــ ٣٤٩

على آخر الإمارات العـــربية الثلاث التي لم تنج هي الأخرى من ذلك التناقض والخلاف ، بل عاشت تلك التجـــربة ومارستها وإن كان حظها أسوأ من سابقتيها ، إذ تعاملت مـع فريق من أتبــاع المذهب تطرفوا كل التطرف وتحمسوا كل الحماس ولم يردعهم سوى مغالاة في البطش وغلو في التنكيل ، مايعنينــا من ذلك كله أن ثمة تنــاقض مذهبي قد أقحم على رعايا تلك الامارة أيضا غذته وأنمته عوامل مختلفة بل ربما دخيلة على بلاد الشام ذاتها ، فغدت هي الأخرى تضم إلى جانب أهل السنة جيــوبا إسماعيلية باطنية قدر لها أن تغدو خطرا يهدد كيانها فترة من الزمان قبل أن تندثر شيزر المنقذية ويهلك آل منقذ فيها تحت الأنقاض .

خاتمة

وبعد هذا العرض المستفيض للجوانب المختلفة فى حياة الإمارات الثلاث نسجل هنا ماأسفر عنه هذا البحث وأبرز نتائج هذه الدراسة . فليس من شك فى أن الظاهرة الهامة المشتركة فى تاريخ تلك الإمارات الثلاث أنها كانت حصاد نشاط طويل ودائب من لدن القبائل العربية النازحة إلى بلاد الشام من قلب الجزيرة العربية فى أزمنة متفاوتة عبر التاريخ الطويل لهذه البلاد . فالإمارات الثلاث تضرب بنسبها إلى أصول عربية معروفة وتنتسب الى قبائل عربية بدوية وظلت تتحفز للقيام بدور كبير فى بلاد الشام حتى واتتها الفرصة ففرضت وجودها وأكدت استقلالها ودافعت عنه ودفعت فى سبيله كل ثمن سواء بالنفس أو المال .

على أن الأوضاع الدولية فى تلك المرحلة أسهمت بدور كبير فى بروز الإمارات الثلاث وكانت عاملا هاما فى استمرارها مددا متفاوتة كإمارات عربية مستقلة فالخلافة العباسية كانت قد انحدرت إلى درجة كبيرة من الضعف والاضمحلال وأمست فى حالة يرثى لها . واستطاعت دول صغيرة أن تستقل عن نفوذها وتطرح طاعتها وتمثل وضعا غريبا فى كيان تلك الخلافة المتهالكة . وقد أثبت الحمدانيون من قبل أنه بوسع النفوذ المحلى أن يفرض نفسه ويقيم حكما استقلاليا يصفى فى بعض جهاته بقايا نفوذ عباسي وإخشيدى ومكاسب حركات انفصالية أخرى فى بلاد الشام . وليس هناك شك فى أن التجربة الحمدانية كانت سابقة خطيرة وهامة أمام بنى مرداس لإقامة حكم ثابت ودولة مستقلة فى شمال الشام تدين بوجودهاواستمرارها للظروف السائدة فى قلب الخلافتين العباسية والفاطمية

وركود الامبراطوريات القديمة لاسيما الامبراطورية البيزنطية .

ولم تكن التجربة الحمدانية والمرادسية بخافية على أولئـــك الذين أسسوا لإمارة بنى عمـار فى طرابلس بل إن الظروف تشابهت كثيراً بينهما ، وانتهاز فرصة الأوضاع الراهنة فى بلاد الشام قد أعطى مبرراً لقيام إمارة منعزلة فى طرابلس تسيطر على شريط ساحلى يمتد من جبـلة شمالا حتى مشارف بيروت جنوبا . ولقـد ساعد على بروز هذه الإمارة ما أمست فيه الخلافة الفـاطمية من ضعف فى النصف الثـــانى من القرن الخامس الهجرى وما نزل بهـا من كوارث اقتصـــادية وما اعتراها من فوضى فى الشئون السياسية والدينية . فضلا عن أزدياد تهالك الخـــلافة العباسية وهيمنة السلاجقة على شئونهـا واستمرار ركـود الامبراطورية البيزنطية وعدم رغبتها فى جلب متاعب لها فى الشرق .

وكانت الأوضاع فى بلاد الشام والظروف الدولية هى أيضا وراء قيـام الإمارة الثالثة فى شيزر . فلقد زاد تهالك الخلافتين فى الشرق وأنهارت أمارة بنى مرداس . وعكف بنو عمـار على إرساء قواعد حكمهم بعيدا عن القـوى الأخرى واقتصرت الجهـــود البيزنطية على الجانب الآخـر من أملاك الامبراطورية فى الغرب إن لم يكن قد اقتصرت على مجاهدة أعدائهـا هنـاك دون استطاعتها الإلتفاف إلى الشرق . لـكن نشاط السلاجقة فى بلاد الشام حينئذ ورغبتهم فى تصفية بقايا النفوذ الفاطمى والإمارات الصغيرة قد فرض على بنى منقذ ضريبة أكبر فى حماية استقلالهم وتكريس انفصالهم ، ولـكن برغم ذلك فقد أثبت هؤلاء أنهم استفادوا فعلا من الأوضاع الراهنة فى بلاد الشام كما فعل نظراؤهم فى حلب وطرابلس .

على أن الظروف التي مكنت هذه الإمارات من البروز إلي الوجود هي نفسها التي أسهمت إلى حد كبير في انهيارها واندثارها . فلقد خسر بنو مرداس إمارتهم على أثر تدخل دولي من قبل الفاطميين والسلاجقة والعقيليين ففاز بها العقيليون قبل أن تدلف إلى حظيرة السلاجقة .

وتزعزعت إمارة بني عمار على أثر تدخل الخلافة الفاطمية وتقدم جحافل الصليبيين ثم مالبثت أن تهاوت تحت وطأة هجوم الجيوش الصليبية بعد سنوات قليلة من استقرارهم في الشرق .

وأسهمت الظروف الدولية والأوضاع القلقة في بلاد الشام وتدخل الصليبين والبيزنطيين والأحزاب المتطرفة في بلاد الشام في زعزعة الإمارة الثالثة وإضعافها ، ثم مالبثت أن التهمتها عوامل طبيعية وزلازل رهيبة جعلتها أثرا بعد عين .

ولكن برغم ذلك كله فقد أثبتت هذه الوحدات الصغيرة أنها قادرة في ظل تلك الأوضاع على فرض انفصالها وحماية استقلالها مددا ليست قصيرة مستفيدة من تصارع القوى المختلفة وتكالبها ورغبتها في فرض وجودها في المنطقة واقحام نفسها على أقدارها .

على أن أهم مايشد الانتباه في تاريخ الإمارات العربية الثلاث ويفرض نفسه كانطباع ثابت غير متأثر بالتفاصيل تلك المظاهر المشتركة بينها والاتجاهات المتشابهة في تاريخها فيما يختص بظروف قيامها واتجاهاتها في الحكم ومحاولات الحفاظ على استقلالها سواء بخوض الحرب وشن القتال أو بالتكيف السريع مع اتجاهات القوى المتحفزة وكذلك التشابه الكبير بينها في

الحجم والإمكانيات البشرية والمادية وكذلك الرعايا واتجاهاتهم وتناقضهم العنصرى والمذهبي .

ولا يخفى على الباحث أيضا أن هذه الإمارات العربية بدت وكأنها آخر محاولات للتشبث بمظاهر الماضى والأوضاع القديمة والنفوذ العربى الأصيل قبل أن يستفحل النفوذ الأعجمى وغير العربى فى المنطقة بأسرها فيجعل تلك الإمارات وكأنها جزر صغيرة وسط محيط من نفوذ مغاير إن لم يكن معاد للخلافتين الإسلاميتين فى بغداد والقاهرة .

ومع أننا نسلم أن هذه الامارات العربية كانت بقعا صغيرة وسط محيطات متسعة من النفوذ الأعجمى وغير العربى ، إلا أننا تلمسنا فيها آثار الدول الإسلامية الكبرى إن لم يكن الخلافات العربية فى الشرق بكل مظاهرها وما شاب عصورها من تيارات طيبة أحيانا وغير طيبة أحيانا أخرى ولعل الدراسة الدقيقة لتاريخ هذه الامارات قد أوقفت الباحث على جوانب ربما تبدو خافية وغير واضحة لمتصفح تاريخ تلك الحقبه القلقة مما يعطي انطباعا ثابتا بأن عهود تلك الإمارات الثلاث حملت معها عبير الماضى فعلا وروح القرون المنصرمة بخيرها وشرها .

فقد رسخت أقدام الأمراء العرب — فى الإمارات الثلاث — فى الحضارة وجاروا مظاهر العهد الجديد فى دولهم المستقلة وبالغوا فى التشبه بالخلفاء والسلاطين وأحيوا كثيرا من الاتجاهات التى ميزت عهود الأمويين والعباسيين الاوائل ولم يهملوا نواحى الخدمات فى إماراتهم واهتموا بالنواحى العمرانية والحضارية والعلمية والفكرية . لكنهم لم يستطيعوا أن يذيبوا الفوارق العنصرية والمذهبية بين قطاعات من رعاياهم ولهذا شغلت الشئون الدينية بصفة

خاصة حيزا ليس ضئيلا من تفكيرهم ، بل غدت بعض الفرق المتطرفة وجه تهديد لإماراتهم .

ولعل أهم نتائج هـذا الموضوع أيضا أن القرن الحـــادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) وهو القرن الذى شهد مولد هذه الإمارات وشهد الجانب الأكبر من عهودها يعـد من أقسى الحقب التى مرت بالمسلمين على امتـداد تاريخهم الطويل ومن أشـــد القرون قسوة بالنسبة لهم ، لما ساد أوساطهم خلاله من نزعات انفصالية واتجاهات انعزالية وقيام تناقض دينى وخـــلاف مذهبى ودخول عناصر مختلفة وفرق غريبة الى المنطقة . فضلا عن أنه شهـد حدثا هاما فى تاريخ بلاد الشام هو تقدم الجيوش الصليبية وقيـام الإمارات اللاتينية فى الشرق فى نهايته وفى السنوات الأولى من القرن الثانى عشر وليس من شك فى أن الغزو والاستقرار الصليبى جاء نتيجـة حتمية لما غشى الجبهة الإسلامية طوال ذلك القرن من ضعف واضمحلال . كما أسهم تقدم السلاجقة واجتياح فرق التركمان للمنطقة وإفاقات بيزنطة المتقطعة فى إضعاف المسلمين وتفكك جبهتهم . فبدا القرن الحادى عشر لدارسه ومتتبع أحداثه وكأنه قرن أحزان وآلام للمسلمين فى منطقة الشرق الأدنى وظهـر كحقبـة من أقسى الحقب التى مرت بهم منذ الفتح العربى الاسلامى فى القرن السابع الميلادى .

أولا : المصادر والمراجع العربية

المطبوعات :

* ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على الجزرى) :

ـ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل (تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣)

ـ الكامل فى التاريخ (طبعة مصر سنة ١٣٤٨ هـ)

* ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على) :

ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم (حيدر أباد سنة ١٣٥٩)

* ابن حزم الأندلسى :

ـ جمهرة أنساب العرب (تحقيق عبد السلام هارون)

* ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق سنة ١٢٨٤ هـ)

* ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر) :

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد القاهرة سنة ١٤٩٨) .

* ابن العبرى (غريغوريوس الملطى) :

ـ تاريخ مختصر الدول (طبع الأب أنطون صالحانى اليسوعى ـ بيروت سنة ١٨٩٠ م) .

* ابن العديم الحلبى (كمال الدين عمر بن أحمد ين هبة الله بن أبى جرادة العقيلى) :

— زبدة الحلب من تاريخ حلب (تحقيق سامى الدهان – بيروت سنة ١٩٥٤)

— منتخبات من بغية الطلب فى تاريخ حلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ج ٣) .

* ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن) :

— التاريخ الكبير المعروف بتاريخ دمشق (طبع روضة الشام ١٣٣١ هـ)

* ابن العماد (عبد الحى بن أحمد) :

— شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ)

* ابن الشحنة (أبو الفضل محمد) :

— الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب (تحقيق يوسف بن إليان سركيس (بيروت سنة ١٩٠٩) .

* ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) :

— تاريخ ابن الفرات (تحقيق زريق ونجلاء عز الدين بيروت سنة ١٩٤٢) .

* ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة) :

— ذيل تاريخ دمشق (تحقيق آمدروز — بيروت سنة ١٩٠٨)

* ابن ميسر (أبو عبدالله محمد بن على) :

— أخبار مصر (تحقيق وتصحيح هنرى ماسيه — القاهرة سنة ١٩١٩)

* ابن ناصر (صدر الدين أبو الحسن على) :

— أخبار الدولة السلجوقية (تحقيق محمد إقبال — لاهور سنة ١٩٣٣)

* ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :

— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٥٣) .

ابن الوردى (أبو حفص زين الدين) :

— تتمة المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ بن الوردى (القاهرة سنة ١٨٦٨) .

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسى) :

— الروضتين فى أخبار الدولتين (تحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد القاهرة سنة ١٩٥٦م)

— تراجم رجال القرنين السادس والسابع (القاهرة ١٩٤٧)

أبو صالح الأرمنى (النصرانى) :

— تاريخه (طبع أكسفورد ١٨٩٥)

أبو الفدا (الملك المؤيد اسماعيل) :

— المختصر فى أخبار البشر (طبع مصر)

أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) :

— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة(طبع دار الكتب — القاهرة سنة ١٣٥٢ — ١٩٣٣)

أسامة بن منقذ :

— كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حتى — برنستون — الولايات المتحدة سنة ١٩٣٠) .

الأصفهانى (عماد الدين محمد) :

— تاريخ دولة آل سلجوق (مصر سنة ١٩٠٠ — ١٣١٨ هـ)

البندارى (الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى) :

— مختصر تواريخ آل سلجوق (تحقيق هوتسما ليدن سنة ١٨٨٩)

* الخطيب البغدادى (أبو بكر أحمد بن على) :

— تاريخ بغداد (طبع مصر سنة ١٣٤٩ — ١٩٣١)

* الذهبى (الحافظ شمس الدين أبو عبدالله) :

— العبر فى خبر من غبر (تحقيق فؤاد سيد — القاهرة سنة ١٩٦١)

* الراوندى (محمد بن على بن سليمان الراوندى) :

— راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ آل سلجوق — نشر إقبال (نقله إلى العربية الدكتور الشواربى وآخرون — القاهرة سنة ١٩٦٠) .

* الطبرى (محمد بن جرير) :

— تاريخه (طبع القاهرة سنة ١٩٣٩ — ١٣٥٨ ﻫ)

* الفارقى (ابن الأزرق) :

— تاريخ الفارقى (تحقيق بدوى عبد اللطيف — القاهرة ١٩٥٩)

* القلشقندى (أبو العباس أحمد) :

— صبح الأعشى فى صناعة الانشا (طبعة دار الكتب)

— نهـــاية الأرب فى معرفة أنساب العرب (تحقيق ابراهيم الأبيارى القاهرة سنة ١٩٥٩)

* المؤرخ المجهول :

— أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (نقله إلى العربية الدكتور حسن حبشى — القاهرة سنة ١٩٥٨)

* المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى :

— سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين — القاهرة سنة ١٩٤٩) .

* المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :

— اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا (نشر الدكتور الشيال القاهرة سنة ١٩٤٨)

— إغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر الدكتور زيادة والدكتور الشيال القاهرة سنة ١٩٥٧)

* مجموعة الوثائق الفاطمية (نشرهـــا الدكتور الشيال — القاهرة سنة ١٩٥٨)

* مختصر تواريخ الأرمن (نقله من الأرمينية إلى العربية القس أنطون خارنجى أورشليم سنة ١٨٦٨) .

* اليافعى (أبو محمد عبدالله بن أسعد) :

— مرآة الجنان وعبرة اليقظان (حيدر أباد سنة ١٣٣٨ هـ)

* النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) :

— نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبعة دار الكتب المصرية) .

* يحى بن سعيد الانطاكى :

— التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (طبعة بيروت سنة ١٩٠٩)

...

* ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد) :

— رحلة ابن جبير (تحقيق حسين نصار — القاهرة سنة ١٩٥٥

* ابن حوقل

— كتاب صورة الأرض (طبع بيروت سنة ١٩٦٤) .

* ابن خرداذبة :
— المسالك والممالك (نشرة غوية سنة ١٨٨٠) .
* الإدريسى :
— نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (نشره روزن مولر) .
* الاصطخرى :
— المسالك والممالك (نشرة محمد جابر الحينى ـ القاهرة سنة ١٩٦١) .
* الانصارى الدمشقى (أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الانصارى):
— نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (نشرة مهرنة ـ بطرسبورغ سنة ١٨٦٥)
* العمرى (شهاب الدين أبو العباسي أحمد بن يحي بن فضل الله) .
— مسالك الأبصار (مخطوط مصورة بدار الكتب) .
* المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبو بكر) .
— أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (طبع ليدن سنة ١٩٠٦) .
* ناصر خسرو (علوى) :
— سفر نامة (ترجمة د . يحيى الخشاب ـ القاهرة سنة ١٩٤٥) .
* اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح) .
— البلدان (ليدن سنة ١٨٩٠) .
* ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) :
— معجم البلدان (وستنفلد ـ طهران سنة ١٩٦٥) .

∴

أبو حصينة :
— ديوان شعره (تحقيق محمد أسعد أطلس ـ دمشق سنة ١٩٥٦) .

أبو فراس الحمدانى :

— ديوان شعره (نشره د . سامى الدهان ـ ٣ أجـــزاء ـ دمشق سنة ١٩٤٤)

أسامة بن منقذ :

— لباب الآداب (تحقيق أحمد محمد شاكر ـ القاهرة سنة ١٩٣٥) .

البـــلاذرى :

— فتوح البلدان (نشرة د . صلاح الدين المنجد) .

الثعالبى :

— يتيمة الدهر (طبع مصر)

العماد الأصفهانى :

خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) .

الزبيدى :

— تاج العروس (طبع بيروت سنة ١٩٦٦) .

الشهرستانى (محمد بن عبد الكريم) :

— الملل والنحل (تخريج محمد بن فتح الله بدران) .

ابن منظور :

— لسان العرب (طبع بولاق سنة ١٣٠٣ هـ) .

ياقوت :

— معجم الأدباء (طبع مصر) .

. .

أسد رستم :

— الروم والعرب (جزءان ـ بيروت سنة ١٩٥٠) .

جواد علي (دكتور) :

— تاريخ العرب قبل الاسلام (طبع المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٤) .

جورجي يني :

— تاريخ سورية (بيروت سنة ١٨٨١) .

الحلبي (محمد بن راغب) :

— أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء (حلب سنة ١٣٤٣ – ١٩٢٥) .

دائرة المعارف الإسلامية (الأجزاء المترجمة إلى العربية) .

رينه ديسو :

— العرب في سورية قبل الإسلام (ترجمة الدواخلي – مراجعة د . زيادة القاهرة سنة ١٩٥٩) .

زامبـاور :

— معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (أخرجـه الدكتور زكي محمد حسن وآخرون القاهرة سنة ١٩٥١) .

الشدياق (طنوس بن يوسف) :

— أخبار الأعيان في جبل لبنان (بيروت سنة ١٩٥٤ م) .

صالح بن يحيي :

— تاريخ بيروت (بيروت سنة ١٨٩٨) .

طاهر النعساني :

— أسامة بن منقذ (حماه سنه ١٩٢٩) .

عمر كحالة :

— معجم قبائل العرب القديمة والحديثة .

الغزى (كامل بن حسين) :

— نهر الذهب في تاريخ حلب (حلب سنة ١٣٤٢ هـ) .

فيليب حتى :

— لبنان في التاريخ (ترجمة على بن فريحة - بيروت سنة ١٩٥٩)

— تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (بيروت سنة ١٩٥٨) .

لويس شيخو :

— بيروت تاريخها وآثارها (بيروت سنة ١٩٢٧) .

محمد بهجت ورفيق التميمي :

— ولاية بيروت-القسم الشمالي - طرابلس واللاذقية(بيروت سنة ١٩١٧)

محمد كرد على :

— خطط الشام (٦ أجزاء - دمشق سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٨) .

الدكتور ابراهيم أحمد العدوى :

— الدولة الاسلامية وإمبراطورية الروم (القاهرة - سنة ١٩٥٨) .

الدكتور جمال الدين سرور :

— سياسة الفاطميين الخارجية (القاهرة - سنة ١٩٦٦)

— النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق - القاهرة سنة ١٩٥٩ .

الدكتور جوزيف نسيم سرور :

— العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى (الاسكندرية سنة ١٩٦٣) .

الدكتور حسن ابراهيم حسن :

— تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة سنة ١٩٥٨) .

— الدكتور حسن حبشى :

— الحرب الصليبية الأولى سنة ١٩٤٧ ، سنة ١٩٥٨ .

— نور الدين والصليبيون (القاهرة سنة ١٩٤٨) .

ر . دوزى :

— تاريخ مسلمى أسبانيا (ترجمة الدكتور حسن حبشى ـ القاهرة سنة ١٩٦٣)

— الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :

— الحركة الصليبية (جزءان ـ القاهرة سنة ١٩٦٢) .

— أوربا العصور الوسطى (جزءان ـ ط ٢ القاهرة سنة ١٩٦٢) .

— قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) .

— الدكتور السيد الباز العرينى :

— الدولة البيزنطية (القاهرة سنة ١٩٦٠) .

الدكتور السيد عبد العزيز سالم :

طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى (الاسكندرية سنة ١٩٦٦) .

— الدكتور عمر كمال توفيق :

— مقدمات العدوان الصليبى (الاسكندرية سنة ١٩٦٦) .

— تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الاسكندرية سنة ١٩٦٧) .

الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة :

— العرب والروم (مترجم عن فاسيلييف) .

المخطوطات :

ابن أيبك (أبو بن عبيد الله)

— دور العيجان وغرر تواريخ الأزمان (مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٠٥ تاريخ)

ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على) :

— شذور العقود فى تاريخ العهود (مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٩٤ تاريخ) .

جمال الدين الوزير (أبو الحسن على بن كمال الدين) :

أخبار الدول المنقطعة (تصوير شمس بدار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ)

الدبيثى (أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى) :

— ذيل على تاريخ بغداد (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٣٤٨ ح)

سبط بن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف) :

— مرآة الزمان (مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٩٢٧٦ ح) .

السلامى (شهاب الدين أحمد) :

— مختصر التواريخ (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٠٥١ تاريخ)

العمرى (شهاب الدين بن فضل الله) :

— مسالك الأبصار (مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة) .

ثانيا : المصادر والمراجع : غير العربية

Archer : (T.A.)

—The Crusades. the history of the Latin Kingdom of Jerusalem. London 1919

Arnold (Thomas.W.) :

— The Caliphate. exford. 1924

Bréhier (Louis) :

— Vie et mort de Byzance. Paris 1947

— L'Eglise et L'orient au moyen Age. Paris. 1907

Browne (Edward.G.) :

— Account of a rare, if not unique, manuscript history of the Seljuqs. J.R.A.S. July 1902

Cahen (cl .) :

— La Syrie du Nurd a L'epoque des Croisades Paris 1940

Gambridge Medievel History. Cambridge. 1957

Chalandon (Fredinand) :

— Histoire de la premiere Croisade. Paris. 1952

Conder (C.R.) :

— The Latin Kingdom of Jerusalem. London. 1897

Dembomynes (Maurice) :

— Muslim institutions (trans. by J. Macgregor) London 1950

— La Syrie a L'epoque Mamelonke.

Derenbourg :

— Vie d'ousama ibn mounkidh.

Diehl (charles) :

— History of the Byzantine Empire
(Trans. by George B. Ives) . Princeton 1925

Dussaud (R.) :

— Topographie historique de la syrie Hntique et Medievale. (Paris 1927)

Encyc. of Islam. (English Vols.).

Enlart :

— Les monuments des Croisades.

Gaston Wiet ;

— Hist, de la nation Egyptienne- L'Egypte Arabe. (Paris 1937)

Gesta Erancorum

— Trans. by de Chair (England. 1945)

Grousset : (Rene) :

— Histoire des Croisades et du Royame Franc de Jerusalem (Paris 1934)

— Histoire de L'Armenie (Paris 1947)
L'empire du Levant. (Paris. 1946)

Huart (ct) : Ousama ibn MounKid (J.A. 1890)

Kay :

— Notes on the hist. of the Banu Okayl. (J.R.A.S. May 1880)

Lammens (H.) :

— La Syrie. Précis Historique 2 vol. Beyrouth.1921

Lane-pcole (S.) :

— A history of Egypt in the middle ages. London. 1924

Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem London. 1898

— Mohammaden Dynasties.

Le Strange (Guy) :

— The Lands of the Eastern caliphate. Cambridge. 1930

— Palestine under the moslems. (London 1890)

Marius Canard .

Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie (Paris 1953)

Mills (Charles) :

— The hist. ot the Crusades (London 1820)

Michaud :

— Michaud's history of the Crusades (trans. W. Robson. London 1852)

Norman and Moss :

— Byzantium. Oxford. 1948

Oman :

— The Byzantine Empire. London 1829

Ostrogorsky (George) :

— Hisfory of the Byzantine State (rans. by J. Hussey. Oxford. 1956)

Rey (E.G.) :

— Essai sur la Domination Francaise en Syrie durant le moyen Age. (Paris 1886)

Runciman (S.) :

— A History of the Crusades. Gambridge, 1957

Schlumberger :

L'Epopée byzantine a la fin du dixieme siecle. 3 vols. (Paris 1896-1905)

— Recits de Byzance et de Groisades (Paris. 1922)

Setton (K.M.) :

— A histoty of the Crusades. Pennsylvania. 1958

Stevenson (W.B.) :

The Grusaders in the East. Cambridge 1907

Vasiliev (A.A.) :

— Histoire de L'Empire Byzantin (trans. du Russe par p. Brodin et A. Bourguina Paris 1932)

الفهرس

الموضوع	صفحة

تحذير هام

(تم بحمد الله وحسن توفيقه)

رقم الإيداع ٨٠/٤٧٧٠

الترقيم الدولى ٥ - ٩٣٤ - ٢٠١ - ٩٧٧

